الحفرة
رواية عالمية

الكساندر كوبرين
ترجمة: عدنان جاموس

***

الكاتب وروايته «الحفرة»

الكساندر ايفانوفتش كوبرين (١٨٧٠ -١٩٣٨) من أكبر الكتاب الواقعيين الروس فـي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ولد الكاتب فـي مدينة ناروفتشات فـي أسرة موظف صغير. وقد مات أبوه قبل أن يتجاوز الثانية من عمره، فاضطرت أمه إلى الانتقال للسكنى فـي «بيت الأرامل» فـي موسكو، وعندما بلغ الطفل السابعة أدخل إلى «دار الأيتام»، وفـي عام ١٨٨٠ بدأ الدراسة فـي المدرسة العسكرية، ثم تخرج منها إلى الكلية الحربية. وقد خلّف النظام القاسي الفارغ من المعنى الذي كان سائداً آنذاك فـي حياة المدارس والمعاهد الداخلية آثاره البالغة فـي نفسية الفتى. فالصرامة فـي كبت المواهب، والعقاب الجسدي، وشراسة العوانس المشرفات على الصفوف، والعمل بكل الوسائل لغرس احترام الرؤساء فـي نفوس المرؤوسين، وتشجيع التلصص والوشاية بين الطلاب الخ... كل هذا ساعد على التعمق فـي تأمل الذات، وشَحْذ المشاعر، وتطوير ملكة التخيل، والميل إلى الحلم لدى كاتبنا اليافع، ولم تتمكن الأساليب «التربوية» المشوهة من إطفاء جذوة الصبوة إلى معرفة الحقيقة فـي نفس الفتى الذي شُغف منذ صباه بأشعار بوشكين وليرمونتوف وبيرانجيه وهايني التي تتغنى بالحرية وتمجدها. وأخذ يكتب مقطوعات شعرية منذ أن كان تلميذاً، ولكنه ما لبث أن تحول إلى كتابة القصة. ونشر أول أقصوصة له فـي عام ١٨٨٩ وهو طالب فـي الكلية الحربية، وكان جزاؤه على ذلك الاعتقال، لأن طلاب الكليات العسكرية لم يكن يسمح لهم بالنشر.

وبعد تخرجه من الكلية خدم فـي الجيش القيصري برتبة ملازم، ثم استقال فـي عام ١٨٩٤، وأخذ يجول فـي روسيا طولاً وعرضًا طلبًا للرزق والمعرفة. وقد زاول فـي أثناء ذلك أعمالاً عديدة: عمل حمالاً، ووكيلاً لأحد ملاّكي الأراضي، وموظفًا فـي مصنع، ومغنياً فـي جوقة، ومسّاحاً للأراضي، وممثلاً فـي مسرح ريفي، وتعلم مداواة الأسنان، ومارس عدداً من المهن الأخرى. وقد نشر بعض كتاباته فـي الصحف خلال عامي (١٨٩٣-١٨٩٤). وبعد تجوال طويل فـي أنحاء البلاد استقر فـي كييف، وانصرف إلى العمل الصحفي مما وسع أفقه الفكري ونمّى مهاراته الكتابية، وكشف عن موهبته الإبداعية الكبيرة. وقد أبدى كوبرين منذ شبابه عناية بالتحليل النفسي الدقيق. ويتبدّى هذا بوضوح فـي عدد من أقاصيصه ووصفياته المبكرة. وتمتاز وصفياته الصحفية التي كان يكتبها آنذاك بالتغلب على التصوير الفوتوغرافي الذي كانت تتسم به تحقيقات أغلبية المراسلين الصحفيين. وقد جمع هذه النصوص فيما بعد وأصدرها فـي مجموعة بعنوان: «نماذج من كييف»، وقدم لها بقوله: «فـي هذه الوصفيات لن يجد القارئ أية صورة فوتوغرافية، على الرغم من أن كل ملمح فيها مرسوم بعناية من الواقع».

وقد عمل كوبرين موظفًا فـي شركة مساهمة روسية – بلجيكية فـي محافظة فولينسك الأوكرانية مما أتاح له الاطلاع على حياة عمال التعدين والمناجم فـي «الدونباس»، ودراسة ظروف معيشتهم وطباعهم ونفسياتهم، وأفاده ذلك كثيرًا فـي كتابة قصة «مولوخ» (أو «مُلْك» كما ترجمت إلى العربية) التي صدرت عام ١٨٩٦، وهي من أهم الأعمال الأدبية التي صوّرت مصير البلاد السائرة فـي طريق الرأسمالية،

وكان صدورها واقعة هامة فـي أدب التسعينيات فـي روسيا. ثم أصدر فـي عام ١٨٩٨ قصته الرائعة «أوليسيا» المفعمة بالمشاعر الإنسانية. وهو يتغنى فيها بحياة الناس الذين يعيشون فـي أحضان الطبيعة بعيداً عن مفاسد المدنية البرجوازية.

وكان لتعرّفه فـي تلك الآونة إلى أنطون تشيخوف أثر كبير فـي حياته وأدبه. وكان تشيخوف يقدر موهبة كوبرين، وقدرته على أن يرى ما حوله بوضوح، ودخوله فـي غمار حياة الناس، وفضحه عيوبها بجرأة، وقد أخذ يتبادل معه الرسائل والآراء حول الاضطرابات الطلابية وشؤون «المسرح الفني الموسكوفي» الذي كان فـي بداية طريقه، وحول عروض مسرحيات تشيخوف فيه وفـي سواه. وكان تشيخوف يبدي آراءه فـي قصص كوبرين، ويتعاطف بحرارة مع أحداث حياته. وقد ساعده على الانتقال إلى بطرسبورغ (فـي خريف عام ١٩٠١) وعرّفه إلى الناشرين هناك. وكان لانتقال الكاتب إلى العاصمة أثر كبير فـي حياته ونشاطه الأدبي، حيث تقارب مع كتاب المعسكر الديمقراطي، ولم يعد يعيش حياة أديب الأقاليم المعزول عن «الأدب الكبير»، بل أصبح يعيش فـي قلب الحياة الأدبية، ويتحسس نبضها الحي، وأخذت أعماله تظهر فـي صحف العاصمة، وتلفت إليها الأنظار بقوة.

ومما كان له أثر كبير فـي إبداع كوبرين تعرّفه أيضًا إلى مكسيم غوركي عام ١٨٩٩ فـي دارة تشيخوف فـي يالطا.

وكانت بداية العقد الأول من القرن العشرين حقبة ذات أهمية كبرى فـي مسيرة كوبرين الإبداعية. فإلى جانب التشجيع الذي كان يلقاه من تشيخوف وغوركي تلقى رد فعلٍ إيجابياً على أقصوصته «فـي السيرك» من عبقري الأدب الروسي «ليف تولستوي»، الذي طلب من تشيخوف أن يرسل له مجموعة أقاصيص كوبرين المسماة «منمنمات». وبعد اطّلاعه عليها بمدة وجيزة تم لقاؤهما أول مرة، وخلّف هذا اللقاء انطباعاً لا يمّحي فـي نفس الكاتب الشاب. وقد كتب كوبرين فيما بعد بهذا الصدد: «...لقد أدركت فـي تلك الدقائق المعدودة أن من أكثر الأفكار إبهاجاً وبهاءً فكرة أنني أعيش فـي الوقت الذي يعيش فيه هذا الإنسان المدهش». كما حاز كوبرين بدوره إعجاب الكاتب العظيم الذي ما انفك يتابع إبداعاته ويمتدح بعضها بحرارة.

وفـي سنوات نضج الثورة الروسية الأولى وقف كوبرين كل قواه الإبداعية على العمل فـي كتابة روايته الكبرى «المبارزة» التي كان قد بدأها عام ١٩٠٣ . وفـي هذه الحقبة بالذات قدم له غوركي دعماً معنوياً كبيراً. وقد كتب كوبرين عن ذلك فيما بعد يقول: «كان لدعم أ.م.غوركي الرفاقي لي فـي مجال الأدب أبلغ الأثر فـي نفسي. لقد كان يحسن اختيار اللحظة التي يقدم فيها الدعم ويستنهض الهمة. أذكر أننـي عزفت عن الاستمرار فـي كتابة «المبارزة»» مرات عديدة، وكان يبدو لي أن ما اكتبه لا يتسم بالقدر الكافي من الألق. ولكن عندما قرأ غوركي الفصول التي كتبتها اندفع يبدي إعجابه الشديد بها، حتى إن الدمع ترقرق فـي عينيه. ولو أنه لم يبث فـي نفسي الثقة فيما أكتب لما كنت، على ما أظن، أكملت الرواية».

كما ساعده غوركي أيضاً فـي نشرها بسرعة، فالوقت الذي أصبحت فيه القصة جاهزة للنشر كان عصيباً جداً على روسيا القيصرية التي كانت تخوض حرباً خاسرة ضد اليابان، والظروف لم تكن مواتية لنشر مثل هذا العمل الذي وجه فيه كوبرين ضربة قاصمة ونقداً قاسياً لا لظروف الحياة العسكرية الروسية فحسب، بل لمجمل النظام القيصري فـي روسيا آنذاك. وقد دفعت هذه القصة بكوبرين إلى الصفوف الأولى فـي مضمار الأدب. وكانت تحمل سمة التقارب الوثيق بينه وبين غوركي. وقد كتب له يقول بعد نشرها: «الآن، أخيراً، وبعد أن انتهى كل شيء أستطيع أن أقول لك إن كل الجرأة والعنوان اللذين فـي قصتي مستلهمان منك. ليتك تعرف كم تعلمت منك. وإلى أي حد أقرّ لك بالجميل....»، وعلى الرغم من أن سنوات الثورة الأولى (١٩٠٥ – ١٩٠٧) كانت هي الحقبة التي وصل فيها نهوض الكاتب الفكري والاجتماعي إلى قمته، فإن تلمساته واجتهاداته الفكرية ظلت تتسم بالتناقض. وبعد إخفاق الثورة وانحسار المد الثوري فـي أواخر العقد الأول من القرن العشرين دفع كثيرون من كتاب المعسكر الديمقراطي ضريبة الأمزجة الرجعية والأجواء السوداء التي سادت آنذاك، وانتقل بعضهم إلى معسكر الخصم. ولكن كوبرين ظل مخلصاً لمبادئ الإنسانية والديمقراطية على الرغم من أن الجوانب الضعيفة فـي نظرته إلى العالم أخذت تزداد وضوحاً.

وقد بدأ كوبرين بكتابة روايته «الحفرة» فـي عام ١٩٠٨، إلاَّ أنه لم ينهها إلاَّ فـي عام ١٩١٥. وخلال هذه الحقبة بالذات انعكس موضوع الحب فـي مؤلفاته بشكل واضح ومتكامل، ولاسيما فـي قصته الرائعة «سوار العقيق» المكرسة للحديث عن الحب النقي السامي. وقد جاء هذا التغني الشاعري بالحب كاحتجاج خفي على ابتذال المشاعر العاطفية وامتهان المرأة اللذين كانا يُستشفّان من أعمال بعض معاصريه.

ولكن فيما كان الكاتب ينتقد مظاهر المدنية البرجوازية الفاسدة ويستنكرها كان فـي الوقت نفسه يميل إلى نفي ما يرفع الإنسان فوق الحيوان. فهو فـي قصته الخيالية «روح العصر» يعبر على لسان أحد أبطاله عن وجهة نظره الخاصة قائلاً: «... كل آلام البشر تنبع من أنهم يبتعدون أكثر فأكثر عن الحيوانات. لقد فقدنا جمالها الطبيعي، ورشاقتها، وقوتها، وبراعتها، وصمودها فـي الصراع مع الطبيعة، وقدرتها على الحياة. والأسوأ من هذا كله أن الوعي قد قتل الغرائز لدى البشر». وهنا بالذات يقترب كوبرين، فـي نظرته إلى الطبيعة، واستنكاره للمدنية التي تشوه روح الإنسان، من تولستوي، وها هو فـي مقاله «تبرئتنا» التي كتبها لمناسبة رحيل الكاتب العظيم يبرز ما هو طابعي ومميز لإبداع تولستوي ولإبداعه هو أيضًا: «لقد أرانا، نحن العميان الملمين، مدى روعة الأرض والسماء والبشر والوحوش، وقال لنا، نحن الذين لا نثق بشيء، ونظن بكل شيء، إن كل إنسان يمكنه أن يكون طيباً وشفوقاً وظريفاً وجميلاً بروحه».

ويرتبط بهذه السمة فـي طبع كوبرين اهتمامُه بعالم الحيوان الذي كرس له عددًا من قصصه، مثل: «زمرد» و«البودل الأبيض» و«سعادة كلب» و«نزهة فيل» و«الدببة» و«باربروس وجولكا».

وفـي هذه الحقبة يجول كوبرين في مختلف أرجاء روسيا الكبرى متعرفًا على الناس والبيئات، وعلى مختلف نواحي الحياة فـي وطنه، ثم يقوم فـي عام ١٩١٢ بجولة فـي إيطاليا وفرنسا، ويطلّع هناك على حياة الناس من مختلف الفئات والمهن والطباع، ويكتب وصفيات عن انطباعاته وآرائه فيما يرى ويسمع ويحس.

وخلال رحلاته فـي وطنه والخارج يحاول أن يجرب كل شيء، فيطير فـي منطاد مع أول طيار روسي، وفـي طائرة بدائية مع أحد الطيارين الهواة، ويبدي اهتماماً شديداً بالسيرك وممثليه، ويكتب فـي الكثير من أقاصيصه عن حياة السيرك.

وقد شارك كوبرين فـي الحرب العالمية الأولى بصفته قائدًا لمفرزة احتياطية، ثم سُرّح من الخدمة فـي أيار ١٩١٥ لأسباب صحية.
وخلال ثورة شباط عام ١٩١٧ كان يميل إلى التحالف مع حزب الاشتراكيين الثوريين، وقد عمل بعض الوقت فـي هيئة تحرير صحيفتهم «روسيا الحرة».
أما موقفه من ثورة أكتوبر فقد كان يتسم بالازدواجية. ففي الأعوام الأولى بعد الثورة شارك بفعالية فـي حياة البلاد الثقافية، وعمل، بمبادرة من غوركي، فـي دار نشر «الأدب العالمي» التقدمية، وترجم فـي تلك الآونة مأساة «دون كارلوس» للشاعر الألماني شيلر، وطفق يلقي محاضرات فـي كلية الصحافة، واقترح إصدار صحيفة للفلاحين، ولكنه فـي الوقت ذاته كان يبدي نفوره الشديد من أشكال الصراع العنيفة، ويرى أن الشعب غير مستعد للثورة بعد بسبب تخلفه. وفـي عام ١٩١٩ هاجر إلى استونيا، ثم إلى فنلندا، واستقر أخيرًا فـي باريس فـي حزيران عام ١٩٢٠. وظل هناك يغالب الحنين إلى الوطن حتى عام ١٩٣٧. ثم عاد إلى موسكو وكله أمل وعزم على أن يشارك شعبه فـي بناء حياته الجديدة، ولكن الموت عاجله فـي ٢٥ آب عام ١٩٣٨ وحال بينه وبين تحقيق نيّاته الإبداعية.

***

كوبرين كابت أصيل ذو أسلوب إبداعي متفرد، وتتميز تكوينات أعماله بالتوازن بين العناصر السردية والوصفية، والمعيشية والنفسية. وهو من أمهر الكتاب فـي رسم الشخصيات من الداخل والخارج، فهو يتعمق فـي تحليل النفسيات ويبدع فـي وصف الوجوه والسَّمت الخارجي، كما أنه ينتقي لغات شخصياته ولهجاتهم بعناية فائقة. ومن السمات الطابعية التي تميز إبداعه أنه لم يكن يبني الأحدوثة[1] فـي أعماله على أساس الحبكة الخارجية للوقائع، بل على أساس التصادم الداخلي والصراع النفسي الذي يغدو بدوره منطلقاً لإنشاء مسارات أحدوثية حادة.

وكانت تتملكه رغبة قاهرة فـي تعرّف كل وجوه الحياة ومناحيها، وفـي النفاذ إلى خفايا كل ظاهرة اجتماعية، سويةً كانت أو شاذة، كان يريد أن يحيط بحقيقة كل ما يراه ويسمع عنه، وأن يدرس ويعي كيف يعيش ويعمل الناس، أياً كانت المهنة التي يمارسونها، أو المجال الذي ينشطون فيه. ولم يكن يحتمل أي اجتزاء أو ابتسار فـي معرفة الواقع الروسي. وكان يشعر بتعاسة عميقة إذا اكتشف فجأة أنه يجهل إحدى التفصيلات المعيشية فـي حياة فئة اجتماعية ما أو مزاولي إحدى المهن فـي المجتمع الروسي. ولم يكن يحجم عن بذل أية تضحية تتطلبها معرفةُ خصوصية أيٍّ من مجالات النشاط الإنساني.

[1] مصطلح مقترح لما يسمى عادة «تسلسل الأحداث» أو «الحكاية» أو «الحدوتة»(المترجم).

ومما يُروى في هذا الصدد أن أحد المحررين الصحفيين عرّفه في أوديسا عام ١٩٠٢ إلى قائد فوج الإطفاء في المدينة، وقد استغل كوبرين هذا التعارف عندما شب حريق كبير في مركز المدينة، فارتدى ملابس رجل الإطفاء، واعتمر القبعة النحاسية، واقتحم مع رجال الإطفاء ألسنة اللهب وسحب الدخان وظل يعمل معهم في إخماد الحريق حتى الصباح.

ولعل أصدق ما يمكن أن ننعته به في هذا المجال ما قاله هو نفسه عن الكاتب الإنكليزي المعروف جوزيف ريديارد كيبلينغ: «كان يعرف أدق السمات المعيشية في حياة الضباط، والموظفين والجنود، والأطباء، ومسّاحي الأراضي، والبحارة؛ وكان يحيط بأعقد التفاصيل في مئات الحرف والمهن اليدوية؛ وكان يدرك كل الدقائق في أية لعبة رياضية. إنه يذهلك بمعارفه العلمية والتقنية، ولكنه لا يتعبك البتة بحمْله الضخم هذا. فهو يستفيد منه ببراعة فائقة، ولا يستخدمه إلاَّ بالقدر الذي يجعلك مستعداً لأن تصدق أن كيبلينغ نفسه قد اصطاد سمك المورة مع الصيادين في شمالي المحيط الأطلسي، وخدم في المنارة، وعانى من الحمى الهندية القاسية... وبنى الجسور وقاد القطارات الخ... الخ... وفي قوة الإقناع هذا يكمن أحد أسرار الجاذبية المذهلة التي تتسم بها قصصه، وأحد أسباب شهرته الفائقة التي يستحقها».

وقد حبت الطبيعة كوبرين بحدة بالغة فـي حواسه جميعاً، فبصره كان ثاقباً نفاذاً يميز أدق التدرجات اللونية والفروق الطفيفة فـي الأنوار والظلال، ويمنحه القدرة على التمتع بالتنوع العجيب المبهج فـي الطبيعة، ويزوده بذخيرة لا تنضب من الملاحظات الدقيقة التـي كان يفخر بها ويعدها ثروة لا تقدر بثمن. وكان من الممتع للمرء أن يشهد «مبارزاته» المتكررة مع الكاتب سيرغييف – تسينسكي حول تغير ألوان الظلال على الثلج ليلاً فـي ضوء القمر، ونهاراً تحت أشعة الشمس.

وكانت حاسة الشم لديه كما لدى بعض الوحوش التي تعتمد على هذه الحاسة بالذات فـي معاشها، ولم يكن أحد من الكتاب ينافسه فـي دقة وصفه للروائح سوى إيفان بونين، وكان من أطرف ما تشهده مجالس معارفهما من الأدباء تلك المباريات الساخنة المرحة التي كانت تجري بينهما فـي هذا المضمار، عندما كان أحدهما يتحدى الآخر فـي أن يأتي بوصف أدق من وصفه لرائحة كنيسة كاثوليكية عند أداء صلاة الفصح، على سبيل المثال، أو رائحة حلبة السيرك، أو رائحة ردهة نادي الضباط المزدحمة بالنساء المتزينات قبل بداية حفلة راقصة، أو رائحة مياه البحر المرتطمة بصخور الشاطئ الخ... الخ...

كما كان كوبرين يتمتع بحاسة سمع شديدة الرهافة وذاكرة سمعية نادرة المثال تزوّدان موهبته الإبداعية بقدرة مدهشة على التقاط الأصوات البشرية بمختلف تنوعاتها وتلوناتها وتدرجاتها، وعلى التمييز بين مختلف اللهجات والخصوصيات الصوتية الفئوية والبيئية، وعلى استعادة كل هذا من الذاكرة ووصفه فنياً عند تصوير الشخصيات النموذجية فـي قصصه ورواياته.

***

بدأ كوبرين بجمع المادة الأولية لروايته «الحفرة» منذ أواسط التسعينيات فـي مدينة كييف. وقال فـي حديث له مع مراسل إحدى الصحف الصادرة في مدينة كييف و التي كانت قد ادعت أن الشخصيات فـي الرواية تجسد أشخاصاً حقيقيين يعيشون فـي كييف: «إن الشخصيات التي صورتها ليست نُسَخاً دقيقة عن أشخاص حقيقيين. صحيح أنني التقطت كثيراً من التفاصيل المفردة من الحياة لتجسيد نفسيات الأبطال فـي القصة. ولكن هذا ليس نَسْخَاً. فأنا أحتقر النَسْخ».

وأشار فـي الحديث المذكور إلى أن الظواهر التي صورها لا تقتصر على واقع مدينة كييف؛ «فالحفرة هي أوديسا، وهي بطرسبورغ، وهي كييف».

ويمكن التأكيد، على سبيل المثال، أن شخصية سيمون غوريزونت مرتبطة، دون شك، بمدينة أوديسا، حيث كانت الصحف فـي تلك السنوات غالباً ما تتحدث عن أمثال هذه الشخصية من المتاجرين بالسلع الحية. ويؤكد الناقد أ.ايزمايلوف أن مشهد زيارة المغنية روفينسكايا ومرافقيها للمبغى يرتبط بحادثة مشابهة جرت فـي بطرسبورغ.

فـي تشرين الثاني من عام ١٩٠٨ أنهى كوبرين فـي مدينة غاتشينا الفصلين الأول والثاني من الرواية، وفـي كانون الأول من العام نفسه أنهى الفصلين الثالث والرابع. وصرح فـي كانون الثاني عام ١٩٠٩ للناقد ايزمايلوف: «أجد صعوبة فـي العمل. وأصعب ما فـي الأمر عليَّ هو أن الحدث فـي الفصول العشرة الأولى، على سبيل المثال، يجب أن ينحصر ضمن حدود يوم واحد».

ثم انتقل الكاتب بعد ذلك إلى مدينة جيتومير ليتابع الكتابة. وفـي تلك الأثناء كانت الصحافة تنشر الكثير من التحقيقات الواردة من هذه المدينة عن افتضاح أمر «عصابات منظمة» من أصحاب المواخير تقوم «بنقل النساء سراً» إلى الخارج وبيعهن هناك لدول البغاء. ويعتقد بعض النقاد أن هذا الأمر بالذات هو ما دفع كوبرين إلى الإقامة فـي جيتومير آنذاك. ولكنه مالبث أن كتب شاكيًا فـي إحدى رسائله عن أن العمل فـي «الحفرة» يتعثر: «عشرين مرة كتبت ومزقت، ثم كتبت ومزقت، وهذا نادرًا ما يحدث لي». وفـي آذار عام ١٩٠٩، عندما حل موعد تقديم مخطوط الجزء الأول الذي يتألف، حسب الاتفاق، من اثني عشر فصلاً لم يكن كوبرين قد كتب سوى تسعة فصول مما اضطره إلى الإسراع فـي كتابة الفصول المتبقية.

وعندما قُدم المخطوط إلى الرقابة رأى الرقيب الموسكوفي أن «بعض الأماكن يمكن أن تُقدِّم ذريعة ومسوغاً لاعتبارها لا أخلاقية وغير لائقة... كما أن بعض الأماكن تستدعي موقفاً جاداً من مسألة البغاء....». وشملت قائمة «الأماكن المشبوهة» جميع المقاطع التي تتحدث عن تردد أشخاص من «علية» المجتمع البرجوازي وفئة النبلاء على بيوت الدعارة. ولم تسمح الرقابة بنشر القصة إلاَّ بعد مناقشتها ثانية فـي «اجتماع خاص» عقد فـي ٢٥ نيسان عام ١٩٠٩ «حيث لم تجد فـي كتابتها حالة جرمية». وقد أثار نشر الجزء الأول من «الحفرة» اهتماماً استثنائياً فـي الأوساط الأدبية والاجتماعية ولدى سائر القراء.

وكتب بونين لكوبرين فـي ٢٢ أيار عام ١٩٠٩ بهذا الصدد: «.... لا حديث فـي موسكو إلاَّ عن «الحفرة»...». وتتالت المقالات التي تتناول القصة بالتحليل والتقويم فـي جميع الصحف والمطبوعات الدورية. وذهب ايزمايلوف إلى أنه لم يظهر منذ صدور «سوناتا كريتسير» لتولستوي أي عمل آخر يتناول آفات الحياة المرعبة بمثل هذه الجرأة، وأنَّ «الكاتب الروسي المتجسد بشخص كوبرين شنَّ هجومه على شيطان الكذب، وشيطان الشبق، وشيطان الجشع المقيت»، و«فَضَحَ ما يحاول المنافقون والنفعيون المغرضون أن يخفوه عن العيون. وكَشَفَ النقاب عن البشاعة المقززة التي يموهونها بالمساحيق والأصباغ، وعن الخطر المرعب الذي يتفادون الحديث عنه بحجة حماية الأخلاق الاجتماعية، فيقوضون بمداراتهم هذه الأسس التي ينبغي أن تقوم عليها صروح هذه الأخلاق». ورأى محرر مجلة «الصديق» أن «الحفرة» تنطوي على «تحذير خطير للآباء والمراهقين». وأكد الناقد ومؤرخ الأدب ب.كوغان أن لا أحد قبل كوبرين «حاول أن يتتبع كل لحظة فـي حياة هذه المحالّ، ويصورها يومًا بيوم، وساعة بساعة».

بينما وجد بعض النقّاد فـي القصة ميلاً نحو الوصف «الطبيعي» للحياة فـي بيوت الدعارة. وتعرضت القصة لهجوم كاسح من جانب الصحافة الممالئة للسلطة القيصرية. كما أن الانطباع الذي خرج به ليف تولستوي بعد قراءته الفصول الأولى من القصة كان سلبياً، وقد ذهب إلى أن هذا «.... قذارة... لا لزوم لها....».

وبعد أن أنجز كوبرين الجزء الأول عكف مباشرة على كتابة الجزء الثاني الذي يجب أن يكون، كما كتب فـي إحدى رسائله إلى بونين فـي حزيران عام ١٩٠٩: «دون مواعظ» و«مذهلاً بصراحته». ولكن ظروف الحياة لم تسمح له بالانقطاع التام إلى الكتابة.

وفـي ٢٦ شباط عام ١٩١٠ قرر الكاتب الانتقال إلى موسكو والانصراف كلياً إلى العمل فـي كتابة «الحفرة» ولكنه ما لبث أن عاد فـي آذار إلى أوديسا دون أن يكتب فـي موسكو شيئاً لكثرة المشاغل التي تناهبت الوقت كله. وفـي نيسان من العام ذاته حاول مرة أخرى العودة إلى العمل فـي إكمال الرواية ولكنه لم يجد فـي نفسه الرغبة الملهمة. وقد كتب فـي إحدى رسائله:«شددت نفسي من شعري وجلست إلى الطاولة، ورحت أكمل حَفْر «الحفرة» بقرف».
وكان يعيد أسباب حالته النفسية تلك إلى مواقف بعض النقاد السلبية، وتدفق سيل من الرسائل المغفلة التي تتهم القصة بالإباحية والتأثير السيئ فـي الناشئة الخ...
وقد تساءل الكاتب بمرارة فـي سياق حديث أدلى به لصحيفة أوديسية: «كيف يمكن إطلاق استنتاجات متسرعة على هذا النحو حول عمل لم يكتمل بعد؟!..» ونشر كوبرين فـي تلك الأثناء عدداً من الأقاصيص والمقالات. ثم انصرف بشغف فـي صيف عام ١٩١٠ إلى كتابة قصة «سوار العقيق» وأنهاها فـي خريف العام نفسه، وصدرت القصة فـي عام ١٩١١. وعاد فـي العام المذكور إلى كتابة «الحفرة» ولكن على نحو متقطع، إذ انشغل آنذاك بإعداد مؤلفاته الكاملة للنشر. وفـي الربع الأول من عام ١٩١٢ سافر إلى الخارج، وعند عودته إلى الوطن عكف على كتابة سلسلة من الوصفيات تحت عنوان «الشواطئ اللازوردية».

وفـي نهاية عام ١٩١٢ ظهر فـي صحف بطرسبورغ نبأ مثير يقول إن الروائي إيبوليت رابغوف (الكونت أموري) المشهور برواياته الرخيصة التي يصور فيها بعض مظاهر حياة «المجتمع الراقي»، ويدور معظم أحداثها فـي غرف النوم، قد أكمل رواية «الحفرة» بدلاً من كوبرين. وعلى الرغم من الاحتجاجات العنيفة التي أعلنها الكاتب، والمقالات الساخطة التي نشرتها الصحافة التقدمية، خرجت التتمة المزيفة لقصة «الحفرة» إلى النور مكتوبة بقلم الكونت أموري. وقد ضمّنها كاتبها كل المشاهد التي كان كوبرين يرويها لأصدقائه الكتاب فـي أوقات مختلفة. وعلّق كوبرين على هذا بقوله: «الآن فقط أدركت لِمَ ينبغي على الكاتب الامتناع عن إعلان خططه حول عمل له لم يكتمل بعد»، واعترف بأن هذه الحادثة الفاضحة قد «حثته» على العمل بجد لإنهاء روايته.

وبالفعل انكب كوبرين على الكتابة طوال عام ١٩١٣. وفـي كانون الأول من العام المذكور انتقل من مدينة غاتشينا إلى موسكو عاقدًا العزم على البقاء فيها حتى إنجاز الرواية بكاملها. وفـي ربيع عام ١٩١٤ سلم الناشر الفصول الأخيرة منها.

واعترضت الرقابة على الجزء الثاني، ولاسيما المشاهد التي تصور ممثلي «علية» المجتمع، والمقاطع التي تصف مواخير نصف الروبل وسادية بعض «الزوار»، ولم يسمح النائب العام بنشر تتمة الرواية إلاَّ بعد نصف عام من الجهود التي بذلها الناشر، والمساعي التي قامت بها الأوساط الأدبية والاجتماعية والتقدمية.

وقد أثنى الكاتب والناقد المعروف كورني تشويكوفسكي على تتمة «الحفرة» وكتب عنها بإعجاب قائلاً: «هذه ليست تلك «الحفرة» التي قرأناها منذ بضع سنوات.

ففي «الحفرة» السابقة جرت الأحداث كلها فـي زقاق واحد، أما فـي «هذه» فإن الكاتب يذهب بنا إلى ألف مكان: فمن مقهى الأغاني إلى المقبرة، ومن قاعة الموتى إلى دار اللهو، ومن قسم الشرطة إلى صوامع الطلاب، وعبر هذه الزحمة المزركشة من الأشخاص والأحداث يتراءى لنا موضوع مهيمن واحد، ويشيع إحساس طاغ واحد.... وكل شخصية فـي العمل نراها مجسدة بملامح بارزة نكاد نلمسها باليد، ولذا فهي تمس شغاف القلب. كيربيش، وسونيا المقود، وآنا ماكروفنا... وإيما، وسيمون غوريزونت، كل واحد من هؤلاء قد صُوّر على نحو يجعلني أتعرفه مباشرة إذا صادفته فـي الشارع، وأميزه حتى ولو كان وسط حشد من الناس».

إلاَّ أنَّ بعض النقاد، على الرغم من تقويمهم العالي لأهمية الرواية وتقديرهم لخطورة الظاهرة التي تتناولها والعيوب الاجتماعية التي تكشف عنها بجرأة وصدق، رأوا فيها بعض نقاط الضعف التي تتمثل فـي نظرة الكاتب إلى البغاء كإفراز طبيعي من إفرازات المدينة، وإلى المومسات كضحايا «للشهوة الاجتماعية» الجامحة، وهو على الرغم من نقده الحاد للـ«حب» البرجوازي المرائي ولحامليه: «آباء العائلات»، نراه يضفي برومانتيكية لا مبرر لها بعض الصفات المثالية على المومس، ويشكك فـي جدوى النضال من أجل تحقيق المثل العليا الإنسانية.

وعلى الرغم من الانتقادات التي انهال بها بعض النقاد على الرواية فقد كان الكاتب يرى أن الجهد الذي بذله فـي كتابتها لم يذهب هدراً، وهو يقول بهذا الصدد: «إنني أؤمن على كل حال بأنني قمت بما كان ينبغي علي القيام به. فالبغاء شر أخطر من الحرب ومن الأوبئة الفتاكة. فالحرب لها نهاية، ولكن البغاء يعيش دهوراً. ويضيف متذكراً تعليق تولستوي: «ربما كان «هذا» قذارة،

ولكن علينا أن ننظف أنفسنا منها»، ولو أنَّ ليف تولستوي كتب بعبقرية الفنان العظيم عن البغاء لكان حقق مأثرة عظيمة، لأن الناس كانوا سيصغون إليه أكثر مما يصغون إلي....».
وقد عاد كوبرين إلى «الحفرة» فـي عام ١٩١٧ عندما كان يعدها للنشر فـي المجلد الثاني عشر من مؤلفاته الكاملة، وأعاد إلى النص كل ما كانت الرقابة قد حذفته فـي الإصدارات السابقة، وأدخل بعض التعديلات الأسلوبية على الجزءين الثاني والثالث.
وتُرجمت «الحفرة» إلى كثير من اللغات، وصدرت فـي طبعات عديدة فـي كل من إنكلترة، وبلغاريا، وألمانيا، وإسبانيا، وبولندا، والولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا، وتشيكوسلوفاكيا، والسويد وبلدان أخرى.
كما حولت الرواية إلى مسرحية وعرضت أكثر من مرة فـي كثير من المسارح الروسية، وأخرجت للسينما فـي فيلم بعنوان «الحفرة». وقال كوبرين بعد مشاهدته الفيلم :«لست أنا من كتب السيناريو، ولكن الأفكار نُقلتْ فيه بشكل جيد. هناك بعض الإطالات فـي السيناريو، وتغيير فـي تسلسل الأحداث، ولكن العبرة المضجرة عن فظاعة «الحب» دون حب، قد قُدّمت بوضوح كاف».
ولاشك فـي أن رواية «الحفرة» كانت وستبقى عملاً إبداعياً فريداً ومتميزاً فـي الأدب العالمي لا من حيث موضوعها فحسب، بل من حيث معالجة الكاتب الإبداعية لهذا الموضوع، والصدق الفني الجريء الذي تميزت به، والتحليل النفسي العميق للشخصيات، والغوص إلى أعماق سرائرهم، والكشف عن جذور الظواهر المحيطة بهم، وتصوير كل ذلك فـي نماذج فنية حية تجمع بين العام والخاص على نحو إبداعي خلاق.

الجزء الأول

أعلم أن كثيرين سيجدون هذه القصة
لا أخلاقية وبذيئة، ومع ذلك فإنني أهديها
من أعماق القلب إلى الأمهات والناشئة

أ.ك

***

منذ عهد بعيد، قبل ظهور الخطوط الحديدية بكثير، استوطنت أجيال متعاقبة من حوذيي مدينة جنوبية كبيرة، رسميين وأحرار، أقصى طرف في المدينة، مما جعل الناس يسمون تلك المنطقة بكاملها «ضاحية الحوذيين»، أو ببساطة الحوذيات، واختصرت الكلمة إلى الحوذية، ثم حورت مع الزمن فأصبحت «الحفرة»[1]. وفيما بعد، عندما قضى القطار البخاري على الجر بالخيول، بدأت عصبة الحوذيين الجسورة تتخلى شيئاً فشيئاً عن طريقة حياتها الصاخبة، وعاداتها الموسومة بالعنفوان، وتحولت إلى مزاولة أعمال أخرى، وانفرط عقدها، وتشتت شملها. ولكن «الحفرة» ظلت سنوات عديدة – ومازالت حتى يومنا هذا – تشتهر بسمعة مريبة كبؤرة للهو والسكر والعربدة، وانعدام الأمن ليلاً.

---

[1] الحوذيون بالروسية يسمَّوْن «يامشيكي» والحفرة «ياما» وتحوير كلمة «يامشيكي» يؤدي في النهاية على ألسن الناس، كما يذكر الكاتب، إلى كلمة «ياما» أي «الحفرة» وهي عنوان القصة. أما تحوير كلمة «الحوذيون» إلى «الحوذية» ومن ثم إلى «الحفرة» فهو من باب التمثيل التقريبي على ما أورده الكاتب بالروسية. «المترجم».

وحدث على نحو تلقائي أنْ بدأت تقوم بالتدريج على أنقاض تلك الأعشاش المسكونة منذ زمن بعيد، حيث كانت زوجات الجنود المرحات البارعات ذوات الخدود الحمر، وأرامل الحوذيين العبلات ذوات الحواجب السود يتاجرن فيما مضى سراً بالفودكا والحب المباح، محالٌ عمومية علنية، ترخص لها السلطات، ويشرف عليها مراقبون رسميون، وتخضع لقواعد صارمة بادية الشدة. وما إن شارف القرن التاسع عشر على نهايته حتى كان كلا شارعي «الحفرة» - الحفراوي الكبير والحفراوي الصغير – مشغولين على كلا جانبيهما ببيوت البغاء، ماعدا خمسة أو ستة بيوت خاصة لا أكثر؛ وحتى هذه أقيمت فيها حانات ودكاكين لبيع الجعة السوداء والمنوعات الصغيرة اللازمة لتلبية احتياجات البغاء في «الحفرة».
كان أسلوب الحياة وقواعد السلوك والعادات واحدة تقريباً في البيوتات الثلاثين ونيف جميعاً، وليس من فرق سوى في مقدار ما يدفعه الزائر لقاء هنيهات الحب القصيرة، ومن ثم في بعض الأمور الصغيرة الظاهرية: كانتقاء نساء أجمل إلى حد ما، وملابس أكثر أناقة نسبياً، وتزويق البناء وفرشه بأثاث فاخر.
وكان أفخم البيوتات هو محل تريبيل – أول بيت إلى الشمال في رأس الشارع الحفراني الكبير. وهو محل قديم، مالكه الحالي له اسم آخر تماماً، وهو الآن نائب في مجلس المدينة، وعضو في هيئة الإدارة أيضاً. وكان البيت يتألف من طابقين، وقد دهن باللونين الأخضر والأبيض، وبني على طرازٍ يبدو محاكاة زائفة عابثة للطراز الروسي القديم على طريقة روبيت بكل ما يحتويه من جذوع مزخرفة في أعلى السطح، وأطر مزينة بنقوش محفورة تحيط بالأبواب والنوافذ، وديوك تتوج الذرا، وحشوات خشبية مستطيلة محاطة بدانتيلا خشبية أيضاً

وقد غطي الدرج بسجادة ذات ممر أبيض، ووضع فـي المدخل دب محنط يحمل بيديه الممدودتين طبقاً خشبياً توضع فيه بطاقات الزيارة، وفرشت صالة الرقص بأرضية خشبية صقيلة، وعلّقت على النوافذ ستائر حريرية ثقيلة قرمزية اللون، وستائر خفيفة من التول، وصُفّت على طول الجدران كراسٍ بيضاء محلاة بطلاء ذهبي، ومرايا ذات أطر مذهبة؛ وثمة غرفتا استقبال مفروشتان بالسجاد، وفيهما أرائك وكراس صغيرة وثيرة منجدة بالأطلس. وفـي غرف النوم مصابيح زرق ووردية، ولحف من التفتة، ووسائد نظيفة. وترتدي النزيلات هنا فساتين رقص مقورة ومزينة بحواشٍ من الفرن، أو حلالاً تنكرية ثمينة يظهرن فيها بزي الفرسان وغلمان البلاط وصيادات السمك وتلميذات المدارس، وأغلبيتهن – وهنّ من المانيات حوض البلطيق – نساء بيضاوات جميلات، ذوات أجسام ضخمة ونهود بارزة، وأجر الزيارة هنا فـي محل تريبل ثلاثة روبلات، أما أجر قضاء الليل بأكمله فعشرة.

وثمّة ثلاثة محالّ يتقاضون فيها روبلين هي محل صوفيا فاسيليفنا، ومحل ستاروكييفسكي، ومحل آنّا ماركوفنا، وهي أسوأ وأفقر بعض الشيء من محل تريبل. وفـي بقية البيوت فـي هذا الشارع يتقاضون روبلاً واحداً والأوضاع فيها أكثر سوءاً. أما فـي الشارع الصغير الذي يرتاده الجنود وصغار اللصوص والحرفيون والدهماء بعامة، وحيث يأخذون لقاء الزيارة الواحدة خمسين كوبيكاً[1] أو أقل، فالبيوت شديدة القذارة والقماءة، الأرضية معوجة، متسلخة، متشظية، والنوافذ مغطاة بقطع من قماش أحمر، وغرف النوم كالمرابط فـي حظيرة لا يفصل بينها سوى حواجز رقيقة لا تبلغ السقف، وقد أُلقيت على الأسرّة كيفما اتفق- فوق فرش محشوة بقش متلبد- شراشفُ مرقطة مجعدة، مهترئة، اسودّ لونها من تقادم العهد، وبطانياتٌ قطنية مخرّقة، الهواء

---

[1] نصف روبل.

هنا فاسد خانق تشوبه أبخرة الكحول ورائحة المفرزات البشرية، والنساء يرتدين ثياباً من الشيت الملوّن الرخيص أو ملابس بحارة، وأكثرهن إمَّا مصابات بالبحة أو بالخنة، قصبات أنوفهن شبه غائرة، ووجوههن التي تبدو عليها آثار الضرب والخدوش من الليلة الفائتة طليت بسذاجة بحمرة علب سكائر بللت باللعاب.
فـي كل أمسية على مدار السنة – ماعدا الأيام الثلاثة الأخيرة من أسبوع الآلام وعشية عيد البشارة «عندما لا ينسج الطير عشه ولا تضفر الصبية المقصوصة الشعر جديلتها» - ما إن يحل الظلام فـي الفناء حتى يُشعل أمام كل بيت فانوس أحمر معلق فوق الرواق الخارجي المسنّم المزيّن بزخارف محفورة، ويبدو الشارع كأنه فـي عيد الفصح: النوافذ كلها تشع بالأنوار، وموسيقا الكمانات والبيانات المرحة تنساب عبر الزجاج، ولا ينفك الحوذيون يجيئون ويذهبون دون انقطاع. الأبواب الخارجية فـي جميع البيوت مفتوحة على مداها، ومن خلالها ترى من الشارع درجاً شديد الانحدار، وممراً ضيقاً فـي الأعلى وبريقاً أبيض منبعثاً من عاكسة مصباح متعددة الوجوه، وجدران ردهة المدخل الخضراء المنقوشة برسوم تصور الطبيعة السويسرية. ومئات وآلاف الرجال يصعدون ويهبطون على هذه الأدراج حتى الصباح. ويأتي إلى هنا أناس من جميع الأصناف: شيوخ شبه مهدمين تسيل ريالتهم، يبحثون عن إثارة اصطناعية، وصبية من تلاميذ المدارس العسكرية والمدارس العامة لم يشبوا بعد عن الطوق، وأرباب أسر ملتحون، ورجالات محترمون من أركان المجتمع يضعون على أعينهم نظارات ذهبية، وشبان متزوجون حديثاً، وخاطبون مغرمون بخطيباتهم، وأساتذة جامعيون مبجلون ذائعو الصيت

ولصوص وقتلة، ومحامون ليبراليون، وحفظة أخلاق صارمون – من مربين وكتاب تقدميين – يُدَبِّجون مقالات مفعمة بالحماسة والاندفاع عن مساواة المرأة بالرجل، ورجال مباحث، وجواسيس، وفارون من سجون الأشغال الشاقة، وضباط، وطلاب، وديمقراطيون–اشتراكيون، وفوضويون، ووطنيون مرتزقة؛ أشخاص خجولون ووقحون، مرضى وأصحاء وأشخاص يتعرفون المرأة أول مرة وفاسقون عريقون أبلاهم التهالك على جميع أنواع الرذيلة؛ ووسيمون رائعون ودميمون شوهتهم الطبيعة بحقد، صم، بكم، عُمْيٌ، جدع، ذوو أجسام رخوة مترهلة وأنفاس نتنة، قرع، رجّافون، أجسامهم مغطاة بالطفيليات – قردة ضخام الكروش مصابون بالبواسير، يأتون بطلاقة وبساطة كأنهم آتون إلى مطعم أو محطة قطار؛ يجلسون ويدخنون ويشربون ويتظاهرون تظاهراً متشنجاً بالمرح، ويرقصون بحركات جسدية مقززة تمثل العملية الجنسية. فـي بعض الأحيان يختارون أية امرأة بتعجل فظ وهم يعرفون سلفاً أنهم لم يُقابَلوا بالرفض البتة. يدفع واحدهم النقود مقدماً بنفاد صبر ويهرع إلى سرير عمومي لم تزايله بعد حرارة جسد سلفه، ليمارس دون هدف أعظم الأسرار فـي العالم وأروعها – سر ميلاد حياة جديدة.

وتستقبله المرأة باستعداد لا مبالٍ، وكلمات رتيبة، وتلبي رغباته بحركات احترافية محفوظة كأنها آلة، كي تستقبل بعده على الفور وفـي الليلة ذاتها وبالكلمات والابتسامات والحركات نفسها رجلاً ثانياً وثالثاً ورابعاً وعاشراً لا يندر أن يكون منتظراً دوره فـي الصالة العامة.

على هذا المنوال ينقضي الليل كله، وعندما يدنو الفجر تشرح «الحفرة» بالهدوء شيئاً فشيئاً، حتى إذا ما انبلج الصبح ألفيتها مقفرة، رحبة، غارقة فـي النوم، أبوابها قد أغلقت بإحكام، ونوافذها سدت بمصاريع صماء. وقبيل المساء تستيقظ النساء ويتأهبن لليلة القادمة.

وهكذا دونما نهاية، يوماً في إثر يوم، طوال شهور وسنين، يعيش أربعمئة من النساء الغبيات الكسولات المهسترات العاقرات، في حريمهن العمومي هذا، حياة غريبة ليست كالحياة، بعد أن لَفظهن المجتمع، ولعنتهن الأسرة، وغدون ضحايا الشهوة الاجتماعية وبلاليع شبق المدينة الفائض، وصائنات الشرف العائلي.
الساعة الثانية بعد الظهر، في محل آنّا ماركوفنا ذي المرتبة الثانية الذي يدفعون فيه روبلين الجميع غارقون في النوم. والصالة الكبيرة المربعة، مع مراياها ذات الأطر المذهبة وكراسيها العشرين المنجدة بنسيج مخملي والمصفوفة بانتظام رصين على طول الجدران، ومع النسختين الملونتين للوحتي ماكاوفسكي[1] الزيتيتين: «مأدبة الأعيان» و«الاستحمام»، ومع الثريا الكريستال المعلقة في الوسط، نائمة هي أيضاً؛ وتبدو للرائي وسط الهدوء وشبه الظلمة مستغرقة في التفكير على غير العادة، وصارمة وحزينة على نحو غريب. فالبارحة، كما في كل مساء، كانت الأنوار هنا تتلألأ، وكانت تصدح موسيقا عنيفة، ويتلوى دخان التبغ الأزرق، ويدور الرجال والنساء مثنى مثنى مطوحين بأرجلهم عالياً في الهواء، وأردافهم تلتف كالزوبعة؛ وكان الشارع كله يشع من الخارج بأنوار الفوانيس الحمراء المعلقة فوق المداخل، وبالضوء المنبعث من النوافذ، وقد ظل حتى الصباح يعج بالناس والعربات.

---

[1] ماكوفسكي قسطنطين يغوروفتش ١٨٣٩ – ١٩١٥ رسام روسي، والتسميتان الصحيحتان للوحتين المذكورتين هما: «وليمة عرس عند الأعيان» و«عرائس البحر» (الناشر).

أما الآن، فالشارع مقفر، وهو يتألق بمهابة وابتهاج فـي بريق شمس الصيف، بيد أن الستائر كلها فـي الصالة مسدلة ولذا تسود فيها العتمة والبرودة وإحساس حاد بالخواء، كالإحساس الذي ينتاب المرء وسط النهار فـي المسارح أو حلبات السيرك أو مباني المحاكم الخالية من الناس.

البيانو يلمع ببريق كابٍ من جانبه الأسود الصقيل المحني، وينبعث ضوء باهت من ملامسه الصفراء القديمة المكسرة، المثلمة، المتآكلة بفعل الزمن، ومازال الهواء الفاسد الساكن مشبعاً بروائح البارحة: العطور، والتبغ، والرطوبة الحامضة لغرفة كبيرة لا يعيش فيها أحد، وعرق أجساد أنثوية غير معافاة وغير نظيفة، والبودرة، وصابون البوريك الثيمولي، والغبار المنبعث من الراتنج الأصفر الذي لمعوا به الأرضية أمس، وتختلط بهذه الروائح كلها بفتنة غريبة رائحة أعشاب مستنقعية ذابلة، اليوم عيد العنصرة. وقد ذهبت خادمات الغرف في المحل إلى السوق منذ الصباح الباكر، قبل استيقاظ سيداتهن، حسب العادة القديمة، واشترين حملاً كاملاً من نبات السُّعادى، ونثرن أوراقه الطويلة الثخينة التي تطقطق تحت الأقدام في كل مكان: فـي الممرات، وغرف الاستقبال، والصالة. كما أشعلن القناديل أمام الإيقونات. فالنساء هنا لا يجرؤن، بحكم التقاليد، على فعل هذا بأيديهن التي تنجست خلال الليل.

وزيّن البواب بشجرتي بتولا المدخل المزخرف بنقوش محفورة على الطريقة الروسية. وكانت تتراءى من الخارج فـي سائر البيوت، قرب الأروقة والدربزينات والأبواب، جذوع رقيقة بيضاء ذات خضرة ذاوية تحتضر.

البيت كله يسوده الهدوء والخواء والنوم، ولا يسمع فيه سوى صوت تقطيع اللحم في المطبخ لإعداد الغداء. إحدى الفتيات، واسمها لوبكا، وهي غير جميلة، يشوب بشرتها النمش، ولكنها ذات بنية متينة وجسد طازج، خرجت إلى الباحة الداخلية بقميص النوم، حافية القدمين، عارية الذراعين. لم يزرها مساء أمس سوى ستة ضيوف عابرين، ولم يبتْ عندها منهم أحد، ولذا فقد نامت ملء جفنيها نوماً هانئاً، متنعمة وحدها في سرير عريض لا يشاركها فيه أحد. استيقظت باكراً، في الساعة العاشرة، وأقبلت بسرور على مساعدة الطاهية في شطف أرضية المطبخ وتنظيف المناضد. وهي الآن تطعم الكلب آمور المقيد بسلسلة عروق اللحم وبقاياه؛ والكلب الأحمر الضخم ذو الشعر الطويل اللامع والوجه الأسود يثب حيناً على الفتاة بمقدمتيه جاذباً السلسلة بشدة حتى بح صوته من الاختناق، ويحني رأسه إلى الأرض حيناً آخر وهو يهز ظهره وذيله، ويغضن خطمه، ويبتسم، ويوعوع، ويعطس من شدة التهيج، فيما هي تستثيره باللحم وتصرخ فيه بصرامة متصنعة.

- ايه، أنت، يا غبي! سأريك! كيف تجرؤ؟!

كانت مسرورة من أعماق قلبها بتهييج آمور ومداعبته وفرض سلطتها القصيرة الأمد عليه، وبأنها نامت ملء جفنيها، وقضت الليل دون رجل، ومبتهجة بعيد العنصرة الذي يعيد إليها ذكريات غائمة عن الطفولة، وبالنهار المشمس الساطع المتلألئ الذي قلما تتسنى لها مشاهدته.

جميع زوار الليل قد انصرفوا، وحلت أكثر ساعات اليوم هدوءاً ورتابة واهتماماً بالشؤون العملية.

فـي غرفة صاحبة البيت جلس خمسة أشخاص يحتسون القهوة: صاحبة البيت نفسها التي سجل المحل باسمها: آنا ماركوفنا، وهي امرأة تناهز الستين، قصيرة القامة جداً، ولكنها سمينة ومكورة، ويمكننا تصورها إذا ما تخيلنا ثلاث كرات طرية هلامية: كبيرة فمتوسطة فصغيرة، مرتبة من الأسفل إلى الأعلى ومتداخلة دون فواصل، إنها: تنورتها فجذعها فرأسها. ومن الغريب أن عينيها الزرقاوين الباهتتين تبدوان كعيني صبيّة، بل طفلة، فـي حين أن فمها فم عجوز، وشفتها السفلى ذات اللون التوتي الأدكن مبللة ومتهدلة بضعف واسترخاء.
وزوجها ايساي سافيتش، وهو أيضاً شيخ ضئيل أشيب هادئ صموت. إنه كالخاتم فـي إصبع زوجته، وقد كان يوماً ما يعمل حاجباً فـي هذا البيت، عندما كانت آنا ماركوفنا تعمل هنا مدبرة. ولكي يصبح شخصاً نافعاً فـي أمر ما تعلم بنفسه العزف على الكمان، وبات الآن يعزف فـي الأماسي ألحاناً راقصة، كما يعزف أحياناً لحن الحداد لوكلاء الملاّك الذين أسرفوا فـي الشراب وتملكتهم رغبة مخمورة فـي البكاء.
فـي الغرفة أيضاً مدبرتا المحل: الكبيرة والصغيرة، أولاهما، واسمها **ايما ادواردوفنا**، طويلة القامة، ممتلئة الجسم، بنية الشعر، فـي السادسة والأربعين من عمرها، لها غبب شحمي ذو ثلاث طيات وعيناها محاطتان بدوائر سوداء مصفرة شأن المصاب بالبواسير. وجهها ذو لون ترابي شاحب ويزداد عرضاً من الجبهة نحو الوجنتين حتى يتخذ شكل الكمثرى. وعيناها صغيرتان سوداوان، وأنفها محدب، وشفتاها مزمومتان بصرامة. وتعبر قسمات وجهها عن طبع هادئ متسلط.

ولا يخفى على أحد فـي البيت أن **آنا ماركوفنا** عندما ستخلد إلى الراحة بعد سنة أو سنتين ستبيعها المحل بكل ماله من حقوق ومافيه من أثاث، وستقبض بعض الثمن نقداً، وبعضه تقسيطاً بسندات. ولذلك فإن الفتيات يحترمنها كما يحترمن صاحبة المحل ويتهيبنها. فهي تضرب المذنبات بنفسها، وتضربهن بقسوة وبرود وبقدر محسوب دون أن تغير التعبير الهادئ الذي يرتسم على وجهها. ولابد من أن يكون لها دائماً معشوقة بين الفتيات ترهقها بحبها المتشدد، وبغيرتها الخيالية. ويكون هذا عادة أقسى من الضرب بكثير.

أما المدبرة الثانية فاسمها **زويا**. وقد خرجت قبل مدة قصيرة من بين صفوف الفتيات العاديات، ولا تزال الفتيات حتى الآن يناديها «المدبرة الصغيرة» دون أن يذكرن اسمها، تملقاً وتبسطاً. وهي امرأة نحيلة كثيرة الحركة، فـي عينيها حَوَل طفيف، ووجهها ذو لون وردي، وشعرها ملفوف على شكل حلقات. وهي تحب الممثلين حب عبادة، ولاسيما الكوميديين السمان، وتتزلف إلى إيما ادواردوفنا بخنوع.

أما الشخص الخامس، في الغرفة فهو مفوض الحي **كيربيش**. وهو شخص ذو بنية رياضية، أصلع الرأس، له لحية حمراء على شكل مروحة، وعينان ناعستان شديدتا الزرقة، وصوت رقيق فيه بحة خفيفة محببة. الجميع يعرفون أنه كان سابقاً يخدم فـي قسم المباحث، وكان يوقع الرعب في قلوب اللصوص والمحتالين بفضل قوته الجسدية المخيفة وقسوته فـي الاستجواب. فـي ذمته عدة قضايا مريبة. والمدينة كلها تعرف أنه منذ عامين تزوج عجوزاً فـي السبعين من عمرها

وفـي العام الماضي خنقها، ولكنه استطاع بطريقة ما أن يلفلف القضية، كما أن الأربعة الباقين لا تخلو حياتهم المعقدة من بعض الأمور المريبة. ولكن كما كان هواة المبارزة القدماء لا يشعرون بأي تأنيب ضمير عندما يتذكرون ضحاياهم كذلك فإن هؤلاء الناس ينظرون إلى الأعمال المريبة والدموية فـي ماضيهم على أنها منغصات صغيرة لا مناص منها فـي مهنتهم.

كانوا يحتسون القهوة مع قشدة دسمة مذوّبة، أما المفوض فكان يشربها مع البينيديكتين[1]، ولكنه فـي الحقيقة لم يكن يشرب، بل كان يتظاهر بأنه يصنع معروفاً.

تسأله صاحبة المحل باسترضاء:

- ثم ماذا يا فوما فوميتش؟ هذه القضية أتفه من قشرة بصلة... لا تحتاج سوى إلى كلمة واحدة منك.

يمص كيربيش ببطء نصف كأس من الليكيور، ويدلك برفق السائل القوي الحاد الزيتي القوام بلسانه على جدار حنكه من الداخل ويبتلعه، ثم يحتسي القهوة على مهل، ويمرر بِنْصَر يده الشمال على شاربيه يمينة ويسرة ويقول وهو ينظر إلى المائدة فاتحاً ذراعيه ومضيقاً عينيه:

- تصوري بنفسك يا مدام شويبْس، تصوري مدى الخطر الذي أتعرض له! ورَّطوا البنت وجروها بالخديعة إلى هذا الـ... كيف يسمونه... على كلٍّ، لنقل بيت التسامح كما يعبرون بالأسلوب الرفيع. وأهلها الآن يبحثون عنها عن طريق الشرطة. جيد. والشرطة تنتقل من مكان إلى آخر.. إلى ثالث.. إلى عاشر. وأخيراً ينتهي الأثر عندك، والأهم من هذا – تصوري – فـي منطقتي أنا!

---

[1] نوع من الليكيور (مشروب كحولي حلو الطعم طيب الرائحة).

فماذا أستطيع أن أفعل؟..
تقول صاحبة المحل:
- ولكن البنت يا سيد كيربيش بالغة راشدة.
ويؤكد ايساي سافيتش هذا قائلاً:
- إنها بالغة راشدة، وقد وقعت على وثيقة تقول إنها فعلت ذلك بملء إرادتها...
وتقول **ايما ادواردوفنا** بصوت غليظ وثقة باردة:
- أقسم بالرب إنها هنا كابنتنا التي من لحمنا ودمنا.
- ولكن أنا لا أتحدث عن هذا – يقول المفوض مغضناً وجهه بامتعاض – يجب أن تقدّروا وضعي.. فهذه وظيفة. يا إلهي، أنا من دون هذه القضية عندي من المنغصات ما يكفي!..
تنهض صاحبة المحل فجأة وتسير نحو الباب جارة نعليها على الأرضية وتقول وهي تغمز المفوض بعينها الكسلى غير المعبرة ذات اللون الأزرق الباهت:
- هلاَّ تفضّلت يا سيد كيربيش بإلقاء نظرة على التغييرات التي نحدثها، نريد أن نوسع المبنى قليلاً.
- آ..آ! بكل سرور.
بعد عشر دقائق يعود الاثنان دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، وفي يد كيربيش المدسوسة في جيبه تطقطق ورقة نقد جديدة من فئة المئة روبل. ولا يعود الحاضرون بعد ذلك إلى البنت التي غُرّر بها، يشرب المفوض على عجل ما تبقى في كأسه من البينيديكتين، ويشرع في الشكوى من فساد الأخلاق في هذه الأيام.
- عندي ابني بافل – تلميذ في المدرسة. يأتي إليَّ السافل ويقول: «بابا، التلاميذ يعيرونني بأنك شرطي، وأنك تخدم في حي «الحفرة»، وأنك تقبض رشاوى من المحلات العمومية». قولي لي بالله عليك يا مدام شويبس أليست هذه وقاحة؟..

- آي – ياي – ياي! وأية رشاوى هذه؟ وأنا أيضاً عندي...
- أقول له: «اذهب أيها الوغد، وقل للمدير إن هذا لا يجب أن يتكرر، وإلاَّ فإن بابا سيشي بكم جميعاً إلى مدير الإقليم». وماذا تظنينه فعل؟ جاء إلي يقول: «أنا لم أعد ابنك – ابحث لك عن ابن غيري». منطق! .. لقد عاقبته على ذلك عقاباً صارماً! ثم ماذا! إنه الآن يرفض أن يكلمني. ولكنني سأريه!..
- آخ... – تتنهد آنا ماركوفنا وترخي شفتها السفلى التوتية الدكناء ويترقرق الدمع في عينيها الباهتتين – الحال واحد.. ابنتنا بيرتوتشكا[1] التي سجلناها في مدرسة فليشر تَعمَّدنا أن نبقيها في المدينة لدى أسرة محترمة. وأنت تعرف طبعاً، الوضع هنا محرج. ونفاجأ بأنها تجلب معها من المدرسة ألفاظاً وعبارات أحمرُّ كلي عند سماعها.
ويؤكد ايساي سافيتش:
- اي والله، بنوتشكا[2] تحمرّ كلها.
ويوافق المفوض بحرارة:
- تحمرّين! نعم، نعم، نعم، إنني أفهمك. آه، يا إلهي، إلى أين نحن سائرون! إلى أين، فعلاً، نحن سائرون؟! إنني أسألكم: ما الذي يسعى إليه هؤلاء الثوريون ومختلف هؤلاء الطلاب أو.. كيف يَدْعونهم؟ خَلِّهم لا يلومون إلاَّ أنفسهم. الفسق في كل مكان، والأخلاق تتدهور، ولم يعد هناك احترام للوالدين. يجب إطلاق النار عليهم.

[1] تصغير بيرتا.
[2] تصغير آنّا.

وهنا تتدخل زوسيا بتسرع مضطرب:
- منذ ثلاثة أيام حدث عندنا حادث. جاءنا ضيف... شخص سمين..
بيد أن ايما ادواردوفنا ، التي كانت تصغي إلى المفوض وتهز بخشوع رأسها المحني إلى جانب، تقاطعها بصرامة قائلة باللهجة الدارجة في المحال العمومية:
- لا تشطحي، من الأفضل أن تذهبي للإشراف على إعداد فطور البنات.
وتستأنف صاحبة المحل متذمرة:
- ولا يمكنك الاعتماد على أحد أياً كان. كل الخادمات ساقطات ومخادعات، والبنات لا يفكرن إلاَّ بعشاقهن، ولا يردن الحصول على المتعة إلاَّ معهم، أما واجباتهن فلا تخطر لهن على بال.
يسود صمت محرج. ويدق أحدهم الباب، ويرتفع صوت أنثوي رقيق من الخارج يقول:
- أيتها المدبرة الصغيرة! تعالي اقبضي النقود واعطيني فيشات. بيتيا[1] غادر. ينهض المفوض ويصلح من وضع سيفه.
- حان وقت الذهاب إلى الوظيفة. ودعتك بالخير يا آنا ماركوفنا، وداعاً، يا اساي سافيتش.
- هلاَّ شربتم كأساً أخرى قبل الطريق؟
يقول اساي سافيتش الضعيف البصر وهو يتلمس الطاولة:
- أشكركم. لا أستطيع. شربت كفايتي. اسمحوا لي.
- شكراً لكم على المجالسة. زورونا.
- لي الشرف. إلى اللقاء.

---

[1] تصغير بيوتر.

ولكنه يتوقف عند الباب هنيهة ويقول بلهجة ذات مغزى:
- مع ذلك فإن نصيحتي لكم أن تصرفوا هذه الفتاة إلى مكان ما قبل فوات الأوان. طبعاً، الرأي رأيكم، ولكنني أحذركم كأحد معارفكم المقربين.
ثم يغادر، وعندما يتلاشى وقع أقدامه على الدرج، ويصفق الباب الرئيسي خلفه، تنخر ايما ادواردوفنا بأنفها ، وتقول باحتقار:

- فرعون! يريد أن يقبض نقوداً من هنا ومن هناك...
ينسل الجميع من الغرفة واحداً إثر آخر. تسود في البيت الظلمة وتفوح رائحة عذبة من السعادة شبه الذابلة. ويخيم الهدوء.
إلى أن يحين موعد الغداء الذي يقدمونه في السادسة مساءً يمتد الوقت طويلاً دونما نهاية، ورتيباً إلى درجة لا تطاق. وعلى العموم فإن هذه الفترة من النهار أثقل الفترات وأكثرها فراغاً في حياة البيت. وهي تشبه من بعيد، ومن حيث الشعور الذي يتملك النفس، تلك الساعات الخاملة الفارغة التي تعيشها الطالبات في أثناء الأعياد الكبيرة في المعاهد الداخلية والمؤسسات النسوية الأخرى المغلقة عندما تسافر الصديقات ويخلفن وراءهن كثيراً من الحرية وكثيراً من الفراغ، ويهيمن طوال النهار ملل نيّر شفاف عذب. النساء يتنقلن دونما هدف من غرفة إلى غرفة وهن لا يرتدين سوى تنورات داخلية وبلوزات بيضاء تكشف عن أذرعهن، ويسرن في بعض الأحيان حافيات دون أن يغتسلن أو يسرحن شعورهن، ويضربن بسباباتهن ملامس البيانو القديم بكسل، ويقرأن الطالع في أوراق اللعب بكسل، ويتشاتمن بكسل، وينتظرن المساء باضطراب ممض.

بعد أن انتهت لوبكا من تناول فطورها قدمت إلى آمور فتات الخبز وبقايا اللحم. بيد أن الكلب سرعان ما أضجرها. فاشترت مع نورا سكاكر بنكهة البربيس، وبزر عباد الشمس، ووقفت الاثنتان خلف السياج الذي يفصل البيت عن الشارع وراحتا تفصصان البزر فتعلق بعض قشوره على ذقنيهما وصدريهما، وتغتابان بلا مبالاة كل من يمر فـي الشارع: الفوانيسي الذي يصب الكيروسين فـي مصابيح الشارع، والشرطي الذي يحمل دفتر الذمة، والمدبرة التي تجتاز الطريق قادمة من محل عمومي آخر إلى دكان المنوعات...

نورا فتاة ضئيلة الحجم، ذات عينين زرقاوين جاحظتين، وشعر أبيض كتاني، ولها عروق زرقاء فـي الصدغين. ويحتوي وجهها على شيء ما بليد وبريء يذكرك بِحَمَل عيد الفصح السكري الأبيض، وهي مفعمة بالحيوية والحركة الصاخبة والفضول، تتدخل فـي كل شيء، وتظل على وفاق مع الجميع، لها السبق دائماً فـي معرفة الأخبار، وعندما تتكلم فإنها تتكلم كثيراً وبسرعة فائقة بحيث يتطاير الرذاذ من فمها وتتشكل فقاعات على شفتيها الحمراوين كما لدى الأطفال.

يندفع من مشرب البيرة المواجه خادم شاب هزيل، جعد الشعر، على قرنية عينه بياض، ويركض إلى الحانة المجاورة للحظات، تصيح نورا:

- بروخور ايفانوفتش، يا بروخور ايفانوفتش. أتريد أن أضيفّك بزر عباد الشمس.

وتصيح لوبا فـي أثرها:
- تعال زرننا.
وتنخر نورا وتضيف من خلال ضحكة تكاد تخنقها:
- والضيافة سيقان دافئة!..
وفجأة يُفتح الباب الرئيسي وتظهر قامة المدبرة الكبيرة الصارمة المخيفة التي تصرخ بنبرة آمرة:
- تفوه! ما هذه القباحة؟ كم مرة يجب أن أكرر أنه لا يجوز الخروج إلى الشارع نهاراً، والأنكى من هذا.. تفوه! بالملابس الداخلية. لا أفهم كيف تتصرفان هكذا من دون ضمير بالمرة. بنات الأصول اللواتي يحترمن أنفسهن لا يجب أن يتصرفن هكذا أمام الناس، أظن أنكما، والحمد لله، لستما فـي مجلس لزوجات الجنود، بل فـي بيت محترم، لستما فـي «الحفراوي» الصغير.
تعود الفتاتان إلى البيت، وتنسلاّن إلى المطبخ، وتجلسان هناك طويلاً على كرسيين وهما تتأملان الطبّاخة الحانقة تراسكوفيا وتؤرجحان أقدامهما وتفصّصان البزر صامتتين.
فـي غرفة «مانكا الصغيرة» التي يدعونها أيضاً «مانكا المشاغبة» و«مانكا البيضاء» كان يجلس جمع من الفتيات؛ مانكا نفسها وفتاة أخرى اسمها زويا، طويلة وجميلة، ذات حاجبين مقوسين وعينين رماديتين بارزتين، ووجه أبيض وطيب يمثل أصدق تمثيل وجه المومس الروسية النموذجي، كانتا تجلسان على طرف السرير تلعبان بالورق لعبة «الستة والستين»، وكانت جينيا، الصديقة المقربة لمانكا الصغيرة، مستلقية على ظهرها خلفهما تقرأ فـي كتاب مهترئ قصة «قلادة الملكة» للسيد دوما وتدخن. إنها الوحيدة التي تحب المطالعة فـي البيت كله، وهي تقرأ بنهم ومن دون تمييز

ولكن هذا التهالك على قراءة روايات المغامرات لم يجعل منها البتة، خلافاً لما هو متوقع، امرأة سريعة التأثر، ولم يملأ مخيلتها بالأوهام العاطفية. إن أكثر ما يعجبها فـي الروايات هو الحبكة الطويلة المعقودة بدهاء والمحلولة ببراعة، والمبارزات الرائعة التي يعمد الفيكونت قبل بدايتها إلى فك أشرطة حذائه، للدلالة على أنه لا ينوي التراجع خطوة واحدة عن موقفه، والتي يبادر بعدها المركيز الذي طعن الكونت طعنة نافذة إلى الاعتذار عن أنه أحدث له ثقباً فـي صدارته الجديدة الرائعة، كما تعجبها فيها المحافظ الملأى بالذهب التي يبدد الأبطال الرئيسون محتوياتها ذات اليمين وذات الشمال من دون اهتمام، وغراميات هنري الرابع وعباراته اللوذعية، أي باختصار كل أشكال تلك البطولة المتبلة بالأفاوية والمزركشة بالذهب والدانتيلا، التي ازدهت بها القرون الماضية من تاريخ فرنسا. أما فـي الحياة العادية فهي على العكس، صاحية الذهن، ساخرة، عملية، وقحة إذا غضبت، وهي تشغل فـي المحل بالنسبة إلى بقية الفتيات المكانة نفسها التي يشغلها فـي المعاهد الداخلية الطالب الأقوى أو الذي يعيد السنة أو أجمل حسناوات الصف – المستبدة والمعبودة. إنها طويلة القامة، نحيفة، ذات شعر أسود، وعينين بنيتين متوهجتين رائعتين، وفم صغير يتسم بالكبرياء، ولها شاربان ناعمان فوق شفتيها العليا وحمرة ضاربة إلى السمرة لا توحي بالعافية على وجنتيها.

إنها ما تنفك تقلب بين الفينة والفينة صفحات الكتاب بإصبعها المبلل بلعابها مضيقة عينيها بسبب دخان البابيروسة[١] التي لا تخرجها من فمها. ساقاها عاريتان حتى الركبتين، وقدماها ضخمتان وشكلهما سوقي جداً: فـي أسفل الإبهامين تبرز بوضوح عُجَر حادة بشعة ذات أشكال غير منتظمة.

---

[١] لفافة ثلثها من الورق الرقيق المحشو بالتبغ وثلثاها مبسم من الـــورق المقوى.

وكانت تجلس هنا أيضاً تمارا، وقد وضعت رجلاً فوق رجل وانحنت فوق قطعة قماش تطرزها بيديها. إنها فتاة هادئة، أنيسة، حلوة، يميل لونها إلى الحمرة مع مسحة دكناء لامعة فـي شعرها، كتلك التي تظهر على ظهر الثعلب فـي الشتاء.

اسمها الحقيقي هو غليكيريا، أو لوكيريا كما يقول العامة. بيد أن العادة القديمة السائدة فـي المحال العمومية تقضـي باستبدال أسماء عذبة الجرس وغريبة فـي الغالب بالأسماء الثقيلة مثل: ماتريونا وأغافيا وسيكليتينيا. كانت تمارا يوماً ما راهبة، أو ربما مجرد مريدة[1] فـي الدير، ولا يزال يتراءى على وجهها حتى اليوم انتفاخ شاحب، وتعبير ينم على الشعور بالوجل والتواضع والمكر يميز الراهبات الشابات. سلوكها فـي المحل يتسم بالانعزالية، فهي لا تصادق أحداً، ولا تُطْلع أحداً على ماضيها. ولكن لابد من أن يكون فـي حياتها، إضافة إلى الترهّب، كثير من المغامرات: إذ إن ثمّة شيئاً ما غامضاً ومحاطاً بالكتمان وإجرامياً يكمن فـي حديثها المتمهل، ونظراتها المراوغة المنبعثة من عينيها الذهبيتين الدكناوين ومن تحت أهدابها الطويلة المرخية، وفـي تصرفاتها وضحكاتها الساخرة ونبرات صوتها التي تدل على أن صاحبتها منافقة متواضعة، لكنها فاسقة. وقد حدث مرة أن البنات أصبن بما يشبه الذهول المشوب بالإجلال عندما سمعن أن تمارا تجيد التكلم بالفرنسية والألمانية بطلاقة. إنها تتمتع بقوة ما داخلية مكبوتة، وعلى الرغم من وداعتها ومسايرتها الظاهرية فإن جميع من فـي البيت يعاملونها باحترام وحذر: صاحبة المحل، والزميلات، وكلتا المدبرتين، وحتى الحاجب، سلطان المبغى الحقيقي وبطله ومرعب كل من فيه.

---

[1] مبتدئة أو مترهّبة، ولا تصير راهبة إلاَّ بعد التثبيت «المترجم».

تقول زويا، وهي تكشف الورقة الرابحة التي كانت تستقر مقلوبة تحت ورق اللعب:
- غَلَبتُ، أبدأ من الأربعين، وألعب بالأصّ البستوني. تفضلي يا مانيشكا[1] بالعشرة. انتهيت. سبع وخمسون وإحدى عشرة: ثمان وستون. كم معك؟
فتقول مانكا باستياء وهي تمط شفتيها:
- ثلاثون، طبعاً ، أنت لديك ميزة. تحفظين كل الخطوات السابقة. وزعي... ايه، وماذا بعد يا تمارتشكا[2]؟ - تسأل زميلتها الأخرى – تكلمي... أنا مصغية...
تخلط زويا أوراق اللعب القديمة السوداء المتسخة وتقدمها لمانيا لـ «تقطعها»، ثم تشرع بتوزيعها بعد أن تبصق على أصابعها. فيما تستأنف تمارا حديثها إلى مانيا بصوت خافت من دون أن تتوقف عن التطريز:
- كنا نطرز بقطب متراصة، بخيوط ذهبية، أغطية موائد المناولة، وأستار أوعية القربان المقدس، ومسوح المطارنة؛ نطرزها بالنباتات والأزهار والصلبان. تجلسين في الشتاء قرب النافذة – النوافذ هناك صغيرة ومسيجة بقضبان حديدية – النور خافت، وتفوح في الجو روائح الزيت والبخور والسرو، والكلام ممنوع: الأم كانت صارمة. يدفع الملل إحداهن إلى أن تطلق صوتها بمطلع ترتيلة الصوم الكبير «استمعي أيتها السماء إلى ابتهالي وتمجيدي...»، ما كان أجمل ذاك الغناء وأروعه، وما كان أهدأ تلك الحياة، وما كان أعذب تلك الرائحة، والثلج خلف النافذة، تماماً كما في الأحلام...

---

[1] تصغير مانكا، ومانكا تصغير مانيا.
[2] تصغير تمارا.

تضع جينيا الرواية المهترئة على بطنها، وتقذف بالبابيروسة من فوق رأس زويا وتقول بسخرية:

- نعرفها حياتك الهادئة تلك. كنتن تلقين بالأجنة في دورات المياه. الشيطان لا يكف عن التجوال قرب أماكنكن المقدسة.

- أعلن أربعين، كان معي ست وأربعون! انتهيت – تصيح مانكا الصغيرة بتهيج وتصفق بيديها – أفتح ثلاثاً.

تبتسم تمارا لما قالته جينيا، وتجيبها وابتسامتها التي لا تكاد تلحظ لا تشد شفتيها تقريباً بل تحدث في نهايتيهما نقرتين صغيرتين ماكرتين غامضتين، تماماً كما لدى الموناليزا في لوحة ليوناردو دافينتشي:

- الناس يتقولون كثيراً على الراهبات... وعلى كل إذا حدث وارتكب أحد ذنباً...

- من لا يذنب لا يتب – تقول زويا بجد وتبلل إصبعها بريقها.

- تجلسين تطرزين، والذهب يبهر بصرك، وظهرك يؤلمك بشدة من وقفة الصباح، وقدماك تؤلمانك أيضاً. وفي المساء مرة ثانية تؤدين الخدمة الدينية. تدقين على الأم باب صومعتها: «ارحمنا يا رب بفضل صلوات القديسين»؛ فتجيبك الأم من الصومعة بصوت جهوري: «آمين».

ترمقها جينيا بتمعن لبعض الوقت، وتهز رأسها وتقول بلهجة ذات مغزى:

- أنت بنت غريبة يا تمارا، إنني أنظر إليك وأتعجب، أنا أفهم مثلاً أن هؤلاء الغبيات، أمثال سونكا، يحببن ويعشقن، ولهذا هن غبيات، ولكن أنت التي يبدو أنك خضت البر والبحر وجربت الحلو والمر تسمحين لنفسك أيضاً بمثل هذه الحماقات. لماذا تطرزين هذا القميص؟

تصلح تمارا بتمهل من وضع القماشة على ركبتيها، وتمسد خط القطب بالكشتبان، وتقول وهي تخاوص بعينيها المرخيتين مائلة برأسها قليلاً إلى جانب:
- يجب أن أفعل شيئاً ما وإلاَّ سأضجر. والورق لا ألعب به ولا أحبّه.
فتقول جينيا وهي لا تزال تهز رأسها:
- لا، أنت فتاة غريبة، حقاً غريبة، ما ينوبك من الزوار يزيد دائماً على ما ينوبنا كلنا، وأنت بغبائك، بدلاً من أن تدخري النقود تنفقينها على أشياء لا معنى لها. تشترين عطوراً القارورة بسبعة روبلات. من الذي يحتاج إلى هذا؟ وها أنت الآن اشتريت حريراً بخمسة عشر روبلاً. هذا لصاحبك سينكا، أليس كذلك؟
- طبعاً لسينيتشكا.
- يا له من كنز وقعت عليه، لص تعس. يأتي إلى المحل وكأنه قائد جيش. لم يبق إلاَّ أن يضربك. اللصوص يحبون هذا، ولعله ينهبك؟
- لا أعطيه أكثر مما أريد أنا أن أعطيه.
تجيب تمارا بوداعة وتقطع الخيط بأسنانها.
- وهذا ما يثير استغرابي، لو كان لي مثل عقلك، ومثل جمالك لكنت استوليت على عواطف مثل هذا الزبون وجعلته يأخذني من هنا ويتكفل بنفقتي، ولكان عندي خيولي ومجوهراتي.
- كلٌّ وما يعجبه يا جينيتشكا[1]. وأنت أيضاً بنت حلوة وظريفة وذات طبع مستقل وجريء، وها نحن، أنا وأنت، علقنا هنا عند آنا ماركوفنا.

---

[1] تصغير جينيا.

تتضرج جينيا بالحمرة، وتجيب بمرارة غير مصطنعة:
- نعم! وكيف لا! أنت محظوظة! أفضل الزوار يأتون إليك. وأنت تفعلين بهم ما تريدين. أما أنا فزواري إما شيوخ أو أطفال رضع. ليس لي حظ. بعضهم مُخْطته تسيل من أنفه، وبعضهم حليب أمه لم يجف عن فمه بعد. وأكثر ما أكرهه هو هؤلاء الصبيان. يأتي الوغد منهم فيجبن ويتعجل ويرتعش، وبعد أن يفعل فعلته لا يعرف أين يواري نظره من خجله، ويلوي سحنته من التقزز، حتى إنني أشتهي أن ألطمه على وجهه. وقبل أن يدفع الروبل يشد على قبضته وهو في جيبه حتى يسخن، بل حتى يتبلل بالعرق. غر! أمه تعطيه عشرة كوبيكات ليشتري رغيفاً فرنسياً ومارتديلا. وهو يدخرها من أجل النساء. منذ أيام كان عندي تلميذ مدرسة عسكرية. قلت له عن عمد لأغيظه: «هاك يا عزيزي الصغير، خذ هذه السكّرة للطريق، مصها وأنت عائد إلى مدرستك». في البداية زعل كثيراً، ولكن بعد ذلك أخذها. وعندما غادر تطلعت من الرواق في إثره عمداً: وما إن خرج حتى تلفت حواليه ووضع السكرة في فمه: خنزير!
- ولكن الوضع مع الشيوخ أسوأ – تقول مانكا الصغيرة بصوت ناعم وهي ترمق زويا بمكر – ما رأيك يا زوينكا؟
زويا التي كانت قد انتهت من اللعب لتوها وهمت بالتثاؤب لم تعد تستطيع الآن أن تتثاءب ملء فمها بحال من الأحوال. فهي لا تعرف أتريد أن تغضب أم أن تضحك؟
إذ إنّ ثمة شخصاً مسناً ذا منصب عال يزورها دائماً، وهو من ذوي العادات الجنسية الشاذة، وزياراته لها غدت موضع تفكه المحل بأكمله.

أخيراً.. يتسنى لزويا أن تكمل تثاؤبها: - فلتذهبن إلى الشيطان – تقول بصوت أبحّه التثاؤب – وهو عليه اللعنة، الشيطان العجوز. وتستأنف جينيا حديثها قائلة:

- ومع ذلك فإن الأسوأ من الجميع، الأسوأ من المدير الذي يزورك يا زوينكا، ومن تلميذ المدرسة العسكرية الذي يزورني، الأسوأ من الجميع: عشاقكن. فما الذي يسرُّ فـي أن يأتي رجل مخمور، فيتصنع ويتهكم، ويحاول أن يصور من نفسه شخصية ما، ولكنه لا يتوصل إلى شيء؟! أمر عجيب: صبـي، سافل، قذر، نتن، مشبع ضرباً، جسمه كله مغطى بالندوب، ليس فيه ما يمتدح سوى القميص الحريري الذي تطرزه له تمارا. يشتم، ابن الكلب، بكلمات بذيئة، يتحفز للعراك. تفوه! لا – تصيح فجأة بصوت مفعم بالمرح والحماسة – إن من أحبه بصدق ودون رياء إلى أبد الآبدين هو عزيزتي مانيتشكا، مانكا البيضاء، مانكا الصغيرة، عزيزتي مانكا المشاغبة.

وعلى غير توقع تطوق كتفي مانكا وصدرها وتشدها إليها، وترميها على السرير وتظل طويلاً تمطر شعرها وعينيها وشفتيها بقبلات حارة. ولا تتخلص مانكا منها إلاَّ بصعوبة وقد تشعث شعرها الفاتح الطري الناعم، وتوردت كلها من المقاومة، واغرورقت عيناها بالدموع وارتختا إلى أسفل من الضحك والخجل.

- دعيني يا جينيتشكا، دعيني، ماذا بك، حقاً... اتركيني!

مانيا الصغيرة – أكثر الفتيات وداعة وهدوءاً فـي المحل كله. طيبة، متساهلة، لا يمكنها البتة أن ترفض طلباً لأحد، والجميع يعاملونها تلقائياً برقة بالغة، تتضرج بالحمرة من أي أمر تافه، فتكسب فـي أثناء ذلك جاذبية خاصة، كتلك التي تتميز بها النساء الشقراوات الرقيقات جداً ذوات البشرة الحساسة.

ولكن ما إن تشرب ثلاث أو أربع كؤوس من البينيديكتين الذي تحبه كثيراً حتى تصبح شخصاً آخر، وتثير من الفضائح ما يتطلب دائماً تدخل المدبرتين والحاجب، وحتى الشرطة أحياناً. فهي لا تتورع عن لطم الزبون على وجهه أو قذفه بكأس ملأى بالخمر بين عينيه، وعن قلب المصباح، وتوجيه الشتائم إلى صاحبة المحل. وجينيا تعاملها برعاية رقيقة غريبة وافتتان خشن.

- يا بنات، الغداء! الغداء، يا بنات!

تصيح المدبرة زوسيا وهي تركض على طول الممر، وتفتح باب غرفة مانيا دون أن تتوقف وتصرخ بتعجل: - الغداء، الغداء، يا بنات!

يذهبن ثانية إلى المطبخ وهنّ مازلن فـي ثيابهن الداخلية، دون أن يغتسلن، حافيات أو منتعلات أخفافاً منزلية، يقدمون لهن حساء شمندر لذيذاً يحتوي على جلد خنزير دسم وبندورة، وأقراصاً من الكفتة وحلوى على شكل أقماع ملأى بالكريما. ولكن الفتيات ليس لديهن قابلية للأكل بسبب حياة القعود الدائم والنوم غير المنتظم، وكذلك لأن غالبيتهن، كطالبات المعاهد الداخلية فـي الأعياد، كن قد أرسلن فـي النهار من يشتري لهن من الدكان حلاوة طحينية، وفستقاً، وراحة الحلقوم، وخياراً مملحاً، وسكاكر مطاطة، وأفسدن بهذا شهيتهن. ليس سوى نينا، وهي فتاة قروية ضئيلة الحجم، خنساء، خناء، أغواها منذ شهرين فقط بائع جوال، ثم باعها فـي المحل العمومي، تأكل عن أربع. فهي لم تفقد بعد ما تتسم به الفتاة العامية من شهية مفرطة، حريصة على ادخار مؤونة.

تقول لها جينيا بلهجة تعاطف مشوب بالرياء، بعد أن اكتفت بنقر قرص الكفتة الذي قدموه لها نقراً خفيفاً وأَكْل نصف قمع الكريما:
- ليتك يا فيكلوشا تأكلين قرصي أيضاً. كلي، يا عزيزتي، كلي، لا تستحي، أنت بحاجة إلى أن تسمني – ثم تقول مخاطبة صديقاتها- أتعرفن يا بنات ماذا أريد أن أقول لكُنَّ: إن صديقتنا فيكلوشا لديها الدودة الوحيدة، والشخص المصاب بالدودة الوحيدة يأكل عن اثنين دائماً: نصف عن نفسه، ونصف عن الدودة.
تنخر نينا بغضب، وترد بصوت غليظ لا يتوقعه أحد من فتاة فـي مثل ضآلتها، مخرجة إياه من أنفها:
- ليس عندي أية ديدان، أنت التي عندك ديدان، ولذلك أنت نحيفة هكذا. ثم تتابع الأكل دون انفعال. وبعد الغداء تشعر بالنعاس كالبُواء وتتجشأ بصوت عال وتشرب كأس ماء وتفوق، وترسم خلسة، إذا لم يكن أحد ينظر إليها، شارة الصليب على فمها حسب العادات القديمة.
ولكن هاهو صوت زوسيا الرنان يسمع فـي الممرات والغرف:
- البسن يا بنات، البسن. لا داعي للتراخي... هيا إلى العمل...
، وتلاه ليل دافئ قاتم، بيد أن الشفق القرمزي الكثيف تباطأ فـي خبوّه طويلاً حتى أدرك منتصف الليل، أشعل حاجب المحل سيميون جميع المصابيح المعلقة على جدران الصالة، والثريا، كما أشعل الفانوس الأحمر فوق الرواق. وسيميون هذا شخص نحيل محدودب الظهر بعض الشيء ، صموت وصارم، ذو منكبين عريضين مستقيمين، وشعر أسود، ووجه أنقر، وبقع جرداء فـي الحاجبين والشاربين تساقط الشعر عنها بسبب الجدري، وعينين سوداوين كامدتين وقحتين، فـي النهار لا عمل له سوى النوم، أما فـي الليل فإنه يجلس طوال الوقت فـي ردهة المدخل تحت عاكس النور، ينزع عن الزوار الداخلين معاطفهم ويلبسهم إياها عند الخروج، ويظل متأهباً لقمع أي شغب.

وصل عازف البيانو – وهو شاب طويل القامة، شديد الشقرة، لبق، يغشّي عينه اليمنى بياض. وبما أن الزوار لم يأتوا بعد فقد شرع يتدرب بتمهل مع ايسّاي سافيتش على عزف موسيقا «PAS D'eSPAGNE»[1] وهي رقصة عصرية كانت قد بدأت آنذاك بالرواج، وكان الاثنان يقبضان لقاء كل لحن يطلبه الزبائن ثلاثين كوبيكاً للرقصة الخفيفة وخمسين كوبيكاً لرقصة الكدريل الرباعية، ولكن صاحبة المحل آنا ماركوفنا كانت تأخذ نصف المبلغ، ويقتسم العازفان النصف الآخر بالتساوي. وعلى هذا فقد كان عازف البيانو لا ينوبه سوى ربع الأجر، ولم تكن هذه القسمة عادلة بالطبع، لأن ايساي سافيتش كان يعزف عزف من علم نفسه بنفسه، وكان يتميز بأذن غليظة، ولذا كان عازف البيانو يضطر باستمرار إلى جره جراً نحو النغمات الجديدة، ويصحح له، ويستر أخطاءه بعزف عال يطغى عليها.

وكانت الفتيات يتحدثن عنه إلى زوّارهن بشيء من الفخر، فهو قد تعلم في الكونسرفوتوار، وكان دائماً الأول بين زملائه، ولكن بما أنه كان يهودياً، وأصيب إلى ذلك بمرض في عينيه لذا لم يتمكن من إكمال تعليمه، وكان الجميع يعاملونه بلطف وعناية بالغين، وبنوع من الحنو والتعاطف المشوب ببعض التكلف، مما ينسجم تماماً مع العادات الداخلية التي تسود في كواليس المحلات العمومية، حيث تكمن وراء الفظاظة الظاهرية والتباهي بالكلمات البذيئة عواطف معسولة هستيرية، كما في المعاهد النسوية الداخلية وسجون الأشغال الشاقة كما يقولون.

---

[1] باديسبان (بالفرنسية)

ارتدت جميع الفتيات ملابسهن، وأصبحن مستعدات لاستقبال الزوار فـي محل آنا ماركوفنا، وانتابهن شعور بالضيق من الفراغ والانتظار. وعلى الرغم من أن أكثرية النساء كن يشعرن باللامبالاة التامة، وحتى ببعض التقزز تجاه الرجال باستثناء عشاقهن، فقد كانت تنتعش وتموج فـي أعماقهن قبل كل أمسية آمال غامضة: لا أحد يعرف من سيختارهن، أفلا يمكن أن يحدث أمر غير عادي، مضحك أو مسل، ألا يمكن أن يبدر من الزائر سخاء مدهش، ألا يمكن أن تحدث أعجوبة ما تقلب الحياة كلها رأساً على عقب؟ وكان فـي هذه الهواجس والآمال شيء ما شبيه بذاك الاضطراب الذي يعانيه المقامر المدمن وهو يعيد عد النقود التي فـي حوزته قبل أن يتوجه إلى النادي. وهن إلى جانب هذا، وعلى الرغم من انعدام الجنس لديهن لم يفقدن طموح المرأة الغريزي الرئيس – أن يكنّ موضع إعجاب.

وبالفعل كان يأتي إلى المحل أحياناً أشخاص فـي منتهى الغرابة، وتقع حوادث شتى تثير الفوضى والارتباك، وفجأة تظهر الشرطة مع رجال مباحث بملابس مدنية، ويلقون القبض على أشخاص يبدون محترمين، وينم مظهرهم على المهابة والرصانة، ويسوقونهم دافعين إياهم فـي أقفيتهم. وفـي بعض الأحيان كانت تنشب شجارات بين مجموعة من المشاغبين المخمورين والحاجب، فيهرع حجّاب سائر المحل لنجدة زميلهم، ويتحطم فـي أثناء مثل هذه الشجارات زجاج النوافذ، وتكسر صناديق البيانو، وتنتزع قوائم الكراسي المخملية لاستعمالها كسلاح، وتغطي الدماء الأرضية الخشبية فـي الصالة وتسيل على الدرج، ويتمرغ أشخاص، طعنت خواصرهم وشجت رؤوسهم فـي الوحل أمام المدخل،

ويجري كل ذلك وسط تهليل وحشي نَهِم من جينكا التي تنفذ إلى قلب المعمعة وهي تطلق ضحكات جذلى وعيناها تتقدان، وتروح تضرب فخذيها بكفيها وتسب وتحرض، بينما زميلاتها يولولن من الخوف ويختبئن تحت الأسرّة.
ويحدث أن يأتي إلى المحل وسط زمرة من الطفيليين مدبر شُؤون تعاونية ما، أو أمينُ صندوقٍ تمادى منذ مدة طويلة في تبذير الآلاف المؤلفة، وفي لعب الورق، والقصف الممجوج، وهو الآن يبعثر آخر ما تبقى لديه من نقود في هذيان مخمور متهور أحمق قبل أن ينتحر أو يمثل في قفص الاتهام.
عندئذٍ تُغلق أبواب المحل ونوافذه بإحكام، ويدوم طوال يومين كاملين حفلُ مجونٍ روسي فظيع، ممل، وحشي، تتخلله الصرخات والدموع وامتهان جسد المرأة، وتُقام ليال فردوسية يتلوى خلالها ببشاعة على أنغام الموسيقا رجال سكارى عراة ذوو أجساد شعراء، وأرجل عوجاء، وكروش ضخمة، ونساء عاريات ذوات أجساد ذاوية، صفراء، مترهلة، رخوة، يشربون ويأكلون كالخنازير، في الأسرّة، وعلى الأرض، في جو خانق مشبع بروائح الكحول، وملوث بالأنفاس البشرية والأبخرة المنبعثة من جلودهم المتسخة.
وفي بعض الأحيان النادرة كان يظهر في المحل شخص من رياضيي السيرك فيبدو في الغرف ذات السقوف المنخفضة مخلوقاً ضخماً يولّد في النفس انطباعاً غريباً، كالانطباع الذي يحدثه حصان أُدخل الغرفة، أو يظهر صيني يرتدي بلوزة زرقاء وجوربين أبيضين وله ضفيرة، أو زنجي من كباريه يرتدي سترة سموكنغ وبنطالاً بمربعات، ويضع زهرة في عروته، وملابسه الداخلية البيضاء منشاة، وكان مما يدهش الفتيات أن هذه الملابس لا تتلوث ببشرته السوداء، بل إن بياضها يبدو أكثر نصوعاً ومبهراً للبصر.

وكان هؤلاء الأشخاص النادرون يثيرون خيال المومسات المتخم ويهيجون شبقهن المستنزف وفضولهن المهني، فيسرن جميعاً خلفهم شبه متيمات، يغار بعضهن من بعض، ويزمجر بعضهن فـي وجه بعض.

حدث مرة أن أدخل سيميون إلى الصالة كهلاً يرتدي ملابس تنم على انتمائه إلى فئة البرجوازية الصغيرة. لم يكن فيه أي شيء متميز: وجه نحيل صارم نتأت عظمتا وجنتيه بشدة حتى لكأن عضلتيهما تتكوران فوقهما بتشنج غاضب، وجبهة منخفضة، ولحية مدببة كالاسفين، وحاجبان كثان، وإحدى العينين أعلى من الأخرى بقدر ملحوظ. ما إن دخل حتى رفع أصابعه المضمومة إلى جبهته ليرسم شارة الصليب وأدار نظره فـي الصالة، وعندما لم ير فـي الزوايا أية أيقونة، أرخى يده دون أن يبدو عليه أدنى ارتباك وبصق، واقترب فـي الحال بهيئة عملية من أسمن امرأة فـي المحل، واسمها كاتكا، وقال لها بإيجاز وبنبرة آمرة وهو يومئ بحزم نحو الباب: - هيا!...

وفـي أثناء غيابه خف سيميون الذي يعرف كل شيء إلى لورا التي كانت عشيقته آنذاك، وأخبرها بلهجة من يفضي بسر، وحتى بشيء من الفخر، أن كنية هذا البرجوازي الصغير هي ديادتشينكو، وأنه تطوع فـي الخريف الماضي بأن ينوب عن الجلاد الغائب وينفذ حكم الإعدام بأحد عشر متمرداً، وأنه شنقهم بيديه الساعة الثانية صباحاً، وأسرّت هي بدورها إلى صديقاتها همساً بكل هذا والهول يطل من عينيها المدورتين. وأياً كانت فظاعة الأمر فإنه لم يكن فـي تلك الساعة أية بنت فـي المحل كله لم تحسد كاتكا السمينة، ولم يتملكها فضول عنيف حارق يدير الرأس.

وعندما خرج ديادتشينكو بعد نصف ساعة بِسَمْته الرزين الصارم شيعته النساء جميعاً حتى الباب الخارجي وهن صامتات فاغرات أفواههن، ومن ثم تابعنه بأبصارهن من النوافذ ليرين كيف يسير فـي الشارع. وبعد ذلك اندفعن إلى غرفة كاتكا التي كانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأمطرنها بالأسئلة. كن ينظرن بشعور جديد يقارب الانشداه إلى يديها السمينتين العاريتين الحمراوين وإلى السرير الذي مازال مدعوكاً، وإلى الروبل الورقي العتيق المتسخ الذي أخرجته كاتكا من جوربها لتريهن إياه. ولم يكن لديها ما ترويه لهن:

«رجل عادي ككل الرجال»، قالت بِحَيْرة هادئة. ولكن عندما عرفت من كان زائرها انخرطت فجأة فـي البكاء دون أن تعرف السبب.

هذا الإنسان المنبوذ وسط المنبوذين، الساقط إلى أسفل درك يمكن أن يتصوره الخيال البشري، هذا الجلاد المتطوع، قد عاملها من دون خشونة، ولكن من دون أن يبدي ما يوحي ولو مجرد إيحاء بالملاطفة، عاملها بإهمال متحجر ومن دون أي اكتراث، لا كما يتعاملون مع إنسان، ولا مع كلب أوفرس، ولا حتى مع مظلة أو معطف أو قبعة، بل كما يتعاملون مع شيء ما قذر تفرضه عليهم حاجة حتمية لبضع لحظات، وما إن تنقضي حاجتهم إليه حتى يصبح غريباً عنهم، وعديم الفائدة، وكريهاً. لم تستطع كاتكا السمينة أن تحيط بكل فظاعة هذه الفكرة بدماغها الذي يشبه دماغ دجاجة رومية معلوفة، ولذلك بكت، وكما بدا لها نفسها – دونما سبب أو غاية.

وكانت تقع من حين إلى حين حوادث أخرى تخض الحياة العكرة القذرة التي تعيشها هؤلاء النساء الفقيرات المريضات الغبيات الشقيات؛ وتقع حوادث غيرة وحشية جامحة يجري فيها إطلاق رصاص وتجرع سم.

وفـي بعض الأحيان النادرة جداً كان يزهر على هذه الدمنة حب نقي حميم متأجج، وأحياناً كانت النسوة يتركن المحل بمساعدة الرجال الذين يحبونـهن، ولكنهن كن دائماً تقريباً يعدن ثانية، وقد حدث مرتين أو ثلاث مرات أن حملت نساء فـي المحل فجأة، وكان هذا يعتبر دائماً فـي الظاهر أمراً مضحكاً ومعيباً، ولكنه كان فـي الباطن، حدثاً مثيراً للعواطف.

وأياً كان الأمر فإن كل أمسية كانت تحمل معها توقعات بحدوث مغامرات ما؛ توقعات مثيرة ومتوترة وحرّيفة إلى حد يجعل أية حياة أخرى بعد «بيت التسامح»، تبدو لهؤلاء النسوة الكسالى المسلوبات الإرادة مملة.

النوافذ مشرعة على مداها أمام عتمة المساء الشذي، وستائر التول تخفق بوهن إلى الأمام والخلف بفعل نسيمات خفية، محمّلة برائحة الأعشاب الندية المتناثرة فـي الحديقة الصغيرة الهزيلة أمام البيت وببعض شذا الليلك، وبرائحة أوراق البتولا التي ذبلت على شجيرات عيد العنصرة أمام المدخل. لوبا التي ترتدي بلوزة مخملية زرقاء مقورة بإفراط عند الصدر، ونورا التي تبدو مثل «بي بي» بسترتها الوردية العريضة التي تبلغ الركبتين، وشعرها الفاتح المسدل الذي تعقربت بعض خصلاته على الجبين، تستلقيان متعانقتين على عتبة النافذة وتغنيان بصوت خافت أغنية شائعة ومعروفة جداً فـي أوساط المومسات عن المستشفى. تغني نورا أولاً بصوت رقيق تصدره من أنفها، وتكرر لوبا وراءها بصوت آلتو[١] لارنين فيه:

---

[١] صوت نسوي صبياني خفيض.

جاء يوم الاثنين
حان موعد إخراجي
لكن الدكتور كراسوف لا يسمح
النوافذ المفتوحة فـي جميع البيوت تتلألأ بأنوار ساطعة، وقد أُشعلت الفوانيس المعلقة فوق المدخل، والفتاتان تريان بوضوح ما فـي داخل الصالة فـي محل صوفيا فاسيليفينا المقابل لهما: الأرضية الصفراء اللامعة، والستائر الكرزية الغامقة على الأبواب وقد ضُمّت وربطت بشرائط، وطرف البيانو الأسود والمرآة الجدارية المحاطة بإطار مذهب، ونساء يرتدين ثياباً مزركشة تلوح شخوصهن من خلال النوافذ تارة وتختفي تارة أخرى، وتنعكس صورهن فـي المرايا. أما رواق محل تريبيل المزين بزخارف محفورة، والواقع إلى اليمين فقد أضـيء بنور كهربائي ساطع يميل إلى الزرقة ينبعث من كرة كبيرة من الزجاج ا لكامد.
المساء هادئ ودافئ. وفـي مكان ما فـي البعيد البعيد، خلف الخط الحديدي، وخلف سقوف ما سوداء، وجذوع أشجار سوداء رقيقة، وعلى مستوى منخفض فوق الأرض القاتمة التي لا تبصر فيها العين لون الربيع ولكنها تشعر شعور اليقين بنبضه الأخضر القوي، يشق خط طويل ضيق بلون الذهب الأحمر سجف العتمة الشهباء ليشي بتأخر زوال الشفق. وكان هذا الضوء البعيد الغامض، وهذه النسيمات اللطيفة، وروائح الليل القادم هذه، تنطوي على أسىً خفي عذب واعٍ؛ إنه ذاك الأسى الذي يكون فـي غاية الرقة والشفافية فـي الأمسيات بين الربيع والصيف. يسري فـي الجو لغط المدينة المبهم، ويُسمع خنين هارمونيكا ضجرة، وخوار أبقار، وصوت جاف لانجرار نعلين على الأرض، ورنين عقب عكازة معدني على بلاط الرصيف، وقعقعة غير منتظمة تصدرها بكسل عجلات عربة تسير الهوينى فـي شارع «الحفرة»،

وتختلط هذه الأصوات كلها بجمالٍ ورقةٍ فـــي تهويمة المساء الحالمة، وينطلق صفيرٌ خافت حذر طويل من القاطرات البخارية على الخط الحديدي المرسوم وسط الظلمة بأنوار خضراء وحمراء.

هاهي الممرضة تأتي
ومعها رغيف محلى با لسكر
ومعها رغيف محلى بالسكر
توزعه على الجميع بالتساوي

- بروخور ايفانوفتش!

فجأة تنادي نورا الشاب ذا الشعر الجعد الذي يخدم فـي مشرب البيرة، وهو يعبر الطريق بخفة كشبح أسود.

- بروخور ايفانوفتش!

فيقول هذا مزمجراً بصوت أجش:

ـ كفاك! ماذا تريدين بعد؟

ـ أحد زملائك أوصاني أن أنقل لك تحياته. رأيته اليوم.

ـ أي زميل هذا؟

ـ شاب حلو! أسود الشعر، جذاب... لكن أنت اسألني أين رأيته؟!

يتوقف بروخور ايفانوفتش لدقيقة ويسأل:

ـ طيب، أين؟

ـ أقول لك أين: عندنا على المسمار، على الرف الخامس، حيث الذئاب الفاطسة:

ـ أنف! حمقاء غبية.

تنفجر نورا بقهقهة مجلجلة تملأ حي «الحفرة» كله وتتمرغ على عتبة النافذة وهي ترفس بقدميها المكسوتين بجوربين أسودين طويلين، وما إن تكف عن الضحك حتى تفتح عينيها المدورتين باندهاش وتقول هامسة:

- أتعرفين يا فتاة إنه فـي العام قبل الماضي طعن امرأةً. بروخور هذا. أقسم بالرب.
- حقاً؟ حتى الموت؟
- لا.. لم تمت، لقد نجت – قالت نورا بلهجة تَشِفُّ عما يشبه الأسف – ولكنها ظلت شهرين طريحة الفراش فـي مستشفى الكساندروف. قال الأطباء إنه لو كانت الطعنة أعلى قليلاً فقط لكانت انتهت. وَدَّعَت!
- ولماذا طعنها؟
- ما أدراني؟! ربما كانت تخفي عنه النقود أو تخونه. كان عشيقَها. إنه هر..
- وماذا فعلو له؟
- لا شيء. لم يجدوا ضده أية أدلة. كان هناك شجار جماعي اشترك فيه حوالي مئة رجل. وهي نفسها صرحت للشرطة إنها لا تشتبه بأحد. ولكن بروخور نفسه أخذ يتباهى فيما بعد ويقول: فـي المرة الماضية لم أقض على دونكا، ولكن فـي المرة القادمة سأجهز عليها. لن تنجو من يدي. سأنهي حياتها حتماً!..
يرتعش ظهر لوبا كله وتقول بصوت خافت ينم على الهلع:
- متهورة هؤلاء الهررة!..
- إلى آخر حد! أنا ، كما تعرفين، ظللت سنة كاملة فـي علاقة حب مع حاجبنا سيميون. ياله من طاغية، هذا النذل! لم يكن يبقي فيّ أي مكان سليماً. جسمي كله كان يغطى بالكدمات. وكل ذلك من دون أي سبب، وكل ذلك من دون أي سبب، بل هكذا... يدخل معي صباحاً إلى الغرفة، يقفل الباب، ويبدأ بتعذيبي، يلوي يدي، ويقرصني فـي صدري، ويشد على خناقي

وأحياناً يقبلني يقبلني ثم يعضني فجأة فـي شفتيّ بقوة تجعل الدم ينبثق منهما... انفجر باكية، فإذا به لم يكن يحتاج إلاَّ إلى هذا. وينقض عليَّ كالوحش، وهو يرتجف، كان يسلبني كل النقود التي بحوزتي.. كلها على الإطلاق حتى آخر كوبيك. ولا يبقى معي ما أشتري به عشر بابيروسات. إنه بخيل، سيميون هذا. يدخر كل ماليه فـي صندوق التوفير... يقول إنه عندما سيجمع ألف روبل سيدخل الدير.

ـ حقاً؟

ـ أي والرب. انظري إلى داخل غرفته: على مدار اليوم، ليلاً ونهاراً، يظل القنديل مشعلاً أمام الإيقونات، إنه شديد التدين... ولكن أظن أنه يفعل هذا لأن فـي ذمته ذنوباً كثيرة. إنه قاتل:

ـ ماذا تقولين؟

ـ آه ، مالنا وماله، دعك منه يا لوبتشكا. هيا نكمل.

وتعود نورا إلى الغناء بصوت رقيق:

سأذهب إلى الصيدلية وأشتري سماً.

سأسمم نفسي بيدي

جينيا تذرع الصالة جيئة وذهاباً وقد أسندت كفيها إلى خاصرتيها وراحت تتثنى وتنظر إلى نفسها فـي جميع المرايا. إنها ترتدي فستاناً برتقالياً قصيراً من الأطلس له ثنيات عميقة مستقيمة فـي نصفه الأسفل الذي يتأرجح بانتظام يمنة ويسرة مع اهتزاز وركيها. أما مانكا الصغيرة المولعة بلعب الورق، والمستعدة للعب من الصباح حتى المساء دون توقف، فهي منهمكة بلعبة «الستة والستين» مع باشا، وقد تركت المرأتان بينهما كرسياً فارغاً لتسهيل التوزيع، وبسطت كل منهما حاشية ثوبها على حجرها لوضع الأوراق «المأكولة». كانت مانكا ترتدي ثوباً بنياً جد متواضع، ومئزراً أسود، وصداراً أسود ذا ثنيات، وكان هذا الزي ينسجم جداً مع شعرها الأشقر الناعم وقامتها القصيرة، ويجعلها تبدو فتاة صغيرة شبه تلميذة مدرسة فـي الصف قبل الأخير.

أما زميلتها باشا فهي فتاة غريبة جداً وتعسة. وكان ينبغي أن تحل منذ مدة طويلة لا فـي «بيت التسامح» بل فـي مستشفى الأمراض النفسية، بسبب علتها العصبية الوبيلة التي تدفعها إلى التهالك بعنف ونهم مريض على أي رجل يختارها حتى لو كان أكره الرجال. صديقاتها كن يهزأن منها ويحتقرنها بعض الشيء، بسبب هذا العيب الذي يبدو لهن نوعاً من خيانة العهد الجماعي بمعاداة الرجال.

وكانت نورا تقلدها تقليداً متقناً فـي تنهداتها وأنينها وصرخاتها وكلماتها الشبقة التي لا تستطيع باشا البتة أن تكبحها فـي لحظات النشوة، فتتجاوز أحياناً جدارين أو ثلاثة، وتُسمع فـي الغرف المجاورة. وثمة إشاعة تقول إنها لم تدخل المحل العمومي بدافع الحاجة أو لأن أحداً أغواها أو غرر بها، بل دخلته بإرادتها، من تلقاء نفسها، مُنقادة لغريزتها الفظيعة التي لا ترتوي. بيد أن صاحبة المحل والمدبرتين يدللنها كل التدليل، ويشجعن ضعفها المجنون الذي يجعل الرجال يتهافتن عليها، وتكسب بفضله أكثر مما تكسبه أية فتاة أخرى بأربع أو خمس مرات. وكسبها الكثير هذا يصل إلى حد يجعل المشرفات يحجبنها تماماً عن الزوار «العاديين» فـي أيام الأعياد الصاخبة، أو يرفضن تقديمها لهم بحجة أنها مريضة، وذلك لأن الزبائن الدائمين المرموقين يزعلون إذا قيل لهم إن فتاتهم المعهودة مشغولة مع شخص آخر. والزبائن الدائمون لدى باشا لا يحصون؛ وكثيرون منهم مغرمون بها

ومع أن غرامهم هذا بهيمي إلاَّ أنه صادق: حتى لقد بلغ الأمر باثنين منهم منذ مدة قصيرة أن عرضا عليها فـي وقت واحد إخراجها والتكفل بمعيشتها، أحدهما جورجي يعمل مستخدماً فـي متجر لبيع الخمور الكاخيتينية[1]، والآخر يعمل فـي شركة للخطوط الحديدية، وهو شخص شديد الكبرياء وفقير جداً من فئة النبلاء، طويل القامة، كماه ينتهيان بطوق من نسيج مزأبر، وله بدل إحدى عينيه قرص أسود مركب على قاعدة مطاطية.

وباشا السلبية فـي كل شيء ماعدا شهوانيتها العشوائية، مستعدة بالطبع للاستجابة إلى من يدعوها، أياً كان، بيد أن إدارة المحل تحرص أشد الحرص على استغلالها لخدمة مصالحها. لقد بدأ الجنون الوشيك يتراءى فـي وجهها الصبيح وعينيها نصف المغمضتين اللتين تطل منهما دائماً ابتسامة ما ثملة، هانئة، وديعة، خجول ماجنة، وفـي شفتيها الفاترتين الطريتين النديتين اللتين لا تنفك تلحسهما، وفـي ضحكاتها الخافتة كضحكات امرأة بلهاء. ومع ذلك فإن هذه الضحية الحقيقية للنزوان الاجتماعي – جد طيبة ومتساهلة ومنزهة عن الأنانية فـي حياتها العادية، ويتملكها خجل شديد من غُلمتها المفرطة. وهي تعامل صديقاتها برقة وتحب جداً أن تقبلهن وتعانقهن وتنام معهن فـي سرير واحد. بيد أنهن جميعاً يعاملنها على نحو يكاد يبدو فيه شيء من التقزز:

---

[1] نسبة إلى صنف العنب الذي يكثر فـي منطقة كاخيتيا فـي جورجيا.

تقول باشا برقة وهي تلمس يد مانيا:

- مانيتشكا، يا روحي، يا حبوبتي، اقرئي لي طالعي، يا صغيرتي الذهبية فتمط مانيا شفتيها كطفل: - أوه، لنلعب الآن.

- مانيتشكا، يا حلوتي، يا لطيفتي، يا ذهبي، يا حنونتي، يا غاليتي... ترضخ مانيا وتصف الأوراق على ركبتيها، وينكشف لها بيت كبّة، ومكسب مالي ليس بكبير، ولقاء مع الملك السباتي في البيت البستوني بحضور مجموعة كبيرة من الناس:

تصفق باشا بابتهاج وتقول:

- آه ، هذا ليفانتشيك ، ليفانتشيكي! نعم، لقد وعدني أن يأتي اليوم، أكيد، ليفانتشيك.

- هذا صاحبك الجورجي؟

- نعم، نعم، جورجيي العزيز! أوه، ما ألذه. لو كان الأمر بيدي لما تركته يفارقني أبداً. أتعرفين ماذا قال لي آخر مرة؟ «إذا ظللت تعيشين في المحل العمومي فإنني سأكتللك وأكتل نفسي»[1] والتمعت عيناه كالبرق في وجهي.

جينيا التي تقف قربهما وتصغي إلى ما تقولانه تسأل بصلف:

- ومن هذا الذي قال لك ذلك؟

- عزيزي الجورجي ليفان. سأقتلك وأقتل نفسي.

- غبية. إنه ليس جورجياً، بل هو أرمني . أنت غبية مجنونة.

- لا.. لا، إنه جورجي. شيء غريب منك...

- أقول لك إنه أرمني. أنا أعرف أكثر منك. غبية!

---

[1] «... سأقتلك وأقتل نفسي»(أراد الكاتب أن يشير إلى عيوب كلام هذه الشخصية باللغة الروسية) «المترجم».

- ولماذا تشتمين، يا جينيا؟ أنا لم أبدأ بشتمك.
- ما أحلى أن تكوني أنت البادئة بشتمي! أيتها الغبية وما الفرق بالنسبة إليك جورجي أم أرمني؟ هل وقعت في حبه؟
- نعم وقعت في حبه!
- إذاً ، أنت غبية! وذاك، صاحب الشعار، الأعور، أيضاً وقعت في حبه؟
- وماذا في الأمر؟ أنا أحترمه جداً. إنه رصين جداً.
- وكولكا المحاسب؟ والمتعهد؟ وانتوشكا – كارتوشكا؟ والممثل السمين؟ أوو، قليلة الحياء – تصيح جينيا فجأة – لا أستطيع النظر إليك دون اشمئزاز. كلبة! لو كنت مكانك بمثل هذه التعاسة لكنت قتلت نفسي وانتهيت، كنت خنقت نفسي بشريط مِشدّي. أنت مقرفة!
ترخي باشا أهدابها فوق عينيها المغرورقتين بالدموع، وتحاول مانيا أن تدافع عنها:
- ما هذا الذي تقولينه يا جينيتشكا... لماذا تقسين عليها هكذا...
فتقاطعها جينيا بحدة:
- إخ، كلكن ممتازات! عزة النفس عندكن معدومة!.. يأتي وغد ما، يشتريك كما يشتري قطعة لحم، يستأجرك كما يستأجر حوذياً، حسب التسعيرة، من أجل ممارسة الحب لمدة ساعة، وإذا بك تتأثرين: «آه، عشيقي! آه، عاطفة سامية!» تفوه!
تدير ظهرها لهما بغضب وتعود تذرع الصالة قطرياً من زاوية إلى زاوية، وهي تهز وركيها وترنو إلى نفسها في المرآة متخازرة.
وفي أثناء ذلك كان عازف البيانو اسحق دافيدوفتش لا يزال في نضال مع عازف الكمان الصعب الانقياد:

- ليس هكذا، ليس كهذا يا اساي سافيتش. اترك الكمان لحظة، واصغ إليَّ قليلاً. هاك النغمة.
يعزِف بإصبع واحدة، ويغني بصوت تيسي فظيع كما جميع قادة الجوقات الغنائية، وكان هو يوماً ما يعد نفسه ليصبح واحداً منهم.
- اس – تام، اس، تام، اس – تيام – تيام، والآن كرر بعدي الجزء الأول للمرة الأولى... هيا... ايين – تسفي...
ويتتبع تمريناتهما بانتباه كل من : زوايا ذات العينين الرماديتين والحاجبين المقوسين والوجه المستدير الذي أسرفت فـي دهنه بالأصباغ الحمراء والبيضاء، وقد استندت بمرفقها إلى البيانو؛ وفيرا الهزيلة، ذات الوجه المجهد التي ارتدت ملابس جوكي: قبعة مدورة ذات واقية مستقيمة، وسترة حريرية مخططة بالكحلي والأبيض، وبنطال ركوب مشدوداً جداً على الساقين، وجزمة ملمعة ذات ثنيين صفراوين. وهي بالفعل تشبه الجوكي بوجهها الضيق ذي العينين الزرقاوين القريبتين جداً من أ نفها المحدب النزق الفائق الجمال، واللتين تبرقان بشدة تحت طرتها المنسدلة بعنفوان فوق جبهتها.
وأخيراً، عندما ينسجم العازفان بعد طول جهد تقترب فيرا القصيرة القامة من زويا الطويلة بمشية مقيدة متقاربة الخطوات، وقد برزت مؤخرتها وابتعد مرفقاها عن جسمها، كما لا يمشي سوى النساء اللواتي يرتدين ملابس الرجال، وتفتح ذراعيها على مداهما خافضة إياهما إلى ا لأسفل وتنحني أمامها مقلدة الرجال بطريقة كوميدية، وتشرع الاثنتان تذرعان الصالة بجذل فائق.

فجأة تتوفز نور النشطة السباقة إلى إعلان جميع الأنباء الجديدة وتقفز من على عتبة النافذة وتصيح بنفس متقطع من الانفعال والتعجل:

- إلى محل تريبيل... وصلت عربة غندورة ... كالعروس.. فيها كهرباء... أوه... يا بنات... تسلب العقل... على العريش كهرباء.

جميع الفتيات، ماعدا جينيا المتكبرة، يطللن من النوافذ. قرب مدخل محل تريبيل تقف بالفعل عربة فارهة، هيكلها الجديد الأنيق يلتمع موهواً بطلائه الطازج، وفـي نهايتي العريشين يضـيء مصباحان كهربائيان صغيران يشعان بنور أصفر. والفرس البيضاء الباذخة تهز بفراغ صبر رأسها الجميل المزدان فـي أعلى الخطم ببقعة وردية جرداء، وتميل من جانب إلى آخر، وتحرك أذنيها الدقيقتين؛ أما الحوذي السمين الملتحي فيجلس على مقعده كالتمثال ماداً يديه إلى الأمام فوق ركبتيه.

تزعق نورا: - آه على مشوار فيها! – وتصيح وهي تتدلى عبر عتبة النافذة – أيها العم، يا سائق العروس، يا عماه! خذ البنت المسكينة فـي مشوار، خذني فـي مشوار لقاء الحب....

بيد أن الحوذي المتأنق يضحك ويحرك أصابعه حركة لا تكاد تلحظ، فإذا بالفرس البيضاء تنطلق على الفور وكأنها كانت تنتظر هذا بصبر نافد، وتعدو مستديرة بجمال إلى الخلف، ثم تنساب بسرعة منتظمة فـي قلب الظلمة هي والعربة وظهر الحوذي العريض.

- بفوه! ياللقباحة! – يدوي فـي الغرفة صوت ايما ادواردوفنا الغاضب – أين رأيتم أو سمعتم أن بنات الأصول يسمحن لأنفسهن بالتدلي من النوافذ والصياح بصوت يملأ الشارع كله. أوه، ياللفضيحة! وليس سوى نورا. دائماً هذه الفظيعة نورا.

إنها تبدو مهيبة بثوبها الأسود ووجهها الأصفر المترهل، والانتفاخين القاتمين تحت عينيها، وأغبابها الثلاثة المتدلية المرتعشة. تجلس الفتيات بتأدب، كطالبات مذنبات، على الكراسي المصفوفة على طول الجدار، ما عدا جينيا التي تواصل تأمل نفسها فـي جميع المرايا. وتقترب عربتان أخريان من بيت صوفيا فاسيليفنا المقابل. وتبدأ الحياة تدب فـي «الحفرة»، وأخيراً ترتفع قرقعة عربة أخرى فـي الشارع، ثم ما يلبث ضجيجها أن ينقطع دفعة واحدة عند مدخل آنا ماركوفنا.

ويساعد الحاجب سيميون شخصاً ما على نزع دثاره فـي ردهة المدخل، وتتطلع جينيا إلى هناك، وهي تمسك قائمتي الباب بيديها، ثم تستدير فوراً على عقبيها وتقول بصوت منخفض وهي ترفع كتفيها إلى أعلى وتهز رأسها يمنة ويسرة:

-لا أعرف، شخص لم يسبق لي أن رأيته، لم يأت إلى هنا من قبل قط. كهل، سمين، يضع نظارة ذهبية ويرتدي بزة رسمية.

تصيح ايما ادواردوفنا بصوت آمر كالبوق الذي يدعو الخيالة إلى التجمع.

- يا صبايا! إلى الصالة! إلى الصالة ياصبايا!..

تخرج الفتيات واحدة إثر أخرى بمشية متغطرسة إلى الصالة: تمارا بذراعيها البيضاوين العاريتين، وجيدها المكشوف المطوق بعقد من اللؤلؤ الصناعي، وكاتكا السمينة بوجهها اللحيم المربع وجبهتها المنخفضة، وقد حسرت أيضاً عن عنقها فبدت بشرتها حمراء تشوبها البثور؛ ونينا الجديدة الخنساء ذات الحركات الخرقاء وقد ارتدت ثوباً بلون الببغاء الأخضر؛ ومانكا الأخرى – مانكا الكبيرة أو مانكا التمساح كما يسمونها، وآخرهن سونكا –

المِقْوَد، وهي يهودية ذات وجه قاتم لا جمال فيه وأنف مفرط فـي الضخامة، وهو السبب فـي تلقيبها بالمقود، بيد أن لها عينين نجلاوين رائعتين، وهما فـي الوقت نفسه وديعتان وحزينتان ومتقدتان وبليلتان، من تلك العيوب التي لا تلقاها فـي العالم إلاَّ لدى اليهوديات.

دخل زائر كهل يرتدي زي العاملين فـي مديرية الأعمال الخيرية بخطاً وئيدة مترددة منحنياً بجذعه إلى الأمام قليلاً عند كل خطوة، وفاركاً راحتيه بحركات دائرية كأنه يغسلهما، وبما أن جميع النساء كن صامتات بمهابة وكأنهن لا يلحظنه، فقد عبر الصالة، وجلس على كرسي بجانب لوبا التي عمدت، كما تقتضي اللياقة، إلى لملمة أطراف تنورتها دون أن يزايلها مظهر الشرود والاستقلالية كفتاة من بيت محترم: قال لها:

- مرحباً يا صبية.

فأجابته بنبرة مبتورة:

- مرحباً.

- كيف الأحوال؟

- شكراً، أشكرك. ضَيِّفْني سيكارة.

-عفواً، أنا لا أدخن.

- هكذا إذاً. رجل، ومع ذلك لا يدخن، إذاً ضيّفني لافيت[1] مع ليمونادة .

فظاعة كم أحب اللافيت مع الليمونادة.

لاذ الرجل بالصمت.

- أوه، يالك من بخيل، أيها العم! أين تخ

---

[1] نبيذ أحمر من العنب.

- لا ، أنا معلم، أعلم اللغة الألمانية.
- أنا شاهدتك فـي مكان ماقبل الآن يا عم. وجهك ليس غريباً عني، أين تقابلنا من قبل؟
- لا... لا أعرف، حقاً. ربما فـي الشارع.
- يمكن أن يكون فـي الشارع... طيب ضيّفني ولو برتقالة. أيمكن أن أطلب برتقالة.

صمت الرجل ثانية وراح ينظر حواليه. التمع وجهه، واحمرّت البثور على جبينه، كان يقوّم النساء جميعاً على مهل ليختار من بينهن المرأة المناسبة، وفـي الوقت نفسه كان يشعر بالحرج من صمته، لم يكن ثمة مايتحدث عنه؛ ثم إن إلحاف لوبا اللا مبالي كان يغيظه. لقد أعجبته كاتيا السمينة بجسمها البقري الضخم، ولكنها، كما يبدو، - هكذا قرر فـي سره – باردة جداً فـي الحب، ككل النساء السمينات، ثم إن وجهها غير جميل. وكانت فيرا أيضاً تثيره بمظهرها الصبياني وفخذيها الملفوفتين اللتين يلتصق بهما البنطال التريكو الأبيض التصاقاً شديداً، كما كانت تروقه كل من مانيا البيضاء التي تشبه التلميذة العذراء، وجينيا بوجهها الأسمر الحيوي الجميل، وأتت لحظة توقف فيها نهائياً عند جينيا، بيد أنه مالبث أن استدار على كرسيه ولم يُقْدِم: فقد أوحى إليه مظهرها الجريء المتمنع المستخف، وانصرافها عنه بعفوية صادقة أنها الأكثر دلالاً بين جميع فتيات المحل، وأنها قد اعتادت أن ينفق عليها الزبائن أكثر مما ينفقون على الأخريات. والمربي كان شخصاً مقتصداً وتُثْقل عليه إعالة أسرة كبيرة وحالةُ زوجة تستنزفها وترهقها طلباته الذكرية، وتعاني من أمراض نسوية كثيرة، كان وهو يدرّس فـي مدرسة للإناث، وفـي معهد، يعيش على الدوام فـي هذيان شهواني مكتوم

ولم يكن يساعده على كبت شبقه المضطرم باستمرار سوى جَلَده الألماني، وبخله، وجبنه. ولكنه كان يقتطع بشق النفس من موازنته الهزيلة مرتين أو ثلاث مرات في السنة خمسة أو عشرة روبلات حارماً نفسه من شرب كوب البيرة المسائي الأثير لديه، ومن ركوب ترام الخيل، مما كان يضطره إلى قطع مسافات طويلة في المدينة سيراً على قدميه.

كان يخصص هذه النقود للنساء وينفقها على مهل، بتذوق، محاولاً أن يطيل مدة اللذة ويرخص ثمنها قدر المستطاع، وكان يريد أن ينال لقاء نقوده أشياء كثيرة تكاد تكون مستحيلة: فنفسه الألمانية العاطفية كانت تصبو على نحو غامض إلى البراءة والتهيب والشاعرية في صورة غريتخين[١] الشقراء، ولكنه كرجل كان يحلم ويريد ويطالب أن تثير مداعباته نشوة المرأة، وتجعلها ترتعش من الداخل وتصاب بإرهاق عذب.

وعلى العموم، هذا ما يسعى إليه كل الرجال، حتى أكثرهم خوراً ودمامة وانحناء وعجزاً، وقد علّمت الخبرة الطويلة النساء منذ القدم أن يمثلن بالصوت والحركات أشد حالات الوجد، ويحتفظن في اللحظات العاصفة ببرود تام.

قالت لوبا بتذمر:

- طيب، على الأقل، اطلب من الموسيقيين أن يعزفا البولكا. خلِّ الفتيات يرقصن.

وكان هذا مناسباً له، إذ كان من الأسهل عليه بكثير أن يحزم أمره، وينهض ليصطحب إحدى الفتيات إلى خارج الصالة على أنغام الموسيقا ووسط زحمة الراقصين، من أن يفعل ذلك وسط الصمت الشامل والسكون الرصين. سأل بحذر:

---

[١] صيغة التدليل بالألمانية لاسم مرغريت، حبيبة فاوست.

- وكم يكلف هذا ؟!
- الكدريل: نصف روبل، والرقصات الأخرى: ثلاثين كوبيكاً. هل هذا مناسب؟
وافق متظاهراً بالسخاء:
- ولم لا؟! تفضلوا... ليس هناك ما يؤسف عليه.. لمن أقول؟
- للموسيقيين هناك...
قال، وهو يضع قطعة نقد فضية على البيانو:
- وماذا في هذا.... أنا... بكل سرور... أيها السيد العازف، من فضلك، مقطوعة ما لرقصة خفيفة...
سأل إيساي سافيتش وهو يدس القطعة الفضية في جيبه:
- بماذا تأمرون؟ فالس، بولكا، بولكا – مازروكا؟
- يعني، شيء ما كهذا...
- فالس، فالس!..
وصاحت الأخريات:
- لا.. بولكا! فالس! فينغيركا! فالس!
وقررت لوبكا بنبرة دلال نزق:
- ليعزفا بولكا، ايساي سافيتش، اعزف بولكا من فضلك! ثم أضافت وهي تطوق عنق المربي بذراعيها: - هذا زوجي، وهو يطلب الرقصة من أجلي، أليس كذلك أيها العم؟..
فما كان منه إلاَّ أن تخلص من ذراعها وأدخل رأسه بين كتفيه كالسلحفاة، وذهبت هي دون أي شعور بالاستياء لترقص مع نورا. وانخرط في الرقص ثلاثة أزواج آخرين. وكانت جميع الفتيات اللواتي يرقصن يجهدن أن تكون جذوعهن مستقيمة، ورؤوسهن ساكنة ما أمكنهن ذلك، وألاَّ تعبر وجوههن عن أية مشاعر، فقد كان هذا من الأمور التي تدل على رقي المحل. دنا المعلم وسط ضوضاء الرقص من مانكا الصغيرة وقال لها وهو يدير نحوها ذراعه المثنية: - هيا بنا.

أخذته إلى غرفتها المفروشة بكل تأنق غرفة النوم في محلٍ عموميٍّ ذي مستوىً متوسط: صوان مغطى بغطاء محبوك يدوياً، وفوقه مرآة، وطاقة أزهار ورقية، وبضع علب سكاكر فارغة، وعلبة بودرة، وصورة فوتورغرافية باهتة لشاب شديد الشقرة يعبر وجهه عن الكبرياء والدهشة، وبضع بطاقات زيارة؛ وقد عُلقت على طول الجدار، فوق السرير المغطى بلحاف وردي مضرّب بقماش بيكيه، سجادةٌ تصور سلطاناً تركياً يدخن نرجيلة، متنعماً وسط حريمه. كما علقت على الجدران بضع صور فوتوغرافية لرجال متأنقين من نموذج الوصفاء والممثلين؛ وثمة مصباح وردي معلق بسلاسل متدلية من السقف، وطاولة مستديرة عليها غطاء بشكل سجادة، وثلاثة كراسٍ خفيفة مصنوعة من خشب محني، وطست وإبريق مطليان بالمنيا وُضعا فوق كرسي صغير في الزاوية خلف السرير.

قالت مانكا الصغيرة، حسب العادة المتبعة، وهي تفك مشدها:

- اطلب لي يا عزيزي لافيت مع ليمونادة.

فأجابها المربي بصرامة:

- فيما بعد، هذا الشيء يتوقف عليك أنت، ثم قولي لي: أي لافيت هذا الذي يقدمونه عندكم؟ إنه مجرد غُسالة.

عارضته الفتاة باستياء:

- عندنا لافيت جيد، ثمن الزجاجة روبلان. ولكن إذا كنت بخيلاً إلى هذا الحد اشتر بيرة على الأقل، جيد؟

- طيب، بيرة، هذا ممكن.

- ولي ليمونادة وبرتقالاً. اي؟
- زجاجة ليمونادة: نعم، ولكن البرتقال: لا. فيما بعد. ربما طلبت لك شمبانيا حتى. كل شيء يتوقف عليك. إذا اجتهدت.
- إذاً سأطلب يا عم أربع زجاجات بيرة واثنتين ليمونادة؟ اي؟
- زجاجتي بيرة، وزجاجة ليمونادة ولا شيء أكثر. أنا لا أحب المساومة. إذا لزم الأمر أنا سأطلب بنفسي.
- وهل يمكن أن أدعو إحدى صديقاتي؟
- لا ، من فضلك، دون أية صديقات.
اطلت مانكا من الباب إلى الممر وصاحت بصوت رنان:
- أيتها المديرة! زجاجتي بيرة، وزجاجة ليمونادة لي.
جاء سيميون يحمل صينية، وراح يفتح الزجاجات بسرعة معتادة، وتبعته على الأثر المدبرة زوسيا، وقالت مهنئة:
- وهكذا تدبرتما أمركما بشكل جيد. أهنئكما بالزواج الشرعي.
قالت مانكا برجاء:
- عمي، قدِّم بيرة للمديرة، اشربي يا مدبرتي.
- إذاً، في هذه الحالة بصحتك أيها السيد. كأن وجهك ليس غريباً عني.
راح الألماني يشرب البيرة ويمص شاربيه ويلحسهما منتظراً بفارغ الصبر ذهاب المدبرة، ولكنها بعد أن وضعت كأسها وشكرت مضيفها توجهت إليه قائلة:
- اسمح لي أيها السيد أن أقبض منك النقود: لقاء البيرة المبلغ المستحق، ولقاء الوقت الذي ستقضيه هنا. هذا أفضل لك وأنسب لنا.
المطالبة بالنقود أزعجت المربي لأنها أفسدت تماماً الوجه العاطفي لمقاصده، قال بحنق:

- ما هذه السفالة، فعلاً! أظن أنني لا أنوي الهرب من هنا. ثم ألا تستطيعين التمييز والحكم على الناس؟ إ نك ترين أنه جاءكم شخص محترم، بزي رسمي، وليس شخصاً متشرداً من الشارع. ما هذه اللجاجة، حقاً.

تراجعت المديرة بعض الشيء:

- طيب ، لا تزعل أيها السيد، طبعاً أنت ستعطي الصبية أجر الزيارة، وأعتقد أنك لن تزعلها، فهي عندنا فتاة ممتازة. ولكن كلف نفسك دفع ثمن البيرة والليمونادة. فعلي انا أيضاً تقديم كشف حساب لصاحب المحل. زجاجتا بيرة سعر الواحدة خمسون – المجموع روبل، وزجاجة ليمونادة بثلاثين – المجموع روبل وثلاثون.

قال الألماني باستنكار:

- يا إلهي، زجاجة البيرة بخمسين كوبيكاً! في أي متجر لبيع البيرة يمكنني أن أشتريها باثني عشر كوبيكاً.

فقالت زوسيا باستياء:

- إذاً اذهب إلى متجر البيرة إذا كانت هناك أرخص. أما إذا أتيت إلى محل راقٍ فإن سعرها الرسمي هو نصف روبل. نحن لا نأخذ أية زيادة! نعم، هكذا أفضل. يبقى لك عشرون كوبيكاً؟

- نعم، الباقي من كل بد – قال المعلم مؤكداً بشدة – وأرجو ألاَّ يدخل علينا أحد بعد الآن.

- لا، لا، لا، قطعاً – قالت زوسيا بتعجل وهي تهم بالخروج – استريحا كما يحلو لكما. تمتعا بقدر ما تستطيعان. شهية طيبة.

أوصدت مانكا الباب خلفها بالمزلاج وجلست على ركبة الألماني، وعانقته بذراعها العارية. سألها وهو يرتشف البيرة.

- أنت هنا منذ مدة طويلة؟
كان لديه شعور غامض بأن محاكاة الحب التي ستحدث الآن تتطلب تقارباً عاطفياً ما، وتعارفاً أكثر حميمية، ولذا، وعلى الرغم من فراغ صبره، بدأ الخوض في حديث عادي، كتلك الأحاديث التي يخوض فيها جميع الرجال تقريباً عندما ينفردون بالمومسات، والتي تجعل هؤلاء يكذبن على نحو شبه تلقائي، يكذبن دون انزعاج أو حماسة أو ضغينة، بل بحكم عادة دارجة منذ القدم.
- منذ مدة قصيرة، ثلاثة أشهر لا أكثر.
- وكم عمرك؟
- ست عشرة سنة – ادعت مانكا منقصة من عمرها الحقيقي خمس سنوات.
- أوه! صغيرة إلى هذا الحد!
قال الألماني مندهشاً، ثم انحنى ليخلع جزمته، وسأل وهو يزحر:
- وكيف وصلت إلى هنا؟
- أحد الضباط اعتدى على عذريتي هناك... في بلدي الأصلي. وأمي صارمة جداً، وهي لو عرفت لكانت خنقتني بيديها. وهكذا هربت من البيت وجئت إلى هنا.
- والضابط هذا، الذي كان الأول، هل كنت تحبينه؟
- لو لم أكن أحبه لما ذهبت إليه. وعدني الوغد بالزواج، ثم قضى وطره مني، وتركني.
- وهل شعرت بالخجل في المرة الأولى؟
- طبعاً شعرتُ بالخجل... كيف تحب يا عم، في النور، أم بدون نور؟ سأخفف ضوء المصباح قليلاً. جيد؟
- وأنت ألا تشعرين بالملل هنا؟ ما اسمك؟

- مانيا. طبعاً أشعر بالملل. ما هذه الحياة التي نعيشها هنا!
قبلها الألماني فـي شفتيها بقوة، وعاد يسألها:
- وهل تحبين الرجال؟ هل هناك رجال تستطيبينهم؟ يشعرونك بالمتعة؟
أجابت مانكا وهي تضحك:
- وكيف لا، أنا أحب خصوصاً الرجال أمثالك: الجذابين المكتنزين.
- تحبينهم؟ آ؟ وما الذي يجعلك تحبينهم؟
- هكذا... ببساطة. أنت أيضاً جذاب.
فكر الألماني بضع ثوان وهو يرتشف البيرة، ثم قال ما يقوله كل رجل تقريباً للمومس فـي الدقائق التي تسبق امتلاكه جسدها عرضاً:
- أتعرفين يا ماريخين، أنت أيضاً تعجبينني جداً، وأنا مستعد أن أعولك عن طيب خاطر..
اعترضت مانيا قائلة وهي تلمس خاتمه:
- أنت متزوج.
- نعم، ولكن فـي الحقيقة أنا لا أعيش مع زوجتي، إنها مريضة ولا تستطيع أن تفي بالتزاماتها الزوجية.
- مسكينة! لو كانت تعرف إلى أين تذهب، يا عم، لكانت بكت، لابد..
- دعينا من هذا! أتعرفين يا ماري: إنني طوال الوقت أبحث لنفسي عن فتاة مثلك، متواضعة، وجميلة. أنا شخص ميسور، وبإمكاني أن أجحد لك شقة مع الطعام والتدفئة والإنارة، وأعطيك أربعين روبلاً شهرياً لتنفقيها على شؤونك الصغيرة. وهل تذهبين معي؟
- ولم لا، أذهب.
قبلها قبلة طويلة. بيد أن هاجساً خفياً سرعان ما تسلل إلى قلبه

الجبان. سأل بصوت عدائي مرتعش:
- أنت سليمة؟
- نعم، سليمة، عندنا كل سبت كشف طبي.
بعد خمس دقائق ابتعدت عنه وهي تخبئ في جوربها النقود التي اكتسبتها بعد أن تفّت عليها بصفتها «الاستفتاحة» كما تقضي العادة الخرافية القديمة. ولم يعد ثمة حديث عن الإعالة وعن الجاذبية، فالألماني كان مستاءً من برود مانكا، وطلب استدعاء المدبرة.
- أيتها المدبرة، زوجي يدعوك.
قالت مانيا وهي تدخل الصالة وتسوّي شعرها أمام المرآة. ذهبت زوسيا، ثم عادت واستدعت باشا إلى الممر. وبعد قليل عادت إلى الصالة وحدها وسألت وهي تضحك:
- ما هذا يا مانكا الصغيرة، لِمَ لَمْ ترضي رَجُلك؟ إنه يشكوك. يقول: «هذه ليست المرأة، بل حطبة، قطعة جليد» لقد أرسلت إليه باشكا.
غضنت مانكا وجهها وبصقت وقالت:
- ياله من كريه! يضجرك بأحاديثه. يسأل: هل تشعرين عندما أقبلك؟ هل تحسّين باضطراب لذيذ؟؟ كلب عجوز. يقول إنه سيأخذني لأعيش على حسابه.
قالت زويا بلا مبالاة: - كلهم يقولون ذلك.
بيد أن جينيا التي كانت حانقة منذ الصباح انتفضت فجأة وتضرجت بالحمرة وزعقت وهي تسند يديها إلى خاصرتيها بتحدٍّ:
- ياله من سافل وغد تعس! لو كنت أنا معه لأمسكت بهذا المنحط العجوز من أذنه وجررته إلى المرآة وأريته سحنته المقززة: ماذا؟ جيد؟ وستصبح أحسن عندما ستسيل ريالتك من فمك وتحولّ عيناك، وتبدأ باللهاث والنحيح والفحيح في وجه المرأة مباشرة. وأنت تريدني أن أفعل المستحيل لأرضيك لقاء روبلك اللعين، وأن يطير عقلي اندهاشاً من حبك القذر؟ إنه يستحق لطمة على سحنته.. هذا الوغد.. على سحنته! حتى يدمى!..

أثارت لهجتها الفظة استنكار ايما ادواردوفنا ، الصارمة فـي مراعاة «الأصول»، فصدتها قائلة:
- أوه، جينيا! كفي عن هذا! بفوه!..
فقاطعتها جينيا بحدة:
- لن أكف.
ولكنها صمتت من تلقاء نفسها، وابتعدت مغضبة وقد انتفخ منخراها واتقدت النار فـي عينيها القاتمتين الجميلتين.
كانت الصالة تمتلئ شيئاً فشيئاً. وقد أتى فانكا - فستانكا[1] الذي يعرفه حي «الحفرة» كله منذ وقت طويل. وهو كهل أشيب، طويل القامة، نحيف البنية، أحمر الأنف، يرتدي بزة مراقب أحراج، وينتعل جزمة عالية الساقين، ويحمل دوماً مسطرة خشبية بطول ذراع تبرز من جيبه الجانبي. كان يقضي أياماً وليالي بكاملها كزبون مداوم فـي قاعة البلياردو التابعة للحانة. وهو دائماً شبه سكران، ينثر نكاته وأساجيعه وأمثاله، ويتباسط فـي الحديث مع الحاجب والمدبرتين والفتيات.
وكان جميع من فـي البيوت - من صاحب المحل وحتى خادمات الغرف – يقفون منه موقفاً ساخراً لا مبالياً يشوبه بعض الاحتقار، ولكن دون ضغينة، فـي بعض الأحيان كان وجوده لا يخلو من فائدة: إذ كان ينقل رسائل من الفتيات إلى عشاقهن، أو يرسلونه إلى السوق أو إلى الصيدلية.

---

[1] هذا اللقب هو في الأصل اسم دمية يلعب بها الأطفال ليس لها قدمان، ولجذعها شكل كروي أو بيضوي، وأسفلها مملوء بمادة ثقيلة الوزن بحيث تنهض تلقائياً على الدوام وتعود إلى وضعها الشاقولي كيفما غيروا وضعها. «المترجم».

وبفضل ذلاقة لسانه وفقدانه الشعور بعزة النفس منذ مدة طويلة لم يكن يندر أن يندس ضمن مجموعة من الناس الغرباء فيزيد من مصروفهم، أما النقود التي كان يستدينها في أثناء ذلك فلم يكن يأخذها إلى مكان آخر، بل ينفقها في المكان نفسه على النساء – اللهم إلاَّ بعض القطع الصغيرة التي يبقيها ليشتري بها سكائر. وكانوا يحتملونه بطيبة قلب وبحكم العادة.

- هاهو فانكا – فستانكا قد جاء – قالت نورا عندما كان هو قد سلم على الحاجب سيميون شاداً على يده بود، ووقف في مدخل الصالة طويلاً، معتمراً سدارته الرسمية المائلة بزهو إلى جانب – ايه فانكا – فستانكا هيّا!..

- لي الشرف بأن أقدم نفسي – شرع فانكا فستانكا على الفور يتمعج مقرباً يده من حافة سيدارته كمن يؤدي التحية العسكرية – الزائر السري المحترم لمحلات الطيبات المحلية، الأمير بوتيلكن[1]، الكونت ناليفكين البارون تبروتينكيفتش – فيوتينكوفسكين ثم خاطب العازفين محيياً: - إلى السيد بيتهوفن، والسيد شوبان!.. اعزفا لي شيئاً ما من اوبرا «الجنرال الشجاع المجيد أنيسيموف، أو هرج ومرج في الدهليز»، احترامي للمدبرة الاقتصادية السياسية زوسيا. ها! لا تبوسين أحداً إلاَّ في عيد الفصح؟ سنسجل هذا، آه منك يا صغيرتي، ياخبوثتي!..

وطاف بجميع الفتيات وهو يمزح ويلمز، ثم جلس اخيراً بجانب كاتيا السمينة، فوضعت هذه ساقها المكتنزة فوق ساقه واتكأت بمرفقها على ركبتها وأسندت ذقنها إلى راحتها، وراحت تنظر بإمعان ولا مبالاة كيف كان مسّاح الأراضي يلف سيكارته.

[1] كنية مشتقة من كلمة «قارورة».

- كيف لا تمل يا فانكا – فستانكا؟ دائماً تلف رجل العنزة هذه.
حرك فانكا - فستانكا حاجبيه وجلدة جمجمته على الفور وأجابها نظماً:
أيتها السيكارة، يا صديقتي السرية
كيف لا أحبك؟
ليس عن نزوة عارضة
صار الجميع يدخنونك.
فقالت له كاتيا دون اكتراث:
- ولكنك يا فاسكا – فستانكا ستفطس قريباً.
- وبمنتهى البساطة.
توجهت إليه فيرا قائلة:
- فانكا ـ فستانكا ، قل أيضاً شيئاً ما مضحكاً، ولكن شعراً:
فنهض على الفور ملبياً ، واتخذ وضعاً مضحكاً وراح ينشد:
فـي السماء الصافية نجوم كثيرة
ولكن لا سبيل إلى عدها
الريح تهمسك ربما هذا ممكن،
ولكن لاسبيل البتة.
الأرقطيون يزهر
والطيور الديوك تغرد
متظارفاً بمثل هذه العبارات كان فاسكا – فستانكا يجلس أمسيات وليالي كاملة فـي صالات المحل، وكانت الفتيات اللواتي يشعرن إزاءه بتعاطف رقيق غريب يكدن يعتبرنه منهن؛ كن فـي بعض الأحيان يسدين له خدمات صغيرة مؤقتة، بل كن حتى يشترين له بيرة وفودكا من نقودهن.

بعد فترة قصيرة من مجيء فانكا ـ فستانكا اندفعت إلى المحل مجموعة كبيرة من الحلاّقين. كان هذا يوم عطلتهم، وكانوا يضجون ويمرحون، وحتى هنا، فـي المحل العمومي، لم يكفوا عن الخوض فـي حساباتهم وأحاديثهم التافهة حول حفلات الشرف الخيرية العامة، وحول أرباب العمل وزوجات أرباب العمل. كلهم كانوا قد تمرسوا إلى حد كاف بالفساد والكذب، وكل منهم كان يهدهد آمالاً عريضة بالمستقبل كأنْ تعوله كونتيسة ما على سبيل المثال، كانوا يريدون أن يستفيدوا على أوسع نطاق ممكن من إنفاق أجرهم الذي يلاقون مشقة فـي الحصول عليه، ولذلك قرروا أن يطوفوا على جميع بيوت «الحفرة» على الإطلاق، ما عدا محل تريبيل الذي لم يجرؤوا على دخوله لأنه أرقى من مستواهم، أما هنا، عند آنا ماركوفنا، فقد طلبوا على الفور عزف موسيقا الكدريل، ورقصوا على أنغامها كالباريسيين تماماً، ولاسيما الحركة الخامسة، حيث يرقص الرجال على انفراد، حتى إنهم دسوا مثلهم أباهيمهم فـي تقويرات صداراتهم تحت الإبط. بيد أنهم أبوا أن يبقوا مع الفتيات، ووعدوا بالعودة بعد أن ينهوا جولتهم فـي جميع البيوت العمومية.

وكان يجيء ويذهب أيضاً موظفون ما، وفتيان ذوو شعر جعد ينتعلون جزمات لماعة، وبضعة ضباط كان يستولي عليهم خوف شديد من أن يفقدوا هيبتهم فـي أعين صاحبة المحل وزواره. وشيئاً فشيئاً خيم فـي الصالة جو مليء بالصخب والخدر بحيث لم يعد ثمة أحد يشعر بالحرج. جاء زائر مداوم هو عشيق سونكا ـالمقود، الذي كان يأتي كل يوم تقريباً ويجلس ساعات طويلة بجانب معشوقته

وهو يرنو إليها بعينين شرقيتين فاترتين، ولا يني يتنهد ويذوب ولهاً ويعاتبها بمرارة لأنها تعيش في المحل العمومي، وتأثم لعدم مراعاتها شعائر السبت، وتأكل اللحم المحرم، ولأنها انفصلت عن أسرتها وعن الكنيس اليهودي الأكبر.

وكالعادة – وهذا غالباً ماكان يحدث – كانت المدبرة زوسيا تقترب منه وسط الضجيج وتقول وهي تعوج شفتيها:

- مابك تجلس هكذا أيها السيد؟ هل تدفئ مؤخرتك؟ قم اشتغل مع البنت.

كان الاثنان، اليهودي واليهودية، من مدينة غوميل، ولابد أن الرب قد خلقهما ليحب كل منهما الآخر حباً عنيفاً صادقاً. بيد أن ظروفاً كثيرة، كالحملة التي جرت في مدينتهما، والإملاق، والضياع الكامل، والخوف، قد أدت إلى تفريقهما لبعض الوقت. غير أن الحب كان قوياً إلى درجة جعلت العامل الصيدلاني المتدرب نيمان يبذل جهوداً كبيرة ويتجشم المشقة والذل ليجد له مكاناً كعامل متدرب في إحدى الصيدليات المحلية ويعثر على الفتاة التي يحبها. وكان الشاب متمسكاً بأصول دينه اليهودي، ويكاد يكون متعصباً. وكان يعلم أن سونكا قد باعتها أمها بنفسها لأحد المتاجرين بالرقيق الأبيض، ويعرف كثيراً من التفاصيل البشعة المهينة عن إعادة بيعها وانتقالها من يد إلى يد، وكانت نفسه اليهودية المتدينة التي تشمئز من كل ما ينافي العقيدة تضطرب وتتعذب كلما عاودته هذه الأفكار، بيد أن الحب كان أقوى من كل شيء. ولذا فقد كان يأتي كل مساء إلى صالة آنا ماركوفنا ، وعندما كان يتيسر له بعد حرمان أن يقتطع من دخله الضئيل روبلاً ما كان يصطحب سونكا إلى غرفتها، بيد أن هذا لم يكن ليدخل الفرح إلى قلبه أو قلبها. فبعد السعادة الآنية العابرة – الامتلاك الجسدي المتبادل – كانا يبكيان ويتلاومان ويتشاجران، ويقومان في أثناء ذلك بتلك الحركات والإيماءات المسرحية التي تميز اليهود، وكانت سونكا – المِقود تعود إلى الصالة بعد هذه الزيارات بأجفان منتفخة محمرة.

ولكنه فـي أكثر الأحيان لم يكن يجد النقود اللازمة فيضطر إلى الجلوس بجانب معشوقته طوال المساء، وإلى انتظارها بصبر والغيرة تنهش فؤاده عندما يأخذها زبون عابر. وما إن كانت تعود وتجلس بجانبه حتى ينهال عليها باللوم والتأنيب بصوت منخفض ودون أن يدير رأسه نحوها كي لا يلفت إليه الأنظار. وفـي أثناء هذه الأحاديث كانت عيناها اليهوديتان الجميلتان البليلتان تعبران دائماً عن العذاب والوداعة معاً.

جاءت مجموعة كبيرة من الألمان العاملين فـي محل للبصريات، وجاءت زمرة من الوكلاء العاملين فـي متجر كيرشكوفسكي لبيع الأسماك والأغذية الفاخرة، وجاء شابان معروفان جيداً فـي حي «الحفرة» وكلاهما أصلع يحيط بصلعته بعض الشعر الطري الناعم، وهما كولكا – المحاسب وميشكا – المغني كما يسمونهما فـي محلات الحي، وقد استقبل الاثنان، وكذلك كارل كارلوفتش من محل البصريات وفولودكا من متجر الأسماك بحفاوة بالغة اقترنت بالتهليل والهتاف والقبل، مما دغدغ شعورهم بالعزة الذاتية. وكانت نوركا النشطة تركض إلى ردهة المدخل وتستخبر عمن أتى وتصيح بحماسة كعادتها:

- جينكا.. جاء زوجك!

أو: مانكا الصغيرة، عشيقك وصل!

وما إن دخل ميشكا – المغني الذي لم يكن مغنياً بالمرة، بل صاحب مستودع أدوية، حتى رفع عقيرته التيسية المرتجّة المتقطعة مغنياً:
يستشعرون الحقيقة
أنت، أيها الفجــر[1]
كما يفعل فـي كل مرة يزور فيها محل آنا ماركوفنا
كانوا يعزفون دون انقطاع تقريباً ألحان الكدريل والفالس والبولكا ويرقصون. وفـي تلك الأثناء جاء سينكا – عشيق تمارا - ، ولكنه على خلاف العادة لم يتشامخ، ولم «يسب ويشتم»، ولم يطلب من ايساي سافيتش أن يعزف لحن حِداد، ولم يضيّف البنات شوكولاتة... بل كان، لسبب ما متجهماً، وكان يعرج على قدمه اليمنى، ويحاول جهده أن لا يلفت إليه الأنظار: لابد أن أعماله التي يرتزق منها لم تكن على ما يرام، استدعى تمارا من الصالة بإيماءة واحدة من رأسه دون أن يتوقف ودخل وإياها غرفتها. ووصل إلى المحل أيضاً الممثل ايغمونت – لافريتسكي الطويل القامة، وقد حلق ذقنه وبدا بوجهه السوقي الذي يعبر عن الوقاحة والاحتقار شبيهاً بوصفاء البلاط.
وكان وكلاء متجر الأغذية الفاخرة يرقصون بكل حماسة الشباب، وبكل الرصانة التي يوصي بها كتاب غيرمان غوبيه «علم نفسك أصول السلوك»، وكانت الفتيات يتجاوبن معهم فـي هذا. فقد كان هؤلاء وأولئك يرون أن أصول اللياقة فـي المجتمع الراقي تقتضي الرقص بأكبر قدر ممكن من الهدوء مع إرخاء اليدين ورفع الرأس وإمالته بعض الشيء للتعبير عن الكبرياء المشوبة فـي الوقت نفسه بالتعب والاسترخاء.

---

[1] من اوبرا ايفان سوساينن للموسـيقار م. غلينكـا (١٨٠٤–١٨٥٧) «الناشر».

وفـي أثناء الفواصل بين الرقصات كان لابد من التلويح بالمناديل على نحو ينم على الملل وعدم الاهتمام... وباختصار كان الجميع يتظاهرون بأنهم ينتمون إلى أرقى المجتمعات، وأنهم إذا كانوا يرقصون فهم لا يفعلون ذلك إلاَّ بدافع التواضع إلى مستوى تأدية خدمة صغيرة لزميل أو زميلة. ولكن مع ذلك كانوا يرقصون بحماسة جعلت وكلاء متجر كيريشكوفسكي يبدون وكأنهم يسبحون فـي عرقهم.

وقد حدثت فضيحتان أو ثلاث فـي محال مختلفة، وكان ثمة شخص ملطخ كله بالدماء، وقد بدا وجهه المدمى فـي ضوء الهلال الشاحب أسود، يركض فـي الشارع وهو يسب ويشتم باحثاً هنا وهناك عن قبعته التي أضاعها فـي أثناء العراك دون أن يلقي بالاً إلى جراحه. وفـي «الحفراوي الصغير» تشاجر كتبة ديوان الأركان مع فرقة من البحارة، وكان العازفون المستأجرون والموسيقيون التعبون يغالبون النعاس ويعزفون كما فـي الحلم، على نحو تلقائي، بحكم العادة، وكان الليل قد أوشك على الرحيل.

كانوا جميعاً، ما عدا المراسل، قد قضوا النهار كله منذ الصباح فـي نزهة خلوية مع فتيات من معارفهم. جدفوا بالقوارب فـي الدنيبر، وطبخوا على الضفة الأخرى فـي خميلة من شجيرات الصفصاف الملتفة النفاذة الرائحة عصيدة حقلية، واستحموا – الذكور والإناث بالتناوب – فـي المياه السريعة الدافئة، وشربوا نقيع ثمار بيتياً، وغنوا أغنيات أوكرانية عذبة، ولم يعودوا إلى المدينة إلاَّ فـي ساعة متأخرة من المساء، فيما كانت مياه النهر القاتم السريع العريض تصطفق بمرح، وترتطم على نحو مخيف بجوانب قواربهم، متلاعبة بانعكاسات النجوم، وبالدروب المحيّية التي ترسلها عوامات إرشاد السفن، وعندما خرجوا إلى الضفة كانت راحات أكفهم تلتهب من أثر التجديف، وعضلات أيديهم وأرجلهم تنق نقاً لذيذاً، وقد سرى فـي أجسامهم كلها تعب عذب منعش.

وبعد ذلك أوصلوا الفتيات إلى بيوتهن، ودعوهن عند الأبواب والمداخل وداعاً طويلاً وودياً تتخلله الضحكات والمصافحات الحارة التي بدت الأيدي في أثنائها وكأنها تحرك أذرع مضخات.
لقد انقضى النهار كله بمرح وصخب كان يصل أحياناً إلى حد الصراخ، وكانت النزهة متعبة بعض الشيء، بيد أنها اتسمت على العموم بعفاف الشباب، دون سكر، ودون شعور بالاستياء أو الغيرة، ودون أي غيظ مكتوم، وهو أمر قلما يحدث في مثل هذه النزهات. ولاشك في أن مما ساعد على خلق مثل هذا المزاج الرضي الشمس المشرقة، ونسيم النهر المنعش، وأنفاس العشب والماء العذب، وشعور المرء المبهج بقوة جسمه ومهارته عندما يسبح أو يجدف، والتأثير الكابح المتأتي عن وجود فتيات ذكيات لطيفات عفيفات جميلات من عائلات صديقة.
ولكن، خارج نطاق وعيهم تقريباً، كانت شهوتهم الحسية – ليست خيالهم، بل شهوتهم الغريزية البسيطة المعافاة كذكور فتيان مفعمين بالحيوية – ما تلبث أن تثور من ملامسة أيديهم عن غير قصد أيدي الفتيات، ومن الاحتضان الصداقي البريء الذي يفرضه واجب مساعدتهن على الصعود إلى القوارب والنزول منها إلى الضفة، ومن الرائحة اللطيفة المنبعثة من ثيابهن التي لفحتها الشمس، ومن الصرخات الأنثوية التي يمتزج فيها الخوف بالغنج عند اجتياز النهر، ومن مرأى الأجساد الأنثوية شبه المستلقية بعفوية بريئة على العشب الأخضر حول السماور دون اكتراث بمقتضيات الحشمة الصارمة، ومن جميع هذه التجاوزات البريئة التي هي جد عادية وحتمية في النزهات، ورحلات الضواحي، والتجديف النهري، عندما يستيقظ خفية في الإنسان، في أغوار نفسه العميقة، لدى ملامسته اللاهية للأرض والعشب والماء والشمس ذاك الوحش القديم الحر الرائع الذي شوهه الناس وأخافوه.

لذلك، فإنهم عندما خرجوا ثمانيتهم فـي الساعة الثانية ليلاً من القبو المليء بالدخان والخدر فـي مطعم «العصافير» الطلابي الأنيس الذي كان فـي تلك الساعة يغلق أبوابه، وقد هيجهم الكحول والطعام الوافر، وصعدوا إلى الأعلى، إلى الشارع، إلى عتمة الليل العذبة المقلقة، بأنوارها المغرية فـي السماء والأرض، وهوائها الدافئ المسكر الذي يعبه الأنف بنهم، وروائحها الشذية المنبعثة من الحدائق وأحواض الأزهار اللا مرئية، اضطرمت النار فـي رؤوسهم، وذابت قلوبهم بسكينة وفتور فـي بوتقة رغبات غامضة. كان كل منهم يشعر بالجذل والاعتزاز لأنه غدا يحس بعد الراحة أن قوة جديدة طازجة تسري فـي جميع عضلاته، وأن رئتيه تتنفسان بعمق، وعروقه تمتلئ بدم أحمر يتدفق فيها بيسر، وأن جميع أعضائه غدت مرنة مطواعة. و – دون كلمات، دون أفكار، دون وعي – احتدمت فـي الأعماق رغبة فـي الركض هذا الليلَ بلا ملابس فـي الغابة الوسنى، وتشمم آثار أقدام ما بتلهف على العشب الندي، ومناداة الأنثى بصيحات عالية.
بيد أن الافتراق غدا الآن صعباً جداً. فقضاء النهار بطوله معاً دمجهم جميعاً فـي قطيع متآلف متماسك. وبدا أنه إذا خرج ولو فرد واحد من أفراد الجماعة فإن توازناً ما مستقراً سيختل، وسيكون من المستحيل استعادته. ولذلك كانوا يتباطؤون ويراوحون فـي أماكنهم على الرصيف قرب مخرج الحانة التي صعدوا منها، معرقلين حركة السابلة النادرة. وأخذوا يتناقشون بنفاق حول المكان الذي يمكن أن يذهبوا إليه لينهوا فيه ليلتهم. فرأوا أن حديقة تيفولي بعيدة جداً وهم سيضطرون هناك إلى شراء تذاكر دخول

ثم إن الأسعار فـي البوفية تثير السخط، والبرنامج قد انتهى منذ مدة طويلة. واقترح فولوديا بافلوف أن يذهبوا إلى بيته، فلديه هناك دزينة من قناني البيرة وبعض الكونياك. ولكن بدا للجميع أن من الممل الذهاب فـي هذا الوقت من الليل إلى شقة عائلية وارتقاء الدرج على أطراف الأصابع، والتكلم همساً طوال الوقت.

- اسمعوا يا إخوان.... من الأفضل أن نذهب إلى البنات، هذا أنسب شيء الآن...

قال بحزم الطالب القديم ليخونين، وهو شاب ملتحٍ، طويل القامة، محدودب الظهر، متجهم الوجه. إنه من حيث العقيدة فوضوي – منظّر، أما من حيث رسالته فـي الحياة فهو مقامر مدمن: يقامر فـي البلياردو، وفـي سباق الخيل، وفـي اللعب بالورق، ويقامر باندفاع شديد وكأن هذا قدره المحتوم، وقد ربح عشية أمس فـي نادي التجار نحو ألف روبل بالماكاو[1] وكانت هذه النقود لا تزال تلسع يديه.

ودعم هذا الرأي أحدهم قائلاً: - ولم لا؟.. هذا مناسب فعلاً، هيا بنا أيها الرفاق!

وعلق آخر بتعقل كاذب وتظاهُرٍ زائف بالتعب:

- وهذا الأمر يستحق؟ إن هذا سيمتد الليل بطوله.

وقال ثالث وهو يتكلف التثاؤب:

- الأحسن أيها السادة أن نذهب إلى بيوتنا... آ – آ – آ إلى النوم... كفانا لهواً اليوم.

فلاحظ ليخونين بنبرة احتقار:

- النوم لن ينفعك فـي شيء، وأنت أيها السيد البروفيسور، هل ستذهب؟..

---

[1] اسم لعبة بالورق.

بيد أن المدرس الجامعي يارتشينكو عاند، وبدا أنه غاضب بالفعل، على الرغم من أنه هو نفسه لميكن يعلم ماذا يختبئ فـي زاوية معتمة من زوايا نفسه..
- اتركني وشأني يا ليخونين. فـي رأيي أيها السادة أن ما تنوون فعله خنزرة صريحة وواضحة. يبدو لي أننا قضينا وقتنا بشكل رائع ولطيف وبسيط، ولكنكم مع ذلك تجدون أن من الضروري حتماً أن تنزلوا كبهائم مخمورة إلى حفرة قاذورات. أنا لن أذهب.
فقال ليخونين بلؤم جارح هادئ:
- ولكنني أذكر، إذا كانت الذاكرة لا تخونني، أننا فـي الخريف الماضي، وليس قبل، قمنا مع شخص له مستقبلُ مومسين[1] بصب الكروشون[2] مع الثلج فـي البيانو فـي مكان ما، ومثّلنا دور الرب البورياتي، ورقصنا رقصة هز البطن وما شابه ذلك...
وكان ليخونين صادقاً فيما يقول. فقد عاش يارتشينكو فـي سنوات الدراسة وبعدها، وعندما بقي ليعمل فـي الجامعة، حياة طيش وعبث، حتى غدا، بجسمه الصغير السمين المكور، وخديه الأحمرين المنتفخين كخدي آمور الملون، وعينيه النديتين البراقتين الطيبتين، معروفاً جيداً فـي جميع الحانات ومقاهي الغناء وأماكن القصف الأخرى، وكانوا فـي هذه الأماكن يتذكرون دائماً كلامه المتعجل وضحكه الزاعق.

---

[1] مومزين تيودور (١٨١٧-١٩٠٣) مؤرخ ألماني مختص بروما القديمة (الناشر).
[2] مزيج من النبيذ الأبيض والروم أو الكونياك مع فواكه طازجة.

ولم يستطع رفاقه قط أن يدركوا كيف كان يجد الوقت للاشتغال بالعلم، ومع ذلك فقد كان ينجح فـي جميع الامتحانات والأعمال الدراسية بتقدير «ممتاز»، وقد لفت إليه أنظار أساتذته منذ أن كان فـي الصف الأول، أما الآن فقد بدأ يبتعد شيئاً فشيئاً عن رفاقه وجلساء الشراب السابقين. وأقام الصلات الضرورية التي تربطه بأوساط الأساتذة، وما لبث أن تلقى عرضاً لإلقاء محاضرات فـي التاريخ الروماني خلال السنة القادمة، ولم يكن يندر أن يستخدم فـي حديثه الدارجة فـي أوساط أساتذة الجامعات «نحن العلماء»! أما التبسيط الطلابي، والارتباط الإجباري بالمجموعة، والمشاركة الإلزامية فـي كل الاجتماعات والاحتجاجات والمظاهرات فقد أصبحت بالنسبة إليه أموراً غير ذات نفع، ومحرجة، وحتى مملة. ولكنه كان يعرف قيمة التمتع بالشعبية فـي أوساط الشباب، ولذا لم يقدم على قطع علاقاته رأساً مع محيطه السابق. بيد أن كلمات ليخونين أثارته، فقال بانفعال ونَفَس متقطع:

- آه، يا إلهي!.. أقليل ما كنا نفعله عندما كنا أولاداً؟ كنا نسرق سكراً، ونلوث سراويلنا، وننتزع أجنحة الزيزان، ولكن لكل شيء حد وعيار، أنا، أيها السادة، لا أجرؤ طبعاً على إعطائكم نصائح ودروساً، ولكن علينا أن نكون منطقيين مع أنفسنا. كلنا متفقون على أن البغاء من أخطر الآفات التي تعاني منها البشرية، ومتفقون كذلك على أن الذنب فـي ارتكاب هذا الشر لا يقع على النساء، بل علينا نحن الرجال، لأن الطلب هو الذي يستدعي العرض. وعلى هذا فإنني إذا شربت كأساً زائدة عن الحد، وذهبت مع ذلك

وعلى الرغم من كل معتقداتي، إلى المومسات، أكون قد ارتكبت نذالة مثلثة: بحق المرأة التعسة الغبية التي أعرّضها بروبلي القذر لأشد أشكال العبودية إذلالاً، وبحق البشرية لأنني باستئجاري بنت هوىً لساعة أو ساعتين، من أجل شهوتي الدنيئة أبرر البغاء وأشجعه، وفـي النهاية بحق ضميري وفكري ، وبحق المنطق:
- فووو! – صَفَّر ليخونين بصوت ممطوط، وهتف بنبرة كئيبة وهو يهز رأسه المائل إلى جنب بإيقاع يماشي الهتاف – أدلى فيلسوفنا بهرائه المألوف: المرسة: هي حبل عادي.
فرد يارتشينكو بجفاف:
- طبعاً، لا شيء أسهل من التهريج. وفـي رأيي لا يوجد فـي الحياة الروسية الكئيبة ظاهرة أكثر كآبة من هذا التسيب والتفسخ الفكري. اليوم نقول لأنفسنا: «ايه! سيان: ذهبت أم لم أذهب إلى المحل العمومي؛ فمن مرة واحدة لن يسوء الحال ولن يتحسن». ولكن بعد خمس سنوات سنقول: «لاشك فـي أن الرشوة سفالة فظيعة، ولكن أنتم تعرفون: «أطفال... وأسرة.....»». وكذلك بالضبط بعد عشر سنوات سنبقى ليبراليين روساً سالمين غانمين، نتلهف على حرية الفرد، وننحني راكعين أمام الأوغاد الذين نحتقرهم ونتسكع فـي ردهات مداخلهم، ونقول ونحن نتضاحك بخبث: «لأنه ، كما تعرفون، من يعش بين الذئاب عليه أن يعوي مثلهم»، أقسم بالرب لم يكن متجنياً ذاك الوزير الذي سمى الطلاب الروس رؤساء دواوين مستقبلاً!
- أو أساتذة فـي الجامعة.

أضاف ليخونين:

بيد أن يارتشينكو مضى يقول متجاهلاً التعريض الجارح:

- إلاَّ أنَّ الأهم هو أنني شاهدتكم جميعاً اليوم على النهر، وبعد ذلك هناك... على الضفة الأخرى.... مع أولئك الفتيات اللطيفات الظريفات، ورأيت كم كنتم جميعاً مهتمين، مهذبين، خدومين، ولكن ما إن ودعتموهن حتى استولت عليكم الرغبة في الذهاب إلى النساء العموميات. فليتصور كل واحد منكم للحظة أننا كلنا كنا ضيوفاً عند أخواته، وذهبنا من عندهن مباشرة إلى «الحفرة»... ماذا؟ هل في هذا ما يُسرّ؟.!

- ولكن، يجب أن يكون هناك صمامات ما للأهواء الاجتماعية – قال برصانة بوريس سوباشنيكوف، وهو شاب طويل، يتسم ببعض الصلف والتصنع، ويبدو بسترته القصيرة التي لا تكاد تغطي مؤخرته الضخمة، وبنطاله المفصل حسب زي الخيالة الدارج، ونظارته «البينسنية»[1] المربوطة بشريطة سوداء عريضة، وسدارته البروسية الطراز، متحذلقاً في تأنقه – هل من الأشرف أن نتمتع بمداعبة الخادمة أو إقامة علاقة غرامية بالسر مع زوجة رجل آخر؟ ماذا بإمكاني أن أفعل إذا كنت بحاجة ماسة إلى امرأة؟!..

[1] نظارة تثبت على الأنف بنابض خاص وليس لها ذراعان للتثبيت على الأذنين.

قال يارتشينكو بأسف ولوح بيده تلويحة ضعيفة:
وهنا تدخل طالب يدعونه رفاقه رمسيس، وهو شاب أسمر مصفر، قصير القامة، ذو أنف أقنى، ويبدو وجهه الحليق مثلث الشكل بفضل جبينه العريض الذي بدأ الصلع يتوغل فيه من الجانبين، ووجنتيه الغائرتين، وذقنه المدبب، كان أسلوب حياته كطالب يتسم بقدر كبير من الغرابة، ففيما كان زملاؤه يوزعون وقتهم بالتناوب بين السياسة والحب والمسرح وبعض العلم، انصرف رمسيس كلياً إلى دراسة شتى أنواع الدعاوى والشكاوى المدنية، وإلى تقصي أدق الشكليات في قضايا الملكية والعقارات والقضايا الأسرية والعملية، وسواهنا، وإلى حفظ قرارات محكمة النقض وحيثياتها المنطقية. وقد تطوع بملء إرادته، ودون أن يكون بحاجة إلى نقود على الإطلاق، للعمل سنة كاملة موظفاً عند موثق عقود قانوني، وسنة أخرى كاتباً في محكمة الصلح، وتولى طوال السنة الماشية، وهي آخر سنوات دراسته الجامعية، تحرير زاوية في جريدة محلية بعنوان: مفكرة مجلس المدينة، كما تولى وظيفة متواضعة كمساعد سكرتير في إدارة اتحاد أصحاب معامل السكر. وعندما رفع هذا الاتحاد دعواه الشهيرة على أحد أعضائه، وهو العقيد باسكاكوف، الذي خالف الاتفاقية بعرضه فائض السكر للبيع، استطاع رمسيس منذ البداية أن يتكهن بالقرار الذي ستتخذه المحكمة العليا حول هذه القضية، وأن يحدد حيثياته بدقة بالغة.
وعلى الرغم من حداثة سنة نسبياً فقد كان ثمّة رجال قانون مشهورون يستمعون إلى آرائه، وإن بشيء من التعالي. ولم يكن يساور أحداً ممن يعرفونه عن كثب أدنى شك في أنه سيبلغ مكانة مرموقة في المستقبل، كما أنه هو نفسه لم يكن يخفي ثقته في أنه عندما سيبلغ الخامسة والثلاثين سيكون قد جمع مليوناً من عمله كمحامٍ مدني فقط،

ولم يكن يندر أن ينتخبه رفاقه رئيساً للاجتماعات، وعريفاً للصف، بيد أن رمسيس كان دائماً يستعفي من هذا الشرف متذرعاً بضيق الوقت. إلاَّ أنه لم يكن يتهرب من المشاركة فـي لجان التحكيم الرفاقية، وكان لآرائه – التي تتسم دائماً بمنطق لا يُردّ – خاصية مدهشة هي إنهاء القضية بصلح يرضي الطرفين، وكان رمسيس هذا، شأنه فـي ذلك شأن يارتشينكو، يعرف جيداً قيمة التمتع بشعبية فـي أوساط الشباب المتعلم، ومع أنه كان ينظر إلى الناس من علٍّ، بشيء من الاحتقار، إلاَّ أنه لم يكن يظهر هذا البتة، بأية حركة من شفتيه الرقيقتين الذكيتين المفعمتين بالحيوية.

قال رمسيس بلهجة تصالحية:

- لا أحد يشدك ، يا غافريلا بيتروفتش، لاقتراف الخطيئة حتماً. ما الداعي إلى هذه الحماسة وهذه السوداوية والقضية بسيطة للغاية؟! مجموعة من الجنتلمانات الروس الشباب تريد أن تقضي بتواضع وانسجام بقية الليل معاً. فتمرح وتغني وتصب فـي جوفها بضعة غالونات من النبيذ والبيرة. ولكن كل الأماكن الآن مغلقة ما عدا هذه المحال. Ergo[1]!

فقاطعه يارتشينكو بسخرية وعداء:

- وبالتالي فلنذهب لنمرح عند هؤلاء النسوة اللواتي يبعن أنفسهن؟ عند المومسات؟ فـي الماخور؟..

- وما هَمَّ؟ أَجْلَسوا فيلسوفاً فـي أثناء الغداء قرب الموسيقيين بقصد إهانته.

فقال وهو يجلس: «هاكم الطريقة الصحيحة لجعل المكان الأخير هو الأول وأخيراً دعني أكرر: إذا كان ضميرك لا يسمح لك، كما تعبر أنت نفسك بأن تشتري امرأة، بإمكانك أن تذهب إلى هناك ثم تغادر المكان محافظاً على عفافك بكامل حصانته المزدهرة».

---

[1] وعلى هذا، (وبالتالي)! ... (باللاتينية).

اعترض يارتشينكو باستياء:
- أنت تشوه الحقائق. إنك تذكرني بأولئك الأشخاص الضيقي الأفق الذين اجتمعوا قبل الفجر ليتفرجوا على تنفيذ حكم الإعدام وهم يقولون: نحن لا دخل لنا فـي هذا. نحن ضد الحكم بالإعدام. هذا من عمل المدعي العام والجلاد.
- كلام فخم، وصادق بعض الشيء يا غافريلا بيتروفتش. ولكن ربما كان هذا التشبيه لا ينطبق علينا بالذات. من المتعذر، كما أعتقد، أن تعالج مرضاً خطيراً عن بعد، دون أن ترى المريض نفسه، وكلنا نحن الذين نقف الآن هنا فـي الشارع ونعرقل حركة الآخرين، لابد من أن نصطدم يوماً ما فـي مجال نشاطنا العملي بقضية الدعارة الفظيعة هذه، وليست أية دعارة، بل الدعارة الروسية بالذات!.. ليخونين، وأنا وبوريا سوباشنيكوف، وبافلوف بصفتنا حقوقيين، وبيتروفسكي وتولبيغين بصفتهما طبيبين. صحيح أن لدى فيليتمان اختصاصاً مختلفاً هو الرياضيات. ولكنه سيصبح مربياً ويتولى قيادة النشء، بل إنه، وياللشيطان، سيصبح أباً! وإذا كنت تريد إخافة الآخرين بالغول، فالأولى بك أن تراه أنت أولاً. ثم إنك أنت نفسك، ياغافريلا بيتروفتش ، المتفقّه فـي اللغات الميتة نبراس المستقبل فـي نبش وتقصي أدق وقائع الماضي السحيق، أليس من الهام والمفيد بالنسبة إليك إجراء مقارنة على الأقل بين المحال العمومية المعاصرة ومواخير بومبيي أو مؤسسة البغاء المقدس فـي طيبة ونينوى؟
زعق ليخونين: - أحسنت يا رمسيس، عظيم! ما الداعي للنقاش الطويل أيها الفتيان؟ .. احملوا البروفيسور من تحت إبطيه وضعوه فـي العربة.

أحاط الطلاب بيارتشينكو وهم يتضاحكون ويتدافعون، وأمسكوا به من تحت إبطيه وخصره. الجميع كانت لديهم الرغبة نفسها في الذهاب إلى النساء، ولكن لم يجد أحد منهم في نفسه الجرأة الكافية لأخذ زمام المبادرة سوى ليخونين. بيد أن كل هذه القضية المعقدة السمجة المتسمة بالنفاق قد انتهت الآن نهاية سعيدة، وتحولت إلى مزحة بسيطة خفيفة مع زميل أكبر سناً، وفيما كان يارتشينكو يحاول أن يفلت نفسه وهو يعاند ويثور ويضحك اقترب من الطلاب الصاخبين العابثين شرطي جسيم ذو شاربين أسودين كان يراقبهم منذ برهة طويلة بنظرات يقظة عدائية:

أيها السادة الطلاب، يرجى عدم التجمع.ممنوع! سيروا في طريقكم. سار الطلاب جماعةً إلى الأمام، وبدأ يارتشينكو يلين شيئاً فشيئاً.

- أيها السادة، أنا مستعد للذهاب معكم... ولكن لا تظنوا أن سفسطات فرعون مصر رمسيس هي التي أقنعتني... لا، بل لمجرد أنه يعزُّ علي فرط عقد المجموعة... ولكن لي شرط واحد: فلنشرب هناك، ولنكذب، ولنضحك، وما إلى ذلك... ولكن لا شيء أكثر من هذا، دون أية قذارة... من المخجل والمهين التفكير في أننا نحن، زهرة الفئة المثقفة الروسية وزينتها، نرتخي وتسيل ريالتنا عند رؤية أول تنورة تصادفنا.

قال ليخونين وهو يرفع يده عالياً: - أقسم على ذلك!..

وقال رمسيس: - وأنا أضمن نفسي.

وردد الآخرون مؤكدين: - وأنا! وأنا! قسماً بالرب، أيها السادة هذا وعد... يارتشينكو على حق.

جلسوا مثنى وثلاث فـي العربات التي كان سائقوها يتبعونـهم رتلاً منذ مدة طويلة وهم يتمازحون ويتشاتمون، وانطلقوا. وإمعاناً فـي الاطمئنان جلس ليخونين بنفسه إلى جانب المدرس الجامعي وخاصره وأجلس ليخونين بنفسه إلى جانب المدرس الجامعي وخاصره وأجلس على ركبهما تولبيغين الصغير، وهو فتىً متورد وسيم الطلعة لايزال زَغَبَ الطفولة الناعم الفاتح يلوح على وجنتيه رغم سنيه الثلاث والعشرين.

صاح ليخونين فـي إثر العربات المتقدمة:

- المحطة عند دوروشينكو.

ثم التفت إلى الخلف وكرر : - التوقف عند دوروشينكو.

توقف الجميع عند مطعم دوروشينكو، ودخلوا الصالة الرئيسية وتجمعوا قرب المنصة، كلهم كانوا شبعانين، ولم تكن لدى أي منهم رغبة فـي تناول طعام أو شراب. بيد أن فـي نفس كل واحد منهم استقر راسب قاتم خلفه إدراكه بأنهم يهمون الآن بفعل شيء ما شائن لا لزوم له، يهمون بالمشاركة فـي لهو متشنج متكلف لا أثر فيه لأي مرح، وكان كل منهم يسعى لإيصال نفسه عن طريق السكر إلى تلك الحالة الضبابية البهيجة التي تصبح فيها كل الأمور سواء، ولا يعود الرأس يعرف ماتفعله اليدان والقدمان، ولا ما يهذر به اللسان، ويبدو أن هذا الشعور لم يكن مقصوراً على الطلاب فقط، بل إن جميع زوار «الحفرة» من عرضيين ودائمين كانوا يعانون بقدر يزيد أو يقل من وخز هذه الشوكة النفسية الداخلية، وذلك لأن دوروشينكو لم يكن يستقبل الزبائن إلاَّ فـي آخر المساء والليل، ولم يكن أحد يجلس عنده طويلاً، بل كانوا يعرجون عليه كمجرد محطة للتفكير، قبل اتخاذ القرار الأخير.

وفيما كان الطلاب يشربون الكونياك والبيرة والفودكا كان رمسيس لا يني ينظر بإمعان إلى الزاوية القصوى في صالة المطعم حيث كان يجلس اثنان متقابلين: كهل مشعث أشيب ضخم الجثة، وسيد ممتلئ الجسم يرتدي بزة رمادية، شعره محلوق إلى مستوى منخفض، وقد أولى ظهره المحني للمنصة، واتكأ على الطاولة بمرفقيه المتباعدين، واستند بذقنه إلى قبضتيه المتراكبتين. كان الكهل يداعب أوتار السنطور الموضوع أمامه، ويغني بصوت خفيض مبحوح ولكن عذب:

- أيها الوادي يا واديّ العزيز

أيتها البطاح الواسعة

قال رمسيس: - اسمحوا لي، هذا الشخص يعمل عندنا..

وذهب ليسلم على السيد ذي البذلة الرمادية. وبعد دقيقةعاد وإياه إلى المنصة وقدمه لزملائه:

- أيها السادة، اسمحوا لي أن أقدم لكم رفيقي في ميدان العمل الصحفي سيرغي ايفانوفتش بلاتونوف، أكسل العاملين الصحفيين وأكثرهم موهبة.

قدم الجميع له أنفسهم بغمغمة مبهمة.

وقال ليخونين – لنشرب بهذه المناسبة..

أما يارتشينكو فقد سأل بلطف زائد كعادته دائماً:

- اسمح لي، اسمح لي، أعتقد أنني أعرفك قليلاً ولو عن بعد. ألست أنت الذي كنت في الجامعة عند مناقشة أطروحة الدكتوراه التي قدمها البروفيسور بريكولنسكي؟

أجاب المراسل: - أنا.

فابتسم يارتشينكو برقة وقال وهو يشد على يد بلاتونوف مرة أخرى بحرارة:

ـ أوه، يالها من فرصة طيبة، لقد قرأت فيما بعد تقريرك: دقيق جداً، ومستفيض ويتسم بالبراعة... ألا تتكرم علينا بمشاركتنا الشرب؟ نخب صحتك!..

أجاب بلاتونوف: ـ اذن اسمحوا لي أنا أيضاً، صب لنا يا أنوفري زاخاريتش: واحداً: اثنين، ثلاثة، أربعة... تسعة أقداح فودكا. فاعترض ليخونين قائلاً:

ـ لا، هكذا لا يجوز... أنت ضيفنا، زميلنا..

قال المراسل، وهو يبتسم بطيبة:

ـ أي زميل أنا لكم، لم أدرس إلاَّ فـي الصف الأول، ثم إنني لم أدرس سوى نصف السنة وكطالب غير نظامي، خذ يا أنونوفري زاخاريتش. أرجوكم أيها السادة...

وانتهى الأمر بعد نصف ساعة برفض ليخونين ويارتشينكو رفضاً قاطعاً مفارقة المراسل وجرّاه معهما إلى «الحفرة»، وهو من جهته، لم يقاوم، قال ببساطة:

ـ إذا كنت لا أثقل عليكم سيسرني جداً أن أذهب، لاسيما أن لدي اليوم مبلغاً خيالياً. لقد دفعت لي صحيفة «دنيبروفسكويه سلوفو» أجري، وهذا أعجوبة لا يعاد لها سوى ربحي مئتي ألف ببطاقة المشجب فـي المسرح. عفواً... لحظة وأعود...

ذهب إلى الكهل الذي كان يجالسه ودس فـي يده بعض النقود، وودعه برقة قائلاً: ـ المكان الذي أذهب أليه، أيها الجد، لا يجوز أن تذهب إليه أنت، غداً سنلتقي ثانية فـي المكان نفسه: وداعاً!..

ما إن تجاوز الجميع باب المطعم حتى توقف بورياسوباشينكوف الذي كان دائماً يبالغ بعض الشيء فـي تأنقه ويتصرف بتكبر لا داعي له، وانتحى بليخونين جانباً وقال له باشمئزاز:

- إنني أستغرب تصرفاتك يا ليخونين، فنحن قد اجتمعنا كمجموعة متآلفة متماسكة، ولكنك أصررت على أن تحشر بيننا هذا المتشرد، الشيطان وحده يعرف من هو!..
فأجابه ليخونين بود: - دعك من هذا يا بوريا، إنه فتى أنيس..
- ولكن هذه خنزرة أيها السادة – قال يارتشينكو متذمراً عند مدخل محل آنا ماركوفنا – بما أننا قد أتينا ينبغي على الأقل أن نذهب إلى محل لائق، لا إلى مبنى حقير كهذا، فعلاً أيها السادة، لنذهب إلى المحل المجاور، محل تريبيل. المكان هناك على الأقل نظيف وجيد الإنارة.
- تفضل، تفضل، سينيور – قال ليخونين بإصرار وهو يفتح الباب بتهذيب خدم البلاط أمام المدرس الجامعي منحنياً وماداً يده إلى الأمام – تفضل.
- ولكن هذا مقرف... عند تريبيل النساء أجمل على الأقل.
أطلق رمسيس السائر في الخلف قهقهة جافة:
- نعم، نعم، هكذا يا غافريلابيتروفتش، سنستمر على هذا المنوال، ندين لصاً جائعاً سرق من الطبق رغيفاً سعره خمسة كوبيكات، ونتساهل مع مدير مصرف أنفق مليوناً ليس له على الخيول والسيكار.
فأجابه يارتشينكو متمالكاً نفسه: - عفواً.. لا أفهم هذا التشبيه، وبالنسبة لي أنا الأمران سيان؛.. هيا بنا.

فقال ليخونين مفسحاً له فـي الطريق كي يتقدمه:
- وهذا من باب أولى لأن هذا البيت يحتفظ بكثير من القصص المتوارثة تاريخياً. أيها الرفاق! إن عشرات الأجيال الطلابية تنظر إلينا من علياء هذه المشاجب، وعلاوة على ذلك فإن الأطفال والطلاب يدفعون هنا، بحكم قانون العرف والعادة، نصف المبلغ المفروض، كما فـي متحف الغرائب، أليس كذلك أيها المواطن سيميون؟

لم يكن سيميون يحب قدوم الزوار فـي جماعات كبيرة، إذ كان هذا ينذر دائماً بحدوث فضيحة وشيكة؛ أما الطلاب فقد كان على العموم يحتقرهم بسبب لغتهم التي يصعب عليه فهمها، وبسبب ميلهم إلى المزاح الطائش وإلحادهم، وخصوصاً بسبب تمردهم باستمرار على السلطة والنظام. ولم يكن عبثاً تصرفه فـي ذاك اليوم الذي اعتدى فيه القوزاق وباعه اللحم والطحين والسمك على الطلاب وانهالوا عليهم بالضرب فـي ساحة بيسارابيا، إذ لم يكد سيميون يسمع بذلك حتى وثب إلى عربة تعدو ووقف فـي وسطها كمدير شرطة، وأسرع إلى مكان المعركة ليشارك فيها. كان يكنّ الاحترام للأشخاص السمان المهيبين المتقدمين فـي السن الذين يأتون فرادى، فـي السر، ويتطلعون بتخوف من ردهة المدخل إلى الصالة خشية أن يراهم أحد من معارفهم، وسرعان ما يغادرون على عجل بعد أن يدفعوا الإكرامية بسخاء. أمثال هؤلاء كان دائماً يعظمهم بلقب «يا صاحب الفخامة».

ولذلك فعندما كان ينزع المعطف الرمادي الخفيف عن يارتشينكو زمجر معلقاً على مزاح ليخونين بتجهم وبنبرة ذات مغزى:
- أنا هنا لست مواطناً، بل طارد للمعربدين..

وأجابه ليخونين منحنياً باحترام: ـ لي الشرف بأن أهنئك بهذا..
كانت الصالة تعج بالناس، وقد جلس وكلاء التجار الذين انتهوا من الرقص بجانب صاحباتهم محمرين عرقانين، وأخذوا يتروحون بمناديلهم بحركات سريعة. وكان تفوح منهم بقوة رائحة شعر ماعز قديم. أما ميشكا المغني وصديقه المحاسب اللذان غزا الصلع رأسيهما فلم يُبقِ فيهما سوى شعيرات ناعمة كالزغب تحيط بجمجمتيهما العاريتين فقد كانا يجلسان متقابلين بعيون عكرة صدفية ثملة، ويرتفقان على طاولة رخامية، ولا ينفكان يحاولان الغناء في انسجام بصوتين مرتعشين ومتقافزين كما لو أن أحداً يصفعهما صفعات سريعة متعاقبة على فقرات عنقيهما:
يـــــســـــــتـــــــشــــــعــــرووون الحقيـــــــــقة
فيما كانت ايما ادواردوفنا وزوسيا تبذلان كل مابوسعهما لإقناعهما بالكف عن الإزعاج. أما فانكا ـ فستانكا فكان يهوّم بهدوء على الكرسي مرخياً رأسه، وواضعاً إحدى ساقيه فوق الأخرى، ومطوقاً ركبته الحادة بيديه المتشابكتين.
عرفت البنات على الفور بعض الطلاب وركضن لاستقبالهم. صرخت نورا:
ـ تمارتشكا ، جاء زوجك فولودنكا، وزوجي أيضاً! ميشكا! وتعلقت بعنق بيتروفسكي الطويل الجاد الضخم الأنف وهي تقول:
ـ أهلاً ميشينكا، لِمَ لمْ تزرني منذ مدة طويلة؟ اشتقت إليك.
تطلع يارتشينكو حوله شاعراً بالحرج، وعندما اقتربت منه ايما ادواردوفنا قال لها بلباقة:

- ليتك تجدين لنا... يعني... قاعة صغيرة منفردة... وقدّمي لنا من فضلك نبيذاً أحمر... وقهوة أيضاً بالطبع... أنت نفسك تعرفين..

كان يارتشينكو يوحي للخدم والجراسين بالثقة دائماً بفضل أناقته ومعاملته اللطيفة، ولكن من علٍ. هزت ايما ادواردوفنا رأسها برضا وكأنها فرس سيرك عجوز شحيمة وقالت:

- ممكن، ممكن... تعالوا، أيها السادة ، إلى هنا، إلى قاعة الضيوف، ممكن، ممكن... مانوع الخمر؟ لا يوجد لدينا سوى البينيديكتين. إذاً بينيديكتين؟ ممكن، ممكن.. وهل تسمحون للصبايا بالدخول؟

أجاب يارتشينكو وهو يفتح ذراعيه ويتنهد:

- إذا كان هذا ضرورياً جداً؟

وعلى الفور توجهت الفتيات واحدة إثر أخرى إلى قاعة الضيوف الصغيرة المفروشة بأثاث ذي مخمل رمادي والمضاءة بمصباح أزرق.

وما إن كانت الواحدة منهن تدخل القاعة حتى تمد كفها الذي لا ينثني لأنه لم يعتد المصافحة إلى كل واحد من الزوار وتذكر اسمها باختصار وبصوت منخفض: مانيا، كاتيا، لوبا... ثم تجلس على ركبة أي واحد من الموجودين وتطوق عنقه بذراعها، وتبدأ تستجديه بإلحاح كالعادة:

- أنت ياطالبي الصغير جميل جداً.... أيمكن أن أطلب برتقالاً؟

- فولودينكا، اشتر لي سكاكر!.. موافق؟

- ولي شوكولا...

- أيها السمين!.. – قالت فيرا التي ترتدي زي الجوكي وهي تتمسّح بالمدرس الجامعي وتتخذ لها مجلساً على ركبتيه – لدي صديقة مريضة ولا تستطيع الخروج إلى الصالة، سآخذ لها تفاحاً وشوكولا، هل تسمح؟

- ايه، ما هذه القصة المختلقة عن الصديقة! والأهم ألاَّ تتقربي مني بملاطفاتك هذه! اجلسي كما يجلس الأطفال الأذكياء، هنا بجانبي على الأريكة. نعم، هكذا، وارخي ذراعيك!
فقالت فيرا، وهي تتثنى بغنج، وتغيب سواد عينيها تحت جفنيها العلويين:
- آخ، وما العمل إذا كنتُ لا أستطيع! وإذا كنتَ جذاباً إلى هذا الحد.
أما ليخونين فقد كان يرد على مثل هذا الاستجداء الحِرْفي بهز رأسه بوقار وطيبة كما تفعل ايما ادواردوفنا ، ثم يقول مقلداً لكنتها الألمانية:
ممكن، ممكن، ممكن...
وكانت فيرا لا تني تلح:
إذاً ، يا عزيزي، سأقول للخادم أن يأخذ إلى صديقتي سكاكر وتفاحاً؟
مثل هذه اللجاجة كانت تدخل ضمن واجبات الفتيات غير المعلنة، بل كان تقوم بينهن منافسة سخيفة وصبيانية وغريبة في القدرة على «تشليح» الزبون نقوده، غريبة لأن هذا لم يكن يعود عليهن بأي نفع، باستثناء كسب بعض الرضا من المدبرة، أو سماع كلمة تشجيع من صاحبة المحل. ولكن في حياتهن الضحلة الرتيبة التي يسودها فراغ معتاد كان ثمة كثير من اللعب شبه الصبياني، شبه الهستيري.
أحضر سيميون ابريق قهوة وفناجين وزجاجة بينيديكتين قصيرة وثخينة ، وفواكه، وسكاكر في جامات بلورية، وشرع ينزع سدادات زجاجات البيرة والنبيذ التي كانت تفرقع بمرح.
- وأنت لماذا لا تشرب؟ - سأل يارتشينكو المراسل بلاتونوف – اسم حلي... أرجو ألاَّ أكون مخطئاً! سيرغي ايفانوفتش على ما أظن؟

- صح.
- اسمح لي يا سيرغي ايفانوفتش أن أقدم لك فنجان قهوة. القهوة تنعش، أم ربما نشرب معاً من هذا اللافيت المريب؟
- لا، اسمح لي أن أرفض. لي شرابي الخاص... سيميون!... اعطني....
- كونياك! – صاحت نورا بسرعة.
- معكمثرى! استدركت مانكا البيضاء بسرعة مماثلة.
- حاضر، سيرغي ايفانوفتش ، حالاً...
رد سيميون بتؤدة ولكن باحترام، ثم انحنى وانتزع وهو يزحر فلينة من عنق زجاجة محدثاً فرقعة.
قال ليخونين باستغراب: - لأول مرة أسمع أنهم . يقدمون كونياكاً فـي «الحفرة». كلما كنت أطلبه كانوا يجيبونني بالرفض.
فقال رمسيس مازحاً: - ربما كان سيرغي ايفانوفتش يعرف كلمة سحرية ما؟..
وقال بوريس سوباشيكيوف بتعريض مقصود:
- أو أن له هنا وضعاً خاصاً متميزاً؟
لحظ المراسلُ سوباشنيكوف شزراً دون أن يلتفت نحوه. ونظر بفتور إلى الصف السفلي من أزرار سترته القصيرة الأنيقة بتحذلق، وقال بصوت ممطوط:
- لا شيء يدعو إلى الاحترام فـي أنني أستطيع أن أشرب كالحصان ولا أسكر البتة، ولكنني بالمقابل لا أتشاجر مع أحد، ولا أستفز أحداً، والظاهر أن هذه الخصال الحميدة فـي طبعي معروفة بما فيه الكفاية، ولذلك فهم يثقون بي.

- أوه، عظيم!... – هتف ليخونين بابتهاج، وكانت تعجبه في المراسل هذه اللامبالاة الكسولة المتميزة المقترنة بلقلة الكلام، والاعتداد بالنفس في آن واحد، وسأل: - هل ستشركني في الكونياك؟
فأجاب بلاتونوف ببشاشة: - هذا يسرني جداً جداً.
ونظر بغتة إلى ليخونين بابتسامة مشرقة تكاد تكون طفولية، أكسبت وجهه الدميم الناتئ الوجنتين مسحة من اجمال، وقال له:
- أنت أيضاً أعجبتني من أول لحظة، وعندما رأيتك هناك، عند دوروشينكو فكرت على الفور أنك لست فظاً البتة كما تبدو في الظاهر.
قال ليخونين ضاحكاً: - هانحن قد تبادلنا المجاملات. ولكن العجيب أننا هنا بالذات لم نتقابل على الإطلاق، يبدو لي أنك تتردد كثيراً على محل آنا ماركوفنا .
- كثيراً جداً..
صاحت نورا بسذاجة: سيرغي ايفانوفتش الضيف الرئيسي عندنا! إنه عندنا بمنزلة الأخ.
فأسكتتها تمارا قائلة: - غبية!
ومضى ليخونين يقول: - إنني أستغرب هذا. فأنا أيضاً زبون مداوم. على كل حال لا يسعني إلاَّ أن أغبطك على ما تتمتع به من جاذبية.
فقال بوريس سوباشنيكوف لاوياً شفتيه من الأعلى إلى الأسفل:
- العمدة المحلي!..

ـ ولكنّه قالها بصوت منخفض إلى درجة أن بلاتونوف كان بإمكانه التظاهر، إن أراد، بأنه لم يسمع شيئاً، كان هذا المراسل قد أثار في نفس سوباشنيكوف منذ برهة طويلة شعوراً شائكاً أعمى بالغيظ. وكان الأمر يهون له لو أن السبب يقتصر على كون المراسلمنخارج السرب. بيد أن بوريس، شأنه شأنك ثير من الطلاب (وكذلك الضباط، وطلاب الكلية الحربية، وتلاميذ المدارس) قد اعتاد أن الأشخاص «المدنيين» الغرباء الذين تسوقهم المصادفة إلى الانخراط في مجموعة طلابية لاهية يتصرفون دائماً بشيء من التبعية والخنوع، فهم يتملقون الشبيبة الطلابية، ويندهشون من جرأتها، ويضحكون لنكاتها، ويُعجبون بإعجابها بنفسها، ويتذكرون وهم يتنهدون بحسد مكبوت السنوات التي كانوا فيها طلاباً. أما بلاتونوف فبدلاً من أن يعفر خدّه تذللاً أمام الشبيبة جرياً على المألوف، كان، على العكس، يبدي نوعاً من اللامبالاة الذاهلة الهادئة المهذبة.

وكان ما يثير حنق سوباشنيكوف، فضلاً عن ذلك، ـ وهو حنق مشوب بشعور ضحل بالغيرة – ذاك الاحتفاء العفوي، والمتسم مع ذلك بالكياسة الذي كان يلقاه المراسل من جميع مَنْ في المحل، بدءاً بالحاجب وانتهاءً بكاتيا اللحيمة الصموتة. وكان هذا الاحتفاء يتجلى في كيفية إصغائهم إليه، وفي العناية الاحتفالية التي كانت تبديها تمارا وهي تملأ له كأسه، وفي اهتمام مانكا البيضاء وهي تقشر له الكمثرى، وفي سرور زويا وهي تلتقط عبة السكائر التي ألقى بها إليها ببراعة، فيما كانت تطلب عبثاً سيكارة من جاريها المنشغلين بالحديث، وفي عدم إقدام أية فتاة على أن تطلب منه شوكولاته أو فواكه، وفي شكرهن الحار له على خدماته الصغيرة وضيافته.

«هرّ!»، قال سوباشنيكوف فـي سره بحقد، ولكن دون أن يصدق نفسه: فالمراسل كان شديد الدمامة وغير معتن بهندامه، وكان إلى ذلك يتصرف بعزة نفس بالغة.
تظاهر بلاتونوف مرة ثانية بأنه لم يسمع العبارة الوقحة التي تلفظ بها الطالب، واكتفى بأن كوّر منديل الطاولة بين أصابعه بحركة عصبية ورمى به برفق بعيداً عنه. ومرة ثانية ارتعشت جفونه، وازور بصره صوب بوريس سوباشنيكوف، وقال بهدوء وهو يحرك كأسه دائرياً ببطء على الطاولة:
- نعم، أنا هنا، فـي الحقيقة، لست غريباً. تصوروا أنني ظللت أتغدى يومياً فـي هذا البيت بالذات طوال أربعة أشهر.
- لا؟ بجدّ؟
سأل يارتشينكو مندهشاً وهو يضحك.
- بمنتهى الجد. الوجبات التي يقدمونها هنا، بالمناسبة، غير سيئة على الإطلاق، مشبعة ولذيذة، وإن كانت دسمة أكثر من اللزوم.
- ولكن كيف فعلت هذا؟
- ببساطة ، فقد كنت أُعِدُّ ابنة آنا ماركوفنا ، صاحبة هذا البيت المضياف، للانتساب إلى المدرسة، وقد اشترطت أن يحسموا جزءاً من أجري الشهري لقاء تقديم الغداء لي.
قال يارتشينكو: - ما هذه النزوة الغريبة؟ وقد فعلت هذا تطوعاً؟ أم... اعذرني، أخشى أن أبدو لك متجاوزاً حدود اللياقة... ربما، فـي ذاك الوقت... كنتَ فـي حاجة ماسة؟..
- لا، على الإطلاق، آنا ماركوفنا كانت تأخذ مني أكثر بثلاث مرات مما كان يمكن أن يأخذوه فـي المطعم الطلابي. ولكنني فـي الحقيقة كنت أرغب فـي أن أعيش هنا لمدة ما كي أتقرب أكثر إلى هذا العالم الصغير وأكون على احتكاك أقوى به؛ لأدخله بحميمية إذا جاز القول.

قال يارتشينكو متهللاً:
- آ – آ ! يبدو أنني بدأت أفهم!.. الظاهر أن صديقنا الجديد – وعفواً عن هذا التبسيط الصغير – يجمع معطيات معيشيّة؟ وربما سنستمتع بعد بضعة أعوام بقراءة....
- ترراجيديا من الماخور!..
أكمل بوريس سوباشنيكوف العبارة بصوت جهوري ونبرة مسرحية. وفيما كان المراسل يجيب يارتشينكو نهضت تمارا من مكانها بهدوء ودارت حول الطاولة وانحنت فوق سوباشنيكوف وهمست فـي أذنـهن:
- ياعزيزي، يا جميلي، من الأحسن لك أن لا تقرب هذا السيد، أقسم لك أن هذا سيكون أفضل بالنسبة إليك...
- ما..ذا؟.. – قال الطالب وهو ينظر إليها بتعالٍ ويصلح من وضع نظارته «البينسنية» بإصبعيه – أهو عشيقك؟. هرّك؟
- أقسم لك بما تشاء أنه لم يبت ولا مرة فـي حياته عند أية واحدة منا. ولكن، أكرر لك، لا تستفزه.
اعترض سوباشنيكوف قائلاً بتصنع ينطوي على الاحتقار:
- ايوه، نعم! ايوه، طبعاً! لديه مثل هذا الدفاع الرائع: المحل العمومي بأكمله. ولابد أن جميع مكافحي العربدة فـي «الحفرة» من أصدقائه وأصحابه المقربين.
اعترضت تمارا هامسة بلطف:
- لا، ليس لهذا، بل لأنه سيمسك بك من ياقتك ويرميك من النافذة كالجرو. لقد شاهدت مرة مثل هذا الطيران فـي الهواء. لا قدر الرب أن يبتلي أحداً بمثله. إنه مخجل وخطر على الصحة.

- انقلعي من هنا، أيتها القذرة!..
صاح بها سوباشنيكوف وهو يلوح بمرفقه مهدداً:
- سأذهب يا عزيزي – أجابته تمارا بوداعة وابتعدت عنه بخطواتها الخفيفة.
التفت الجميع لهنيهة نحو الطالب، وقال له ليخونين مهدداً بإصبعه:
- لا تشاغب يا بربريس[1]!
ثم توجه إلى المراسل راجياً: - إيه، إيه، احكِ، إن كل ما تقوله شائق جداً، ومضى المراسل يقول بهدوء وجدية:
- لا، أنا لا أجمع أي شيء، مع أن المعطيات هنا ضخمة فعلاً، ومرهقة للروح حقاً، ومرعبة... وليس المرعب هنا العبارات الطنانة عن المتاجرة بجسد المرأة، وعن الرقيق الأبيض، وعن البغاء كآفة تفتك بالمدن الكبيرة وهلم جرا وهلم جرا... الأسطوانة القديمة التي سئمها الجميع!...
لا، ليس هذا البتة، بل الفظيع هنا هو التفصيلات الصغيرة اليومية المعتادة، هذه الحسابات العملية التجارية اليومية، هذا العلم المتوارث من ألف سنة عن نمط التعامل فـي مضمار الحب، هذا الأسلوب الرتيب فـي الحياة اليومية الذي ترسخ على مدى قرون؛ فـي هذه التوافه التي لا يلاحظها المرء تذوب تماماً مشاعر كثيرة كالإحساس بالإهانة والإذلال والخجل، وتبقى المهنة الجافة، والعَقْد، والإتفاق، شيء أشبه بالمتاجرة النزيهة، متاجرة ليست أسوأ أو أحسن من التجارة فـي أية بقالية. أتفهمون أيها السادة، الفظاعة كل الفظاعة فـي أنه ليست هناك أية فظاعة! حياة يومية رتيبة ضحلة – ولاشيء أكثر.

---

[1] شجيرة شائكة. «المترجم»

أضف إلى ذلك ما يشبه جو المعهد التعليمي الداخلي المغلق بسذاجته، وفظاظته، وما يتسم به من عاطفية مائعة، وميل إلى التقليد.
قال ليخونين مؤكداً: - هذا صحيح.
وأردف المراسل يقول وهو يتأمل كأسه:
- تطرق أسماعنا ونحن نقرأ الأدب الصحفي، والمقالات الافتتاحية صرخات شتى صادرة عن نفوس متململة، كما أن النساء الطبيبات يبذلن جهودهن على هذا الصعيد، وهي جهود منفّرة إلى حد بعيد: «آخ، النظام[1] آخ، حركة الالغاء[2]! آخ، السلعة الحية! وضع الأقنان! صاحبات المحلات، هذه المسوخ البشرية البشعة التي تمص دم المومسات!.... ».
ولكنك بالصراخ لا تخيف أحداً، ولا تهز مشاعر أحد. هناك مثل يقول: جعجعةً ولا أرى طحناً. ما يرعب أكثر من أية كلمات مرعبة، ما يرعب أكثر بمئة مرة، مشهد عادي بسيط يباغتك فجأة كضربة على جبينك فيبهتك. خذوا مثلاً حاجب هذا الحل سيميون، يبدو طبعاً، حسب رأيكم ، أنه انحط إلى أدنى درك يمكن لأحد أن ينحط إليه: فهو طرّاد معربدين في ماخور، ووحش، ويكاد يكون من المؤكد أنه قاتل، ثم إنه ينهب المومسات، و«يُسوّد عيونهن»، حسب التعبير المحلي ، أي ببساطة يضربهن. هل تعرفون ما الذي جمع بيننا وجعلنا صديقين؟

---

[1] المقصود من الكلمة هنا: المراقبة الطبية – الشُرطية للمحال العمومية والمومسات المنفردات (الناشر)

[2] المقصود هنا: الحركة الاجتماعية المناهضة للبغاء المرخص. (الناشر)

إنه التفصيلات الفخمة للقداس البطريركي، إنه قانون اندرواس النزيه أسقف كريت، إنه أعمال الأب المقدس يوحنا الدمشقي. متدين فوق العادة! أحياناً كنت أحرضه فينشد لي وعيناه مغرورقتان بالدموع: «هلم يا إخوة نعط هذا الميت القبلة الأخيرة...» من صلاة جناز العلمانيين. أنتم تأمّلوا فقط: إن أَمثال هذه المتناقضات لا يمكن أن تتعايش إلاَّ فـي النفس الروسية!

قال رمسيس: - نعم، مثل هذا الشخص يصلي ويصلي، وبعد ذلك يذبح إنساناً ما ثم يغسل يديه ويشعل شمعة أمام الأيقونة.

- بالضبط، إنني لا أعرف شيئاً أفظع من هذا الجمع بين الورع الديني الصادق والميل الطبيعي إلى الإجرام. هل أعترف لكم؟.. إنني عندما أتحادث مع سيميون على انفراد – ونحن نتحادث هكذا ملياً وعلى مهل، طوال ساعات – ينتابني فـي بعض اللحظات خوف حقيقي. خوف تطيّريّ! لكأنني أقف عند الغسق على لوح خشبي متقلقل وأنحني فوق فوهة بئر معتمة، نتنة، فأرى، ولكن بصعوبة، كيف تزدحم الأفاعي فـي قاعها. وهو فعلاً صادق فـي ورعه، وأنا على يقين من أنه سيترهّب يوماً ما، ويصبح من كبار القانتين المصلين الصائمين، والشيطان وحده يعرف بأية طريقة مشوهة سيتداخل فـي نفسه الوجد الديني الحقيقي مع الرجس والتجديف وأهواء ما بشعة مقرفة كالسادية أو شيء ما آخر من هذا القبيل؟

قال يارتشينكو وهو يشير بعينيه إلى الفتيات بحذر:

- ولكنك، كما أرى، لا ترأف بالـ«موضوع» الذي تبدي حوله ملاحظاتك.

- ايه، لا يهم، العلاقات بيننا الآن باردة.

- لم هكذا؟

فابتسم المراسل وأجاب مراوغاً:

- هكذا... الأمر لا يستأهل الحديث عنه... مجرد تفاهة... قرب كأسك إلى هنا، يا سيد يارتشينكو.
بيد أن نورا المتعجلة التي لا تستطيع أن تمسك لسانها اندفعت بغتة تقول بسرعة:
- لأن سرغي ايفانيتش لطمه على وجهه... بسبب نينكا[1] . أتى إلى نينكا زبون عجوز... وبات عندها... وكان لدى نينكا عَلَم أحمر[2]، ولكن العجوز ظل طوال الوقت يعذبها... فبكت نينكا وهربت منه.
قال بلاتونوف مقطباً جبينه:
- دعك من هذا يا نورا. هذا ممل...
- أوديبني! (كفّي).
قالت تمارا بنبرة آمرة باللهجة الدارجة في بيوت البغاء. بيد أن نورا المندفعة بكل قوتها كان من المتعذر إيقافها:
- وأخذت نينكا تقول: إنني لن أبقى معه مهما كان الثمن، حتى ولو قطعتموني غرباً إرباً... بللني كلي بريالته. العجوز طبعاً، اشتكى للحاجب، وهذا طبعاً بدأ يضرب نينكا. في هذا الوقت كنتُ أستكتب سيرغي ايفانوفتش ايفانيتش رسالة إلى بيتنا في الريف، وما إن سمع صراخ نينكا...
قال بلاتونوف: - زويا، اغلقي فمها!
- حتى قفز و... أبـ...! – وفجأة انقطع التيار المتدفق من فم نورا الذي سدته زويا براحة يدها..

---

[1] تصغير اسم نينا.

[2] أي عائق عضوي عارض.

ضحك الجميع باستثناء بوريس سوباشنيكوف الذي تمتم وسط الضجيج، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الاحتقار: -Oh, Chevalier sans peur et sans ré Proche-.

كان قد أسرف فـي الشراب، ووقف مستنداً إلى الجدار فـي وضع المتحدي، وقد وضع يديه فـي جيبي بنطاله، وراح يعلك مبسم بابيروسته بعصبية.

سأل رمسيس بفضول: - أيّهن نينكا؟ هل هي هنا؟

- لا، ليست هنا، إنها فتاة خنساء، ضئيلة الجسم، ساذجة وسريعة الغضب.

انفجر المراسل ضاحكاً بغتة وعلى غير توقع ثم أكمل: عفواً... أنا لا لشيء... بل لمجرد فكرة خطرت لي – قال معللاً من خلال الضحك – لقد تصورت الآن بوضوح شديد هذا العجوز وهو يركض خائفاً فـي الممر، حاملاً ملابسه الخارجية وحذاءه... شيخ وقور له سيماء الحواريين، إنني أعرف حتى مكان وظيفته. وأنتم جميعاً تعرفونه أيضاً، ولكن الأطرف من كل هذا منظره عندما جلس أخيراً فـي الصالة وشعر أنه أصبح فـي أمان. تتصورون: يجلس على كرسي ويحاول أن يرتدي بنطاله ولا يتمكن بحال من الأحوال أن يضع رجله حيث ينبغي، ويصيح بصوت يملأ أرجاء البيت: «حقارة! وكر قذر! سأفضحكم وأظهركم على حقيقتكم! غداً خلال أربع وعشرين ساعة!»، هذا الجمع بين العجز البائس وصيحات التهديد كان مضحكاً إلى درجة جعلت حتى سيميون المتجهم يغرب فـي الضحك... آه، نعم، بالمناسبة... عن سيميون. أقول إن الحياة تذهل الإنسان وتدفعه فـي طريق مسدود بتشوشها العجيب وتبلبلها الغامض. يمكنك التشدق بألف كلمة طنانة عن القوّادين

ولكنك لن تستطيع بحال من الأحوال أن تتخيل واحداً مثل سيميون هذا بالضبط. الحياة شديدة التنوع ومتعددة الألوان، خذوا مثلاً آخر: صاحبة هذا المحل آنا ماركوفنا ، إن مصاصة الدماء هذه، هذه الضبع، الشرسة وهلم جرا... هي أحنّ أم يمكن لخيالك أن يتصورها. لها ابنة واحدة – بيرتا، وهي الآن تلميذة فـي الصف الخامس. وليتكم تعرفون مدى الاهتمام الحذر، والعناية الحنون اللذين تبديهما آنا ماركوفنا كي لا تعرف ابنتها عن طريق المصادفة شيئاً عن مهنتها. وكل شيء من أجل بيرتوتشكا، كل شيء فـي سبيل بيرتوتشكاز وهي لا تتجرأ على التحدث فـي حضرتها خشية أن تفلت منها كلمة من قاموس البترونة والمومس السابقة، تحترس من أجلها أشد الاحتراس، وتتصرف أمامها كجارية، كخادمة عجوز، كمربية غبية مخلصة، ككلب هرم أجرب وفـي. لقد آن لها منذ وقت طويل أن تخلد إلى الراحة، فالنقود لديها وافرة، وعملها هنا شاق، وقد طعنت فيا لسن. ولكن هيهات: يجب أن تكسب ألفاً آخر، ثم آخر، ثم آخر – وكل هذا من أجل بيرتوتشكا. وبيرتوتشكا عندها خيول، وعندها مربية انكليزية، وكل سنة يأخذون بيرتوتشكا فـي رحلة إلى الخارج، ولدى بيرتوتشكا الماسات قيمتها أربعون ألفاً، والشيطان وحده يعرف لمن هذه الألماسات؟ وأنا لست على يقين فحسب، بل أعرف حق المعرفة، أنه فـي سبيلسعادة بيرتوتشكا هذه، لا، حتى ليس فـي سبيل سعادتها، بل لنفترض أن أصبعاً من أصابع بيرتوتشكا قد شئفت، فمن أجل إزالة هذا الشأف – تصوروا لهنيهة احتمال نشوء مثل هذا الوضع – تبيع آنا ماركوفنا دون أن يرف لها جفن أخواتنا وبناتنا فـي سوق الفساد، وتعدينا جميعاً، ونحن وأبناءنا، بالزهري، ماذا؟ هلى ستقولون إنها وحش؟ سأقول لكم عندها إن ما يتحكم فـي تصرفاتها هو ذاك الحب العظيم الأعمى الأناني المتجاوز حدود العقل، والذي من أجله نَصِفُ جميعنا أمهاتنا بالقديسات.

قال بوريس سوباشنيكوف من خلال أسنانه المطبقة:
- تمهل عند المنعطفات!..
- عفواً: أنا لم أقصد المقارنة، بل قصدت تبيان الأصل العام للعاطفة. وكان يمكن أن أضرب مثلاً بحب الأُمّات المتفاني فـي عالم الحيوان، على كل شيء أرى أنني خضت فـي موضوع ممل. الأفضل أن نتركه.
قال ليخونين معترضاً:
- لا، أكمل حديثك، أشعر بأنه كانت لديك فكرة متكاملة.
- وجِدٌّ بسيطة، منذ قليل سألني البروفيسور عما إذا كنت أرصد الحياة هنا لأكتب عنها. وأنا قصدت أن أقول إنني أستطيع أن أرى، ولكنني لا أستطيع بالذات أن أرصد. ولذا ضربت لكم مثلاً بسيميون والبترونة. أنا نفسي لا أعرف لماذا، ولكنني أحسّ أن فيهما يكمن واقعٌ حياتيّ ما مرعب ولا راد له، بيد أنني عاجز عن وصفه أو تصويره – لم أُعطَ القدرة على هذا، فالأمر بحاجة إلى قدرة عظيمة فـي التقاط هنة ما، مشهد ما تافه لا يؤبه له، واستنباط حقيقة مفزعة تنسي القارئ فـي غمرة الخوف أن يغلق فمه. الناس يبحثون عن المرعب فـي الكلمات والصرخات والحركات. هبني، على سبيل المثال، أقرأ وصفاً لمذبحة ما، أو لتنكيل فـي سجن، أو لقمع تمرد. طبعاً ثمة وصف لرجال الشرطة، خدم التعسف، وانكشارية العصر الحديث، الذي يخوّضون فـي الدماء حتى الركب، وما شابه ذلك من الأوصاف التي يطلقونها فـي هذه الحالات. وهذا بالطبع يثير السخط، والشعور بالألم، والاستنكار، بيد أن هذا كله يظل فـي نطاق العقل لا القلب. ولكن لنتصور الآن أنني أسير صباحاً فـي شارع ليبياجيا، وإذا بي أشاهد حشداً من الناس قد تحلقوا حول طفلة فـي الخامسة من عمرها

ويتبين أنها تخلّفت عن أمها وتاهت، أو ربما كانت أمها قد تركتها عمداً. وثمة شرطي يجلس القرفصاء أمام الطفلة ويسألها عن اسمها، ومِنْ أين أتت، وما اسم أبيها، وما اسم أمها. وقد تفصد جبين المسكين بالعرق من الجهد الذي يبذله وانزلقت سدارته إلى قفاه، وبدا وجهه الضخم ذو الشاربين الكثين طيباً وبائساً وعاجزاً، وصوته رقيقاً وحنوناً. وأخيراً، ماذا تظنونه يفعل؟ بما أن الصغيرة قد استولى عليها اضطراب شديد، واختنق صوتها بالبكاء، وأصبحت تنفر من الجميع، يمد هذا «الشرطي القائم على رأس وظيفته» سبابته وخنصره السوداوين الخشنتين إلى الأمام، ويبدأ يمثل للفتاة دور المعزى! «بقرني سأنطح برجلي سأمعس!»، وعندما رأيت أنا هذا المشهد الظريف وفكرت في أن هذا الشرطي نفسه سيقدم بعد نصف ساعة في القسم على ضرب شخص لم يكن قد رآه قط من قبل ولا يعرف أي شيء عن جريمته، وسيدوس بقدميه على وجهه وصدره، فإنني – أنتم تفهمون طبعاً – شعرت بضيق وكآبة لا حدود لهما. ليس بعقلي، بل بقلبي. لا حدود لتشابك خيوط هذه الحياة. هل نشرب كأس كونياك ياليخونين؟

- هل نرفع الكلفة فيما بيننا؟؟

- اقترح ليخونين بغتة:

- حسن، ولكن بدون قبلات، موافق؟ في صحتك يا عزيزي... وهاكم مثلاً آخر: أَقْرأُ كيف يصف أحد الكلاسيكيين الفرنسيين أفكار ومشاعر شخص حكم عليه بالإعدام. إنه يصفها بعبارات طنانة، وبأسلوب جزل ناصع، وأنا أقرأ و... لا أتأثر البتة: لا اضطراب ولا استنكار – لا شيء سوى الملل، وقد وقع في يدي منذ أيام نص موجز يتضمن وصفاً توثيقياً لواقعة إعدام قاتلٍ حدثت في مكان في فرنسا.النائب العام الذي كان موجوداً عندما كان المجرم يرتدي ملابسه آخر مرة في حياته

لاحظ أنه انتعل حذاءه على قدمين عاريتين، فنبهه – الغبي – قائلاً :
- والجوارب؟، فنظر ذاك إليه، وقال وهو غارق بتأملاته: «وهل يستحق الأمر؟» أتفهمون؟ إن هاتين العبارتين القصيرتين كان لهما علي وقع الحجر على أم الرأس! انكشفت أمامي على الفور كل فظاعة وغباوة الموت العنيف غير الطبيعي... وهاكم المزيد عن الموت. مات أحد أصحابي، وهو نقيب في سلاح المشاة، كان سكيراً، متشرداً، وأشد أهل الأرض مودة، وكنا لسبب ما ندعوه النقيب الكهربائي[١]. كن آنذاك قريباً منه، وشاءت الظروف أن أكون أنا من يلبسه ثيابه من أجل العرض الأخير. أمسكت بسترته وشرعت أثبت عليها الكتفيّتين. وكان عليَّ أن أُدخل شريطاً في ثقوب أزرار الكتفيّة، ثم أدس نهايتي هذا الشريط عبر فتحتين تحت الياقة وأربطهما من الداخل، من البطانة. وقد قمت بكل هذه العملية وأخذت أعقد الشريط على شكل أنشوطة، ولكنني لم أتمكن من ذلك بحال من الأحوال، فأما أن تأتي الأنشوطة رخوة أكثر من اللزوم، أو تأتي إحدى النهايتين قصيرة جداً. وفيما أنا منهمك في القيام بهذه العملية التافهة خطرت لي بغتة فكرة جد بسيطة، هي أنه من الأسهل والأسرع بكثير أن أعقد نهايتي الشريط عقدة صماء – فما الفرق إذا كان لن يفكها أحد؟ وفي الحال شعرت بالموت بكياني كله. كنت حتى تلك اللحظة أرى عيني النقيب المتجمدتين وأجس جبهته الباردة دون أن أحس بالموت، ولكن ما إن خطرت لي فكرة العقدة حتى اخترقني من الرأس حتى القدم، وثناني كأنه يشدني إلى الأرض، إدراكٌ بسيط وحزين عن حتمية هلاك كلماتنا وأفعالنا ومشاعرنا كافة واستحالة استعادتها، وعن هلاك كل العالم المرئي...

---

[١] انظر أقصوصة «في ركن الدب». الناشر.

وبإمكاني الآن ذكر مئة هَنَة من أمثال هذه الهنات الصغيرة لكن المذهلة. ويكفي على سبيل المثال، أن نتحدث عما كان يعانيه الناس فـي أثناء الحرب. ولكن الفكرة التي أريد أن أصل إليها من كل هذا هي أننا نمر بهذه الهنات الطابعية دون أن نلقي إليها بالاً، نمر بها كالعميان، وكأننا لا نرى إنها مرمية تحت أقدامنا. ويأتي الفنان فيتبصرها ويلتقطها. وفجأة يدير نحو الشمس قطعة صغيرة من الحياة ببراعة فائقة تجعل كلاً منا يشهق قائلاً: «أوه، يا إلهي! إنَّ هذا قد شاهدته أنا نفسي – شاهدته بعيني! – ولكن لم يخطر لي أن أتأمله بعناية، بيد أن فناني الكلمة الروس – وهم الفنانون الأكثر إخلاصاً مع النفس وإصغاء لصوت الضمير فـي العالم كله – قد تجاوزوا حتى الآن لسبب ما ظاهرة البغاء والمحل العمومي. لماذا؟ فـي الحقيقة من الصعب علي أن أجيب عن هذا السؤال. ربما بسبب التقزز، أو الجبن، أو التخوف من أن يشتهر الكاتب بأنه إباحي، وأخيراً ربما كان السبب ببساطة هو الخوف من أن يطابق النقد المتحيز عندنا بين العمل الفني الذي يبدعه الكاتب وحياته الخاصة، وينبري للتنقيب فـي غسيله الوسخ؛ أو ربما لأنهم لا يملكون مايكفي من الوقت ونكران الذات ورباطة الجأش للغوص فـي أعماق هذه الحياة وتأملها عن كثب دون أفكار مسبقة، ودون عبارات طنانة، ودون شفقة وديعة، بل بكل بساطتها الفظيعة، وحقيقتها العملية اليومية، أوه، أي كتاب ضخم ومذهل وصادق كان سيكُتب.

لاحظ رمسيس على مضض: - ولكنهم يكتبون!..

فكرر بلاتونوف باللهجة ذاتها قائلاً بضجر:
- يكتبون، ولكن كل مايكتبونه إما كذب، أو مؤثرات مسرحية للأطفال الصغار، أو رموز ماكرة لا يفهمها إلاَّ حكماء المستقبل. أما الحياة نفسها فلم يمسسها أحد بعد. أحد الكتاب الكبار – إنسان ذو نفس صافية كالبلور وموهبة تصويرية رائعة – اقترب مرة من هذا الموضوع[1]، فانعكس في نفسه، كما في مرآة عجيبة، كل مايمكن أن تستوعبه عين الناظر من الخارج، ولكنه لم يقدم على الكذب ولا على إخافة الناس، بل نظر فقط إلى شَعْر البواب القاسي كوبر الكلب وفكر: «من المؤكد أنه هو أيضاً كانت له أم». وتصفح بنظرته الذكية المرهفة وجوه المومسات وصَوَّرها. ولكن الاشياء التي لم يكن يعرفها لم يجرؤ على الكتابة عنها. ومما يلفت النظر أن هذا الكاتب الذي يأسرك بنزاهته وصدقه قد أمعن النظر إلى حياة الفلاحين أكثر من مرة. ولكنه شعر أن لغة الشعب، وعقليته ونفسيته غامضة وغير مفهومة بالنسبة إليه... فتخطاها بلباقة وتواضع مدهشين، وعكس كل مخزون ملاحظاته الرائعة عبر عيون سكان المدينة. وأنا أذكر ذلك عن عمد. فعندنا يكتبون عن رجال المباحث، والمحامين، ومراقبي الضرائب، والمربين، وعن النواب العامين ورجال الشرطة والضباط، وعن النساء الشهوانيات، وعن المهندسين وعن مغني الباريتون، وأقسم على أنهم يكتبون بشكل جيد جداً يتسم بالذكاء والرهافة والموهبة.

---

[1] المقصود : أنطون تشيخوف في أقصوصته «النوبة» (١٨٨٨). «الناشر».

ولكن كل هؤلاء الناس نفايات، وحياتهم ليست هي الحياة، بل هي هراء ما متكلف ووهمي ولا لزوم له تهذي به الثقافة العالمية. ثمة واقعان غريبان وقديمان قدم البشرية ذاتها: البغي والفلاح. ونحن لا نعرف عنهما أي شيء سوى تلك الصور المبهرجة المحلاة العابثة التي نصادفها فـي الأعمال الأدبية. إنني أسألكم ما الذي اعتصره الادب الروسي من كل كابوس البغاء؟ سونيتشكا مارميلادوفا[1] فقط. وماذا أعطانا عن الفلاّح سوى الرعويات الشعبوية الزائفة المقززة؟ هناك عمل واحد وحيد لا أكثر، ولكن بالمقابل والحق يقال من أعظم الأعمال فـي العالم – تراجيديا مذهلة، صدقها يحبس الأنفاس ويوقف شعر الرأس، تعرفون عمّ أتحدث...

- «إذا علق المخلب....»

- قال ليخونين بصوت خافت.

- نعم...

رد المراسل ونظر إلى الطالب نظرة رقيقة تعبر عن الشكر.

وعقب يارتشينكو بثقة:

- فيما يخص سونيتشكا أعتقد أنها ليست سوى أنموذج مجرد، أعني، مخطط نفساني...

فإذا ببلاتوف الذي كان حتى هذه اللحظة يتكلم بفتور وتمهل يحتد فجأة:

- مئة مرة سمعت هذا الحكم، مئة مرة! وهو غير صحيح على الإطلاق. فخلف هذه المهنة الفظة والفاحشة، وخلف الكلمات البذيئة، والمظهر الثمل البشع – تعيش ومع ذلك سونيتشكا مارميلادوفا! إنه قدر المومس الروسية. أوه، أي طريق مأساوي وبائس ودموي ومضحك وغبي هو! فيه يختلط كل شيء:

---

[1] البغي فـي رواية دوستويفسكي «الجريمة والعقاب» (المترجم).

الإله الروسي، رحابة النفس، واللامبالاة الروسية، الجموح الروسي اليائس فـي السقوط، عدم اللباقة الروسية، السذاجة الروسية، الصبر الروسي، الصفاقة الروسية، كل هؤلاء اللواتي تأخذونهن إلى غرف النوم – انظروا إليهن ، تأملوهن بإمعان – كلهن أطفال، ليس بينهن من تجاوزت الحادية عشرة، القدر دفعهن إلى طريق البغاء، ومنذ تلك اللحظة وهن يعشن حياة غريبة، أشبه ما تكون باللعبة، بالحياة فـي الحكايات. لا ينمون، ولا تزداد خبرتهن، ويبقين ساذجات، سريعات التصديق، متقلبات المزاج، لا يعرفن ماذا سيقلن وماذا سيفعلن بعد نصف ساعة – كالأطفال تماماً. لقد رأيت هذه الطفولية الوضيئة المضحكة حتى لدى أكثر هؤلاء النسوة انحطاطاً وأكبرهن سناً، نسوة منهكات ومشوهات كأفارس العربات. ولا تموت فيهن أبداً هذه الشفقة العاجزة وهذا التعاطف اللا مجدي تجاه العذاب الإنساني... مثلاً...

أجال بلا تونوف بصره ببطء فـي جميع الجالسين، ثم نفض يده بغتة وقال بصوت واهن:

- على العموم... إلى الشيطان! .. لقد تكلمت اليوم عن عشر سنين... وكل هذا لا داعي له.

سأله يارتشينكو:

- حقاً يا سيرغي ايفانوفتش ، لماذا لا تجرب أن تصف كل هذا بنفسك؟.. إن انتباهك مركز بحيوية بالغة على هذه القضية.

فأجابه بلاتونوف بضحكة مفتعلة لا مرح فيها:

- جربت ، ولكني لم أتوصل إلى شيء، ما إن أبدأ الكتابة حتى أتوه على الفور بين مختلف الـ «إنه» و«الذي» و«كان». والاستعارات تأتي مبتذلة، والكلمات تبرد على الورقة، شيء ما كالاجترار. فـي إحدى المرات مر من هنا تيريخوف.. ذاك... المشهور... أتيت إليه ورويت له أشياء كثيرة جداً عن الحياة المحلية لم أروها لكم خشية الإملال. ورجوته أن يستخدم هذه المادة الخام.

أصغى إلي بانتباه شديد ثم قال لي حرفياً: «لا تزعل، يا بلاتونوف، إذا قلت لك إنني لم أصادف أي إنسان تقريباً فـي حياتي لم يطرح علي موضوعات لروايات وقصص، ولم يرشدني إلى ما ينبغي علي أن أكتب عنه، والمادة الخام التي قدمتها لي الآن لا حدود لاتساعها من حيث المغزى والقيمة. ولكن ماذا عساي أن أفعل بها؟ فمن أجل كتابة عمل ضخم كالذي تفكر فيه لا تكفي كلمات الغير مهما كانت دقيقة، ولا تكفي حتى الملاحظات التي تدونها فـي دفتر خاص بقلم لا يفارقك. بل يجب عليك أن تنغمس فـي هذه الحياة دون فلسفة ماكرة، ودون أية أفكار خلفية تضعها لنفسك ككاتب. عندئذٍ يخرج من بين يديك كتاب مرعب». كلماته ثبطت همتي، وفـي الوقت نفسه بثت فـي الأمل. فمنذئذٍ بت أؤمن بأنه إذا لم يأت الآن، وإذا لم يأت قريباً، فسيأتي من كل بد ولو بعد خمسين سنة كاتب عبقري، وبالذات روسي، يتمثل كل أوزار هذه الحياة وكل قذارتها، ثم يلقي بها إلينا على شكل صور بسيطة مرهفة حارقة خالدة. وكلنا عندئذٍ سنقول: إن هذا كله قد شاهدناه وعرفناه، ولكن لم يكن بمقدورنا أن نفترض مجرد افتراض أنه فظيع إلى هذا الحد!»، إنني أؤمن بكل قلبي بقدوم هذا الفنان.

- آمين! – قال ليخونين بنبرة جادة – فلنشرب نخبه.

- أي والرب – عقبت مانكا الصغيرة بغتة – ليت أحداً يكتب بصدق كيف نعيش هنا نحت الشـ... التعسات...

طُرق الباب ودخلت على الفور جينيا بثوبها البرتقالي البرّاق.

سلمت على جميع الرجال بانطلاق عفوي، وبمظهر الشخص المستقل الذي يحتل المكانة الأولى فـي البيت، وجلست قرب سيرغي ايفانوفتش من الخلف. كانت قد تخلصت لتوها من ذاك الألماني الذي يرتدي زي أعضاء الجمعية الخيرية، والذي اختار فـي أول المساء مانيا البيضاء، ثم استعاض عنها بباشا بناء على توصية من المدبرة

ولكن يبدو أن جمال جينيا المتحدي والمعتد بنفسه طعنه فـي قلبه الفاسق طعنة نجلاء، إذ إنه بعد أن قضى ثلاث ساعات فـي ارتياد بعض حانات البيرة والمطاعم مستثيراً الجرأة فـي نفسه عاد ثانية إلى محل آنا ماركوفنا ، وانتظر ريثما انصرف زائرها المؤقت كارل كارلوفتش العامل فـي مخزن البصريات، واصطحبها إلى غرفتها. غضنت جينيا وجهها باشمئزاز جواباً على تساؤل تمارا الصامت الموجه بالعينين، وارتعد ظهرها وهزت رأسها بالإيجاب:

- انصرف... أف ف ف!...

كان بلاتونوف يراقب جينيا بانتباه شديد، ويميزها من بقية الفتيات. وكان يشعر تجاهها بشبه احترام بسبب طبعها الحاد، وصعوبة انقيادها وسخريتها الجريئة. وقد شعر الآن وهو يلتفت من حين لآخر إلى الخلف فيرى عينيها المتقدتين الرائعتين، والحمرة القانية غير المعافاة التي تصبغ خديها بمقادير متفاوتة، ويرى شفتيها المعضضتين اللتين شققهما الجفاف، أن حقداً شديداً نضج من زمن طويل يجيش فـي صدرها فيثقل عليها ويكاد يخنقها، وقد فكر عندئذٍ (وغالباً ما تذكر هذا فيما بعد) أنه لم ير جينيا من قبل قط بمثل هذا الجمال المتألق الذي يبدو عليها فـي هذه الليلة. كما لاحظ أيضاً أن جميع الرجال الموجودين فـي الغرفة ما عدا ليخونين ينظرون إليها: بعضهم بصراحة، وبعضهم خلسة وكأنهم يلمحونها لمحاً، وكانت نظراتهم تطفح بالفضول وبرغبة مكتومة. لقد كان جمال هذه المرأة وفكرة إمكانية امتلاكها فـي كل دقيقة وبسهولة بالغة يثيران خيالهم.

قال بلاتونوف بصوت خفيض: - شيء ما يعتمل فـي نفسك يا جينيا.

فقالت وهي تمرر أصابعها بلطف وخفة على يده:

- لا تلق بالاً. لا شيء... شؤوننا النسائية... ليس فيها ما يثير اهتمامك.

ثم التفت على الفور إلى تمارا وشرعت تتحدث إليها بحماسة وسرعة بلهجتهن الاصطلاحية التي هي مزيج غريب من لغة اليهود والغجر وسكان رومانيا ومن الكلمات الدارجة فـي أوساط اللصوص وسارقي الخيول.

قاطعتها تمارا وهي تشير بعينيها إلى المراسل وتبتسم:
- لا تطني يا بلانة البلاّن يفن.
وقد فهم بلاتونوف بالفعل، كانت جينيا تتحدث بغضب عن أنهم خلال هذه الأمسية والليلة، وبسبب تدفق الجمهور الرخيص، أرسلوا باشا إلى غرفتها أكثر من عشر مرات مع رجال مختلفين. ومنذ قليل أصيبت بنوبة هستيريا انتهت بالإغماء. وما إن أعادوها إلى وعيها، وسقوها كأساً من الكحول ممزوجاً بقطرات من شراب حشيشة الهر حتى أرسلتها ايما ادواردوفنا من جديد إلى الصالة. وقد حاولت جينيا أن تدافع عن صديقتها، ولكن المدبرة شتمتها وهددتها بمعاقبتها.
- عمَّ هي تتحدث؟
استوضح يارتشينكو بحيرة رافعاً حاجبيه.
فأجابته جينيا بصوت لا يزال مضطرباً:
- لا تقلق... لا شيء مهم.... مجرد سخافة عائلية صغيرة... سيرغي ايفانوفتش ، أيمكنني أن أشرب من خمرتك.
صبت لنفسها نصف كأس من الكونياك وشربته دفعة واحدة نافخة منخريها الرقيقين.
نهض بلاتونوف وسار نحو الباب بصمت. فقالت له جينيا محاولة إيقافه:
- الأمر لا يستأهل، يا سيرغي ايفانوفتش ، دعك منه..
قال معترضاً: - لا، لماذا؟.. إن ما سأفعله هو أكثر الأمور بساطة وبراءة، سأحضر باشا إلى هنا، إذا لزم الأمر سأدفع لقاء ذلك. فلتستلق هنا على الأريكة لتستريح قليلاً على الأقل... نورا، ا حضري وسادة بسرعة...

وما إن انغلق الباب دون هيكله العريض غير الرشيق فـي ثيابه الرمادية حتى قال بوريس سوباشنيكوف بحدة فيها رنة احتقار:
- أي شيطان جعلنا أيها السادة نحشر فـي مجموعتنا هذا المتشرد من الشارع؟
وما حاجتنا إلى الارتباط بكل من هب ودب من الرعاع. الشيطان وحده يعرف من هو؛ ربما كان جاسوساً حتى؟ من بإمكانه أن يضمن ؟ أنت دائماً هكذا يا ليخونين.
رد عليه ليخونين بسماحة:
- وأي خطر عليك يا بوريا، من الجاسوس؟
وقال رمسيس: - ليس ليخونين ، بل أنا من عرّف الجميع عليه، وأنا أعرفه إنساناً مستقيماً تماماً، ورفيقاً جيداً..
- أي! هراء! رفيق جيد للشرب على حساب الآخرين. ألا ترون بأنفسكم أنه ليس أكثر من نموذج عادي لزبون مداوم على ارتياد المحل العمومي، وأغلب الظن أنه هور محلي يدفعون له نسبة معينة لقاء الضيافة التي يستدرج إليها الزوار.
- كف يا بوريا، هذا غباء.
قال يارتشينكو موبخاً:
بيد أن بوريا لم يستطع أن يكف. فقد كان يتصف بخاصية تعسة، هي أن السكر لم يكن يؤثر فـي قدميه ولا لسانه، بل كان يخلق لديه مزاجاً متجهماً ويجعله سريع الاستياء ومياًلاً إلى الشجار. وكان بلاتونوف قد أثار غيظه منذ مدة طويلة بنبرته الواثقة الجادة الموحية بالصدق اللا مبالي والتي لا تتناسب مع أجواء غرفة مفردة فـي محل عمومي، ولكن أكثر ماكان يحنق سوباشنيكوف هو عدم الاكتراث الظاهري الذي كان يبديه المراسل بتعليقاته الحاقدة التي كان يدسها فـي الحديث.
ومضى سوباشنيكوف يقول وهو يتميز غيظاً:

- ثم أية لهجة هذه التي يسمح لنفسه بأن يتكلم بها في مجتمعنا! اعتداد مفرط بالذات، وتنازل من علٍ، ونبرة أستاذ وسط طلابه... كويتب تافه لا يسوى ثلاثة كوبيكات! من الذين يعيشون على السندويش.

كانت جينيا طوال الوقت تنظر إلى الطالب بإمعان وتتلاعب بمرح وحقد بعينيها السوداوين البراقتين. وفجأة صفقت بكفيها وقالت:

- نعم هكذا، أحسنت أيها الطالب الصغير! مرحى، مرحى، مرحى! هكذا قوِّلَهُ! ... فعلاً..، ما هذه القباحة! الآن عندما سيأتي سأعيد له كل ما قلته.

- من فضـ..لك! كما ترغبين! – قال سوباشينكوف بلهجة مسرحية ممطوطة مشكلاً حول فمه ثنيات تعبر عن الغطرسة والاشمئزاز – أنا نفسي سأعيد له ما قلته.

صات جينيا بابتهاج وحقد وهي تضرب الطاولة بقبضتها:

- هذه هي الفتوة، هذا الذي يستأهل حبي، رأساً تحكم على البومة من طيرانها وعلى الفتى المقدام من مخططته!..

نظرت مانيا البيضاء وتمارا إلى جينيا باستغراب، ولكنهما عندما لاحظتا الوميض الماكر المتواثب في عينيها وارتعاشة فتحتي أنفها العصبية فهمتا وابتسمتا.

هزت مانيا البيضاء رأسها بلؤم وهي تضحك، فقد كان وجه جينيا يكتسي دوماً بمثل هذا التعبير عندما كانت تحس من الداخل بأن فضيحة قد استثارتها هي نفسها ستتفجر قريباً.

قال ليخونين: لا تحتدّ يا بورينكا، الجميع هنا متساوون.

أحضرت نورا وسادة وضعتها على الأريكة، فصاح بها سوباشنيكوف:

- وهذه لماذا؟ هيا، خذيها فوراً من هنا، هذا ليس مهجعاً.
- وهذه لماذا؟ هيا، خذيها فوراً من هنا. هذا ليس مهجعاً.
عارضته جينيا بصوت عذب:
- دعها يا عزيزي، ما شأنك بها؟
- انتظر يا قلبي، الأحسن أن أجلس أنا معك.
دارت حول الطاولة وجعلت بوريس يجلس على كرسي وقعدت هي على ركبتيه، ثم طوقت عنقه بذراعها وألصقت شفتيها بفمه وضغطت عليه بشدة، وظلت هكذا طويلاً إلى أن انقطع نفسه، قريباً جداً من عينيه شاهد عيني المرأة: كبيرتين إلى حد غريب، غامقتين، براقتين، غير واضحتين وساكنتين. خيل إليه لربع ثانية، للحظة، أن فـي هاتين العينين الخاليتين من الحياة قد ارتسم تعبير عن كراهية حادة مسعورة. واخترق دماغَه برد الرعب، وإحساس مبهم بوقوع مصيبة مخيفة لا مناص منها. تخلص بصعوبة من ذراعي جينيا اللينتين، ودفعها بعيداً عنه، وقال ضاحكاً وقد تضرج بالحمرة وتتابعت أنفاسه:
- هكذا تكون الطبيعة الحامية. آه منك يا ميسّالينا بافنوتيفنا! أظن أنهم ينادونك جينيا؟ جميلة، أيتها الماكرة.
عاد بلاتونوف مع باشا التي كان مرآها يثير الشفقة والامتعاض. وجهها كان شاحباً ومشوباً بمسحة من زرقة الاحتقان، وعيناها العكرتان نصف المغمضتين كانتا تبتسمان ابتسامة واهنة بلهاء، وشفتاها المنفرجتان بدتا أشبه بخرقتين حمراوين مهترئتين مبللتين. كانت تسير بخطوات متهيبة مترددة وكأنها تخطو بإحدى قدميها خطوة واسعة وبالأخرى خطوة قصيرة. اقتربت من الأريكة بانصياع، واستلقت واضعة رأسها على الوسادة دون أن تكف عن الابتسام بوهن وجنون. وكان واضحاً من مظهرها الخارجي أنها تشعر بالبرد.

- عفواً، أيها السادة، سأخلع سترتي – قال ليخونين وهو ينزع عنه سترته، ثم ألقى بها على كتفي المومس وأردف: - تمارا قدمي لها شوكولاته ونبيذاً.
مرة أخرى وقف سوباشنيكوف في الزاوية وقفة مسرحية، ومال بجذعه إلى الأمام، ووضع قدماً خلف قدم ورفع رأسه إلى الأعلى، ثم مالبث أن قال فجأة وسط صمت الجميع بنبرة تنم على أقصى درجات الإعجاب بالنفس متوجهاً مباشرة إلى بلاتونوف:
- ايه... اسمع... كيف ينادونك؟ هذه، كما أظن، هي عشيقتك؟ آ؟
وأشار برأس جزمته إلى باشا المستلقية.
- ماذاااا؟! – سأل بلاتونوف بصوت ممطوط رافعاً حاجبيه.
- أم أنك أنت عشيقها – وعلى كل، لا فرق... كيف يسمون هذه الوظيفة عندكم؟ أعني أولئك الذين تخيط لهم النساء قمصانهم ويقاسمنهم أجرهن الذي يكتسبنه بشرف؟ آ؟...
حدجه بلاتونوف بنظرة ثقيلة متوترة مضيقاً مابين جفونه وقال له بصوت أبح خفيض ناطقاً كلماته ببطء ورصانة:
- اسمع، هذه ليست المرة الأولى التي تتحرش بي فيها اليوم لتتشاجر معي. ولكن، أولاً، أرى أنك، على الرغم من مظهرك الصاحي، أنت في حالة سكر شديد وبشع، وثانياً: أنا أرأف بك كرمى لرفاقك. إلاَّ أنني أحذرك: إذا سوّلت لك نفسك أن تخاطبني هكذا مرة أخرى فعليك أن تخلع نظّارتك.
- ما هذا الهراء؟ - صاح بوريس وهو يرفع كتفيه إلى الأعلى وينخر بأنفه – أية نظارة؟ ومادخل النظارة؟ - ولكنه مد إصبعيه بصورة آلية إلى قوس نظارته «البينسنية» وأصلح من وضعه على قصبة أنفه.

رد المراسل بلا مبالاة:
- لأنني سأضربك، ويمكن أن تصيب الشظايا عينيك.
وعلى الرغم من اتخاذ المشادة هذه الوجهة غير المتوقعة لم يضحك أحد من الموجودين. وحدها مانكا البيضاء شهقت متعجبة ورفعت يديها إلى الأعلى وصفقت. وراحت جينيا تنقل بصرها بينهما بسرعة ونفاد صبر نهم.
- فلنفترض! أنا أيضاً سأرد عليك بشيء لن يسرك – زعق سوباشنيكوف بفظاظة وبأسلوب صبياني محض – ولكن الأمر لا يستحق تلويث اليدين بأي....
- وأراد أن يضيف شتيمة جديدة ولكنه لم يجرؤ – بأي كان.... وعلى العموم، أيها الرفاق، أنا لست على استعداد للبقاء هنا مدة أطول، تربيتي أرفع من أن تسمح لي بالتباسط مع أمثال هذه المخلوقات.
سار نحو الباب بسرعة وكبرياء. وكان عليه فـي أثناء سيره أن يقترب جداً من بلاتونوف، الذي كان يتابع بطرف عينه، وبتوفز الوحش، كل حركة من حركاته. راودت الطالب للحظة خاطفة رغبة فـي أن يوجه إليه ضربة مفاجئة من جانب ثم يقفز بعيداً عنه، ومن المؤكد أن الرفاق سيسارعون إلى الحجز بينهما، ولن يصل الأمر إلى حد العراك، ولكنه فـي الحال، ودون أن ينظر تقريباً إلى المراسل رأى وتحسس بغريزة ما عميقة لا واعية ذينكم الكفين العريضين المستقرين بهدوء على الطاولة، وذاك الرأس العريض الجبهة المائل إلى الأسفل بعناد، وسائر الجسم القوي اللامتناسق البارع لخصمه الذي يسترخي على الكرسي حانياً ظهره والمتأهب فـي كل لحظة إلى توجيه ضربة سريعة مرعبة، فخرج إلى الدهليز صافقاً الباب خلفه بعنف.

وقالت جينيا فـي اثره بنبرة ساخرة وسريعة:
- وقعت المرأة من العربة خف الحمل عن الفرس[1] . تمارتشكا، صبي له قدحاً آخر من الكونياك.
بيد أن الطالب الطويل بيتروفسكي وجد لزاماً عليه أن يدافع عن سوباشنيكوف فنهض من مجلسه قائلاً:
- أنتم كما تريدون، أيها السادة، فالقضية تعود إلى وجهة النظر الشخصية لكل منكم، أما أنا فإنني بدافع المبدأ سأغادر مع سوباشنيكوف. حتى وإن كان ليس على حق وهلم جرا... فقد كان بإمكاننا أن نوجه إليه اللوم ضمن جو مجموعتنا الحميم، ولكن بما أن رفيقنا قد أهين، فإنني لن أستطيع البقاء هنا. أنا ذاهب.
فقال ليخونين بامتعاض وعصبية وهو يحك صدغه:
-عجباً منك!.. يا إلهي!.. بوريس دائماً كان يتصرف بمنتهى الابتذال والفظاظة والغباء. وماهو شرف المجموعة الوهمي هذا الذي تتحدث عنه؟ الانسحاب الجماعي من هيئات التحرير، ومن الاجتماعات السياسية، ومن المحال العمومية.
نحن لسنا ضباطاً لكي نغطي غباء كل فرد منا.
- مع ذلك، أنتم كما تريدون، أما أنا فسأنسحب انطلاقاً من مشاعر التضامن! قال بيتروفسكي بجلال وخرج، فشيعته جينيا بقولها: فلتكن الأرض طرية تحت قدميك!..

---

[1] مثل روسي بمعنى: إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم. (المترجم).

ولكن كم هي متعرجة ومظلمة مسارب النفس البشرية! كلاهما، سوباشنيكوف وبيتروفسكي، تصرفا في سورة غضبهما بصدق مع النفس إلى حد ما، إلاَّ أنَّ صدق الأول لم يتعد النصف، بينما لم يبلغ صدق الثاني سوى الربع فقط. فسوباشنيكوف، على الرغم من سكره وغضبه، استولت على ذهنه فكرة مغرية هي أن من الأنسب له والأسهل عليه الآن إزاء رفاقه أن يستدعي جينيا بهدوء وينفرد بها. أما بيتروفسكي الذي كانت لديه الغاية نفسها ويفكر في جينيا بالذات فقد خرج في إثر سوباشنيكوف الذي كانت لديه الغاية نفسها ويفكر في جينيا بالذات فقد خرج في إثر سوباشنيكوف ليستدين منه ثلاثة روبلات. سوّيا الأمور بينهما من الصالة العامة، وبعد عشر دقائق أطلت المدبرة زوسيا بوجهها المعوج الوردي الماكر من باب الغرفة الموارب ونادت:

- جينيتشكا، أحضروا لك الملاءات، تعالي عديها. وأنت يا نورا الممثل يريدك أن تذهبي إليه لدقيقة لتشربي شمبانيا. إنه يجلس مع هنرييتا ومانيا الكبيرة.

ظل الحديث مدة طويلة يدور حول المشادة السريعة والسخيفة بين بلاتونوف وبوريس. وكان المراسل يشعر دائماً في مثل هذه الحالات بالخجل والحرج والأسف وعذاب الضمير. وعلى الرغم من أن جميع الباقين كانوا إلى جانبه فقد كان يقول بنبرة تعبر عن السأم: - صدقاً أيها السادة، من الأفضل أن أذهب. ما الداعي لأن أكون السبب في خلخلة حلقتكم؟ كلانا أخطأنا. وأنا سأذهب. بالنسبة للحساب، لا تقلقوا، فقد دفعت التكاليف كلها لسيميون عندما ذهبت لأحضر باشا.

فجأة نفش ليخونين شعره ونهض قائلاً بحزم:
- لا، هذا لا يمكن أبداً سأذهب وأحضره إلى هنا، أقسم بشرفي: الاثنان كلاهما، بوريس وفاسكا شابان ممتازان. ولكنهما لا يزالان فتيين ويتشاجران مع ذباب وجهيهما. سأذهب لإحضارهما، وأنا أتكفل باعتذار بوريس:
ذهب، ثم عاد بعد خمس دقائق، وقال بتجهم وهو ينفض يده بيأس:
- يهدأان شيئاً فشيئاً، كلاهما.
فـي هذا الوقت دخل سيميون الغرفة حاملاً صينية عليها كأسان ممتلئان نبيذاً ذهبياً فواراً، وبطاقة زيارة شخصية كبيرة. قال وهو يجول ببصره فـي الجالسين:
- اسمحوا لي أن أسأل من هو السيد غافريلا بيتروفتش يارتشينكو؟
أجابه يارتشينكو: - أنا هو.
- فضلوا، السيد الممثل أرسلها لكم.
التقط يارتشينكو بطاقة الزيارة المزينة فـي أعلاها بتاج مركيزي ضخم، وقرأ بصوت مسموع:
يفميني بولو ايكتوفيتش
ايغمونت – لافريتسكي
فنان درامي فـي مسارح العاصمة.
قال فولوديا بافلوف:
- من اللافت للنظر أن جميع الغاريّكات الروس لهمه أسماء غريبة مثل خريسانفوف، فيتيسوف، مامنتوف، يبيماخوف.

وأضاف المراسل:
- زد على ذلك أن أكثرهم شهرة يلثغ بالضرورة إما بالراء أو بالسين أو أنه يفوق.
- فقال يارتشينكو:
- نعم، ولكن الأروع من هذا كله أنني لم أحظ البتة بشرف التعرف إلى ممثل مسارح العاصمة هذا. على كل هناك كتابة ما على ظهر البطاقة، ويدل الخط على أن صاحبه في حالة سكر شديد وضعيف في الكتابة. إنه يكتب: «اشربُ بصحت»، - بالتاء المبسوطة لا المربوطة – أوضح يارتشينكو - «بصحت نبراس العلم الروسي غافريلا بيتروفتش يارتشينكو، الذي شاهدته بالصدفة وأنا أجتاز الممر، وأرغب في دق كأسي بكأسه شخصياً، وإذا كنت لا تذكر، تذكّر المسرح الشعبي، «الفقر ليس عيباً»، والفنان المتواضع الذي مثل دور أفريكان».
- نعم، هذا صحيح، - قال يارتشينكو – مرة فرضوا عليَّ بطريقة ما أن أنظم عرض هذه المسرحية لغاية خيرية في المسرح الشعبي. والآن أتذكر بشكل ضبابي وجهاً ما حليقاً عليه سيماء الكبرياء، ولكن... ما العمل الآن يا سادة؟...
أجاب ليخونين بطيبة: - اسحبه إلى هنا، ربما كان مضحكاً؟
وسأل الأستاذ بلاتونوف : - وأنت؟
- بالنسبة لي سيان. أنا أعرفه معرفة سطحية. في البداية سيشرع يصيح: «جرسون، شمبانيا!»، وبعد ذلك سيبكي من أجل زوجته – الملاك. ثم يلقي خطبة وطنية، وفي النهاية يعربد بسبب الحساب ، ولكن بدون جلبة عالية، على كل لا بأس، إنه مسلّ.
- دعوه يحضر، - قال فولوديا بافلوف من خلف كتف كاتيا التي كانت تجلس على ركبتيه وتؤرجح قدميها.

- وأنت يا فيلتمان؟
- ماذا؟ - سأل هذا وهو ينتفض. كان يجلس على الأريكة بجانب باشا المتمددة موليا رفاقه ظهره، ومنحنياً عليها، وقد أخذ منذ زمن طويل يمسد لها كتفيها تارة وشعرها على قذالها تارة أخرى. بمنتهى المودة والتعاطف، وكانت هي قد شرعت تبتسم له ابتسامتها الخجول – الوقحة والشهوانية - الفارغة من المعنى عبر أهدابها المرتعشة نصف المسبلة – ماذا؟ ما الأمر؟ آه، نعم، هل نسمح للممثل بالمجيء إلى هنا؟ لا مانع لدي. فليتفضل...
دعا يارتشينكو الممثل عن طريق سيميون، فجأة وشرع رأساً في تأدية دوره المألوف، توقف في المدخل بسترته الطويلة الذيل ذات المقالب الحريرية اللامعة، وقبعته العالية المتألقة التي كان يمسكها بيده اليسرى المرفوعة إلى وسط صدره، كممثل يؤدي على خشبة المسرح دور زير نساء كهل أنيق في المجتمع الراقي، أو دور مدير مصرف. وكان هو يتصور أمثال هذه الشخصيات تقريباً في داخله.
سأل بصوت
سم ودود وهو ينحني نصف انحناءة مع بعض الميل إلى جانب: - هل يُسمح لي، أيها السادة، باقتحام مجموعتكم المترابطة؟
دعوه إلى الدخول، فدخل وبدأ بالتعارف، وكان وهو يشد على الأيدي يقدم مرفقه إلى الأمام، ويرفعه إلى الأعلى بحيث يصبح الكف أخفض منه بكثير.

إنه لم يعد الآن مدير مصرف، بل غدا فتى مندفعاً مقداماً، رياضياً ونجماً من نجوم مجالس اللهو فـي أوساط الشبيبة الذهبية. إلاَّ أنَّ وجهه ذا الحاجبين الكثين الشعثين، والصدغين المكشوفين العاريين من الشعر كان سوقياً وصارماً ودنيئاً كوجهِ كحوليٍ نموذجي وفاسق وشخص قاسٍ ضحل المستوى. وقد أتت معه المرأتان اللتان ترافقانه: هنرييتا – أكبر النساء سناً فـي محل آنا ماركوفنا ، وهي امرأة ذات خبرة، جربت كل شيء ووطنت نفسها على كل شيء، كالفرس العجوز التي تدير آلة الدارس؛ لها صوت باس غليظ ولكنها لا تزال جميلة؛ ومانكا الكبيرة أو مانكا – التمساح. ولم تكن هنرييتا قد فارقت الممثل منذ الليلة الماضية، إذ كان قد أخذها من المحل إلى فندق.

وما إن جلس بجانب يارتشينكو حتى بدأ يلعب دوراً آخر: تقمص شخصية ملاّك أراضٍ طيب كان يوماً ما طالباً فـي الجامعة، وهو الآن لا يستطيع أن ينظر إلى الطلاب دون أن يمتلئ قلبه بحنان أبوي هادئ.

- صدقوني أيها السادة نفسي تستريح من كل منغصات الحياة عندما أكون بين الشباب - قال وهو يرسم على وجهه القاسي الداعر تعبيراً مسرحياً مبالغاً فيه وغير واقعي يمثل التأثر – هذا الإيمان بالمثل الأعلى المقدس، وهذه الصبوات الشريفة! وهل يمكن أن يكون هناك ماهو أسمى وأنقى من طلبتنا الروس؟ ياكولنير! شامبتـ.. أنيـ..ا! صاح فجأة بصوت يصم الآذان، وخبط الطاولة بقبضته.

وأبى ليخونين ويارتشينكو أن يبقيا مدينين له. وبدأت حفلة سكر صاخبة. وليس يعلم إلاَّ ا لرب كيف ظهر فـي الغرفة بعد قليل كل من ميشكا – المغني وكولكا – المحاسب اللذين مالبثا أن شرعا فـي الغناء بصوتهما المتواثب:

أنت، أيها الفجر، أسرع...

كما ظهر أيضاً فانكا ـ فستانكا المستيقظ لتوه، وراح يقول بلهجة تضرع حار وقد أمال رأسه بتذلل إلى جانب، وضيق عينيه المغرورقتين بالدموع والغائرتين فـي وجهه المتغضن العجوز كوجه دون كيشوت، مرسلاً منهما نظرة معسولة: أيها السادة الطلاب... ضيفوا الشيخ... أقسم بالرب أني أحب الثقافة.. اسمحوا لي!...

استقبل ليخونين الجميع برحابة صدر، أما يارتشينكو فلم يكن يزيد فـي البداية – قبل أن تلعب الشمبانيا برأسه – على أن يرفع حاجبيه الأسودين القصيرين إلى الأعلى، فيرتسم على وجهه تعبير ينم على الوجل والدهشة والسذاجة، وفجأة غصت الغرفة بالناس والدخان والضجيج وأصبح الجو فيها خانقاً. وعلت قرقعة مصاريع النوافذ فيما كان سيميون يغلقها من الخارج باللوالب. وما إن كانت أي من النساء تتخلص من زيارة أو تنتهي من رقصة حتى تدخل الغرفة فتجلس على ركبتي أي رجل، وتدخن، وتغني كيفما اتفق، وتشرب النبيذ، وتتبادل القبلات، وتخرج ثانية، ثم تعود من جديد. وقد استاء وكلاء متجر كيريشكوفسكي لأن البنات يبدين اهتماماً بالغرفة أكثر من الصالة، وعملوا على افتعال فضيحة ما، وحاولوا التحرش بالطلاب، بيد أن سيميون قمعهم فـي الحال بكلمتين أو ثلاث ألقى بها بلهجة آمرة وبطريقة توحي ظاهرياً بأنها قيلت عرضاً.

عادت نورا من غرفتها، وتبعها بيتروفسكي بعد قليل، وصرح هذا بمنتهى الجد أنه كان كل هذا الوقت يسير فـي الشارع ويفكر فيما حدث، وقد هداه تفكيره أخيراً إلى أن الرفيق بوريس كان فعلاً غير محق، ولكن هناك ظرفاً يخفف ذنبه وهو – السكر. وجاءت بعد ذلك جينيا، ولكن وحدها: إذ إن سوباشنيكوف قد غفا فـي غرفتها.

وتبين أن الممثل يتمتع بمواهب لا تحصى. فقد قلد تقليداً متقناً للغاية طنين ذبابة يحاول شخص سكران أن يصطادها على زجاج نافذة، والأصوات التي يصدرها المنشار. ومثل بطريقة مثيرة للضحك مقرباً وجهه من الزاوية حديث امرأة عصبية بالهاتف، وقلد الغناء الصادر عن أسطوانة تدور على الحاكي، وأخيراً مثل بواقعية خارقة صبياً فارسياً يلاعب قرداً مدرباً. أمسك بيده سلسلة متوهمة، وفـي الوقت نفسه كشر عن أنيابه وأقعى كالقرد وهو يطرف بعينيه بسرعة وراح يحك مؤخرته تارة وشَعْرَ رأسه تارة أخرى وشرع يغني بصوت أخنّ رتيب حزين مشوهاً الكلمات:

الكوزاقي الشب زهب إلى الحرب

الصبية الشبة تتمرمغ عند السياج

آينا، آينا، آيـ... نا – نا – آيـ... نا – نا – نا

وفـي الختام حمل مانيا البيضاء، ولفها بحاشية سترته الطويلة، ومد يده إلى الأمام، وتصنع البكاء، وأخذ يهز رأسه المائل إلى جانب كما يفعل الصبيان السمر الشرقيون القذرون الذين يهيمون فـي أنحاء روسيا مرتدين معاطف عسكرية طويلة قديمة، وكاشفين عن صدورهم البرونزية ومتأبطين قروداً ذات شعر ناسل ومصابة بالسعال.

ـ من أ نت؟

سألته بصرامة كاتيا السمينة التي كانت تعر فهذه الدعابة وتحبها.
فأجابها الممثل بأنين حزين خارج من الأنف:
- صربياني يا ستي، تحنني علي يا ستي...
- وما اسم سعدانك؟
- ماتروشكا... هو، يا ستي جوعان، وهو يريد يأكل.
- وهل لديك هوية؟
- ونحن من الصربيان، اعطيني يا ستي.. أي شيء..
لم يكن حضور الممثل نافلاً البتة، فقد أحدث على الفور ضجة كبيرة وحسّن المزاج العام المتدهور، وكان لا ينفك يصيح بين دقيقة وأخرى بصوت جهوري: «كولنير! شمبانيااا!»، على الرغم من أن سيميون الذي اعتاد طريقته لم يكن يولي صراخه هذا سوى القليل جداً من الانتباه.
وسادت فوضى روسية حقيقية صاخبة وغير مفهومة، كان تولبيغين الأشقر، الوردي، الوسيم يعزف على البيانو لحن سيغيديليا[1] من «كارمن» . وقد انبرى فانكا ـ فستانكا يرقص على أنغامها رقصة شعبية روسية، رافعاً كتفيه الضيقتين إلى الأعلى، ومائلاً بجسمه كله إلى أحد الجانبين، ومباعداً بين أصابع يديه المسبلتين، ورافعاً بتفنن قدميه الطويلتين النحيلتين بالتناوب دون أن ينتقل من مكانه، ثم رفع عقيرته فجأة بالآه وراح يقفز ويصيح بانسجام مع رقصته الوحشية:

---

[1] رقصة إسبانية (أندلسية الأصل) شعبية سريعة يرافقها العزف والغناء. (المترجم).

آه! ارقص يا ماتفي
لا تضن بخفيّك!
وقال وهو يلوح بشعره الشائب الطويل: - ايه، حركة البداية وحدها قليلة عليها الربعية[١]!
- يستتشعرون الحقيـ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــ ـــقة!
زأر الصاحبان وهما يرفعان بصعوبة جفونهما المتثاقلة عن عيونهما العكرة الذابلة.
وأخذ الممثل يروي نكاتاً بذيئة وكأنه يهيلها من كيس. والنساء يزعقن من شدة الإعجاب، وينثنين حتى الانطواء من شدة الضحك، ويرتمين على مساند الكنبات. فـي هذه الأثناء كان فيلتمان الذي تهامس طويلاً مع باشا ينسل وسط الضجيج من الغرفة دون أن يلحظه أحد، وبعد عدة دقائق خرجت باشا أيضاً وهي تبتسم ابتسامتها الهادئة الخبلاء الخجولة.
وكذلك فعل الطلاب الباقون جميعاً ما عدا ليخونين . فقد خرجوا من الغرفة واحداً إثر آخر، بعضهم خلسة، وبعضهم متذرعاً بحجة ما. وكان يمر وقت طويل قبل أن يعودوا، فولوديا بافلوف رغب فـي مشاهدة الرقص، وتولبيغين دهمه الصداع وطلب من تمارا أن ترشده إلى المغسلة، واستدان بيتروفسكي من ليخونين ثلاثة روبلات بالسر وخرج إلى الممر وأرسل من هناك المدبرة زوسيا لتدعو مانيا البيضاء. وحتى رمسيس العاقل والأنوف لم يستطع أن يقاوم ذاك الشعور المباشر الذي أثاره فيه جمال جينيا العليل الذي يبدو اليوم غريباً باهراً.

---

[١] ربع المئة أي خمسة وعشرين روبلاً. (المترجم)

فقد «تبيّن» أن لديه هذا الصباح أمراً هاماً لا يقبل التأجيل، وعليه أن يذهب الآن إلى البيت لينام ولو ساعتين، ولكنه بعد أن ودع رفاقه نظر إلى جينيا نظرة خاطفة قبل أن يخرج من الغرفة وغمزها غمزة ذات مغزى مشيراً بعينيه نحو الباب. وقد فهمت قصده فأرخت أهدابها ببطء وبصورة لا تكاد تلحظ دلالة الموافقة، وعندما رفعتها ثانية أصيب بلاتونوف، الذي رأى هذا الحوار الصامت دون أن ينظر تقريباً، بالذهول من تعبير الحقد والتهديد الذي أطل من عينيها وهي تشيع ببصرها ظهر رمسيس المغادر، بعد خمس دقائق نهضت وقالت: «اعذروني، سأعود بعد قليل»، وخرجت تتهادى بتنورتها البرتقالية القصيرة.

سأل المراسل بسخرية: - ماذا؟ هل حان دورك الآن يا ليخونين؟

- لا يا أخ، أنت مخطئ – قال ليخونين وفرقع بلسانه – وليس ذلك عن عقيدة أو مبدأ... لا ! فأنا كفوضوي أعتقد أن ازدياد السوء هو الأحسن... ولكن لحسن الحظ أنا مقامر، وكل طاقتي أبددها في اللعب، ولذلك فإن صوت التقزز البسيط في داخلي أقوى بكثير من صوت هذا الشعور الأسمى من كل المشاعر. ولكن العجيب أن تتوافق أفكارنا على هذا النحو. فأنا كنت أريد للتو أن أسألك عن الشيء نفسه.

- أنا.. لا. أحياناً عندما أتعب كثيراً أبيت هنا. آخذ من ايساي سافيتش مفتاح غرفته الصغيرة وأنام على المقعد. ولكن جميع الفتيات هنا اعتدن منذ وقت طويل اعتباري مخلوقاً من الجنس الثالث.

- أيُعقل... ولا مرة؟

- ولا مرة.

وصاحت نورا : - الحقيقة هي الحقيقة! سيرغي ايفانوفتش مثل القديس الناسك.
ومضى بلاتونوف يقول:
- قبلاً ، منذ نحو خمس سنوات جربت هذا. ولكنني وجدته مملاً جداً وكريهاً. إنه يشبه تلك الذبابات التي قلدها الآن السيد الممثل. التصقت بضع ثوان بحافة النافذة، ثم حكت ظهرها بأرجلها الخلفية بدهشة غبية وطارت دون عودة. أما أن تقيم هنا علاقة حب؟ ... فأنا لست من أبطال رواياتهن. إنني غير وسيم، وأنا مع النساء متهيب وخجول ومهذب، بينما هنَّ هنا يتعطشن للشهوة الضارية، والغيرة الدموية، والدموع، وتناول السم، والضرب، والتضحية – وباختصار للرومانسية الهستيرية. وهذا مفهوم طبعاً. فقلب المرأة يهفو دوماً إلى الحب. وهنا يحدثونهن كل يوم عن الحب بمختلف الكلمات الحامضة المبللة باللعاب، فيشتهين دون إرادة منهن بعض الفلفل في الحب. يشتهين لا سماع كلمات الغرام، بل رؤية تصرفات ولهٍ تراجيدية. ولذا تجد أن عشاقهن دائماً من اللصوص والقتلة والزعران الذين يعيشون على حسابهن، وغيرهم من السفلة، والأهم أن هذا الأمر من شأنه أن يفسد رأساً كل العلاقات الودية التي انتظمت بيننا بشكل رائع.
- كفاك مزاحاً! – قال ليخونين بلهجة المستريب - ما الذي يجعلك تقضي نهارك وليلك هنا إذاً؟ لو كنتَ كاتباً لاختلاف الأمر، ومن السهل عندها أن تجد تفسيراً: يعني.. تجمع نماذج، كما يقولون... وترصد الحياة.. كذاك البروفيسور الألماني الذي عاش ثلاث سنوات مع القرود ليدرس لغتهم وعاداتهم، ولكنك أنت نفسك قلت إنك لا تسلي نفسك بالكتابة؟

- ليس الأمر في أذني لا أسلي نفسي بالكتابة، بل أنا ببساطة لا أحسن الكتابة، لا أستطيع أن أكتب.
- صَدِّقنا. والآن لنفترض أمراً آخر، هو أنك تأتي إلى هنا كداعية لحياة أفضل وأشرف، كأولئك الذين يعملون على إنقاذ النفوس الهالكة. تعرف أن بعض الآباء المقدسين كانوا في فجر المسيحية بدلاً من أن يقفوا ثلاثين سنة على عمود أو يعيشوا في مغارة، يذهبون إلى أماكن التجارة ومرابع اللهو، إلى الفاسقات، وممثلي الفرجة الجوالين، ولكن أنت لست من هؤلاء؟
- لست منهم.
- إذاً، أي شيطان يجعلك تتسكع هنا؟.. إنني أرى بكل وضوح أن كثيراً مما يحدث هنا يثير اشمئزازك ويزعجك ويؤلمك. مثلاً هذه المشادة الغبية مع بوريس، أو هذا الخادم الذي يضرب المرأة، وعلى العموم هذه المشاهدة الدائمة للقذارة، والشهوانية، والوحشية، والابتذال، والسكر. أنا أصدق أنك لا تمارس الرذيلة بما أنك أنت تقول هذا. ولكن في هذه الحالة يصبح MODUS VIVENDI [1] حسبما يعبرون في افتتاحيات الصحف، أكثر غموضاً بالنسبة لي.
لم يجب المراسل مباشرة، وعندما أجاب تكلم بتمهل وتلكؤ وكأنه يصغي أول مرة إلى أفكاره ويزنها:
- أتعرف....! أتعرف....!.. إن ما يجذبني إلى هذه الحياة ويثير اهتمامي بها.. كيف أعبر عن هذا!؟!... حقيقتها العارية المرعبة، أترى كيف! كأن جميع الأغطية المتواضع عليها قد كشفت عنها. لا كذب، ولا رياء، ولا نفاق.

---

[1] أسلوب الحياة (باللاتينية). والمقصود أسلوب حياتك.

وليس هناك أية صفقات مساومة مع الرأي العام، ولا مع هاجس هيبة الأسلاف اللجوجة، ولا مع الضمير. ليس هناك أية أوهام، ولا أية مبالغات. هذه هي – أنا!... امرأة عمومية، وعاء اجتماعي، بالوعة لتصريف فائض الشبق المديني، تعال إلي، أيها الراغب، أيا كنت، ولن تقابل بالرفض، فهذه وظيفتي. ولكن هذه الهنيهات من اللذة الشهوانية المتعجلة ستكلفك نقوداً، وتقززاً، ومرضاً، وعاراً. وهذا كل شيء. ليس ثمة أي جانب من جوانب الحياة الإنسانية تتوهج حقيقته الرئيسية الأساسية بمثل هذا السطوع العاري البشع الفظيع دون أي ظل من الكذب والتبرير الذاتي الإنساني.

- طيب، لنفرض! ولكن هؤلاء النسوة يكذبن كذباً يجعل اللبن أسود. جرّبْ أن تتحدث مع أي منهن عن زلتها الأولى، واسمع التلفيق.

- وأنت لا تسألْ. مالك ولهذا؟! ثم حتى إذا كنّ يكذبن، فإنهن يكذبن كالأطفال تماماً. وأنت تعرف أن الأطفال، هم أول الكذابين وألطفهم، وهم في الوقت نفسه أصدق من في العالم، ومن اللافت للنظر أن هؤلاء وأولئك، أي الأطفال والبغايا لا يكذبون إلاَّ علينا نحن – الرجال والبالغين. أما فيما بينهم فهم لا يكذبون، بل يرتجلون ارتجالاً ملهماً. وهم يكذبون علينا لأننا نحن أنفسنا نطالبهم بذلك، لأننا نحاول التسلل إلى نفوسهم الغريبة عنا تماماً بأساليبنا الغبية وأسئلتنا الكثيرة، وأخيراً لأنهم يعتبروننا في السر حمقى كباراً ومتصنعين بلداء. وإذا أردت، فإنني مستعد الآن لأن أعدّ لك على أصابعي كل الحالات التي تكذب فيها المومس حتماً، وستقتنع بنفسك أن الذي يحرضها على الكذب هو الرجل:

- هيا، هيا، لنر.

- أولاً: إنها تبالغ في التزين دون شفقة حتى إنها تضر نفسها أحياناً. ولم هذا؟ لأن أي طالب ضابط وجهه مغطى بالبثور ويرزح تحت وطأة نضجه الجنسي ويصبح في الربيع غبياً كطيهوج في موسم التزاوج

أو أي موظف بائس في الإدارة الكنسية، زوجته حبلى وله تسعة أطفال لا يأتي إلى هنا لتحقيق هدف معقول وبسيط هو التخلص من فائض الشهوة. بل يأتي الوغد ليتلذذ، فهو – هذا الجمالي المدعي! – بحاجة إلى الجمال! وكل هؤلاء النسوة، بنات الشعب الروسي العظيم البسيط الواضح، كيف ينظرن إلى الجمال؟ «كل حلو – لذيذ، وكل أحمر - جميل»، وهاك، إذا سمحت، خذ الجمال من الكحل والأصباغ البيضاء والحمراء.

هذا أولاً، وثانياً، أن هذا الفارس الرائع لا يكتفي بطلب الجمال، لا بل هو يطلب أيضاً ما يشبه الحب، يريد أن تشعل مداعباته في المرأة «نـار الشـ..ـهـ..ـوة المجنوووونـة!» التي يتمطقون بها في الأغاني العاطفية البلهاء، ها! هذا هو ما تريده؟ هاك إذاً وهكذا تكذب عليه المرأة بوجهها، وصوتها، وتنهداتها، وأنّاتها، وحركات جسدها. والعجيب في الأمر أنه في أعماق نفسه يعرف هذا الخداع الحِرفي، ولكنه مع ذلك يغترّ: «أوه، يالجمالي الرجولي!.. أوه، كم تحبني النساء! أوه، كيف أثيرهن وأهيجهن!» تعرف؟... يحدث أحياناً أن يتملق الناس شخصاً ما في وجهه بصفاقة لا مزيد عليها وزيف لاشك فيه، وتراه هو نفسه يعرف هذا حق المعرفة، ولكنه – وياللشيطان! يحس بلذة عجيبة تدغدغ مشاعره. وهنا أيضاً يحدث الشيء نفسه. فمن البادئ بالكذب إذاً؟...

وهاك الآن البند الثالث الذي أوحيت لي أنت نفسك به، إنهن يكذبن أكثر ما يكذبن عندما يسألونهن: «كيف وصلت إلى مثل هذه الحياة؟»، ولكن أي حق لك في أن تسأل عن هذا، فليأخذك الشيطان؟!.. هل تحاول هي أن تتدخل في حياتك الخاصة؟ إنها لا تسألك عن حبك الأول «المقدس» أو عن عذرية إخواتك وخطيبتك. ها! أنت تدفع نقوداً؟ بديع! البترونة، وطرّاد المعربدين، والشرطة، والرقابة الطبية والبلدية، كلهم يرعون مصالحك. رائع!

وقد ضُمن لك سلوك مهذب ولائق من جانب المومس التي استأجرتها من أجل الحب. وشخصيتك مصونة... على الأقل بالمعنى المباشر تماماً، أي بمعنى حصانتك من الصفعة التي تستحقها طبعاً بسبب أسئلتك الخالية من الهدف، والتي قد تكون مؤلمة. ولكنك تريد أن تحصل لقاء نقودك على الحقيقة أيضاً؟ إلاَّ أنَّ هذا لن تستطيع أبداً أن تدخله فـي حسابك ولا أن تراقبه. فهن سيروين لك قصة مقولبة بالضبط حسب النمط الذي يسهل عليك – أنت رجل القولبة والابتذال – أن تهضمه. وذلك لأن الحياة نفسها إما أن تكون مغرقة فـي العادية والإملال بالنسبة إليك، أو تكون غريبة وبعيدة عن التصديق كأشد ما تكون غرابة الحياة وبعدها عن التصديق. ومن هنا تأتيك القصة الوسط الأبدية عن الضابط والوكيل التجاري والطفل والوالد الطاعن فـي السن الذي ينوح هناك فـي الريف على ابنته الضالة ويرجوها أن تعود إلى البيت. ولكن لاحظ يا ليخونين أن كل ما قلتُه لا يمُسُّك. فأنا، بشرفي، أحس أنك ذو نفس كبيرة وصادقة... هيا نشرب فـي صحتك؟

وبعد أن شربا، أردف بلاتونوف متردداً:

- هل أتابع حديثي؟ ألم تضجر؟

- لا، لا، أرجوك تابع.

- إنهـن يكـذبن أيضـاً، ويكـذبن ببـراءة تامـة، علـى أولئـك الـذين يتبخترون أمامهن على أحصنتهم السياسية، فهن فـي هذا الصدد يوافقن على أي شيء، على كل ما تريد. أقول لها اليوم «فليسقط النظام البرجوازي المعاصر!.. ولنبد بالقنابل والخناجر الرأسماليين والإقطـاعيين والبيروقراطيـة!» فتـوافقني بحـرارة، وغـداً سيصـيح تاجر الحبوب نوزدرونوف يجب شنق جميع الاشتراكيين، وجلد جميع الطلاب، والبطش بجميع اليهود الذين يتناولون دم المسيح قرباناً، وستوافقه هي على هذا بسرور.

ولكن إذا أنت، إلى هذا، ألهبت خيالها، وأوقعتها في حبك، فإنها ستتبعك إلى أي مكان تريده، ستذهب وراءك إلى المجزرة، إلى المتراس، إلى اللصوصية، إلى القتل. وأنت تعرف أن الأطفال أيضاً مطواعون هكذا، أقسم لك بالرب إنهن أطفال يا عزيزي ليخونين...
أغووها عندما كانت في الرابعة عشرة، وفي السادسة عشرة أصبحت مومساً مجازة تحمل بطاقة صفراء ومرض الزهري، وأحيطت حياتها كلها بجدار عجيب أعمى وأصم يفصلها عن العالم. وإذا انتبهتَ إلى قاموس الألفاظ التي تستعملها ستجد أنها لا تتعدى ثلاثين أو أربعين كلمة لا أكثر، تماماً كما لدى الطفل أو الإنسان البدائي: الأكل، الشرب، الرجل، السرير، صاحبة المحل، الروبل، العشيق، الطبيب، المستشفى، الملاءات، الشرطي – وهذا كل شيء. إن نموها العقلي، وخبرتها، واهتماماتها تظل في مستواها الطفولي حتى الموت، تماماً كما لدى معلمة شمطاء ساذجة لم تتخط عتبة المعهد منذ عشر سنوات، أو راهبة أُدخلت الدير منذ نعومة أظفارها، وباختصار تصوّرْ شجرةً من صنف الأشجار الضخمة الحقيقية ولكنها زرعت في وعاء زجاجي، في مطربان مربى فارغ، إلى هذا الجانب الطفولي بالذات من حياتهن أعزو كذبهن الاضطراري – هذا... الكذب البريء المعتاد الخالي من الغاية... ولكن بالمقابل أية حقيقة مخيفة عارية صريحة مجردة من أية زخرفة في هذه المساومة العملية حول سعر الليلة، وفي هؤلاء الرجال العشرة في الليلة، وفي هذه القواعد المطبوعة التي أصدرها آباء المدينة حول استعمال محلول حمض البوريك، والحفاظ على النظافة الذاتية، وفي الفحوص الطبية الأسبوعية، وفي الأمراض الخبيثة التي ينظرن إليها بخفة ومرح وبساطة ودون معاناة كما ينظرن إلى الزكام، وفي اشمئزاز هؤلاء النسوة العميق من الرجال – العميق إلى درجة أنهن جميعاً دون استثناء يعوضن أنفسهن عنه بالمساحقة، ولا يحاولن إخفاء ذلك البتة.

هذه هي حياتهن السخيفة التي أراها بوضوح كما لو كانت على راحة كفي بكل ما فيها من استهتار وقح، وظلم فظ بشع، ولكن هذه الحياة ليس فيها ذاك الكذب وذاك التظاهر أمام الناس وأمام الذات اللذان يلفان البشرية كلها من أعلاها إلى أسفلها. فكّر يا عزيزي ليخونين: كم من الخداع المضجر الطويل البغيض، وكم من الكراهية فـي أية معاشرة زوجية فـي تسع وتسعين حالة من مئة، وكم من القسوة العمياء الخالية من الرحمة – لا القسوة الحيوانية.. لا.. بل القسوة البشرية بالذات، العاقلة، البعيدة النظر، المحسوبة – فـي الشعور الأمومي المقدس، وانظر بأية أزهار رقيقة قد زُيّن هذا الشعور! وكل هذه المهن التهريجية التي لا لزوم لها، المهن التي اخترعها الإنسان المتمدن للحفاظ على: «عُشّي، ولقمتي، وامرأتي، وطفلي». كل هؤلاء المراقبين والمناظرين والمفتشين والقضاة والنواب العامين، والسجانين، والمحامين، والمديرين، والموظفين، والجنرالات، والجنود، ومئات وآلاف التسميات الأخرى، كلهم مسخرون لخدمة الجشع، والجبن، والفساد البشري، والعبودية، والشهوة المشروعة، والكسل – الشحاذة! نعم، هذه هي الكلمة الحقيقية: الشحاذة الإنسانية! وأية كلمات فخمة يستعملون! التضحية على مذبح الوطن، والشفقة المسيحية على القريب، والتقدم، والواجب المقدس، والملكية المقدسة، والحب المقدس. تفوه! لم أعد أصدق أي كلمة جميلة، وأُصاب بالغثيان مع هؤلاء الكذابين والجبناء والشرهين شراهة لاحدود لها. إنهم شحاذون! .. الإنسان يولد من أجل الفرح العظيم، من أجل الإبداع المستمر الذي يجعل منه – إلهاً، من أجل الحب الرحب، الحر الذي لا يحده حد، والذي يشمل كل شيء: الشجر، والسماء، والإنسان، والكلب، والأرض العزيزة الوديعة ا لرائعة، آه، الأرض على الأخص، بأمومتها المفعمة بالغبطة وأصبحتها وأَمْسيتها، وبأعاجيبها اليومية الرائعة، فـي حين أن الإنسان أوغل فـي الكذب والاستجداء والتذلل!... ايه... ياليخونين، كآبة ممضة!.

- أنا، بصفتي فوضوياً، أفهمك بعض الشيء – قال ليخونين و هو مستغرق في التفكير كأنه كان يصغي ولا يصغي إلى ما يقوله المراسل، إذ إن ثمة فكرة قد ولدت في ذهنه بعسر، لأول مرة – ولكن هناك شيئاً واحداً لا أستطيع فهمه. فإذا كانت البشرية قد أقرفتك إلى هذا الحد، فكيف تصبر إذاً، وخلال هذه الوقت على هذا كله – وأشار ليخونين إلى الطاولة بحركة مستديرة من يده – و هو أحط ما أمكن للبشرية أن تخترعه؟..

- أنا نفسي لا أعرف – أجاب بلاتونوف ببراءة – أتدري... أنا متشرد جوال، ومولّه بحب الحياة، لقد عملت خراطاً ومنضّداً في مطبعة، وزرعت تبغاً من صنف الماخوركا الفضية وبعته، وعملت وقّاداً في إحدى سفن بحر آزوف، وصياد سمك على شاطئ البحر الأسود في مصايد دوبينيسك، وحمّال بطيخ وآجرّ على نهر الدنيبر، وعملت في سيرك جوال، ومارست التمثيل، من الصعب الآن أن أتذكر كل شيء. ولم تكن الحاجة هي التي تدفعني إلى هذا. لا، على الإطلاق. بل هو النهم المفرط إلى الحياة، والفضول الذي لا يطاق. أقسم لك إنني تمنيت أن أصبح لبضعة أيام حصاناً أو نباتاً أو سمكة أو امرأة، وأن أعاني المخاض والولادة. وأرغب في أن أعيش الحياة من الداخل وأنظر إلى العالم بعيني كل إنسان أقابله. وها أنا ذا أطوف دون شاغل في المدن والقرى، غير مرتبط بشيء، أتعرّف وأحب عشرات المهن، وأبحر بسرور إلى أي مكان توجه الأقدار شراعي إليه...

وهكذا ساقتني الظروف إلى المحل العمومي، وتراني كلما أنعمت النظر إليه أكثر تنامى في داخلي القلق وعدم الفهم، وثار في نفسي بركان من الغضب، ولكن سرعان ما سينتهي هذا أيضاً. فما إن يأتي الخريف حتى أغادر ثانية! سأعمل في مصنع السكك الحديدية. لي صاحب سيدبر الأمر لي... انتظر، انتظر... يا ليخونين ... استمع إلى الممثل... هذا ثالث مشهد.

كان ايغمونت لافريتسكي الذي قلد بإتقان كبير حتى الآن خنّوصاً يضعونه في كيس تارة، وعراكاً بين قطة وكلب تارة أخرى قد أخذ يرتخي ويذبل. لقد دهمته نوبة جديدة من فضح الذات، حاول في أثنائها عدة مرات تقبيل يد يارتشينكو. وقد احمرت جفونه، وتعمقت الغضون البكائية حول شفتيه الحليقتين الشائكتين، وكان صوته يشي بأن أنفه وحلقه قد طفحا بالدمع، كان يقول و هو يضرب صدره بقبضته: أنا أخدم في هزليات الفارس! أتمعج في السراويل الداخلية المخططة لأسلي الجمهور المتخم. لقد أطفأت مصباحي، ودفنت موهبتي تحت التراب كعبد كسول! أما قبـ... ـلاً – شرع يثغو بلهجة مأساوية – قبـ.... لاً!.. اسألوا في نوفوتشيركاسك، اسألوا في تفير، في أوستيوجنيا، في زفينيغورود، في كريجوبول، كيف كنت أجسد جادوف، وبيلوغين، وكيف كنت أمثل ماكس، وأية شخصية خلقت من فيلتيشيف[1]، كان هذا هو دور القمة الذي يتوج رأسي، لقد كانت بداية نادين – بيريكوبسكي معي عند سومبيكوف! واشتغلت مع نيكيفوروف – بافلينكو. ومن الذي صنع شهرة ليغونوف بوتشاينين؟ أنا! أما الآن...

---

[1] شخصيات من مسرحيات: لـ: أ.ن.أوستروفسكي، ون.يا.سولوفيوف، ول. انتروبوف، وأ.اي. سومباتوف. (الناشر).

نشج بأنفه واندفع يقبل المدرس الجامعين ثم أردف:
- نعم! احتقروني ، سِموني بميسم العار، أيها الشرفاء، إنني أهرج، أسكر... بعت الزيت المقدس وسفحته على الأرض! أجلس في وكر الرذيلة مع سلع تباع وتشترى، أما زوجتي... حمامتي الطاهرة، القديسة!... آه، لو كانت تعرف، لو أنها فقط كانت تعرف! إنها تكدح، لديها محل للأزياء، أصابعها – تلك الأصابع الملائكية – موخوزة كلها بالإبر، وأنا! آه، ياللمرأة القديسة! وأنا الوغد! انظري من أستبدلُ بك! آه، ياللهول! – وهنا أمسك الممثل بشعر رأسه دعني يا بروفيسور أقبل يدك، يد العالم. أنت الوحيد الذي يفهمني، تعال معي لأعرفك عليها، وسترى أي ملاك هي!.. إنها تنتظرني، إنهالا تنام الليل، إنها تثني أيدي أطفالي الصغار وتتمتم وإياهن «يا إلهي، أنقذ أبانا واحفظه».
- أنت تكذب في كل هذا، أيها الممثل – قالت فجأة مانكا البيضاء الثملة وهي تنظر بكراهية إلى ايغمونت لافريتسكي – إنها لا تتمتع بشيء، بل تنام بكل اطمئنان مع رجل آخر على سريرك.
- اسكتي، ياشـ....!
زعق الممثل مهتاجاً وأمسك بعنق زجاجة ورفعها إلى ما فوق رأسه – امسكوني وإلاَّ حطمت رأس هذه الساقطة، إياك أن تدنسي بلسانك النجس...
ردت عليه المرأة بجسارة:
- لساني ليس نجساً، فأنا أتناول القربان، أما أنت، أيها الغبي، فإنك تحمل قرنين. أنت نفسك تنتقل بين المومسات وتريد من زوجتك أن لا تخونك. وقد وجدت المكان المناسب الذي تذرف فيه الدموع، ولماذا حشرت الأطفال في الحديث أيها الأب التعس! لا تحملق إليَ هكذا، ولا تكز أسنانك فإنك لن تخيفني!

تطلب الأمر من يارتشينكو كثيار ًمن الجهد والبلاغة لتهدئة الممثل و مانكا البيضاء التي كانت بعد شرب البينيديكتين تميل دائماً إلى إثارة الفضائح، وفي نهاية المطاف انخرط الممثل في بكاء مر بطريقة عجائزية وهو يتمخط، وخارت قواه فأخذته هنرييتا إلى غرفتها.

نال التعب من الجميع، وأخذ الطلاب يعودون واحداً إثر آخر من غرف النوم، ثم تتبعهن عشيقاتهن العرضيات مفترقات عنهم وقد ظهرت عليهن علائم اللا مبالاة. وفي الحقيقة كان هؤلاء وأولئك يشبهون الذبابات الذكور والإناث اللواتي طرن للتو عن زجاج النافذة في شتى الاتجاهات. كانوا يتثاءبون ويتمطون. وكان التعبير اللا إرادي عن الكآبة والاشمئزاز يعلو وجوههم الشاحبة من قلة النوم واللامعة لمعاناً سقيماً، ولا يزايلها إلاّ بعد برهة طويلة، وفيما كانوا يتوادعون قبل الافتراق كان يومض في أعينهم شعور عدائي ما كما لو كانوا شركاء في جريمة قذرة لا لزوم لها.

سأل ليخونين المراسل بصوت منخفض:

- إلى أين ستذهب الآن؟

- في الحقيقة أنا نفسي لا أعرف، كنت أريد أن أبيت في غرفة ايساي سافيتش، ولكن من المؤسف أن أضيع مثل هذا الصباح الرائع. أفكر في أن أستحم، ثم أركب الباخرة وأذهب إلى دير ليبسكي لأزور راهباً سكيراً أعرفه. لم تسأل؟

- أرجوك أن تبقى قليلاً ريثما يغادر الآخرون. أنا بحاجة إلى أن أقول لك كلمتين هامّتين.

- طيب.

كان يارتشينكو آخر المغادرين، وقد تذرع بالصداع والتعب وما إن خرج من المحل حتى أمسك المراسل بيد ليخونين وشده بسرعة إلى ردهة المحل الزجاجية، وقال له وهو يشير بيده إلى الشارع:
- انظر!..
ومن خلال زجاج النافذة الملونة البرتقالي شاهد ليخونين المدرس الجامعي يقرع جرس محل تريبيل. وبعد دقيقة فُتح الباب، واختفى يارتشينكو خلفه. سأل ليخونين متعجباً: - كيف عرفت؟
- توافه. كنت أنظر إلى وجهه وكيف يمرر يديه على تريكو فيرا. الآخرون أقل منه حياءً. أما هو فخجول.
- ايه، هيا بنا - قال ليخونين – لن أؤخرك كثيراً.
لم يبق في الغرفة من النسوة سوى اثنتين: جينيا التي أتت بقميص النوم، ولوبا التي كانت قد نامت منذ وقت طويل في أثناء الحديث متكومة على نفسها في الكنبة المخملية الكبيرة، وقد ارتسم على وجهها النضر الأنمش تعبير وديع يكاد يكون طفولياً، واحتفظت شفتاها منذ أن ابتسمنا في الحلم بأثر خفيف لابتسامة مشرقة هادئة رقيقة، جو الغرفة كان أزرق ووخازاً من دخان التبغ الكثيف، وقد اكتست الشموع الموضوعة في شمعدانات بذوبها المتجمد خيوطاً مشوبة بالثآليل. وكانت المائدة التي انسكبت عليها القهوة والخمرة وتبعثرت فوقها قشور البرتقال تبدو بشعة.
كانت جينيا تجلس على الأريكة واضعة قدميها عليها ومحيطة ركبتيها بيديها، ومرة أخرى بُهت بلاتونوف وهو يرى النار المتجهمة التي تنبعث من عينيها الزرقاوين الغائرتين تحت حاجبيها الأسودين المنحدرين إلى الأسفل باتجاه قصبة الأنف كأنهما يهددان.
قال ليخونين: - سأطفئ الشموع.

ومالبث نور الفجر الوسنان الباهت أن ملأ الغرفة متسللاً عبر شقوق مصاريع النوافذ. وراحت فتائل الشموع المطفأة ترسل خيوطاً واهية من الدخان.
وكان دخان التبغ يتماوج سحباً زرقاء متراكمة، بيد أن شعاع الشمس النافذ عبر تقويرة في مصراع النافذة على شكل قلب كان يشق الغرفة على مسار مائل بسيف ذهبي جذل من الغبار وينسفح على ورق الجدار ذهباً سائلاً حاراً.
قال ليخونين وهو يعود إلى مجلسه:
- هكذا أحسن، الحديث سيكون قصيراً، ولكن.. الشيطان يعرف... كيف أبدؤه...
نظر بشرود إلى جينيا فقالت هذه دون مبالاة:
- هل أنصرف؟
فأجابها المراسل بالنيابة عن ليخونين :
- لا، أنت ابقي.
وقال مخاطباً الطالب وهو يبتسم ابتسامة خفيفة: - وجودها لن يزعجنا. الحديث سيدور عن البغاء؟ أليس كذلك؟
- يعني، نعم... شيء من هذا القبيل..
- ممتاز. استمع إليها، إن آراءها تتسم بقدر غير عادي من الاستهتار الوقح، ولكنها تكون أحيانًا وجيهة جداً.
- مسح ليخونين وجهه براحتيه، وغضنه بهما بشدة، ثم شبك أصابعه وطقطقها بعصبية مرتين، كان واضحاً أنه مضطرب ويستحي مما هو عازم على قوله: وفجأة هتف بغضب:
- ايه، أليست الأمور كلها سواء! أنت اليوم كنت تتحدث عن هؤلاء النسوة... وأنا كنت أصغي إليك...

والحقيقة أنك لم تقل لي شيئاً جديداً. ولكن الغريب أنني شعرت وكأنني للمرة الأولى في حياتي الطائشة أنظر إلى هذه المسألة بعينين مفتوحتين... إنني أسأل نفسي: ماهو البغاء في نهاية المطاف؟ ما هي حقيقته؟. أهو هذيان أرعن تصاب به المدن الكبرى، أم هو ظاهرة تاريخية أبدية؟ هل سيتوقف يوماً ما؟ أم أنه لن يموت إلاَّ بموت البشرية بأسرها؟ من بمقدوره أن يجيبني عن هذا؟...

كان بلاتونوف يرنو إليه بإمعان مضيقاً عينيه بعض الشيء كعادته، كان يهمه أن يعرف ماهي الفكرة الرئيسة التي تعذب ليخونين فعلاً إلى هذا الحد.

- متى سيتوقف! ليس بمقدور أحد أن يقول لك. ربما عندما تتحقق اليوتوبيات الرائعة التي يحلم بها الاشتراكيون والفوضويون، عندما تصبح الأرض ملكاً للعموم ولا مالك لها، عندما يصبح الحب حراً تماماً ولا يخضع إلاَّ لرغباته اللامحدودة، عندما تتوحد البشرية في أسرة سعيدة واحدة حيث ينتفي الفرق بين الذي لك والذي لي، وتقوم الجنة على الأرض، ويعود الإنسان ثانية عارياً، هانئاً، مبرءاً من الإثم. عندئذٍ فقط...

- والآن؟ الآن؟ -سأل ليخونين باضطراب متزايد – هل ننظر بأعيننا دون أن نحرك ساكناً؟ هل نقول: المهم أن الحريق ليس في بيتنا؟ هل نصبر على هذا الواقع كشر لابد منه؟ هل نهادن وننفض يدنا بيأس؟ هل نبارك؟

- هذا ليس شراً لابد منه، بل شهر لا يقهر. ولكن أليست الأمور كلها سواء بالنسبة إليك؟! – سأل بلاتونوف بتعجب بارد – فأنت، كما أعرف، فوضوي؟

- أي فوضوي أنا، وأي شيطانَ على العموم نعم، أنا فوضوي، لأن عقلي، كلما فكرت في الحياة، يقودني دائماً، وبشكل منطقي إلى المبدأ الفوضوي. وتراني أقول لنفسي عندما أفكر نظرياً: ليضرب الناس بعضهم بعضاً، وليخدع بعضهم بعضاً، وليجزّ بعضهم صوف بعض كقطيع من النعاج – فليكن! القهر سيولّد الحقد عاجلاً أو آجلاً. فليقهروا الطفل، وليدوسوا الفكر المبدع بالأقدام، وليستفحل الاستعباد، ولينتشر البغاء، وليسرقوا، وليسخروا، وليسفكوا الدماء... فليكن! كلما ازداد السوء كان ذلك أفضل، وكانت النهاية أقرب. هناك قانون عظيم، كما أعتقد أنا، ينطبق بالقدر نفسه على الأشياء الجامدة، وعلى الحياة الإنسانية الكبرى بكل ملايينها العديدة وعمرها الطويل: قوة الفعل تساوي قوة رد الفعل. كلما ازداد السوء كان ذلك أفضل. فليتراكم الحقد والنقمة في صدر الإنسانية. وليتعاظما وينضجا كدمّل فظيع – دمّل بحجم الكرة الأرضية فهو لابد أن ينفجر في وقت ما! فلينتشر هول وألم لا يطاق، وليغرق القيح العالم كله. فإما أن تَشَرق البشرية به وتختنق، وإما أن تتجاوز العلة وتنبعث لتعيش حياة جديدة رائعة.

عبَّ ليخونين بنهم فنجان القهوة السوداء الباردة وأردف بحماسة:

- نعم. هكذا بالضبط ننظّر أنا وآخرون كثيرون ونحن نجلس في غرفنا نحتسي الشاي ونأكل خبزاً ومارتديلا مسلوقة، معتبرين في أثناء ذلك أن قيمة حياة كل إنسان على حدة – ليست بالشيء الهام، بل هي مجرد رقم متناه في الصغر في معادلة رياضية، ولكنني ما إن أرى أحداً يسيء إلى طفل حتى يندفع الدم حاراً إلى رأسي من شدة الغضب. وعندما أنظر وأنظر إلى عمل الفلاح أو العامل أصاب بالهستيريا من شدة الخجل من حساباتي الجبرية.؟

ياللشيطان! هناك شيء ما فـي الإنسان سخيف وغير منطقي على الإطلاق، ولكنه أقوى بمئة مرة من العقل الإنساني... وها نحن اليوم مثلاً... لماذا أشعر الآن وكأنني سرقت شخصاً نائماً أو خدعت طفلاً عمره ثلاث سنوات أو ضربت شخصاً مقيداً؟ ولماذا يبدو لي اليوم أنني أنا نفسي مذنب فـي وجود آفة البغاء – مذنب بسكوتي، بعدم اكتراثي، بتغاضي اللا مباشر؟ ماذا علي أن أفعل يا بلاتونوف؟ - صاح الطالب بصوت مفعم بالأسى.

نظر بلاتونوف إليه بصمت مخزّراً عينيه الضيقتين، وبادرت جينيا إلى القول فجأة بلهجة لاذعة:

- افعل كما فعلت إحدى الإنكليزيات... مرة أتت إلى هنا عجوز حمراء الشعر، وقحة... يبدو أنها مهمة جداً... فقد كانت ترافقها حاشية كبيرة... كلها من الموظفين... وقبل هذا كان قد أتى مساعد مدير الشرطة مع مفوض الحي كيربيش. وأنذرنا المساعد بشكل مباشر وصريح: «إذا بدر منكن، أيتها السافلات، شيء ما هكذا أو هكذا، أو تفوهتن ولو بكلمة فظة واحدة، أو فعلتن أي شيء، لن أبقي من محلّكن هذا حجراً على حجر، وسأجلد كل النزيلات فـي القسم وأجعلهن يتعفنّ فـي السجن!»، ثم بعد ذلك جاءت تلك الحيزبون. رطنت رطنت بالأجنبي وهي تشير بيدها طوال الوقت إلى السماء، وبعد ذلك وزعت علينا جميعاً أنا جيل ثمن الواحد خمسة كوبيكات، وغادرت. وأنت يا عزيزي افعل مثلها.

قهقهة بلاتونوف بصوت عال، ولكنه عندما رأى السذاجة والحزن المرتسمين على وجه ليخونين الذي كان يبدو عليه أنه لم يفهمه السخرية، بل حتى لم يشتبه بوجودها، كتم ضحكته وقال بجد:

- لا يمكنك فعل شيء يا ليخونين. سيظل الفقر موجوداً مادامت الملكيـة موجـودة. ولـن يمـوت البغـاء مـادام الـزواج موجـوداً، هـل تعرف من سيدعم البغاء ويغذيه طوال الوقت؟

إنهم أولئك الذين يُسمَوّن الناس المحترمين؛ إنهم آباء العائلات الأشراف، والأزواج المثاليون، والأخوة المحبون. فهم سيجدون دائماً ذريعة وجيهة لتشريع الفجور المأجور وتقنينه وتغليفه، لأنهم يعرفون حق المعرفة أنهم إن لم يفعلوا سيقتحم الفجور غرف نومهم وحجرات أطفالهم. فالبغاء بالنسبة إليهم: إبعاد شهوة الآخرين عن سريرهم الخاص الشرعي. ثم إن رب الأسرة المحترم لا مانع لديه من الاستسلام فـي السر للعربدة الغرامية. فمن الممل فعلاً أن يظل المرء مواظباً فـي الشيء نفسه طوال الوقت: الزوجة، والخادمة، والصاحبة السرية، الإنسان فـي حقيقته حيوان متعدد الزوجات بل حتى كثير الزوجات جداً. وغرائزه الغرامية الديكية يحلو لهادائماً أن تصول وتجول فـي مرتع خصب كمحل ترييبيل أو آنا ماركوفنا. أوه، طبعاً، إن الزوج المتزن، أو الأب السعيد الذي لديه ست بنات بالغات سيظل دائماً يجاهر بفظاعة البغاء، بل إنه سيشكل بمساعدة اليانصيب ومسرح الهواة جمعية لإنقاذ النساء الخاطئات، أو مأوى باسم المجدلية المقدسة. ولكنه سيبارك وجود البغاء ويدعمه.

- المآوي المجدلانية! – كررت جينيا و هي تضحك ضحكة خفيفة مفعمة بالكراهية القديمة التي لم تبرأ منها بعد.

قاطعها ليخونين قائلاً:

- نعم، أعرف أن كل هذه التدابير الزائفة مجرد ترهات وسخرية مهينة. ولكن لأكن مضحكاً وغبياً على أن لا أظل متفرجاً مُواسياً يجلس على مصطبة أمام المنزل وينظر إلى الحريق ويقول: «آه، يا إلهي، إنه يحترق... أقسم بالرب إنه يحترق! وربما السكان أيضاً يحترقون!»، ولا يفعل شيئاً سوى أن يندب ويصفق فخذيه بكفيه.

قال بلاتونوف بصرامة: - يعني أنك ستأخذ محقنة طبية وتذهب لتطفئ بها الحريق؟

فصاخ ليخونين بحدة: لا! ربما ... من يعرف؟ ربما سأتمكن من إنقاذ ولو نفس حية واحدة.. عن هذا أردت أن أسألك يا بلاتونوف ، وعليك أن تساعدني... ولكن، أرجوك، بدون تهكم وبدون تثبيط...
سأله بلاتونوف وهو يرمقه بانتباه، وقد فهم إلى أين يتجه كل هذا الحديث:
- هل تريد أن تأخذ فتاة من هنا؟ أن تنقذها؟
أجاب ليخونين متردداً:
- في الحقيقة... لا أعرف... سأجرب.
فقال بلاتونوف : - ستعود.
وكررت جينيا باقتناع: - ستعود.
اقترب ليخونين منها وأمسك بيديها وهمس بصوت متهدج:
- جينيتشكا... ربما أنت...آ؟ أنالا أدعوك إلى أن تكوني عشيقتي... بل صديقة... القضية بسيطة، نصف سنة راحة.... ثم نتعلم مهنة ما... سنقرأ...
نترت جينيا يديها من يديه بانزعاج وقال بصوت يكاد يكون صراخاً: - فلتذقع في مستنقع! إذني أعرفكم! لأرفأ لك جواربك؟ وأطبخ لك على موقد الكاز؟ ولا أنام الليل بسببك، بينما أنت تثرثر مع أصحابك ذوي الشعور القصيرة؟ وما إن تصبح طبيباً، أو محامياً، أو موظفاً، حتى ترفسني بقدمك في ظهري: هيا إلى الشارع أيتها الساقطة، لقد أنفقت عليك شباب عمري، أريد أن أتزوج فتاة محترمة، طاهرة، عفيفة...
ثغثغ ليخونين بارتباكم: - أنا كأخ... أنا لا أقصد...
- أعرف هؤلاء الإخوة ، حتى أول ليلة... كف عن هذا ولا تحدثني بهذه السخافات ! إنها مملة.

قال المراسل بجد: - مهلاً يا ليخونين. إنك بهذا تحمّل نفسك عبئاً لا طاقة لك به. لقد عرفت فـي حياتي مثاليين – شعبويين تزوجوا بدافع المبدأ فلاحات بسيطات. وكانوا يقولون لأنفسهم: الطبيعة، التربة السمراء الخصبة، القوى التـي لا حدود لها... ولكن هذه التربة السمراء كانت تتحول بعد عام إلى امرأة ضخمة سمينة تستلقي طوال يومها علـى السرير، تلتهم الكعك المُحلّـى، أو تضع فـي أصابعها خواتم رخيصة وتباعد بينها وتتمتع بالفرجة عليها، أو تجلس فـي المطبخ لتحتسي مع الحوذي شراباً كحولياً مُحلّى وتنسج معه قصة غرام «طبيعية» انتبه، الوضع هنا سيكون أسوأ!..

لاذ ثلاثتهم بالصمت. وكان ليخونين شاحباً ولا يفتأ يمسح جبينه المتعرق بمنديله. وفجأة صاح معانداً:

- لا، ياللشيطان! لا، أنا لا أصدقكما! لا أريد أن أصدقكما! لوبا! – نادى الفتاة النائمة بصوت عال – لوبو تشكا!

استيقظت الفتاة ومررت راحة كفها علـى شفتيها يمنة ويسرة، وتثاءبت، وابتسمت ابتسامة طفولية مضحكة وقالت:

- أنا لم أكن نائمة، وقد سمعت كل شيء، ولكنني غفوت هنيهة قصيرة جداً..

سألها ليخونين وهو يمسك بيدها:

- لوبا، هل ترغبين فـي الذهاب من هنا معي؟.. الذهاب بالمرة، نهائياً، بحيث لا تعودين أبداً لا إلى المحل العمومي ولا إلى الشارع؟

نظرت لوبا إلى جينيا متساءلة بحيرة، وكأنها تبحث عندها دون كلام عن تفسير لهذه المزحة. وقالت بخبث.

- كفاك. أنت نفسك لا تزال تدرس، فكيف لك أن تأخذ فتاة لتعيلها!

- لا لأعيلك يا لوبا... بل أنا أريد أن أساعدك فقط.. فمن المؤكد أن الحياة هنا، فـي المحل العمومي، لا تطيب لك!..

- مفهوم طبعاً أنها ليست سكراً! لو كنتُ متكبرة مثل جينيتشكا، أو جذابة مثل باشا... أما أنا فلن أعتاد هذه الحياة مهما جرى...
- إذاً هيّا بنا، فلتذهبي معي! – راح ليخونين يقنعها – أنت، لا بد، تتقنين عملاً يدوياً ما، كالخياطة مثلاً، أو التطريز، أو التسريج؟
- لا أتقن أي شيء!.. – أجابت لوبا باستحياء، وضحكت، واحمرّت، وغطّت فمها بمرفق يدها الحرة – لا أعرف إلاَّ ما تتطلبه الحياة عندنا في القرية، ولا شيء أكثر على الإطلاق. أعرف الطبخ بعض الشيء... عشت عند قسيس، وكنت أطبخ له.
قال ليخونين بابتهاج: - عظيم! ممتاز! سأساعدك، وستفتحين مطعماً.. تفهمين... مطعماً رخيصاً... سأعمل لك دعاية... وسيتردد الطلاب على مطعمك! رائع!...
- كفاك ضحكاً!... – قالت لوبا ببعض الاستياء ونظرت بطرف عينها إلى جينيا مرة أخرى متسائلة.
فردّت جينيا بصوت فيه رعشة غريبة: - إنه لا يمزح. إنه فعلاً يتكلم بجد...
وأكد الطالب هذا بحرارة: - أقسم لك بشرفي إنني جاد!.. أقسم بالرب! واستدار لسبب ما نحو زاوية فارغة ورسم شارة الصليب..
قالت جينيا: - بالفعل، خذ لوبكا. إنها ليست مثلي. أنا مثل فرس عجوز شموس في سلاح الخيالة. لا يمكنك تغيير طبعي لا بالدريس ولا بالسوط. أما لوبكا فبنت بسيطة وطيبة. وهي لم تعتد حياتنا بعد. مالك، أيتها الغبية ، تحملقين إليَّ هكذا؟ أجيبي عندما يسألونك. ايه؟ أتريدين أم لا؟
- وماذا في الأمر؟ إذا كان لا يمزح، بل يتكلم بجد... وأنت يا جينيتشكا، بم تنصحين؟....

ردت جيذيا بحنق: آه منك، يا خشبة! ما الأحسن في رأيك: أن تتعفني على كومة قش بأنف غائر؟ أن تفطسي عند السياج كالكلبة؟ أم أن تصبحي شريفة؟ غبية! كان عليك أن تبوسي يده بدلاً من أن تتمنعي.
وبالفعل انحنت لوبا الساذجة على يد ليخونين ، فأضحكت بحركتها هذه الجميع ومسّت عواطفهم. قال ليخونين بتعجل مبتهجاً:
- هذا رائع! هذا ساحر! اذهبي الآن وأخبري صاحبة المحل أنك ستغادرين هذا المكان نهائياً، وخذي الأشياء الضرورية جداً، الآن لم تعد الأمور كالسابق، الآن تستطيع الفتاة أن تترك المحل العمومي متى تشاء..
اعترضته جيذيا قائلة: - لا، هكذا لا يجوز. نعم، هي تستطيع أن تذهب، هذا صحيح، ولكنك لن تستطيع تفادي الإزعاج والصراخ... أنا أقول لك ماذا تفعل. هل تستغني عن عشرة روبلات؟
- طبعاً، طبعاً... تفضلي.
- دع لوبا تقل للمديرة إنك ستأخذها اليوم إلى شقتك. هذه هي التسعيرة: عشرة روبلات. وفيما بعد، وليكن غداً إذا أردت، تعال خذ بطاقتها وأشياءها. بسيطة، نحن سنرتب الأمور كما ينبغي. وبعد ذلك يجب عليك أن تذهب إلى الشرطة ومعك بطاقتها وتصرح بأن فلانة الفلانية تعمل عندك بالأجرة كخادمة، وأنك ترغب في إبدال بطاقتها بهوية حقيقية. هيا، يا لوبكا، عجلي.. خذي النقود واذهبي، ولكن احذري، تصرفي مع المدبرة ببراعة، وإلاَّ فإنها ستقرأ القصة في عينيك، الكلبة. ولا تنسي، - صاحت في إثرها – امسحي الأحمر عن وجهك، وإلاَّ فإن السائقين سيشيرون إليك بأصابعهم.

بعد نصف ساعة كان ليخونين ولوبا يصعدان إلى عربة أمام المدخل، وجينيا والمراسل يقفان على الرصيف. قال بلاتونوف بكسل: - إنك ترتكب حماقة كبيرة، ولكنني أحترم وأُجلّ فيك هذا الاندفاع النبيل. ما إن برزت الفكرة حتى قرنتها بالعمل. أنت فتى جريء ورائع.
وقالت جينيا ضاحكة: - تعانينا بعقد القران، ولا تنسيا دعوتنا إلى حفلة العماد. فقهقه ليخونين وقال وهو يلوح بسدارته: عبثاً ستنتظران.
انطلقت العربة . نظر المراسل إلى جينيا ودهش لرؤية الدموع في عينيها اللتين أصبحتا أكثر رقة. كانت تهمس:
- وفقهما يارب، وفقهما يارب.
سألها بلطف: ماذا بك اليوم يا جينيا؟ ما الأمر؟ هل هناك ما يضايقك؟ أيمكنني أن أساعدك بشيء ما؟.
أدارت له ظهرها، وانحنت فوق درابزين الرواق المزين بزخارف محفورة؟ وسألته بصوت مخنوق:
- كيف يمكنني أن أكتب إليك إذا احتجت إلى هذا؟
- بمنتهى البساطة. إلى هيئة تحرير «أصداء». فلان الفلاني، ويسلّمونني الرسالة فوراً..
- أنا... أنا... أنا...؟ - شرعت جينيا تقول، ولكنها انخرطت فجأة في بكاء مر بصوت عال، وغطت وجهها بيديها – سأكتب لك...
ودون أن ترفع يديها عن وجهها ركضت وكتفاها ترتعشان، واجتازت الرواق، ثم اختفت داخل المنزل صافقة الباب خلفها بعنف.

***

الجزء الثاني

لا يزال سكان «الحفرة» السابقون يتذكرون حتى الآن، بعد مضي عشر سنوات، ذاك العام الزاخر بالأحداث المأساوية، القذرة، الدموية، الذي بدأ ببعض الفضائح الصغيرة التافهة، وانتهى بإقدام السلطات ذات يوم على تخريب العش القديم المألوف الذي أقامته هي نفسها من أجل البغاء المشروع، وعلى بعثرة بقاياه في المستشفيات، والسجون، وشوارع المدينة الكبيرة. وحتى الآن لا تزال صاحبات المحالّ السابقات القليلات اللواتي بقين على قيد الحياة وقد هدمتهن السنون، والمدبرات السابقات اللواتي ترهلن من السمنة وأصبن بالبحة ككلاب الغرف الهرمة يتذكرن بحزن، واستهوال، وحيرة غبية ذاك الهلاك الشامل الذي أصاب الحي.
كما تنهمر حبات البطاطا من فتحة كيس مثقوب توالت الشجارات والسرقات والأمراض وحوادث القتل والانتحار، وكان يبدو أن لا أحد له ذنب فيما يحدث، بل كل مافي الأمر أن هذه النكبات أخذت تتزايد وتتراكم وتتسع وتنمو من تلقاء نفسها، ككرة الثلج التي يدحرجها الأطفال بأرجلهم: تكبر وتكبر من تلقاء ذاتها لالتصاق الثلج الذائب بها إلى أن تصبح أعلى من قامة الإنسان، ثم يكفي في النهاية جهد ضئيل لتسقط في الوهدة، وتهوي إلى الأسفل كانهيار ثلجي ضخم. صاحبات المحالّ والمدبرات العجائز لم يسمعن قط، طبعاً، بالقدر المشؤوم، ولكنهن في أعماق نفوسهن كن يشعرن بوجوده الخفي في المصائب المحتومة التي حلت في تلك السنة الفظيعة.

في الحقيقة، حيثما يرتبط الناس في هذه الحياة بمصالح مشتركة، أو برابطة الدم أو المنشأ أو منافع المهنة، ويشكلون مجموعات متلاحمة متميزة، لابد من أن يتجلى ذاك القانون الخفي، قانون تجمّع الأحداث، وتراكمها المفاجئ، واستشرائها، وتعاقبها الغريب، وترابطها، وتواصلها الطويل غير المفهوم. ويحدث هذا، كما قررت الحكمة الشعبية قديماً، في بعض العائلات، حيث يُنْشب المرض أو الموت أظفاره فجأة في الأقارب بالدور، حسب تسلسل غامض لا راد له.

«المصائب لا تأتي فرادى». «إذا جاءت مصيبة افتح البوابة»، كما يلاحظ هذا أيضاً في الأديرة، والبنوك، والدوائر الرسمية، والأفواج العسكرية، والمعاهد التعليمية، وسواها من المؤسسات الاجتماعية، حيث تظل الحياة مدة طويلة، ربما امتدت عشرات السنين، تسير بانتظام دون تغيير، كما الجدول المستنقعي، وفجأة، بعد حادث ما جد بسيط، تبدأ إجراءات التبديل، والنقل، والفصل من الخدمة، والخسائر، والأمراض. وترى أعضاء التجمع، كما لو كانوا متفقين، يموتون، ويجنّون، ويسرقون، وينتحرون بالرصاص أو شنقاً، وتظهر الشواغر واحداً إثر آخر، وتتوالى الترفيعات، وتتدفق عناصر جديدة، وتنظر بعد عامين فلا ترى أياً من الأشخاص السابقين في مكانه، وتجد أن كل شيء قد تجدد، هذا إذا لم تكن المؤسسة قد انفرط عقدها، وتبعثرت حباته. أو ليس هذا القدر العجيب نفسه هو الذي يصيب التجمعات البشرية العالمية الضخمة – المدن، والدول، والشعوب، والبلاد، و من يدري، ربما يصيب حتى عوالم كوكبية كاملة؟..

شيء ما شبيه بهذا القدر الذي لا تدركه الأفهام عصف بمحلة «الحفرة»، ودفعها بسرعة نحو هوة الهلاك وسط ضجيج الفضائح.
ولم يبق الآن في مكان «الحفرة» العربيدة سوى ضاحية هادئة عادية يسكنها زراع المباقل، وفراؤو القطط، والتتر، ومربو الخنازير، وجزارو المسالخ القريبة. وبناء على التماس هؤلاء الناس المحترمين غُيّر حتى اسم المحلة نفسه لأنه يلوث سكانها بعار ماضيها، وأصبحت تسمى «غولوبيوفكا»، على شرف التاجر «غولوبيوف»[1]، وهو صاحب متجر لبيع السلع المستوردة من المستعمرات والمواد الغذائية، وقيّم الكنيسة المحلية.
وكانت الهزات الأرضية الأولى التي انتهت إلى الكارثة الزلزالية قد بدأت في عز الصيف، خلال موسم السوق الصيفية السنوية التي كانت في ذاك العام خرافية الروعة. وقد ساعد على نجاحها الخارق، وازدحامها بالناس، وضخامة الصفقات التي عقدت فيها عوامل كثيرة: انشاءُ ثلاثة معامل جديدة للسكر في الضواحي، والمحصولُ الوفير إلى حد غير عادي من الحبوب، ومن الشوندر السكري بصورة خاصة، والمباشرةُ بالتمديدات اللازمة لتسيير ترام كهربائي وإنشاء شبكة من المجاري، وشقٌّ طريق جديدة بطول سبعمئة وخمسين فرسخاً[2]، والأهم من ذلك – حمّى البناء التي حلت بالمدينة كلها وبجميع البنوك وسائر المؤسسات المالية، وأصابت ملاّك الأبنية كافة

---

[1] لقب مشتق من كلمة «حمامة» ، وهكذا يمكن ترجمة اسم المحلة الجديد «غولوبيوفكا» بكلمة «الحمامية» (المترجم).

[2] الفرسخ الروسي = ١.٠٦ كم.

وقد تكاثرت مصانع الآجر فـي أطراف المدينة كما تتكاثر الفطور، وافتُتح معرض زراعي ضخم جداً، وظهرت شركتان جديدتان للملاحة البخارية وانخرطتا فـي منافسة محمومة فيما بينهما ومع الشركات القديمة السابقة لنقل البضائع وزوار الأماكن المقدسة. وقد وصلت المنافسة بينها إلى تخفيض أجر الرحلة لركاب الدرجة الثالثة من خمسة وسبعين كوبيكاً إلى خمسة كوبيكات، ثم إلى ثلاثة، ثم إلى كوبيكين، ثم إلى كوبيك واحد فقط. وفـي النهاية عمدت إحدى شركات الملاحة التي أرهقتها المعركة الطاحنة إلى جعل الركوب فـي الدرجة الثالثة مجانياً؛ فما لبثت منافِستُها أن أضافت إلى الركوب المجاني توزيع نصف رغيف من الخبز الأبيض لكل راكب. بيد أن أكبر وأهم إجراء اتخذ فـي ذاك العام كان إنشاء المرفأ النهري الواسع الذي اجتذب إليه مئات آلاف العمال، وكلف من الأموال مالا يحصيه إلاَّ الله.

وينبغـي أن نضـيف إلـى كـل هـذا أن المدينـة كانـت آنـذاك تحتفـل بالذكرى الألفية لبناء ديرها الشهير، وهو أكثر الأديرة الروسية المشهورة جلالاً وغنىً، فقد تقاطر إلى هناك أعداد لا تحصى من الحجاج، جاؤوا من جميع أصقاع روسيا: من سيبيريا، ومن شواطئ المحيط المتجمد، ومن أقصى الجنوب، ومن سواحل البحر الأسود وبحر قزوين، لزيارة المقدسات المحلية، وتبجيل قديسي الدير الراقدين عميقاً تحت الأرض فـي الكهوف الكلسية. ويكفي أن نشير إلى أن الدير كان يقدم المأوى وبعض الطعام لأربعين ألف شخص يومياً، أما الذين لم يكن يتسع لهم المكان فكانوا يبيتون مضطجعين جنباً إلى جنب، كقطع الحطب، فـي أفنية الدير وممراته الرحبة.

كان ذاك الصيف صيفاً أسطورياً، فقد تضاعف عدد سكان المدينة فيه ثلاث مرات تقريباً بقدوم هؤلاء الوافدين المتنوعين من بنائين، ونجارين، ودهانين، ومهندسين، وفنيين، وأجانب، ومزارعين، وسماسرة، ورجال أعمال مشوهين، وملاحين نهريين، ومتبطلين لاهين، وسياح، ولصوص، ومحتالين، اكتظت بهم المدينة، وغصت بهم فنادقها، حتى أكثرها قذارة وإثارة للريبة، وارتفعت أجور المساكن إلى حدود تفوق التصور، واتسع نشاط البورصة اتساعاً لم تشهد مثله من قبل ولا من بعد. وسالت النقود جداول بالملايين، متنقلة من يد إلى يد، وتكوّنت في سويعات ثروات هائلة، وأفلست، بالمقابل، شركات سابقة كثيرة، وتحول أثرياء الأمس إلى فقراء. واستحمّ أبسط العمال وتدفؤوا بهذا السيل الذهبي. وانهمك حمّالوا الميناء وسائقوا الطنابر بالشيل والنقل. ولا يزال مناولو الآجر وحفارو الأرض يذكرون حتى الآن كم كانوا يكسبون في اليوم الواحد في ذاك الصيف المجنون.

كان أي متشرد يعمل في تفريغ المواعين المشحونة بالبطيخ يقبض مالا يقل عن أربعة أو خمسة روبلات في اليوم. وكانت كل هذه الزمر الغريبة الصاخبة، التي خدرها الكسب السهل، وأثملها جمال المدينة العريق البديعة الحسي، وسَحَرَها دفءُ الليالي الجنوبية العذب، وأسكرها شذى الأكاسيا البيضاء المتملق الآسر، كانت هذه الآلاف المؤلفة من الوحوش الهائجة الجشعة المتجلية بصورة رجال تصرخ بكل إرادتها الجماعية: «المرأة!».

وقد ظهرت في المدينة خلال شهر واحد عدة عشرات من محال اللهو الجديدة: مثل التيفولي، وشاتو – دي فلير، والأولمب، والكازار، وغيرها من الملاهي الفاخرة التي تقدم جوقات وأوبيريتات، وكثير من المطاعم والمشارب الفخمة ذات الحدائق الصيفية، ومن الحانات البسيطة قرب المرفأ الذي يجري انشاؤه. عند كل مفترق طرق كانت تفتتح كل يوم «محال مشبوهة»، وهي أكواخ خشبية صغيرة تتظاهر ببيع الكفاس[١]، فيما يتاجر كل منها خلف حاجز من الألواح الخشبية في الجوار القريب بامرأتين أو ثلاث متقدمات في السن. وقد عانى كثير من الأمهات والآباء أشد المعاناة في هذا الصيف الذي انحفر في الذاكرة، بسبب الأمراض المُذِلّة التي أصابت أبناءهم، تلاميذ المدارس العامة والعسكرية. وكان الزوّار العرضيون القادمون يحتاجون إلى خدم، مما دعا آلاف الفتيات الريفيات إلى مغادرة قراهن القريبة والتوجه إلى المدينة. ولم يكن هناك مناص من اشتداد الطلب على البغاء إلى حد غير عادي. وهكذا تدفقت من وارسو ولودز وأوديسا وموسكو، وحتى من بطرسبورغ، بل حتى من البلدان الأخرى، كثرة لا تُحصى من الأجنبيات، وبنات الهوى المصنوعات في روسيا، ومومسات عاديات جداً، وفرنسيات وفيينيات فاخرات. وكان للنفوذ المفسد الذي تتمتع به مئات الملايين من النقود الطائشة سطوة جبارة. فقد اجتاح شلال الذهب هذا المدينة بأكملها، ولفّها في دوامته، وأغرقها. وازدادت حوادث السرقة والقتل بسرعة مذهلة

[١] شراب روسي شعبي (غير كحولي) يميل طعمه للحموضة، يصنع بالتخمير من نقيع الجودار والملت، أو من بعض الثمار أو العسل.

وكانت الشرطة المجمعة في وحدات مكثفة تتخبط في حيرة، وتظل في حركة دائبة تنهك القوى. ولكنها فيما بعد، وعندما أُتخمت بالرشاوى الوافرة، أصبحت تشبه الأفعى الشبعى التي يغلبها النعاس والكسل على غير إرادة منها. كان الناس يُقتلون دون أي ذنب أو سبب، لمجرد القتل. كان يحدث أن يقتربوا في وضح النهار من شخص ما في شارع تقل فيه السابلة ويسألوه: «ما اسمك؟»
فيجيب: - «فيودورف»، - «ها، فيودوروف؟ إذاً خذ!»، ويبقرون بطنه بسكين، ولهاذ لُقِّب هؤلاء العابثون في المدينة بالـ «طعّانين»، وكان بينهم بعض الاسماء التي يبدو أن مدوني أحداث المدينة كانوا يفخرون بها، من أمثال بوليشكي، والأخوين ميتكا ودونداس، وفولودكا غريك، وفيودور ميلير، والكابتن دميتريف، وسيفوخو، ودوبرفولسكي، وشباتشيك، وكثيريهن غيرهم.
وكن ترى في الشوارع الرئيسية في المدينة التي فقدت صوابها جمهوراً يقف، ويتحرك، ويصرخ ليلاً ونهاراً، وكأنه يشاهد حريقاً. ويكاد يكون من المتعذر وصف ماكان يجري في محلة «الحفرة» آنذاك، وعلى الرغم من أن صاحبات المواخير زدن عدد النزيلات إلى أكثر من الضعف، ورفعن الأسعار إلى ثلاثة أمثالها، فإن الفتيات المسكينات اللواتي أصابهن مسّ، لم يكنّ قادرات على تلبية طلبات كل هذا الجمهور المخمور المخبول الذي كان يلقي بالنقود وكأنها مِزَق ورقية. أحياناً، كان يصل عدد الذين ينتظرون كل فتاة في الصالة المكتظة التي يشَتد فيها الزحام كما في السوق الشعبية إلى سبعة أو ثمانية أو حتى عشرة زبائن. حقاً لقد كانت تلك حقبة مجنونة، مخمورة، متأزمة!..
ومنها بالذات بدأت كل مصائب «الحفرة» التي انتهت بها إلى الهلاك. ومع «الحفرة» هلك المحل الذي نعرفه، محل العجوز السمينة ذات العينين الباهتتين آنا ماركوفنا .

كان قطار الركاب يعدو بمرح من الجنوب إلى الشمال، مجتازاً حقول القمح الذهبية، وأحراج البلوط الرائعة، وعابراً بصخب الجسور الحديدية الممتدة فوق الأنهار المتألقة، مخلفاً وراءه أعمدة مدوّمة من الدخان.

الجو في إحدى مقصورات الدرجة الثانية، حتى عندما تفتح النافذة، كان خانقاً جداً وقائظاً. وكانت رائحة الدخان الكبريتي تخرش الحلق. وقد أرهق الاهتزاز والقيظ الركاب ما عدا شخصاً يهودياً، مرحاً، ونشيطاً، وحرِكاً، وشديد الأناقة، وخدوماً، ومیالاً إلى العشرة والكلام. كان هذا الشخص يسافر بصحبة امرأة شابة، وما إن كان المرء ينظر إليهما، ولاسيما إليها، حتى يلاحظ على الفور أنهما قد تزوجا حديثاً، إذ غالباً ما كان وجهها يتضرج بحمرة مفاجئة عند كل مداعبة صغيرة منه. وعندما كانت ترفع أهدابها لتنظر إليه كانت عيناها تشعان كنجمتين، وتغدوان نديتين. وكان وجهها يتسم بجمال لا تتسم به سوى وجوه الفتيات اليهوديات العاشقات. لون وردي عذب، وشفتان متوردتان مرسومتان بفتنة وبراءة، وعينان شديدتا السواد بحيث لا يمكنك التمييز بين البؤبؤ والحدقة.

كان الرجل يسرف في مداعبة مرافقته دون أن يستحي من وجوه ثلاثة رجال غرباء؛ وينبغي القول إن مداعباته كانت فظة إلى حد ما، فبتجرؤ المالك الذي يتصرف بما يملكه دون مجاملة، وبأنانية العاشق الذي يبدو كأنه يقول للعالم كله: «انظروا كم نحن سعيدان، وهذا يجعلكم أنتم أيضاً سعداء، أليس كذلك؟»، كان تارة يمسح بيده على ساقها التي يشف الثوب بوضوح عن معالمها المرنة، وتارة يقرصها من خدها، وتارة يدغدغ عنقها بشاربيه الأسودين القاسيين المرفوعين إلى الأعلى...

وعلى الرغم من أنه كان يتوهج إعجاباً، إلاَّ أن شيئاً ما ضارياً، متخوفاً، قلقاً كان يومض فـي عينيه اللتين لا يني يطرف بهما، وفـي ارتعاش شفته العليا، وفـي الخطوط القاسية التي ترسمُ المربَّعَ الحليقَ البارز إلى الأمام، والذي تتوسطه ثنية لا تكاد تلحظ.
قبالـة هـذين الـزوجين العاشـقين كـان يجلـس ثلاثـة ركـاب: جنـرال متقاعد، وهو شيخ نحيل، حسن الهندام، دَهَنَ شعره بالكريم، ومشط فوديه إلى الأمام؛ ومَلاّكُ أراضٍ سمين، انتزع ياقته المنشاة، ومع ذلك ظل يلهث من الحر، ويمسح وجهه الرطب بمنديله المبلل. وضـابطُ مُشـاةٍ شـاب. كانـت ثرثـرة سـيمون يـاكلوفليفيتش التـي لا تنتهي(كان الشاب قد أخبر خيرانه أن اسمه سيمون ياكلوفليفيتش غوريزونـت) قـد أتعبـت الركـاب بعـض الشـيء وأزعجـتهم، كمـا يزعجك طنين ذبابة ترتطم برتابة على زجاج نافذة فـي غرفة مغلقة ذات جو خانق فـي يوم صيفي قائظ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يحسّن أمزجتهم: فقد أخذ يقوم ببعض ألعاب الخفة، ويروي نكات يهودية تنطوي على فكاهة مرهفة ذات طابع خاص. وعندما كانت زوجته تذهب إلى العربة لتستنشق هواءً طازجاً كان يروي أشياء تجعل شفتي الجنرال تنفرجان فـي ابتسامة هادئة، والملاّك يقهقه، وكرشه الممرع يتماوج، أما الملازم، وهو فتى أمرد لم يمض على تخرجه من الكلية سوى سنة واحدة، فقد كان يكتم ضحكه وفضوله بصعوبة، ويشيح بوجهه كي لا يرى الجيران احمرار وجهه.
كانت الزوجة تعتني بغوريزونت باهتمام ساذج مؤثر: تمسح وجهه بالمنديل، وتهوّي له، وتصلح له كل دقيقة وضع ربطة عنقه، وكان وجهه فـي هذه اللحظات يغدو متغطرساً على نحو مضحك، وينطق برضىً غبي عن الذات.

سأله الجنرال النحيل بأدب وهو يسعل بتكلف:
- أيمكن أن أعرف، إذا سمحت، أيها المحترم، ماهو العمل الذي تزاوله؟
فأجابه سيمون ياكلوفليفيتش بصراحة لطيفة: - آه، يا إلهي، وما العمل الذي يمكن أن يزاوله يهودي فقير في أيامنا هذه؟ أعمل على نطاق ضيق كوكيل تجاري جوال وسمسار. وأنا في الوقت الحاضر متوقف عن العمل. أنتم، هيء! هيء! هيء! تفهمون أيها السادة، شهر العسل، لا تخجلي يا سارة، وهذا لا يتكرر ثلاث مرات في السنة، فيما بعد سيكون علي أن أسافر وأعمل كثيراً. الآن سنصل أنا وسارتشكا[1] إلى المدينة ونزور الأقارب، ثم سأسافر ثانية. في الرحلة الأولى أنوي أن آخذ زوجتي معي. يمكن القول: نوع من الرحلة العرسيّة. أنا وكيل سيدريس وشركتين انكليزيتين. أتريدون إلقاء نظرة: أحمل معي نماذج.
تناول بسرعة فائقة من حقيبة صغيرة جميلة من الجلد الأصفر بضعة ملفّات كرتونية طويلة مطوية، وراح ينشرها بمهارة الخياط، ممسكاً بها من أحد طرفيها بحيث تنفتح طياتها وتسقط بسرعة إلى الأسفل مصدرة حفيفاً خفيفاً.
- انظروا هذه النماذج الرائعة: ليست أقل من الأجنبية البتة، انتبهوا. هذا، على سبيل المثال، التريكو الروسي، وهذا التريكو الإنكليزي، أو لنأخذ الكانغار والشيفيوت. قارنوا. تلمسوا. ستقتنعون أن النماذج الروسية لا تقل جودة تقريباً عن الأجنبية. وهذا طبعاً يدل على التقدم، على التطور الحضاري، وبالتالي فإن أوربا عبثاً تعتبرنا، نحن الروس همجاً متخلفين.

---

[1] تصغير «سارة».

هكـذا.. نقـوم بزياراتنـا العائليـة، ونتفـرج علـى السـوق الموسـمية، ونعـرج لـبعض الوقـت علـى شـاتو – دي – فليـر، ونتنـزه قلـيلاً، ونتسكع قليلاً، ثم إلى الفولغا، ونبحر فيه إلى تساريتسين، ثم إلى البحر الأسود، ونزور جميع المنتجعات، ثم نعود ثانية إلى الوطن، إلى أوديسا.

قال الملازم بتواضع: - رحلة رائعة.

وأجابه سيمون ياكوفليفيتش موافقاً: من المؤكد أنها رائعة، ولكن لا ورد بلا شوك. عمل الوكيل التجاري الجوال شاق جداً ويتطلب معرفة واسعة، ولا أعني معرفة أصول العمل نفسه بقدرٍ ما أعني معرفة... كيف يمكن أن أعبّر؟!. معرفة النفس البشرية. تصادف شخصاً لا يريد أن يقدّم طلباً، وأنت عليك أن تقنعه وكأنك تقنع فيلاً، وتظل تقنعه إلى أن يحس بصفاء كلماتك وصدقها. وذلك لأنني لا أتولى البتة سوى الأعمال النظيفة تماماً، والخالية من أية شكوك. أما الأعمـال التـي يشـوبها الغـش أو تثيـر الريبـة فـإنني أرفضـها ولـو عرضـوا علـى الملايـين. اسـألوا أينمـا أردتـم، فـي أي متجـر يبيـع أجواخ أو شيّالات غلوار – أنا أيضاً وكيل هذه الشركة – أو أزرار غيليـوس، أسـألوا فقـط مـن هـو سـيمون يـاكوفليفيتش غوريزونـت، وسيجيبكم كل من تسألونه: «سيمون ياكوفليفيتش ليس إنساناً بل ذهـب، إنـه شـخص نزيـه، شـخص نقـي كالألمـاس». – كـان غوريزونت فـي أثناء كلامه يفتح علباً طويلة تحتوي على شيالات مرخصة ببراءات مسجلة، ويعرض صحائف من الكرتون رصعت بصفوف منتظمة من أزرار مختلفة الألوان – وتعترضك إزعاجات كثيرة عندما يكون المكان مطروقاً، عندما يكون قد سبقك إليه وكلاء كثيرون.

وفـي هذه الحالة لا يمكنك أن تفعل شيئاً: حتى إنهم لا يستمعون إليك بالمرة، بل يكتفون بالإشاحة بأيديهم. ولكن هذا بالنسبة للآخرين فقط: فأنا غوريزونت!.. أنا أستطيع أن أقنع العميل حتى لو كان جملاً من جمال السيد فالتسفين، من اسكانيا الجديدة[1]، ولكن الأكثر إزعاجاً هو التقاء متنافِسَيْن فـي مدينة واحدة يعملان فـي المجال نفسه، إلاَّ أنَّ الأسوأ من هذا وذاك هو أن تجمعك المصادفة بوكيل غشيم لا يستطيع أن يفعل شيئاً لنفسه ويفسد عليك ما تسعى أنت إليه: فـي هذه الحالة تلجأ إلى شتى أساليب التحاليل: فإما أن تسكره، أو ترسله إلى مكان مافي ملاحقة أثر كاذب، مهنة ليست سهلة.
وبالإضافة إلى ذلك فأنا ممثل شركة أخرى تعمل فـي مجال العيون والأسنان الاصطناعية. ولكنه مجال غير مربح، وأنوي أن أتخلى عنه. وعلى العموم أفكر فـي ترك هذا العمل كله. أعرف أن المرء عندما يكون شاباً فـي ريعان قوته يروق له أن يطير من مكان إلى مكان كالفراشة، ولكن عندما يكون لك زوجة، وربما أسرة كاملة...
– وهنا ربّت ساق زوجته مداعباً، مما جعلها تتضرج بحمرة قانية وتغدو خارقة الجمال – فنحن اليهود قد وهبنا الرب الخصب لقاء كل تعاستنا... ترغب فـي أن يكون لك عملك الخاص، وأن تستقر فـي مكان ما، كي يكون لك بيتك، وأثاثك، وغرفة نومك، ومطبخك، أليس كذلك يا صاحبة الفخامة؟
- نعم... نعم... إ.. إ... نعم، طبعاً، طبعاً.
أجاب الجنرال بتسامح.
- وهكذا فقد أخذت من سارتشكا بائنةً غير كبيرة. وماذا تعني بائنة غير كبيرة؟! إنها مبلغ يرفض روتشيلد النظر إليه، ولكنها بالنسبة إليَّ رأس مال كامل. ولكن يجب القول إن لدي أنا أيضاً بعض المدخرات. فالشركات التي تعرفني ستمنحني سلفة. وإذا أعطانا الرب فإننا سنأدم كسرة خبزنا بالزبدة، وسنأكل فـي أيام السبت سمك فيش اللذيذ.

---

[1] اسكانيا الجديدة: حديقة حيوانات فـي مقاطعة خيرسون (اكرانيا) كان يملكها ف.اي. فالتسفين. (الناشر).

قال المَلاّك اللاهث:
- سمك رائع، كراكي على الطريقة اليهودية!
- سنفتح شركة «غوريزونت وابنه» أليس كذلك يا سارتشكا، «وابنه»؟.. وأنتم، أيها السادة، ستتكرمون علي بطلباتكم المحترمة؟ عندما ترون لافتة كُتب عليها «فوريزونت وابنه» تذكروا رأساً أنكم سافرتم مرة في عربة قطار بصحبة شاب مصاب بغباء مطبق من شدة الحب والسعادة.
قال الملاّك: - بالتأكيد!..
فتوجه إليه سيمون ياكلوفليفتش على الفور قائلاً: - ولكن أنا أعمل في السمرة كذلك، إذا أردتم بيع أرض، أو شراء أرض، أو تنظيم صك رهن ثان، لكن تجدوا اختصاصياً أحسن مني، مع العلم بأنني أنا الأرخص. أستطيع أن أخدمكم إذا لزم الأمر... ومد يده ببطاقته إلى الملاّك وهو ينحني له، وبالمناسبة أعطى كلاً من جارية بطاقة مماثلة. فأخرج الملاّك بدوره بطاقة من ديبه الخاص وناوله إياها، وقرأ سيمون ياكلوفيتش بصوت عال:
- «جوزيف ايفانوفيتش فينغجينوفسكي».
وأردف: - تشرفنا جداً جداً! وهكذا إذا احتجت إلى خدماتي....
فقال الملاّك وهو مستغرق في التفكير:
- ولم لا؟.. ربما... أي نعم، ربما قد جمعتنا بالفعل مصادفة سعيدة! فأنا، في الحقيقة، ذاهب الآن إلى ك.لبيع دارة صيفية في منطقة الغابات. ولذلك أظن أنه بإمكانك أن تعرج علي. أنا أنزل دائماً في غراند – أوتيل. ربما سنتفق على شيء معين.
فصاح غوريزونت بفرح وهو يضرب بحذر ورفق ركبة فينغجينوفسكي بأطراف أصابعه:

- أوه!.. أنا متأكد من هذا تقريباً ياعزيزي جوزيف ايفانوفيتش. كن مطمئناً:
إذا تولّى غوريزونت عملاً أياً كان فستشكرني عليه، كأبيك الذي أنجبك لا أكثر ولا أقل!..
بعد نصف ساعة كان سيمون ياكوفليفيتش والملازم الأمرد يقفان في ردهة العربة ويدخنان. سأل الأول:
- هل تزورك . كثيراً يا سيادة الملازم؟
- تصور أن هذه هي المرة الأولى التي أزورها فيها، فَوْجُنا يُعسكر في تشيرنوبول، وأنا في الأصل من موسكو.
- آي، ياي، ياي!.. وكيف ابتعدت كل هذا البعد؟
- هكذا حكمت الظروف. لم يكن هناك شاغر آخر عند التخرج.
- ولكن تشيرنوبوب بلدة نائية موحشة!ِ أسوأ بلدة في كل بودوليا.
- صحيح ، ولكن هذا ما حدث.
- معنى ذلك أن سيادة الملازم الشاب ذاهب الآن إلى ك. ليلهو قليلاً؟
- نعم، أنوي أن أبقى هناك يومين أو ثلاثة. أنا، أصلاً، ذاهب إلى موسكو، فقد حصلت على إجازة لمدة شهرين. ولكن من الممتع أن أتفرج في طريقي على المدينة. يقولون إنها جميلة جداً.
- أوه! حدّث ولا حرج!... مدينة رائعة! مدينة أوربية تماماً، لو تعرف أية شوارع، وكهرباء، وترامات، ومسارح!.. ولو تعرف أية ملاهٍ للغناء! لابد أنك كنت لحست أصابعك وتلمظت. من كل بد، من كل بد، أيها الفتى، أنصحك بالذهاب إلى شاتو – دي – فلير، وإلى تيفولي، واذهب أيضاً إلى الجزيرة، إنها شيء متميز، أية نساء! أوه، أية نساء!...

احمر وجه الملازم، وحول بصره، وسأل بصوت مرتعش:
- نعم، اتفق لي أن سمعت، أصحيح أنهن بهذا الجمال؟
- أويْ! فليعاقبني الرب! صدقني، هناك لا توجد نساء جميلات على الإطلاق.
- وكيف هذا؟..
- هكذا: هناك لا يوجد سوى حسناوات خارقات، لقد شاء الحظ السعيد أن تختلط هناك الدماء بشكل موفق جداً: الدم البولوني والأكراني والعبري. كم أحسدك أيها الشاب لأنك حر ووحيد. أنا في زماني صلت وجلت هناك! أروع شيء أن النساء هناك شبقات فوق العادة. تماماً كالنار المتوقدة! أتعرف ماذا أيضاً؟
سأل فجأة هامساً بلهجة ذات مغزى.
- ماذا؟ - استفسر الملازم بتخوف.
- الرائع أنك لن تجد في أي مكان – لا في باريس ولا في لندن، صدقني، وقد أخبرني بهذا أناس شاهدوا العالم كله – لن تجد في أي مكان ولا في أي زمان أفانين مرهفة في الحب كما في تلك المدينة. إنها شيء ما خاص كما يقول جماعتنا اليهود. يخترعن أساليب لا يمكن للخيال أبداً أن يتصورها. شيء يسلب العقل.
- أحقاً ما تقول؟
سأل الملازم بصوت خافت وقد انحبست أنفاسه.
- فليعاقبني الرب إن كنت أكذب! ثم اسمح لي أيها الفتى! أنت تصور الأمر بنفسك. فأنا كنت عازباً، وطبعاً، أنت تعرف، كل ابن آدم خطّاء... الآن، طبعاً، الأمر مختلف. تسجلتُ في خانة المقعدين. ولكن بقيتْ لدي مجموعة رائعة من الأيام الخوالي. انتظر، سأريك إياها. ولكن أرجوك، كن حذراً.

تلفت غوريزونت بوجل يمنة ويسرة، وأخرج من جيبه غلافاً طويلاً ضيقاً من الجلد الطري، كذاك الذي يحفظون فيه عادة ورق اللعب، وقدمه للملازم:

- خذ، تفرج، ولكن أرجوك، بحذر.

أخذ الملازم يقلب الصور العادية والملونة صورة بعد أخرى، ويتفرج على ما تحتويه من مناظر منوعة تُصوِّر الجانب الخارجي من الحب في أكثر أشكاله حيوانية، وأكثر أوضاعه غرابة وشذوذاً، الجانب الذي يجعل من الإنسان أحياناً أدنى وأحط من القرد بما لا يقاس. وكان غوريزونت ينظر عبر كتف الملازم ويلكزه بمرفقه ويهمس:

- قل لي: أليس هذا أنيقاً؟ هذه هي الأناقة الباريسية والفيينية الحقيقية!

شاهد الملازم المجموعة كلها من البداية إلى النهاية، وعندما أعاد الغلاف كانت يده ترتجف، وصدغاه وجبينه نديين، وعيناه عكرتين، وخداه مضرجين بحمرة مرمورية – مبرقشة.

وفجأة هتف غوريزونت بمرح: - أتعرف؟ بالنسبة لي كل الأمور سواء: فأنا إنسان مستعبد. أنا، كما كانوا يقولون قديماً، أحرقت سفني... أحرقت كل ما كنت أقدسه. ومنذ وقت طويل أبحث عن فرصة تتيح لي تسويق هذه الصور لشخص ما. لا يهمني السعر كثيراً. سآخذ نصف ما كلفتني إياه فقط. ألا ترغب في الشراء يا سيادة الضابط؟..

- وماذا فـي الأمر... أنا... يعني... ولم لا؟ على الأرجح...
- عظيم! بمناسبة هذا التعارف السار سآخذ منك خمسين كوبيكاً للصورة الواحدة. ماذا، غالية؟ طيب، ليكن... أمري لله! أرى أنك فـي سفر، ولا أريد أن أنهبك: خَلِّـه ثلاثـين. مـاذا؟ أيضـاً لـيس رخيصاً؟! طيب، ضع يدك فـي يدي، الواحدة بخمسة وعشرين كوبيكاً! أوه! كم أنت متشدد! بعشرينَ أنت بنفسك ستشكرني فيما بعد! ثم اسمع ما سأقول لك: أنا عندما أذهب إلى ك. أنزل دائماً فـي فندق «الارميتاج»، يمكن أن تجدني هناك بسهولة إما باكراً فـي الصباح، أو حوالي الساعة الثامنة مساءً، أعرف عدداً كبيراً من السيدات الحلوات. وسأعرفّك عليهن. ليس لقاء نقود، أوه، لا. كل مافي الأمر أنهن سيسررن وينبسطن بقضاء الوقت مع رجل فـي مقتبل العمر معافى ووسيم مثلك. لا لزوم لأية نقود على الإطلاق. وأية نقود هذه! هن أنفسهن سيدفعن عن طيب خاطر ثمن النبيذ وزجاجة الشمبانيا. تذكّر جيداً: «الارميتاج». غوريزونت. وحتى إذا كنت لا ترغب فـي هذا، مع ذلك تذكّر! فربما سأكون مفيداً لك. أما الصور فإنها بضاعة رائجة جداً، ولا يمكن أن تكسد عندك أبداً. الهواة يدفعون ثلاثة روبلات ثمناً للصورة الواحدة. ولكن هؤلاء طبعاً، من الأغنياء المسنّين. ثم يجب أن تعرف – وهنا انحنى غوريزونت، مدنياً فمه من أذن الضابط ومضيّقاً إحدى عينيه، وقال بهمس ماكر – أن سيداتي كثيرات يحببن مثل هذه الصور حب عبادة، وأنت شاب وجميل، وما أكثر القصص الغرامية التي ستعيشها فـي المستقبل!..

وبعد أن قبض غوريزونت النقود وعدّها بحرص، لم يعدم الوقاحة الكافية لمد يده ومصافحة الملازم الذي لم يجرؤ على رفع عينيه والنظر إلى وجهه، وقد تركه واقفاً في ردهة العربة وكأن شيئاً لم يكن، وعادهو إلى الممر.

وبما أنه كان يتسم بميل غير عادي إلى العشرة فقد توقف وهو في طريقه إلى مقصورته قرب بنيّة بديعة في الثالث من عمرها كان يداعبها من بعيد منذ وقت طويل، ويعوج لها وجهه بأشكال مختلفة مضحكة، جلس أمامها القرفصاء، وراح يقلد المعزاة ويسأل متلاثغاً:

- ماذا، إلى أين تثافر الثبية؟ أوي، أوي، أوي! ثبية كبيرة! أتثافر وحدها، بدون الماما؟ اثترت بطاقة بنفثها وتثافر وحدها؟ آي، يالها من بنية ثيئة. وأين الماما يا ترى؟

في هذه الأثناء خرجت من المقصورة المقابلة أمرأة طويلة جميلة معتدة بنفسها وقالت بهدوء:

- ابتعد عن الطفلة، ما هذه الرذالة، كيف تتحرش هكذا بأطفال الآخرين؟!

وثب غوريزونت واقفاً وقال بارتباك:

- مدام!.. لم أستطع أن أتمالك نفسي... طفلة بهذه الروعة، بهذا البهاء، بهذه الأناقة! كيوبيد حقيقي! افهميني، مدام، فأنا نفسي أب، وعندي أبناء... لم أتمالك عن إبداء إعجابي!...

بيد أن السيدة أولته ظهرها، وأمسكت بالطفلة من يدها وقادتها إلى المقصورة مخلفة غوريزونت منهمكاً في الانحناء والتمتمة بعبارات الإطراء والاعتذار.

زار غوريزونـت بضـع مـرات خـلال اليـوم عـربتين مـن عربـات الدرجة الثالثة يفصل بينهما قطار كامل تقريباً، فـي إحدى العربتين كانت تجلس ثلاث نساء جميلات بصحبة رجل متجهم صموت له لحية سوداء. تبادل غوريزونت معه بضع عبارات غريبة بلهجة خاصة، فنظرت إليه النساء بقلق، وبدا أنهن يرغبن فـي سؤاله عن أمرٍ ما ولا يتجرأن على ذلك. وقد سمحت إحداهن لنفسها مرة واحدة فقط فـي منتصف النهار أن تسأل بتهيب:

- هل هذا صحيحفعلاً؟ الشيء الذي قلته عن المكان؟.. أنت تفهم طبعاً: قلبي غير مطمئن لسبب ما!

-آخ! ماذا تقولين يا مرغريتا ايفانوفنا! بما أنني قلت هذا، فهو صحيح قطعاً، كما فـي بنك الدولة، اسمع يا لعازر – قال مخاطباً الرجل الملتحي – الآن سنصل إلى محطة. اشتر للصبايا سندويشات منوعة، حسب رغبتهن. القطار سيتوقف خمساً وعشرين دقيقة.

فقالت امرأة شقراء صغيرة الحجم، شعرها كالجودار الناضج، وعيناها كزهرتي عنبر زرقاوين: - أنا أريد مرقاً.

- عزيزتي بيلاّ، لك كل ما تريدين! فـي المحطة أنا سأذهب وأتصرف ليحضروا لك مرقاً مع اللحم، وحتى مع الفطائر، وأنتَ لا تشغل بالك يالعازر، أنا بنفسي سأقوم بكل هذا.

فـي العربة الثانية، كان لديه سرب كامل من النساء يبلغ عددهن اثنتي عشرة أو خمس عشرة، وتتقدمهن امرأة كهلة، سمينة، ذات حاجبين أسودين ضخمين مخيفين. كانت تتكلم بصوت باس غليظ، فيما طيات غبغبها وصدرها وبطنها الشحيمة تتماوج تحت ثوبها الواسع بتوافق مع اهتزاز العربة وكأنها جبلية تفاح. لم تكن العجوز ولا النساء الشابان يتركن فـي النفس أية ذرة من الشك حول مهنتهن.

كانت النساء يستلقين على المقاعد، ويدخنّ، ويلعبن بالورق لعبة الستة والستين، ويحتسين البيرة. وغالباً ما كان ركاب العربة من الرجال يستفزونهن، فيشتمنهم بكلمات بذيئة وأصوات شبه مبحوحة. أما الشبان فكانوا يقدمون لهن السكائر والنبيذ.
وإذا أنت شاهدت غوريزونت هنا فإنك لا تكاد تعرفه: كانت تصرفاته تتسم باللامبالاة المتكبرة، والمزاح المتعجرف، وبالمقابل كانت كل كلمة تخاطبه بها زبوناته تنضح بالاستعطاف المتملق، أجال بصره فيهن جميعاً – في هذا الخليط العجيب من الرومانيات، واليهوديات، والبولونيات، والروسيات – ليتأكد أن كل شيء على ما يرام، ثم أعطى إيعازاته لشراء سندويشي وعاد متهادياً بكبرياء. وكان في هذه الدقائق يشبه جداً صاحب قطيع ينقل مواشيه بالقطار إلى المسلخ، ويتفقدها في المحطة ليطمئن عليها ويضع لها العلف. وبعد أن انتهى من ذلك عاد إلى مقصورته، وبدأ من جديد يداعب زوجته، والنكات اليهودية تنثال من فمه كحبات الحمص من فتحة كيس مثقوب.
وكان في المحطات الكبيرة يذهب إلى البوفية ليهتم بشؤون زبوناته، في حين أنه كان يقول لجيرانه:
- بالنسبة لي الطعام الموافق للشريعة والمخالف لها سيان. أنا لا أعترف بأي فرق بينهما. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل بمعدتي! في هذه المحطات لا تدري أية قذارات يقدمون لك أحياناً. تدفع هنا ثلاثة أو أربعة روبلات، ثم تدفع بعد ذلك مئة روبل للأطباء.
ثم يقول مخاطباً زوجته:
- ألا تريدين يا سارة أن تنزلي إلى المحطة لتأكلي شيئاً ما؟ أم أرسل لك طعاماً إلى هنا؟

وكانت سارة السعيدة باهتمامه بها تتضرج بالحمرة وتشع عينا ها بالشكر وتقول متمنعة:
- أنت طيب جداً يا سينيا، ولكنني الآن لا أريد. شبعانة.
عندئذٍ كان غوريزونت يخرج من سلة السفر دجاجة، ولحماً مسلوقاً، وخياراً، وزجاجة نبيذ فلسطيني، ويشرع في الأكل على مهل بشهية، ويقدم الطعام لزوجته، فتأكل هذه بتصنع شديد مبعدة خنصري يديها البيضاوين ا لرائعتين عن بقية أصابعها. وبعد أن ينتهيا يلف ما يتبقى بالورق لفاً محكماً، ويضعه في السلة بتمهل وعناية.
في المدى البعيد أمام القاطرة بدأت قباب النواقيس تتلألأ بأنوار ذهبية. مر مراقب القطار بالمقصورة وأو مأ لغوريزو نت إيماءة خفية. فخرج هذا على الفور وتبعه إلى ردهة العربة. قال له المراقب: - سيمر التفتيش الآن، وأرجو أن تتكرم بالوقوف بعض الوقت مع زوجتك هنا في ردهة الدرجة الثالثة. فأجابه غوريزو نت موافقاً: - طيب، طيب، طيب.
- والآن، ومن فضلك، المبلغ الذي اتفقنا عليه.
- كم تريد؟
- كما اتفقنا: نصف المبلغ الإضافي، روبلين وثمانين كوبيكاً.
احتد غوريزو نت فجأة: - ماذا؟ روبلين وثمانين كوبيكاً! و هل أنا مجنون في نظرك؟ هاك روبلاً واشكر ربك!...
- عفواً، أيها السيد! هذا غير لائق بالمرة: فنحن قد اتفقنا، أليس كذلك؟
- اتفقنا ، اتفقنا!.. خذ أيضاً نصف روبل آخر ولا شيء أكثر. ما هذه الوقاحة:؟ ثم إنني سأبلغ المفتش أنك تنقل ركاباً دون تذاكر. أنت، أيها الأخ، لا تتوهم! أعرف مع من تتعامل!

اتسعت عينا المراقب فجأة واحتقنتا بالدم. صاح مزمجراً:
- أوه! أيها اليهودي الحقير! لو أني أمسكك أيها السافل وألقي بك تحت القطار!
فما كان من غوريزونت إلاَّ أن هب في وجهه كالديك صائحاً:
- ماذا؟! تحت القطار؟؟! أتعرف إلى أين يمكن أن تودي بك هذه الكلمات؟! تهديد بفعل حقيقي. سأذهب فوراً وأصرخ «النجدة!»، وأدير ذراع الإشارة...
وأمسك مقبض الباب بحزم قاطع. لم يجد المراقب ما يفعله إزاءه سوى أن ينفض يده بيأس ويبصق:
- فلتختنق بنقودي أيها اليهودي الأجرب!
نادى غوريزونت زوجته الجالسة في المقصورة: - سارتشكا! هيا نتفرج من على الرصيف: الرؤية من هناك أوضح. يالهذا الجمال، مثل اللوحة الفنية!
سارت سارة خلفه بانقياد وهي تمسك بيد مرتبكة فستانها الجديد الذي يبدو أنها تلبسه لأول مرة، وتتثنّى كأنها تخاف أن تلامس الباب أو الجدار.
في البعيد، ومن خلال ضباب الشفق الوردي البهيج كانت تشع القباب والصلبان الذهبية، وعالياً على الجبال بدت الكنائس البيضاء المتناسقة وكأنها تسبح في هذا الضباب السحري المائج بالألوان. وكانت الغابات والخمائل الوارفة تعدو من علٍ حتى تشرف مباشرة على الوادي. أما الجرف الأبيض الشاقولي الذي يغسل سفحه في النهر الأزرق فقد كانت تخدده كله عساليج وشجيرات عشوائية تبدو كعروق وثآليل خضراء. وكان يخيل للرائي أن المدينة القديمة الخرافية الروعة هي التي تحث الخطا لملاقاة القطار.

عندما توقف القطار أمر غوريزونت الحمالين أن ينقلوا الأمتعة إلى الدرجة الأولى، وقال لزوجته أن تتبعه، أما هو فقد توقف عند المخرج ليمرر مجموعتيه.
وفيما كانت العجوز التي تراقب النساء الاثنتي عشرة تمر بجانبه قال لها بإيجاز:
- تذكّري يا مدام بيرمان! فندق «أميركا»، شارع ايفانيوكوفسكايا، اثنان وعشرون!..
وقال للرجل ذي اللحية السوداء:
- لا تنسى، يالعازر، أن تغذي البنات وتأخذهن إلى إحدى دور السينما. انتظروني الساعة الحادية عشرة مساءً، سآتي لنتكلم، وإذا ما استدعاني أحد لأمر طارئ فإنك تعرف عنواني: فندق «الارميتاج». اتصل بالهاتف. وإذا لم أكن هناك لسبب ما، اذهب إلى ريمان أو إلى المطعم اليهودي المقابل. سآكل هناك سمك فيش، هيا، مع السلامة.
كل أحاديث غوريزونت عن عمله كوكيل تجاري جوال لم تكن أكثر من كذب جريء ووقح. وكل هذه النماذج من مواد الخياطة وشيالات غلوار وأزرار غيليوس، والأسنان الاصطناعية، والعيون البديلة كانت مجرد ستار يخفي مهنته الحقيقية، وهي المتاجرة بأجساد النساء، في وقت ما منذ عشر سنوات كان، فعلاً، يتجول في روسيا كممثل لشركة مغمورة تبيع خموراً مريبة، وقد أكسبت هذه المهنة لسانه تلك الطلاقة المتجرئة التي يتميز بها الباعة الجوالون عموماً. وهذه المهنة السابقة بالذات هي التي دفعته إلى ممارسة مهنته الحالية. فذات مرة، فيما هو في طريقه إلى مدينة روستوف على الدون، استطاع أن يوقع في حبه خياطة شابة.

ولم يكن اسم هذه الفتاة قد دُوِّن بعد فـي سجلات الشرطة الرسمية، ولكنها كانت تنظر إلى الحب وإلى جسدها دون أية خزعبلات سامية. أما غوريزونت الذي كان آنذاك لا يزال فتىً غراً طائشاً سرعان ما يقع فـي الحب، فقد جر الخيّاطة خلفه فـي جولاته المليئة بالمغامرات والمفاجآت. وبعد ستة أشهر أصبحت تسبب له مللاً فظيعاً، وغدت عبئاً ثقيلاً عليه وكأنها حجر رحى معلق برقبة هذا الإنسان المفعم بالطاقة والحركة وحب الاقتحام. زد على ذلك المشادات الدائمة بسبب الغيرة، وانعدام الثقة، والمراقبة المستمرة، وذرف الدموع... العواقب المحتمة للحياة المشتركة الطويلة... عندئذٍ صار يضربها بين فينة وأخرى. وقد ذهلت هي فـي المرة الأولى، ولكنها منذ المرة الثانية هدأت واستَكَنَتْ. ومن المعلوم أن «نساء الحب» لا يعرفن الوسط فـي العلاقات الغرامية إطلاقاً: فإما أن يكن كذابات، مخادعات، متصنعات، مستهترات، ذوات عقول فاسدة، باردة، ونفوس ملتوية سوداء، أو يكن متفانيات دون حدود، ومخلصات إخلاصاً أعمى، كحيوانات غبية ساذجة، لا تعرف حداً فـي تنازلها وفـي تفريطها بكرامتها الشخصية. وكانت الخيّاطة من النوع الثاني، ومالبث غوريزونت أن أقنعها دون كبير عناء بالخروج إلى الشارع والمتاجرة بجسدها. ومنذ الأمسية الأولى التي خضعت له عشيقته فيها وأحضرت إلى البيت أول خمسة روبلات كسبتها شعر غوريزونت نحوها باشمئزاز لا حد له. ومن المثير للاهتمام أن هذا الشعور بالاشمئزاز وبالاحتقار الذكوري لهؤلاء النسوة، على الرغم من العدد الكبير الذي التقاه غوريزونت منهن بعد ذلك – فقد مر من بين يديه عدة مئات منهن – لم يعد يفارقه أبداً، كان يسخر من المرأة المسكينة ما حَلَتْ له السخرية، ويعذبها معنوياً بنخسها فـي أشد نقاط ضعفها حساسية، أماهي فكانت تكتفي بالصمت، والتأوه، والبكاء، والركوع أمامه على ركبتيها وتقبيل يديه. وكان هذا الخنوع الصامت يزيد من هياج غوريزونت . طردها أكثر من مرة، ولم تذهب، وعندما كان يلقي بها فـي الشارع كانت تعود بعد ساعة أو ساعتين وهي ترتجف من البرد،

وقد تبللت قبعتها تماماً وأخذت مياه المطر تتخضخض في حافتها المثنية كما في الميازيب. وأخيراً. أزجى له صديق مريب نصيحة قاسية ولئيمة خلفت أثرها في كل نشاطه الحياتي التالي – وهي أن يبيع عشيقته للمحل العمومي.

في الحقيقة عندما عكف غوريزونت على تنفيذ هذا الأمر كان في قرارة نفسه يشك في إمكانية نجاحه. ولكن، خلافاً لما توقعه، كل شيء تم على ما يرام. فصاحبة المحل (وهي في مدينة خاركوف) رحبت بعرضه كل الترحيب، وكانت هذه تعرفه جيداً منذ وقت طويل. إذ إنه كان يعزف عزفاً مسلياً على البيانو، ويرقص بشكل رائع، ويُضحك الصالة كلها بتصرفاته الغريبة المقصودة، والأهم من هذا كله أنه كان يستطيع ببراعة خارقة لا تعرف الخجل أن يستولي بالخداع على نقود أية مجموعة تريد أن تسكر وتلهو، لم يبق عليه سوى إقناع صديقة العمر، وتبين أن هذا أصعب مافي الأمر، فقد كانت ترفض رفضاً باتاً الانفصال عن حبيبها، وتهدد بالانتحار، وتقسم على أنها ستحرق له عينيه بحمض الكبريت، وتتوعد بأن تشتكي إلى مدير الشرطة، وكانت بالفعل تعرف عن سيمون ياكوفليفيتش بعض الأمور القذرة التي تفوح منها رائحة الجريمة. عندئذٍ غيّر غوريزونت تكتيكه، وانقلب فجأة إلى صديق رقيق عطوف وعاشق لا يكل. ثم أصيب فجأة بسوداوية شديدة، وكان يقابل استفسارات زوجته القلقة بالصمت، ثم راح يتفوه ببعض الكلمات، متظاهراً في البداية بأنها تفلت منه بصورة عفوية، ويلمح في أثناء ذلك إلى ارتكابه غلطة ما أفسدت عليه حياته. ثم اندفع بعد ذلك يكذب بحماسة وإلهام. قال إن الشرطة تلاحقه، وإن مصيره إلى السجن حتماً، وربما حتى إلى الأشغال الشاقة أو المشنقة، وإن عليه أن يتوارى عن الأنظار لبضعة أشهر خارج البلاد.

ولكن أهم ماكان يؤكده بشدة هو أن ثمة عملية ما ضخمة وخيالية سيكسب منها مئات آلاف الروبلات. وقد صدقت الخياطة أقواله وساورها ذاك القلق الأنثوي المنزه، شبه المقدس الذي ينطوي عند كل امرأة على الكثير من حنان الأمومة. ولم يعد الآن من الصعب البتة إقنتاعها بأن سفرها مع غوريزونت ينطوي على خطـ كبير بالنسبة إليه، وأن من الأفضل لها البقاء هنا، وانتظار الوقت الذي تنتظم فيه شؤونه بالشكل المناسب. وبعد ذلك أصبح إقناعها بأن تتوارى عن الأنظار في المحل العمومي. باعتباره الملجأ الأكثر ضماناً حيث يمكنها العيش فـي أمان تام من رجال الشرطة والتحري، مجرد مهمة تافهة. وذات صباح أمرها غوريزونت بأن ترتدي أحسن ثيابها، وتجعد شعرها، وتطلي وجهها بالبودرة، وتصبغ خديها ببعض الحمرة، وأخذها إلى الماخور الذي يعرف صاحبته. وقد أحدثت الفتاة هناك انطباعاً جيداً، واستُبدلت بطاقة هويتها فـي اليوم نفسه فـي دائرة الشرطة بما يسمى «البطاقة الصفراء». وما إن فارقها غوريزونت بعد عناق طويل ودموع غزيرة، حتى سارع إلى غرفة صاحبة المحل وقبض خمسين روبلاً (كان قد طلب مئتين)، ولكنه لم يأسف كثيراً لضآلة المبلغ، فقد كان المهم بالنسبة إليه هو أنه وجد نفسه فـي النهاية، واهتدى إلى الرسالة التي خلق لها، وأرسى حجر الأساس الذي سيشيد عليه سعادته المقبلة.

وطبعاً علقت المرأة التي باعها فـي براثن المحل العمومي التي لم يعد لها فكاك منها أبداً، ونسيها غوريزونت تماماً إلى حد أنه لم يستطع بعد عام أن يتذكر وجهها. ولكن.. من يعرف؟.. لعله هو نفسه كان يتظاهر بذلك أمام نفسه!...

وقد أصبح الآن واحداً من أكبر المتاجرين بجسد المرأة فـي جنوب روسيا كله. وأنشأ علاقة عملية مع القسطنطينية والأرجنتين، وصار ينقل مجموعات كاملة من فتيات المحلات العمومية فـي أوديسا إلى كييف، وينقل الكييفيات إلى خاركوف، والخاركوفيات إلى أوديسا. كما كان يدس فـي مختلف مدن المحافظات الثانوية والأقضية الأكثر غنى البضاعة المعيوبة، أو التـي أصبحت مألوفة أكثر من اللزوم فـي المدن الكبرى. وأصبح لديه عدد كبير جداً من الزبائن يمكن أن يذكر من بينهم عدداً لا يستهان بـه من ذوي المكانـة الاجتماعيـة البارزة: نوابَ محافظين، وعقداء فـي الدرك، ومحامين معروفين، ودكاترة مشهورين، وملاكي أراضٍ أثرياء، وتجاراً ماجنين، وبات غوريزونـت يعـرف عـالم صـاحباتِ المحـلات العموميـة، وبنـات الهوى المنفردات، والقوادين، ومديرات بيوت اللقاءات الغرامية، وعشاق المومسات الذين يعيشون على حسابهن، وممثلات الأدوار الصـامتة، ومغنيـات الجوقـات – كـل هـذا العـالم المشـبوه بـات غوريزونت يعرفه كما يعرف الفلكي نجوم السماء.. وكانت ذاكرته المذهلة، التي تسمح له بأن يتفادى بحكمة حمل دفاتر ملاحظات، تحتفظ فـي ثناياها بآلاف الأسماء والكُنى، والألقاب، والعناوين، والأوصاف. وكان يعرف تماماً أذواق جميع زبائنه ذوي المناصب الرفيعة: بعضهم كان يحب الفسق بأساليب مغرقة فـي الغرابة، وبعضهم يدفع مبالغ فاحشة لمضاجعة العذارى، وبعضهم يطلب البحث لـه عن فتيـات صـغيرات. وكـان عليـه أن يرضـي الميـول السادية والمازوشية لدى زبائنه، وأن يلبي أحياناص رغبات جنسية شاذة مخالفة للطبيعة.

ولكن ينبغي القول إنه لم يكن يتولى مثل هذه المهمة الأخيرة إلاَّ فـي حالات نادرة تعد بربح وفير مؤكد. وقد اتفق له أن سُجن مرتين أو ثلاث مرات، إلاَّ أن هذا عاد عليه بالفائدة. فهو، فضلاً عن أنه لم يفقد وقاحته الشرسة، وطاقته المرنة فـي مجال نشاطه، كان يزداد عاماً بعد عام جرأة وابتكاراً وتفنناً. ومع مرور الوقت اقترن اندفاعه بحكمة حياتية عملية كبيرة.

وخلال هذا الوقت تزوج خمس عشرة مرة، وكان يظفر دائماً ببائنة لا يستهان بها. وبعد أن يستحوذ على نقود زوجته يختفي فجأة دون أن يخلف أي أثر، وإذا ما سنحت له الفرصة يبيع زوجته بثمن مجز فـي بيت دعارة سري، أو محل عمومي فاخر. وأحياناً كان والدا الضحية المغرر بها يبحثان عنه عن طريق الشرطة. ولكن فـي الوقت الذي يكونون فيه يستعلمون عن شخص يدعى شبيرلينغ يكون هو فـي تنقل دائم من مدينة إلى مدينة باسم روزينبلوم. وعلى الرغم من قوة ذاكرته التي يحسد عليها، فإنه من كثرة مابدّل من كنى خلال نشاطه العملـي أصبح ينسى فـي أي عام كان يدعى ناتانايلزون، وفـي أيها كان يدعى باكاليار، بل حتى كنيته الحقيقية بدأت تبدو له إحدى كناه المزيفة.

ومن المثير للاهتمام أنه لم يكن يرى فـي مهنته أي شيء إجرامي أو ذميم. كان يمارسها كما لو كان يتاجر بالسمك المملح، أو الكلس، أو الدقيق، أو اللحم، أو الخشب. وكان متديناً على طريقته الخاصة، ويواظب على الذهاب إلى الكنيس إذا سمح له الوقت بذلك، ويجل أعياد يوم الغفران والفصح والمظلة، ويحتفل بها حتماً فـي أي مكان يلقي به إليه القدر. وقد خلّف فـي أوديسا أمه العجوز وأخته حدباء، وكان يرسل إليهما باستمرار مبالغ من المال تقل أو تكثر، ولم يكن يفعل هذا بانتظام، ولكن فـي أوقات متقاربة إلى حد ما، ومن جميع المدن تقريباً، من كورسك حتى أوديسا

ومن وارسو حتى سامارا. وقد تجمعت لديه مدخرات مالية لا يستهان بها فـي مصرف تسليف ليون، وكان ينميها باستمرار ولا يمس فوائدها البتة. ولكنه كان منزهاً تقريباً عن الطمع والبخل، وكان أكثر ما يجذبه إلى عمله الإثارة التي يتسم بها، والمجازفة، والغرر المهني. وكان شعوره نحو النساء يتسم باللامبالاة التامة على الرغم من أنه كان يفهمهن، ويستطيع تقديرهن، وكان من هذه الناحية يشبه الطاهي الماهر الذي يحيط بدقائق مهنته ويعاني فـي الوقت نفسه انعدام الشهية المزمن. كان إقناع المرأة، وإغراؤها، وإجبارها على أن تفعل كل ما يريده منها لا تتطلب منه أية جهود، فقد كن يستجبن لدعوته، ويأتين إليه بأنفسهن، ويصبحن بين يديه طيعات، منقادات، ولا يعترضن على شيء، وتكونت لديه من خلال معاملته لهن ثقة مفرطة بالنفس شديدة الصلابة والرسوخ، كن يخضعن لها كما تخضع الفرس الشموس غريزياً لصوت الفارس الخبير ونظرته ولمساته.

وكان يشرب باعتدال شديد، ولا يشرب إلاَّ ضمن مجموعة. أما الطعام فلم يكن يبالي به البتة، ولكن، بالطبع، كان له، ككل إنسان، نقطة ضعف صغيرة: فقد كان يحب التأنق جداً، وينفق على لباسه مبالغ ليست بالقليلة. وكانت الياقات الدارجة من مختلف الأطرزة، وربطـات العنـق، وأزرار الزينـة الألماسـية، والحلـي الصـغيرة، والألبسة الداخلية الأنيقة، والأحذية الفاخرة تستهويه أكثر من أي شيء آخر.

توجه من محطة القطار إلى «الارميتاج» مباشرة. وأدخل حمالو الفنـدق ذوو السـتر الزرقـاء والقبعـات الرسـمية أمتعتـه إلـى البهـو، ودخل هو خلفهم على الأثر متأبطاً ذراع زوجته. كان كلاهما أنيقاً ومهيبـاً، وكـان هـو بالـذات يشـع بهـاءً وفخامـة بمعطفـه الإنكليـزي العـريض الـذي يبـدو بشـكل النـاقوس، وقبعتـه الصـيفية الجديـدة العريضـة الحافـة، والعصـا التـي يمسـكها باسـتخفاف مـن مقبضـها الفضـي المصنوع بشكل امرأة عارية.

قال له البواب الضخم المكتنز و هو ينظر إليه من أعلى إلى أسفل وقد ارتسم على وجهه تعبير بارد جامد ناعس:
- لا يجوز دون إذن بالإقامة.
فهتف غوريزونت بمرح و هو يربت كتف العملاق.
- أوه، زاخار! «لا يجوز» مرة أخرى! ماذا تعني «لا يجوز» هذه ؟ كل مرة تصدمني بـ «لايجوز» ك هذه. نحن لن نقيم أكثر من ثلاثة أيام فقط. حالما أبرم عقد استئجار مع الكونت إيباتيف أغادر على الفور. عندئذٍ أفعل ما تريد! عش وحدك إذا أردت في الغرف كلها. والآن تعال انظر يا زاخار أية لعبة أحضرت لك معي من أوديسا! من المؤكد أنك ستسرّ بها.
وبحركة حذرة بارعة مألوفة دس روبلاً ذهبياً في يد البواب التي كانت متأهبة خلف ظهره وقد اتخذت شكل الزورق.
وكان أول ما فعله غوريزونت ، بعد أن استقر في الغرفة الكبيرة الواسعة ذات الفجوة الجدارية المخصصة للسرير، هو أنه وضع في الممر أمام باب الغرفة ستة أزواج من الأحذية الفاخرة، وقال لخادم الممر الذي جاء راكضاً على رنين الجرس:
- للتنظيف فوراً! يجب أن تلمع كالمرآة! يدعونك تيموفي على ما أظن؟ يجب أن تعرف من أنا: عندي لا يضيع تعب أحد أبداً. يجب أن تلمع كالمرآة!..
لم يمكث غوريزونت في فندق «الارميتاج» أكثر من ثلاثة أيام، وقد قابل خلال هذه المدة ثلاثمئة شخص. وبدا كأن مقدمه قد أحيى هذه المدينة المرفئية الكبيرة المرحة. وكانت تأتي إليه صاحبات مكاتب تشغيل الخدم، وصاحبات الغرف المفروشة، والقوادات المسنّات الخبيرات اللواتي شاب شعرهن في المتاجرة بالنساء.

وكان غوريزونت يفعل كل ما بوسعه ليحصل على أكبر قدر من الفوائد، وليشتري النساء بأرخص الأسعار، ولم يكن يفعل ذلك عن طمع، بقدر ماكان يفعله بدافع الكبرياء المهنية. طبعاً، ولم يكن يضع فـي حسابه الحصول على عشرة روبلات أو خمسة عشر روبلاً إضافياً؛ ولكن مجرد التفكير فـي أن منافسه يامبولسكي سيبيع بسعر أعلى من سعره كان يصيبه بالسعار.

فـي اليوم التالي لوصوله توجه إلى المصور ميزير مصطحباً الفتاة بيلاّ المنفصلة عن زوجها، وتصور معها فـي وضعيات مختلفة، وقبض لقاء كل مسودة ثلاثة روبلات، وقد بلغ عدد الصور الملتقطة عشرين، وأعطى المرأة روبلاً عن كل صورة. وبعد ذلك توجه إلى بارسوكوفا.

وبارسوكوفا هذه امرأة، أو على الأصح بنت هوى متقاعدة، من النوع الذي لا تصادفه إلاّ فـي جنوبي روسيا، ولا تعرف هل هي بولونية أم أوكرانية، وهي مسنّة وغنية إلى الحد الذي لا يسمح لها بأن ترفّه نفسها بإعالة شاب بولوني جميل رقيق، وبفتح ملهى يقدم عروضاً غنائية. وقد التقى غوريزونت وبارسوكوفا كمتعارفين قديمين، ويبدو أنهما لم يكونا يعرفان الخوف، ولا الخجل، ولا الضمير عندما يتحادثان.

- مدام بارسوكوفا! بإمكاني أن أعرض عليك شيئاً متميزاً! ثلاث نساء: واحدة ضخمة، شعرها أسود، ومتواضعة جداً، والثانية ضئيلة شقراء، ولكنها، تفهمين، مستعدة لكل شيء. والثالثة: امرأة غامضة، تبتسم فقط ولا تقول شيئاً، ولكنها تعد بالكثير، وهي فائقة الجمال.

كانت مدام بارسوكوفا تنظر إليه وتهز رأسها غير واثقة من صدق ما يقوله:

- يا سيد غوريزونت ! لماذا تستغفلني هكذا؟ أتريد أن تفعل بي ما فعلته فـي السنة الماضية.

- فليمحقنـي الـرب إن كنـت أريـد أن أخـدعك. ولكـن لـيس هـذا هـو المهم. إنني أعرض عليك أيضاً امرأة مثقفة جداً. افعلي بها ما يبدو لك. من المؤكد أنك ستجدين لها راغباً.

ابتسمت بارسوكوفا ابتسامة خفيفة ذات مغزى وسألت:

- زوجة أخرى؟

- لا، ولكنها من فئة النبلاء.

- يعني متاعب مع الشرطة من جديد.

- أوه، يا إلهي! لن آخذ منك مبلغاً كبيراً: عن الأربع نحو ألف روبل أَجْرَب.

- ايه، لنتكلم بصراحة: خمسمئة، ولا أريد أن أشتري بضاعة لا أراها..

- أظـن ، يـا مـدام بارسـوكوفا ، إن هـذه ليسـت المـرة الأولـى التـي نتعامل فيها. أنا لن أخدعك، وسأحضرها لك فوراً، أرجوك فقط أن لا تنسي أنك خالتي، وتصرفي، من فضلك، على هذا الاساس، أنا لن أبقى هنا فـي المدينة أكثر من ثلاثة أيام.

تماوجت مدام بارسوكوفا جذلاً بكل مالديها من صدور وبطون وذقون.

- لن نتساوم على شؤون تافهة، ولاسيما أننا، أنا وأنت، لا يخدع أحدنا الآخر، الآن هناك طلب كبير على النساء. ما رأيك، يا سيد غوريزونت ، فـي أن أقدم لك نبيذاً أحمر؟

- أشكرك، مدام بارسوكوفا ، بكل سرور.

- دعنا نتكلم كصديقين قديمين أخبرني: كم تكسب فـي السنة؟
- آخ، مدام، ماذا أقول لك؟ اثني عشر، عشرين ألفاً تقريباً. ولكن قَدِّري: أية نفقات هائلة فـي السفر الدائم.
- هل تدخر قليلاً؟
- مبالغ تافهة: ألفين أو ثلاثة آلاف فـي السنة.
- كنت أظن أنك تدخر عشرة أو عشرين.
تيقظ غوريزونت ، وأحس أنها «تجس نبضه»، فسألها بتملق:
- ولماذا يهمك هذا الأمر؟
ضـغطت آنـا ميخايلوفنـا زر الجـرس الكهربـائي، وأمـرت الخادمـة المتأنقة بتقديم قهوة مع قشدة مذوبة وزجاجة شامبرتين. فقد كانت تعرف ذوق غوريزونت . وبعد ذلك سألته:
- هل تعرف السيد شيبشيروفيتش؟
فإذا بغوريزونت يهتف قائلاً:
- يا إلهي! ومن لا يعرف شيبشيروفيتش ! إنه – إله، إنه عبقري!..
وشرع يتكلم بحيوية وإعجاب شديدين ناسياً أنهم يستدرجونه إلى فخ.
- تصوري ما الذي فعله شيبشيروفيتش فـي السنة الماضية! لقد نقل إلى الأرجنتين ثلاثين امرأة من كوفنو، وفيلنو، وجيتومير، وباع كل واحدة بألف روبل. احسبي المجموع يا مدام: إنه ثلاثون ألفاً! و هل تظنين أن شيبشيروفيتش قد اكتفى بهذا؟ فلكي يدفع نفقات ركوب البـاخرة اشـترى بهـذه النقـود عـدداً مـن الزنجيـات ووزعهـن علـى موسـكو وبطرسـبورغ وكييـف وأوديسـا وخـاركوف. أتعـرفين، يـا مدام! إنه ليس إنساناً، بل عُقاب. هذا هو الذي يعرف كيف تُدبَّر الأمور!

وضعت بارسوكوفا يدها على ركبته بلطف: - فقد كانت تنتظر هذه اللحظة بالذات – وقالت بتودد:

- اسمع ما سأعرضه عليك يا سيد... في الحقيقة لا أعرف كيف يدعونك الآن...

- فلنقل غوريزونت ...

- اسمع ما سأعرضه عليك يا سيد غوريزونت؛ ألا أجد لديك فتيات أبكاراً؟ الطلب عليهن الآن شديد جداً. أنا لا ألاعبك بأوراق مكشوفة. النقود لن تكون موضع خلاف بيننا. الآن هذه هي الموضة، لاحظ ، يا غوريزونت ، أنهم سيعيدون لك فتياتك كما كن تماماً، القضية، يمكن أن يقال، فسق صغير، من النوع الذي لا أستطيع أن أفهمه بحال من الأحوال...

- في الحقيقة، أنا لدي زوجة... أنت حزرت تقريباً.

- هكذا إذاً، ولكن لماذا «تقريباً»؟

- أخجل أن أعترف أنها، كيف يمكن أن أعبّر... إنها لا تزال خطيبتي...

قهقهت بارسوكوفا بجذل:

- أتعرف يا غوريزونت ، لم يكن بإمكاني البتة أن أتوقع أنك بمثل هذه السفالة! هات زوجتك، لا فرق. ولكن أحقاً أنك استطعت أن تضبط نفسك؟

سأل غوريزونت بجدّ: - ألف؟

- أوه! ما هذه السفاسف! فلنقل: ألف. ولكن قل لي: هل سأنجح في ترويضها؟

- سفاسف! – أجاب غوريزونت بلهجة الواثق بنفسه – لنفترض مرة ثانية أنك خالتي، وأنني أترك عندك زوجتي. تصوري، يا مدام بارسوكوفا أن هذه المرأة مدلهة بي، وأنك إذا قلت لها إنها يجب أن تفعل كذا وكذا من أجل سلامتي، فإنها ستفعل دون أي نقاش.

ويبدو أنه لم يعد ثمة ما يتحادثان فيه. أحضرت مدام بار سوكوفا كبيمالـة، وكتبـت عليهـا بصـعوبة اسـمها وكنيتهـا ولقبهـا. وكانـت الكمبيالة خيالية، طبعاً، ولكن هناك العلاقة ، والارتباط، و ضمير سجناء الأشغال الشاقة. فـي مثل هذه الأمور لا أحد يخدع أحداً، وإلاَّ تهدده خطر الموت، سواء أكان فـي السجن، أو فـي الشارع، أو فـي المحل العمومي.

بعد ذلك ظهر على الفور، كشبح انبثق من فتحة خفية، صديقها الحمـيم، الشـاب البولـوني ذو الشـاربين المعقـوفين إلـى الأعلـى، صـاحب الملهـى. شـربوا نبيـذاً، وتحـدثوا عـن السـوق الموسـمية والمعرض، واشتكوا بعض الشيء من سوء الأحوال. وبعد ذلك اتصل غوريزونت بالفندق هاتفياً، واستدعى زوجته، وعرّفها على خالته وابن خالة خالته، وقال لها إن شؤوناً سياسية سرية تستدعي خروجه من المدينة، عانق سارة بحنان، واغرورقت عيناه بالدموع، وغادر المكان.

عند قدوم غوريزونت (فـي الحقيقة لا يعرف إلاَّ الرب كيف كانوا يدعونـــه آنـــذاك: غوغـــوليفيتش، غيـــدا ليفيـــتش، أوكونـــوف، روزميتالسكي) باختصار، عند قدوم هذا الشخص تبدل كل شيء فـي حي «الحفرة». وبدأت تجري تنقلات واسعة. حَوّلوا فتيات من محل تريبيل إلى محل آنا ماركوفنا ، ومن محل آنا ماركوفنا ، إلى محل الروبل، ومن محل الروبل إلى محل نصف الروبل. لم تحدث ترفيعات، بل تخفيضات فقط.

وعند كل نقل كان غوريزونت يقبض من خمسة روبلات إلى مئة روبل. كانت لديه ، بالفعل، طاقة تعادل تقريباً طاقة شلال ايمار تا[1]!
وفيما هو جالس نهاراً عند آنا ماركوفنا كان يقول وهو يضيق عينيه متفادياً دخان سيكارته ويهز ساقه الموضوعة فوق ساقه الأخرى:
- أتسأءل... ماهي حاجتك إلى هذه التي اسمها سونكا؟ هذه لا مكان لها في محل محترم كمحلك. فإذا نحن تخلصنا منها، أنت ستكسبين مئة روبل، وأنا خمسة وعشرين، اخبريني بصراحة: إنها غير مطلوبة، أليس كذلك؟
- آه يا سيد شاتسكي! أنت دائماً قادر على الإقناع! ولكن تصور أنني أشفق عليها. بنت رقيقة جداً...
فكر غوريزونت بعض الوقت باحثاً عن تعبير مناسب، ثم قال فجأة بسرعة:
- ادفعي المتعثر ليقع! وأنا واثق، يا مدام شايبس، أنه لا يوجد عليها طلب بالمرة!
وقال ايساي سافيتش ، الشيخ الضئيل السقيم الموسوس، ولكن الحازم جداً عند اللزوم، مؤيداً رأي غوريزونت :
- الأمر في منتهى البساطة، فعلاً ليس عليها طلب بالمرة. تصوري يا آنيتشا أن أمتعتها تساوي خمسين روبلاً، السيد شاتسكي سيقبض خمسة وعشرين روبلاً، ونحن سيبقى لنا خمسون روبلاً، ونحمد الرب على أننا تخلصنا منها! .. على الأقل نأمن من أن تشوّه سمعة محلنا.

---

[1] شلال في فنلندا.

وهكذا نُقلت سونكا المِقْود، متجاوزة محل الروبل، إلى محل نصف الروبل، حيث الأوباش من الناس يظلون ليالي بطولها يسخرون من الفتيات كما يحلو لهم. كانت الإقامة هناك تتطلب بنية متينة، وقوة أعصاب كبيرة. وقد ارتجفت سونكا من الرعب ذات ليلة، عندما اندفعت فيوكلان وهي امرأة تزن نحو ستة بودات[1]، إلى الفناء لتقضي حاجة، وصاحت بالمدبرة التي كانت مارة بقربها:

- مدبرتي! اسمعي: الرجل السادس والثلاثون! .. لا تنسي.

لحسن الحظ لم يكونوا يزعجون سونكا كثيراً: فحتى في هذا المحل كانت تبدو غير جميلة، ولم يكن أحد يلتفت إلى عينيها الفاتنتين، ولم يكونوا يأخذونها إلاَّ عندما لا تكون أية فتاة غيرها في متناول اليد. بحث الصيدلاني عنها حتى وجدها وصار يزورها كل مساء. كان ثمة شيء ما، لعله الجبن، أو الحساسية اليهودية الخاصة، أو ربما حتى الاشمئزاز الجسدي، يمنعه من الإقدام على إخراج فتاته هذه من المحل. كان يجلس بجانبها ليالي بطولها، وينتظر بصبر، كالسابق، عودتها من صحبة زبون عرضي، ويتشاجر معها بسبب الغيرة، ومع ذلك كان يحبها، وكان، وهو يقضي النهار في الصيدلية خلف النضد يلف حبوباً ما كريهة الرائحة، لا ينفك يفكر فيها ويشتاق إليها.

ما إن تدخل الملهى المقام خارج المدينة حتى تتلألأ أمام ناظريك أنوار مختلفة الألوان، تنبعث من حوض اصطناعي، يحتوي بدل الأزهار على مصابيح كهربائية، ويمتد منه إلى عمق الحديقة ممر من الأنوار المماثلة تتخذ شكل أقواس نصف دائرية، تزداد ضيقاً كلما اقتربت من النهاية.

---

[1] البود: وحدة وزن روسية قديمة تساوي ١٦.٣٨ كغ.

وتنبسط أمامك بعد ذلك فسحة واسعة مفروشة برمل أصفر: إلى يسارها منصة مكشوفة ومسرح وميدان رماية، وفي الأمام منصة على شكل صدفة لعزف الموسيقا العسكرية، وأكواخ للأزهار والبيرة، وإلى اليمين: شرفة مطعم طويلة. وتنير الساحة كرات كهربائية ترسل من صواريها العالية أضواء ساطعة وشاحبة وكابية، وترتطم على زجاجها الكامد المحاط بشباك معدنية أسراب من الفراشات الليلية التي تضطرب ظلالها الباهتة والكبيرة تحت، على الأرض. وفي الساحة كان ثمة نساء جائعات يسرن جيئة وذهاباً مثنى مثنى بخطوات تعبة متثاقلة، وقد ارتدين ملابس خفيفة جداً، وحللاً مزركشة ومزوقة، ورسمن على وجوههن تعابير توحي بالمرح الخلي، أو الاستعلاء الغاضب المتغطرس.

كانت جميع الموائد في المطعم مشغولة، وفوق الموائد كانت تخيم سحابة متراصة من صليل السكاكين التي تقرع الصحون، ومن اللغط المبرقش المتواثب كالموج، وكانت تفوح رائحة دخان المطبخ الوخّازة المشبعة. وفي وسط المطعم كانت تقوم منصة يعزف عليها موسيقيون من رومانيا، يرتدون فراكات حمراء، وكلهم ذوو بشرة سمراء، وأسنان بيضاء، وشوارب ووجوه قرود مطلية بدهون الزينة ومملسة. وكان قائد الأوركسترا يعزف على الكمان منحنياً إلى الأمام، ويتأرجح بتصنع، ويغمز الجمهور بعينيه غمزات بذيئة متوددة توحي بأنه رجل – مومس. كانت كل الأشياء الموجودة هنا: هذه الوفرة من الأنوار الكهربائية اللجوجة، وهذه الملابس النسوية الزاهية إلى حد المبالغة، وهذه الروائح المتضوعة من العطور الحادة الدارجة، وهذه الموسيقا الصادحة التي يتباطأ فيها الإيقاع كيفياً، ويخفت الجرس بشهوانية في المقاطع الانتقالية، ويتوتر بشدة في المقاطع العاصفة – كل هذه الأشياء كانت تتناسب فيما بينها، وتشكل بمجموعها لوحة إجمالية للترف الغبي المجنون، وصورة مزيفة للهو المرح الماجن.

وكانت تحيط بالصالة كلها من الأعلى أروقة مكشوفة تنفتح عليها، كما على بلكونات، أبواب غرف منفردة. وفي إحدى هذه الغرف كان يجلس أربعة أشخاص: سيدتان ورجلان؛ إحدى السيدتين كانت الفنانة المغنية «روفينسكايا» التي تعرفها روسيا كلها، وهي امرأة جسيمة جميلة، ذات عينين خضراوين طويلتين مصريتين، وفم طويل أحمر شهواني، انخفضت زاويتا شفتيه نحو الأسفل بضراوة. وكانت السيدة الأخرى هي البارونة تيفتينغ، وهي امرأة ضئيلة، أنيقة، شاحبة، لا تُرى إلاّ برفقة الفنانة. أما الرجلان فهما المحامي الشهير ريزانوف، وفولوديا تشابلينسكي، وهو شاب غني من نجوم المجتمع الراقي، وموسيقار دعي، ومؤلف عدة قصائد غنائية قصيرة، وكثير من النكات التي تدور حول أمور راهنة، ويتداولها الناس في المدينة كلها.

كانت جدران الغرفة حمراء مزخرفة بنقوش ذهبية، وعلى الطاولة بين الشمعدانات المشعلة يستقر جام من الفضة الألمانية عرقان من البرودة، يبرز منه عنقا زجاجتين أبيضان مقطرنان، والنور يتلاعب ذهباً سائلاً مرتعشاً في الكؤوس المسطحة الملأى بالخمرة. في الخارج كان يقف قرب الباب خادم مناوب مستنداً إلى الجدار. وكان كبير الندل، وهو شخص ضخم سمين مهيب تتلألأ على خنصر يده اليمنى المبتعد دائماً عن بقية أصابعه ألماسة ضخمة، غالباً ما يتوقف عند الباب وينصت باهتمام بأذن واحدة إلى ما يجري في الداخل.

كانت البارونة التي بدا الضجر على وجهها الشاحب تنظر بكسل عبر نظارتها المحمولة باليد إلى الأسفل حيث الجمهور لا يكف عن الدوي والمضغ والحركة، وحيث كانت شخوص الرجال الرتيبة تبدو وسط فساتين النساء الحمراء والبيضاء والزرقاء والصفراء شبيهة بجعلان سوداء كبيرة مكتنزة، وكانت روفينسكايا تنظر إلى الأسفل باسترخاء ولكن في الوقت نفسه بإمعان، منقلة بصرها من المنصة إلى النظارة، وقد تجلى على وجهها التعب والملل، وربما علائم ذاك الشعور بالتخمة من جميع مشاهد الفرجة الذي يلازم المشاهير. كانت أصابع يدها اليسرى الجميلة الطويلة النحيلة تستلقي على مخمل الشرفة القرمزي، مزدانة بزمردات نادرة الجمال. وكانت الزمردات تسترخي على أناملها بتهاون بالغ حتى ليبدو أنها على وشك السقوط. ضحكت الفنانة بغتة ضحكة عريضة وقالت:
- انظروا أي شخص مضحك هذا، أو على الأصح أية مهنة مضحكة هذه! هناك، هناك.. ذاك الذي يعزف على «المزمار السباعي القصبات».
نظر الجميع إلى حيث كانت تشير بيدها. كان المنظر يدعو إلى الضحك فعلاً. فخلف الأوركسترا الرومانية كان يجلس شخص سمين له شاربان، لعله أب، أو ربما حتى جد لعائلة كبيرة، وينفخ بكل قوته في سبع زمارات ألصق بعضها ببعض. وبما أنه كان، على ما يبدو، يستصعب تنقيل هذه الآلة بين شفتيه، فقد كان يعمد إلى تحريك رأسه يمنة ويسرة بسرعة خارقة. قالت روفينسكايا: - شيء مدهش. هيا يا تشابلينسكي، جرب أن تحرك رأسك هكذا.
وسارع فولوديا تشابلينسكي الذي كان يحب الفنانة في السر حباً لا أمل فيه إلى الإذعان على الفور والاجتهاد في تنفيذ ما طلبته منه

ولكنه مالبث أن أمتنع عن ذلك بعد نصف دقيقة قائلاً:
- هذا غير ممكن، الأمر يتطلب إما تدريباً طويلاً، أو ربما قدرات وراثية. الرأس يصاب بالدوار.
كانت البارونة في أثناء ذلك تقطف تويجات وردتها وتلقي بها في الكأس، وعندما انتهت من ذلك قالت بعد أن تغلبت بصعوبة على رغبتها في التثاؤب وتغضن وجهها بعض الشيء:
- أوه، يا إلهي، ما أشد الملل في أماكن التسلية عندكم في ك.! انظروا: لا ضحك، ولا غناء، ولا رقص. كأنهم قطيع سيق إلى هنا ليمرح عمداً!..
تناول ريزانوف كأسه بكسل، ورشف منها قليلاً، وأجاب دون اكتراث بصوته الساحر:
- يعني عندكم في باريس أو نيس المرح أكثر؟! يجب الاعتراف بأن المرح والشباب والضحك ظواهر اختفت من الحياة البشرية إلى الأبد، وأظن أنها لن تعود أبداً. ويبدو لي أن موقفنا من الناس يجب أن يكون أكثر حلماً، ومن يدري، ربما كانت هذه الأمسية بالنسبة لجميع الجالسين هنا، تحت، هي استراحة ، عيداً؟
علق تشابلينسكي بأسلوبه الهادئ: - مرافعة محامي الدفاع.
التفتت روفينسكايا بسرعة نحو الرجلين، وضاقت عيناها الطويلتان الزمرديتان، وكان هذا دليلاً على غضبها الذي كان أحياناً يجعل حتى الشخصيات المتوّجة ترتكب حماقات، ولكنها سرعان ما تماسكت ومضت تقول بفتور:
- لا أفهم عما تتحدثان. ولا أفهم حتى لماذا جئنا إلى هنا. ففي العالم الآن لا توجد مشاهد للفرجة على الإطلاق. أنا، مثلاً، تفرجت على مصارعة الثيران في اشبيلية ومدريد ومرسيليا، مناظر لا تثير في النفس سوى الاشمئزاز. وتفرجت على الملاكمة والمصارعة: قذارة وفظاظة

واتفق لي أيضاً أن شاركت في صيد نمر. كنت في أثناء ذلك أجلس تحت ظلة على ظهر فيل أبيض كبير وذكي.. وعلى كل أنتم أنفسكم تعرفون هذا جيداً، وخلال حياتي كلها، حياتي الرحبة المبرقشة الصاخبة التي أهرمتني...

- أوه، ماذا تقولين يا يلينا فيكتوروفنا!

قال تشابلينسكي بلوم رقيق.

- دعك من الإطراء يا فولوديا! أن نفسي أعرف أنني مازلت شابة، وأن جسمي مازال رائعاً، ولكن، بالفعل، في بعض الأحيان يخيل إلي أن عمري تسعون عامًا، إلى هذا الحد أصيبت نفسي بالاهتراء، لنعد إلى حديثنا، كنت أقول: إنه خلال حياتي كلها لم تترسخ في نفسي سوى ثلاثة انطباعات قوية. أولها عندما رأيت وأنا طفلة هرة تتسلل خلف عصفور، وقد تتبعت برعب واهتمام حركات الهرة، ونظرة العصفور المتيقظة، وأنا حتى الآن لا أدري ما الذي كنت أتعاطف معه أكثر: براعة الهرة أم مراوغة العصفور. وقد كان العصفور هو الأرشق. فقد طار فجأة بلحظة خاطفة إلى الشجرة، وبدأ يمطر الهرة من هناك بسباب عصفوري أظن أنني كنت سأتضرج بحمرة الخجل لو فهمت كلمة واحدة منه. وقد رفعت الهرة ذيلها باستياء، وحاولت أن تتظاهر أمام نفسها أنه لم يحدث شيء ذو أهمية، وفي مرة أخرى اتفق لي أن غنيت في أوبرا ثنائية مع واحد من أعظم الفنانين...

- مع من؟ - سألت البارونة بسرعة.

- وأية أهمية لذلك؟.. ما الداعي لذكر الأسماء؟ المهم أنني عندما غنيت معه شعرت أنني أصبحت بكلّيتي تحت سيطرة العبقرية. أية روعة! وأي انسجام عجيب آلف بين صوتينا! آه! لا يمكن التعبير عن هذا الانطباع، أظن أنه لا يحدث إلاَّ مرة واحدة في الحياة. كان الدور يقتضي مني أن أبكي، وقد بكيت بدموع صادقة، حقيقية.

وعندما اقترب مني بعد إسدال الستارة، ومسح شعري بيده الكبيرة الحارة، وقال لي وهو يبتسم ابتسامته المشرقة الفاتنة: «رائع! لأول مرة فـي حياتي أغني هكذا..»... إذا بي – وأنا إنسانة عزيزة النفس جداً – أقبّل يده، ودموعي لا تزال تجول فـي عينـي...
- والثالث؟ - سألت البارونة وعيناها تقدحان شرراً حاقداً من الغيرة.
- آه، الثالث – أجابت الفنانة بأسى – الثالث أبسط من البساطة. فـي موسم العام الماضي كنت أقيم فـي نيس.. وقد شاهدت آنذاك على خشبة مسرح مكشوف فـي فريجوس أوبرا «كارمن»، وكانت تلعب دور البطولة فيها سيسيل كيتين[1]، التي – وهنا رسمت الفنانة شارة الصليب بعاطفة صادقة –توفيت... منذ فترة...
ولا أدري، فـي الحقيقة ، هل كان هذا لحسن الحظ أم لسوء الحظ بالنسبة لي؟
وفجأة، وبلحظة واحدة، امتلأت عيناها البديعتان بالدموع، وشع منهما نور أخضر سحري، كما يشع نور نجمة المساء فـي غبش الأمسيات الصيفية الدافئة. أدارت وجهها نحو المنصة، وضغطت أصابعها الطويلة العصبية بتشنج مخمل حاجز الشرفة بعض الوقت. ولكنها عندما التفتت من جديد نحو أصدقائها كانت عيناها قد جفّتا، والتمعت علـى شـفتيها الغامضـتين الآثمتـين المسـيطرتين ابتسـامة عفوية.
عندئذٍ سألها ريزانوف بأدب وبلهجة رقيقة وهدوء متعمد:
- ولكنْ ، يا يلينا فيكتوروفنا، شهرتك العظيمة هذه، والمعجبون بك، وهتاف الجماهير، والأزهار، والترف... وأخيراً هذا الطرب المبهج الـذي تشـيعينه فــي نفـوس مشـاهديك، أحقـاً أن كـل هـذا لا يدغـدغ أعصابك؟

---

[1] كيتين سيسيل: مغنية أوبرا فرنسية (ت ١٩١٢م).

- لا ، يا ريزانوف – أجابت المغنية بصوت متعب – أنت نفسك لست أقل معرفة مني بم يكلفني كل هذا. المراسل الصحفي الوقح الذي يطلب بطاقات دعوة لمعارفه، وبالمناسبة خمسة وعشرين روبلاً في ظرف؛ والتلاميذ والتلميذات والطلبة ومتدربو الدورات الذين يطلبون صوراً مع إهداء؛ وغبي ما هَرِمَ برتبة جنرال يرافقني في الغناء من الصالة بصوت عال؛ والهمس الدائم خلفي وأنا أمرّ: «ها هي، بذاتها، الشهيرة!»؛ والرسائل المغفلة؛ ووقاحة روّاد ما وراء الكواليس... لا يمكن تعداد كل شيء! وأنت نفسك، على ما أظن، غالباً ما تحاصرك المهووسات بشؤون القضاء؟

- نعم. – قال رايزانوف بلهجة قاطعة.

- هذه هي القضية. أضف إلى ذلك أفظع مافي الأمر، وهو أنني في كل مرة أحس فيها بالإلهام الحقيقي ينتابني على الفور شعور مؤلم بأنني أتصنع وأتكلف أمام الناس... ثم الخوف من نجاح منافستي؟ والتخوف الدائم من فقدان الصوت، ومن الإصابة بالبحة أو الزكام؟ والعناية الدائمة المضنية بالحبال الصوتية؟ لا، في الحقيقة، من المرهق أن تحمل على كاهلك عبء الشهرة.

قال المحامي معترضاً: - ولكن المجد الفنّي؟ سلطة العبقرية! إنها سلطة معنوية حقيقية، وهي أسمى من أية سلطة ملكية في العالم!..

- نعم، نعم، أنت طبعاً على حق يا عزيزي، ولكن المجد والشهرة لذيذان من بعيد فقط، عندما يكونان مجرد حلم، أما عندما تحوز عليهما، فإنك لا تعود تحس إلاَّ بشوكهما. وبالمقابل لَشَدَّ ما يؤلمك الإحساس بفقدان كل ذرة منهما.

ثم إنني نسيت أن أقول إن العمل الذي نقوم به، نحن الفنانين، يشبه الأشغال الشاقة. صباحاً تمارين، ونهاراً بروفات، ولا نكاد نجد الوقت اللازم لتناول الغداء، ثم ما يلبث أن يحين وقت العرض، وبمعجزة تختلس سويعة لتقرأ أو تتسلى كما نفعل الآن. وحتى التسلية تكون من المستوى العادي تماماً...

أشارت بأصابع يدها المستلقية على الحاجز إشارة متعبة لا مبالية للتعبير عن اليأس.

وفجأة سأل فولوديا تشابلينسكي الذي أثاره الحديث:

- طيب، قولي لنا، يا يلينان فيكتوروفنا، ما الذي ترغبين فيه وتعتقدين أ نه يرفه عن نفسك ويبدد مللك؟

نظرت إليه بعينيها الغامضتين، وأجابته بصوت خافت، كما لو كانت خجلة بعض الشيء:

- في السابق كانت حياة الناس أكثر مرحاً، ولم يكونوا يعرفون أية معتقدات بالية. ويخيل لي أنني لو عشت آنذاك لشعرت بأنني في مكاني الصحيح، وأنني أعيش حياة مليئة. آه يا روما القديمة!..

لم يفهمها أحد سوى ريزانوف الذي لفظ ببطء، دون أن يتطلع إليها، بصوته التمثيلي المخملي، تلكم العبارة اللاتينية الكلاسيكية التي يعرفها الجميع:

- بالضبط، أنا أحبك جداً يا ريزانوف لأنك ذكي، دائماً تلتقط الفكرة وهي طائرة، مع أن هذه السمة، على كل حال، ليست هي الخاصية السامية الفريدة للعقل. وبالفعل، يلتقي شخصان كانا حتى الامس صديقين، يتسامران ويتنادمان، واليوم لا بد لأحدهما من أن يُقتل، أتفهمون، أن يفارق الحياة إلى الأبد. ولكن لا أحد منهما يضمر حقداً أو يشعر بالخوف، هذه هي الفرجة الوحيدة الرائعة حقاً التي بإمكاني تصورها!

قالت البارونة بشرود: - ما أشد قسوتك!
- ليس باليد حيلة!.. أجدادي كانوا فرساناً يسلبون وينهبون. ولكن، يا سادة، أما آن لنا أن نغادر؟.
خرجوا جميعاً من الحديقة، وأمر فولوديا تشابليذسكي بمناداة سائق سيارته، استندت يلينا فيكتوروفنا إلى يده، وسألته فجأة:
- قل لي، يا فولوديا، إلى أين تذهب عادة بعد أن تودع من يسمونهن النساء المحترمات؟
صمت فولوديا محتاراً، ولكنه كان يعرف تماماً أن الكذب على روفينسكايا غير ممكن.
- م – م – م .... أخاف أن أخدش شعورك . م – م – م... إلى الغجر، مثلاً... إلى كباريه ليلي.
- وإلى أين أيضاً؟ أمكنة أسوأ؟
- أنت ، في الحقيقة، تضعينني في موقف حرج، فأنا منذ أن جننت بحبك..
- دعك من الرومانسيات!
- ولكن، كيف أقول... تمتم فولوديا متلعثماً وهو يشعر بأن الحمرة لا تصبغ وجهه فقط، بل جسمه أيضاً، وظهره – يعني، طبعاً، إلى النساء، ولكن هذا، طبعاً، لا يحدث لي أنا شخصياً الآن...
شدّت روفينسكايا إليها مرفق تشابلينسكي ضاغطة عليه بغضب: - إلى المحل العمومي؟
لم يحر فولوديا جواباً. فقالت له:
- إذاً- خذنا الآن على الفور إلى هناك بسيارتك، وعَرِّفنا هذه الحياة الغريبة عني. ولكن تذكّر أنني أعتمد على حمايتك.

وافق الآخران على هذا ولكن على كره منهما، إذ إن مخالفة يلينا فيكتوروفنا غير ممكنة بالمرة، فهي دائماً تفعل كل ما تريده. وفيما بعد كلهم سمعوا وعرفوا أن سيدات، بل حتى فتيات المجتمع الراقي اللاهيات في بطرسبورغ يبحن لأنفسهن، مراعاة للموضة والتشبه، الإتيان بتصرفات غريبة أسوأ بكثير مما اقترحته روفينسكايا.
قالت روفينسكايا لفولوديا وهي في الطريق إلى حي «الحفرة» :
- خذني في البداية إلى أفخم محل، ثم إلى الوسط، ثم إلى أقذر المحلات. فرد تشابلينسكي معترضاً بحرارة:
- عزيزتي يلينا فيكتوروفنا ، أنا مستعد للقيام بأي شيء من أجلك، وأقول بدون تباهٍ كاذب إنني أضحي بحياتي إذا أمرتني بذلك، وأهدم ما توصلت إليه من مكانة في العمل والمجتمع بإشارة واحدة منك، ولكنني لا أجازف في أخذك إلى هذه المحلات. الطباع الروسية فظة، وأحياناً تكون لا إنسانية: وأخشى أن يهينوك بكلمة بذيئة جارحة، أو أن يقدم زبون عرضي على القيام بتصرف سخيف بحضرتك...
قاطعته روفينسكايا بنفاد صبر:
- آه، يا إلهي، عندما كنت أغني في لندن كثيرون كانوا يتوددون إليَّ، ولم أكن أخجل، وأنا ضمن مجموعة منتقاة، من الذهاب للفرجة على أقذر مواخير وايت تشيبل. وكانوا هناك يعاملونني بحرص وتأدب بالغين. وأقول لك أيضاً إنني كنت آنذاك برفقة اثنين من الأرستقراطيين الإنكليز، من اللوردات، وكلاهما رياضيان وخارقا القوة جسدياً ومعنوياً، وطبعاً لم يكونا ليسمحا البتة بإلحاق الإهانة بامرأة. وبالمناسبة، لعلك يا فولوديا من صنف الجبناء؟..
انتفض تشابلينسكي قائلاً:

- أوه، لا، لا، يا يلينا فيكتوروفنا ، أنا نبهتك فقط لأنني أحبك، ولكن إذا أمرتني فأنا مستعد للذهاب إلى حيث تريدين. ليس إلى هذه المحلات المشبوهة فحسب، بل حتى إلى الموت نفسه.

في هذه الأثناء كانوا قد وصلوا إلى أفخم محل في حي «الحفرة» - محل تريبيل. قال المحامي ريزانوف وهو يبتسم ابتسامته المتهكمة المعهودة: - والآن يبدأ استعراض معرض الوحوش.

أخذوهم إلى غرفة مكسوة بورق جدران قرمزي كرّرت عليه رسمة مذهبة بالأسلوب «الإمبراطوري» تمثل أكاليل غار صغيرة، ولاحظت روفينسكايا على الفور بذاكرتها الفنية المتيقظة أن هذه الأوراق مماثلة تماماً لأوراق جدران الغرفة التي كانوا أربعتهم يجلسون فيها منذ قليل.

خرجت إليهم أربع نساء شقراوات من ألمانيات البلطيق، كلهن سمينات وذوات صدور عامرة، وقد طليت وجوههن بالبودرة، واتسم مظهرهن بقدر كبير من الهيبة والوقار، لم ينعقد الحديث في البداية، فقد جلست الفتيات ساكنات كأنهن تماثيل حجرية، وانصرف كل همهن وجهدهن إلى الظهور بمظهر السيدات المحترمات، وحتى الشمبانيا التي طلبها رايزانوف لم تحسن المزاج العام، وكانت روفينسكايا هي أول من بادر إلى مد يد العون للجماعة، فقد توجهت إلى أكثرهن سمنة و شقرة حتى لكأنها «صَمّونة» خبز بيضاء منتفخة، وسألتها بالألمانية بلهجة مؤدبة:

- من أين أنت؟ على الأرجح من ألمانيا.
- لا[1]، gnädige Frau، بل أنا من ريغا.
- وما الذي جعلك تخدمين هنا؟ آمل ألاَّ تكون الحاجة؟
- لا، طبعاً، ، gnädige Frau، ولكن القصة أن زوجي هانس يعمل جرسوناً في مطعم آلي، ونحن فقيران إلى درجة تمنعنا من الزواج الآن، وأنا أضع مدخراتي في مصرف، و هو يفعل الشيء نفسه. وعندما سنجمع عشرة آلاف الروبل التي نحتاج إليها سنفتح حانة بيرة، وإذا باركنا الرب سنسمح لأنفسنا عندئذٍ بترف إنجاب الأولاد، سننجب ولدين: صبياً وبنتاً.
قالت روفينسكايا بتعجب:
- ولكن اسمعي [2] meine Fräu Lein، أنت فتية، وجميلة، وتعرفين لغتين...
- ثلاثاً يا مدام – قالت الألمانية باعتزاز – أعرف اللغة الإستونية أيضاً، لقد أنهيت المدرسة البلدية وثلاثة صفوف في المدرسة العامة.
فأردفت روفينسكايا بحماسة:
- هاك... أترين، أترين!.. بمثل هذه الثقافة كان بمقدورك في أي وقت أن تجدي عملاً يؤمن لك كل متطلباتك المعيشية وراتباً في حدود الثلاثين روبلاً. لنقل مثلاً مدبرة منزل، أو مربية، أو كبيرة بائعات في متجر جيد، أو أمينة صندوق...وإذا كان خطيبك المقبل ... فريتس..

---

[1] سيدتي الكريمة.

[2] يا فتاتي.

- إذا كان هانس محباً للعمل ومقتصداً فلن يكون من الصعب عليكما مطلقاً الوقوف على أقدامكما بثبات بعد ثلاث أو أربع سنوات. ما رأيك؟

- آه، يا مدام، أنت مخطئة بعض الشيء. لقد أسقطت من حسابك أنني لن عملت في أحسن الأماكن فإنني لن أستطيع أن أدخر أكثر من خمسة عشر إلى عشرين روبلاً في الشهر، حتى ولو حرمت نفسي من كل شيء، أما هنا فإنني إذا تدبرت أموري بتعقل يمكنني أن أقتصد مبلغاً يصل إلى مئة روبل، وأسجله على الفور في دفتر صندوق الادخار. وعلاوة على هذا تصوري الوضعية المذلة لمن تعمل خادمة في منزل! إنها تبقى دائماً تحت رحمة مزاج أصحاب المنزل ونزواتهم! ورب المنزل يتحرش بها دوماً بغباء. بفوه!... وربة المنزل تغار وتماحك وتشتم.

- لا... أنا لا أفهم... – قالت روفينسكايا بشرود وصوت ممطوط، وهي مطرقة، دون أن تنظر إلى وجه الألمانية – لقد سمعت الكثير عن حياتكن هنا في هذه... كيف يسمونها؟ المحلات. يروون أشياء رهيبة. يقولون إنهم هنا يجبرونكن على أن تحببن أكثر الرجال الهرمين قبحاً وإثارة للاشمئزاز، وإنهم ينهبونكن ويستغلونكن بقسوة فظيعة.

- أوه، غير صحيح على الإطلاق يا مدام... إن لدى كل واحدة منا دفتر حسابات يُسجَّل فيه الدخل والمصروف بدقة. خلال الشهر الماضي عملت بما يزيد على خمسمئة روبل بقليل. وكالعادة، أخذت صاحبة المحل الثلثين لقاء الطعام والسكن والتدفئة والنور والبياضات...

وبقي لي أكثر من مئة وخمسين روبلاً، أليس كذلك؟.. أنفق منها خمسين روبلاً على الملابس ومختلف اللوازم الصغيرة، وأدخر مئة... فأين الاستغلال هنا يا مدام، إنني أسألك؟.. أمّا إذا لم يعجبني الرجل بالمرة – في الحقيقة يوجد بعض الرجال الكريهين جداً – فإنني دائماً أستطيع أن أتظاهر بالمرض، وستذهب بدلاً مني إحدى الجديدات...

- ولكن... عفواً أنا لا أعرف اسمك...

- ايلزا...

- يقولون يا ايلزا إنهم يعاملونكن بفظاظة شديدة... وأحياناً يضربونكن... ويجبرونكن على ما لا تردنه وما تستقبحنه؟

أجابت ايلزا باستهانة واستعلاء:

- لا، على الإطلاق، يا مدام! نحن كلنا نعيش هنا أسرة متآلفة، نحن كلنا هنا بنات بلد واحد أو أقارب، وليت الله ينعم على كثيرات بالعيش في أسرهن كما نعيش نحن هنا. صحيح أنه يحدث في حي «الحفرة» مختلف الفضائح والمشاجرات والخلافات، ولكن هذا هناك... في تلك المحلات... محلات الروبل. الفتيات الروسيات يشربن كثيراً، ولهن دائماً عشيق واحد. ولا يفكرن البتة بمستقبلهن.

قالت روفينسكايا بصوت ثقيل النبرة:

- أنت عاقلة يا ايلزا. وكل هذا جيد.، ولكن ماذا عن المرض العرضي؟ عن العدوى؟ معروف أن هذا يعني الموت!.. فكيف يمكن التكهن؟

-مرة أخرى أقول لا، يا مدام. أنا لا أ سمح لرجل بمشاركتي السرير إلاَّ بعد فحصه فحصاً طبياً مفصلاً... سلامتي مضمونة بنسبة خمسة وسبعين بالمئة على الأقل.

- ياللشيطان!... – صاحت روفينسكايا فجأة بحدة و ضربت الطاولة بقبضتها – ولكن صاحبك البرت...
- هانس... – صححت لها الألمانية باختصار.
- عفواً... صاحبك هانس لا يَسُرّه كثيراً، على ما أظن، إنك تعيشين هنا وتخونينه يومياً؟
نظرت إليها ايلزا باستغراب عفوي صادق وقالت:
- ولكن gnädige Frau ... أنا لم أخنه قط! هذا تفعله الفتيات الأخريات الساقطات نهائياً، وخاصة الروسيات اللواتي لديهن عشاق ينفقن عليهم النقود التي يكسبنها بشق النفس. أما أنا فلا يمكن أبداً
أن أسمح لنفسي بالسقوط إلى هذا المستوى. بفوه!...
- لا أتصور سقوطاً أكثر من هذا! – قالت روفينسكايا بصوتٍ عالٍ وبقرف وهي تنهض – ادفعوا يا سادة، ولنذهب من هنا إلى محل آخر.
عندما خرجوا إلى الشارع تأبط فولوديا ذراعها وقال متوسلاً:
- بحق الرب، ألا تكفيك تجربة واحدة؟
- أوه، أية بذاءة هذه! أية بذاءة!
- ولذلك أقول لك أن نتخلى عن هذه التجربة.
- لا، إنني سأسير حتى النهاية مهما جرى. أرني محلاً متوسطاً أكثر بساطة.
ارتأى فولوديا تشابلينسكي الذي كان طوال الوقت يتعذب من أجل يلينا فيكتوروفنا ، أن أنسب مايمكن القيام به هو الذهاب إلى محل آنا ماركوفنا الذي كان على بعد عشر خطوات.

وهنا بالذات كانت تنتظرهم الانطباعات العنيفة. ففي البداية رفض سيميون السماح لهم بالدخول، ولم تلن قناته إلاَّ بعد أن نفحه ريزانوف ببضعة روبلات. شغلوا غرفة تماثيل تقريباً الغرفة في محل تريبيل، ولكن خدوشها أكثر قليلاً، ولونها أشد نصولاً، وأصدرت ايما ادواردوفنا أوامرها بحشد الفتيات في الغرفة. ولكنها كانت بهذا كمن يغلط الصودا بالحمض. وكان الخطأ الأكبر أنهم أدخلوا إلى هناك جينكا – الغاضبة ، الحاذقة، التي تقدح عيناها شرراً جسوراً. وكانت آخر الداخلات تامارا الهادئة، المتواضعة، ذات الابتسامة الخجولة الفاسقة التي تشبه ابتسامة الموناليزا. واجتمع في الغرفة، في نهاية المطاف، كل ملاك المحل تقريباً. ولم تجازف روفينسكايا بتوجيه سؤال: «كيف وصلت إلى مثل هذه الحياة؟» ، ولكن ينبغي القول إن نزيلات المحل استقبلنها بحفاوة ظاهرية. وسألتهن يلينا فيكتوروفنا أن ينشدن أغانيهن المألوفة المعتمدة، فغنين عن طيب خاطر:

جاء يوم الاثنين
حان موعد إخراجي
لكن الدكتور كراسون لا يسمح
فليأخذه الشيطان.

ثم:

مسكينة، مسكينة، مسكينة أنا
دكان المشروبات مغلق
وأنا أشكو الصداع...
حب العازف الجوال
حار، حار.

والمومس.
مثل الجليد باردة
ها – ها – ها
التقيا
يليق أحدهما للآخر
هي - مومس
وهو – نشال
ها – ها – ها!
هاهو الصباح يأتي
هو بالسرقة مهموم
وهي على السرير
مستلقية تقهقه
ها – ها – ها!
صباحاً يأخذون الصبي
إلى القسم الجنائي
أما هي – المومس
فالرفاق ينتظرونها
ها – ها – ها
ثم يغنين أغنية المساجين:
هلكت ، أنا الفتى
هلكت بالمرة
والسنوات وراء السنوات
تنقضي وتفوت

ثم:
لا تبكي يا ماروسيا
ستكونين لي
عندما أنهي العسكرية
سأتزوجك.
وفجأة دهش الجميع عندما علت قهقهة كاتكا السمينة الصموتة عادة، القادمة فـي الأصل من أوديبسا. قالت:
- اسمحوا لي أنا أيضاً أن أغني لكم أغنية يغنيها عندنا ا للصوص والمومسات – السرّاقات في حانات مولدو فانكا - فستانكا وبيريسيب.
وشرعت تغني بصوت باس فظيع، صدئ، غير مطواع، وهي تقوم بحركات خرقاء، وكان من الواضح أنها تقلد مغنية مونولوجات من الدرجة الثالثة كانت قد شاهدتها يوماً ما:
- آه، أذهب إلى «المحل»
أجلس إلى الطاولة
أنزع القبعة
ألقي بها تحت الطاولة
أسأل الحبيبة
ماذا ستشربين؟
فتجيبني
أشعر بالصداع.
أنا لا أسألك
بم تشعرين؟

أنا أسألك
ماذا ستشربين؟
إمّا بيرة أو نبيذ،
إما بنفسجة أو لا شيء؟
وكان كل شيء يمكن أن يمر بسلام لو لم تقتحم الغرفة فجأة مانكا البيضاء، و ليس عليها سوى قميص داخلي وسروال أبيض من الدانتيلا. كان يلهو معها أحد التجار، وكان قد أقام منذ العشية ليلة فردوسية، فأدّى البينيديكتين المشؤوم، الذي يؤثر في الفتاة بسرعة الديناميت، إلى إيصالها إلى حالة الشغب المعهودة. فهي لم تعد «مانكا الصغيرة»، ولا «مانكا البيضاء»، بل «مانكا المشاغبة».
و ما إن اندفعت إلى داخل الغرفة حتى سقطت على الأرض من تأثير المفاجأة، واستلقت على ظهرها، وأغربت في قهقهة صادقة جعلت الآخرين جميعاً يقهقهون. أَجَلْ. بيد أن هذا الضحك لم يطل... إذ إن مانكا جلست فجأة على الأرض وصاحت:
- أورا، التحقت بنا فتيات جديدات!
وكانت هذه مفاجأة حقيقية فعلاً. ولكن البارونة كانت أقل لباقة عندما قالت:
- أنا راعية دير للفتيات الساقطات، ولذا فإن واجبي الوظيفي يفرض علي أن أجمع معلومات عنكن.
هنا هبّت جينيا على الفور قائلة:
- هيا انقلعي من هنا أيتها العجوز الحمقاء! أيتها الخرقة البالية، أيتها الممسحة! مآويكن المجدلانية أسوأ من السجون. وأمناء السر عندكن ينقضضن علينا انقضاض الكلاب على الجيف. آباؤكن وأزواجكن وإخواتكن يأتون إلينا، ونحن نُعديهم بشتى الأمراض... عمداً!

وهم بدورهم يُعدوننا. والمراقبات عندكن يعشن مع الحوذيين والبوابين والشرطيين، ويزجن بنا في الزنزانة إذا نحن ضحكنا بصوتٍ عالٍ أو مزحنا فيما بيننا، وإذا كنت قد أتيت إلى هنا كما لو أنك آتيةً إلى المسرح فعليك أن تسمعي الحقيقة وهي تقال لك في وجهك.

ولكن تمارا أسكتتها قائلة بهدوء:

- كفي يا جينيا، أنا سأتكلم... أحقاً، يا بارونة، تعتقدين أننا أسوأ من أولئك اللواتي يُنعتن بأنهن نساء محترمات؟ يأتي إليَّ شخص ويدفع لي روبلين لقاء الزيارة، أوخمسة روبلات لقاء الليلة، وأنا لا أخفي هذا على الإطلاق عن أي إنسان في العالم... والآن قولي لي يا بارونة، أتعرفين ولو سيدة متزوجة واحدة ليست على استعداد لأن تمنح نفسها في السر إما بدافع الشهوة: لشاب غني، أو من أجل المال: لرجل مسنّ؟ أنا أعرف حق المعرفة أن خمسين بالمئة منكن يعشن على حساب عشاقهن، والخمسين بالمئة الباقيات، اللواتي أكبر سناً، يُعَيِّشن فتية صغاراً على حسابهن. وأعرف أيضاً أن كثيرات منكن – وما أكثرهن! – يعشن مع آبائهن، وإخوتهن، وحتى أولادهن، ولكنكن تخفين هذه الأسرار في صندوق سري بعيد عن الأنظار، والفرق الوحيد بيننا أننا نحن ساقطات، ولكننا لا نكذب ولا نتظاهر، وأنتن تسقطن، وغلى ذلك تكذبن. فكري الآن بنفسك وقولي: في صالح من هذا الفرق؟

- مرحى، تاماراتشكا، قويّ لهم.

هتفت مانكا وهي تنهض عن الأرض مشعثة، شقراء، جعداء، تشبه لحظتها تلك بنتاً صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها.

- ايه، ايه!

استزادتها جينيا أيضاً وعيناها تلتهبان التهاباً.

- ولم لا يا جينيتشكا! سأستمر فـي الحديث. إن نسبة اللواتي يلجأن إلى الإجهاض بيننا لا تكاد تبلغ الواحدة بالألف. أما أنتن فجميعكن، وعدة مرات. ماذا؟ هل هذا غير صحيح؟ واللواتي يفعلن هذا منكن لا يفعلنه من اليأس أو من الفقر القاسي، بل كل مافي الأمر أنكن تخشـين تشـوُّهَ قـوامكن، وجمـالكن – وهـو رأس مـالكن الوحيـد. أو لأنكـن تبحـثن عـن اللـذة الحيوانيـة فحسـب. أمـا الحمـل والإرضـاع فإنهما يحرمانكن من الارتماء فـي أحضانها.

ارتبكت روفينسكايا وهمست بسرعة:

-Faites attention, baronne, que dans sa position cette demoiselle est instruite.

-fiqurez-vous, que moi, j'ai aussi remarqué cet étrange visage.

Comme si ji l'aidéjà vu…. Est-ce enräêve?.. en demi-delire? Ou dans sa petite enfance?[1]

بغتة تدخلت تمارا فـي حديثهما بجرأة:

---

[1] أَلِفتُ نظرَك يا بارونة إلى أن هذه الفتاة فـي وضعها هـذا تعتبـر مثقفة:

– تَصوري! أنا أيضاً لفت نظري هذا الوجه الغريب. كأني شاهدته من قبل... أفي الحلم؟ أم فـي حالة هذيان؟ أم فـي الطفولـة البـاكرة؟ (الترجمة من الفرنسية للمؤلف).

-Ne vous donnes pas la peine de chercher dans vos souvenires, baronne. Je puis de suite vous venir en aide. Rappelez-vous seulement Kharkoffe, et la chamber d'hotel de Koniakine, I'entrepreneur Solo-vieitschik, et le tenor di grazzia.... A ce moment vous n'étiez pas encore m-me la baronne de.... [1]

وعلى كل لندع اللغة الفرنسية... أنت كنت مغنية كورس بسيطة، وكنا نعمل معاً:

Mais dites moi, au nom de dieu, comment vous trouvez vous ici, mademoiselle Marquerite?[2]

- أوه، يومياً يسألوننا عن هذا، ببساطة حملت نفسي وجئت...

ثم سألت باستهتار وقح يصعب وصفه:

- آمل أنكم ستدفعون لقاء الوقت الذي قضيناه معكم.

- لا، فليأخذكم الشيطان! – صاحت مانكا البيضاء فجأة وهي تنهض بسرعة عن السجادة. واستلت فجأة من جرابها روبلين ذهبيين وألقت بهما على الطاولة.

---

[1] لا تكلفي نفسك إجهاد ذاكرتك يا بارونة. أنا الآن سأساعدك. تذكري فقط خاركوف، فندق كونياكين، متعهد الحفلات سولوفيتشيك، وأحد مغني التينور العاطفيين.. آنذاك لم تكوني قد أصبحت البارونة دي...(الترجمة من الفرنسية للمؤلف).

[2] ولكن أخبريني، بحق الرب، ما الذي جاء بك إلى هنا يا مدموزيل مارغريت (الترجمة من الفرنسية للمؤلف).

- هاكم!.. خذوا هذه النقود لاكتراء عربة. اذهبوا الآن على الفور، وإلاَّ فإنني سأحطم كل المرايا والقناني الموجودة هنا...

نهضت روفينسكايا وقالت وقد ترقرقت في عينيها دموع حارة صادقة:

- طبعاً سنذهب، والدرس، يا مدموزيل مارغريت، سيكون مفيداً لنا. وسندفع لقاء الوقت الذي قضيتنّه معنا، اهتم بهذا يا فولوديا. ولكن أنتن غنيتن لنا كثيراً، فاسمحن لي بأن أغني لكُنّ:

اقتربت روفينسكايا من البيانو وعزفت بعض الألحان، ثم شرعت فجأة في غناء رومانسي دارغوميجسكي الرائع:

افترقنا بكبرياء ، لم أوجه إليكَ لوم الغيرة
لا بالتنهدات ولا بالكلمات...
تباعدنا إلى الأبد، ولكن ليتني
أستطيع أن ألقاك!
آه، ليتني كنت فقط أستطيع أن ألقاك!
دون دموع، ودون شكوى أحنيت رأسي للقدر...
لا أدري، يا من أسأت إليَّ كل هذه الإساءة
هل كنت تحبني يا ترى؟ ولكن ليتني
أستطيع أن ألقاك!
آه، ليتني كنت فقط أستطيع أن ألقاك!

هذه الأغنية المفعمة برقة الحنين وحرارة الشوق، بأداء الفنانة العظيمة، أحيت فجأة في نفوس هؤلاء النسوة جميعاً ذكرى الحب الأول، والسقوط الأول، والوداع المتأخر في الفجر الربيعي، في برودة الصبح، عندما يغطي الندى رأس العشب بالشيب، وتصبغ السماءُ الحمراء ذؤاباتِ أشجار البتولا بلون وردي؛ ذكرى العناق الأخير الذي يلتحم فيه الجسدان بقوة؛ ذكرى اللحظة التي يهمس فيها القلب المرهف الذي لا يخطئ، بأسى: «لا، إن هذا لن يتكرر، لن يتكرر»، وتكون الشفاه آنئذٍ باردة وجافة، والشعر مغشى بضباب الصباح الندي.

صمتت تمارا، وصمتت مانكا المشاغبة،أما جينكا، وهي الأشد شكيمة بين جميع الفتيات فقد ركضت نحو الفنانة، وركعت أمامها على ركبتيها، وانفجرت باكية عند قدميها.

احتضنت روفينسكايا التي تأثرت هي الأخرى رأس الفتاة وقالت: - دعيني، يا أختي، أقبّلك!

وهمست لها جينكا ببضع كلمات في أذنها، فقالت لها روفينسكايا:

- هذه مجرد سخافات، بعد عدة أشهر من العلاج ينتهي كل شيء.

- لا، لا، لا.... أريد أن أجعل منهم جميعاً مرضى. فليتعفن الجميع ويفطسوا.

- آخ، يا عزيزتي، لو كنت مكانك لما فعلت هذا.

وهنا اندفعت جينكا، جينكا الأبية المتكبرة، تقبّل ركبتي الفنانة ويديها، وتقول:

- لماذا إذاً، ظلمني الناس هكذا؟... لماذا ظلموني؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

هذه هي سلطة العبقرية! السلطة الوحيدة التي تمسك بيديها الرائعتين لا عقل الإنسان الوضيع، بل روحه الدافئة. وارت جينكا العزيزة النفس وجهها و ثوب روفينسكايا، وجلست مانكا البيضاء بتواضع على كرسي وغطت وجهها بمنديل، واتكأت تمارا بمرفقها على ركبتها وأسندت رأسها إلى راحتها وراحت تنظر إلى الأرض بشرود. أما الحاجب سيميون الذي كان يختلس النظر عند الباب تحسباً لكل طارئ فقد حملق عينيه على سعتهما من شدة العجب.
وهمست روفينسكايا بصوت لا يكاد يسمع في أذن جينكا:
- لا تيأسي أبداً، في بعض الأحيان تسوء جميع الأمور إلى حد يدعو إلى القنوط، ثم فجأة تنعطف الحياة بشدة وتتغير الظروف، يا عزيزتي، يا أختي، أنا الآن ذات شهرة عالمية، ولكن ليتك تعرفين أية بحار من الإهانات والسفالات كان علي أن أجتاز! أتمنى لك العافية يا غاليتي، وثقي دائماً بحسن طالعك.
ثم انحنت على جينكا وقبّلت جبينها؛ ولم يستطع فولوديا تشابلينسكي الذي كان يتابع هذا المشهد بتوتر شديد، لم يستطع طوال حياته أن ينسى تلك الأشعة الدافئة الرائعة التي انبعثت في تلك اللحظة من عيني الفنانة المصريتين الطويلتين الخضراوين.
غادرت المجموعة المحل في جو تسوده الكآبة، ولكن ريزانوف تأخر للحظات. اقترب من تمارا، وقبّل يدها برقة واحترام وقال:
- اغفري لنا فعلتنا هذه، إن أمكن... هذا لن يتكرر، طبعاً. ولكن إذا احتجت إليَّ في وقت من الأوقات فتذكري أنني دائماً في خدمتك. هاك بطاقتي. لا تعرضيها على واجهة خزانتك، ولكن تذكري أنني منذ هذا المساء صديقك.
ثم قبّل يدها مرة ثانية، وهبط الدرج، متأخراً عن الجميع.

يوم الخميس بدأ المطر يهطل دون انقطاع منذ الصباح الباكر، واخضوضرت على الفور أوراق الكستناء والسنط والحور المغسولة. وشاع في الجو فجأة هدوء حالم وبطء ممل. لا شيء سوى التأمل والرتابة.
في هذا الوقت اجتمعت الفتيات كلهن حسب العادة في غرفة جينكا. ولكن جينكا كانت تعاني حالة غريبة. لم تكن تمزح، ولا تضحك، ولا تقرأ كعادتها روايتها الرخيصة المألوفة التي كانت تستلقي الآن دون هدف فوق صدرها أو بطنها. كانت جينكا غاضبة وحزينة حزناً يستغرق كل مشاعرها، وكانت تضطرم في عينيها نار صفراء تفصح عن الكراهية. وعبثاً كانت ماذكا البيضاء، ماذكا المشاغبة المولهة بها تبذل جهدها لتلفت انتباهها. كانت جينكا كأنها لا تلاحظها، ولم يكن الحديث بينهما يستقيم البتة. كان يسود شعور بالكآبة، وربما كن جميعاً متأثرات بمطر آب العنيد الذي ما انفك يهطل باستمرار عدة أسابيع.
جلست تمارا بجانب جينكا على السرير، وعانقتها بحنان وقربت فمها من أذنها وهمست:
- مالك يا جينيشكا؟ أنا من مدة طويلة أرى أن شيئاً ما غريباً يعتمل في داخلك. ومانكا تشعر بها أيضاً. انظري إليها كيف هزلت بدون مداعباتك. أخبريني لعلّي أستطيع أن أساعدك بشيء ما؟
أغمضت جينكا عينيها و هزت رأسها بالنفي. فتنحت عنها تمارا قليلاً، ولكنها واصلت تمسيد كتفها بحنان:
- هذا شأنك يا جينيتشكا، أنا لا أجرؤ على التسلل إلى أعماق نفسك، وأنا لم أسألك إلاَّ لأنك الشخص الوحيد الذي...
وثبت جينكا بغتة عن السرير بحزم، وأمسكت بذراع تمارا وقالت بلهجة قاطعة وآمرة:

- طيب، لنخرج من هنا لدقيقة، سأقول لك كل شيء. انتظرننا يا بنات قليلاً.
فـي الممشى النير وضعت جينكا يديها على كتفي صديقتها ، وقالت لها وقد امتقع وجهها وتشوهت ملامحه:
- والآن اسمعي إذا كنت تريدين: شخص ما أعداني بالزهري.
- آه، ياعزيزتي، يا مسكينتي، منذ وقت طويل؟
- منذ وقت طويل، هل تذكرين عندما زارنا الطلاب؟ لقد أثاروا وقتها مشكلة مع بلاتونوف؟ فـي ذاك اليوم عرفت هذا لأول مرة. عرفته نهاراً.
- أتعرفين؟ - قالت تمارا بصوت خفيض – لقد كنت أخمن هذا، ولاسيما عندما ركعت على ركبتيك أمام المغنية وتحدثت معها عن أمر ما همساً. ولكن ، على كل يا عزيزتي جينيتشكا، يجب أن تتعالجي.
خبطت جينكا الأرض بقدمها غاضبة، وشقت المنديل الباتستي[1] الذي كانت تدعكه بعصبية:
- لا! ولا بحال من الأحوال! أنا لن أعدي أحداً منكن، ربما أنت نفسك لاحظت أنني فـي الأسابيع الأخيرة لا أتغدى مع الجميع. وأنني أغسل وأمسح صحوني وملاعقي بنفسي، لذلك أيضاً أحاول أن أصد ماذكا عني، وأنت نفسك تعرفين أنني أحبها حباً صادقاً، حقيقياً. ولكن هؤلاء السفلة الذين يسيرون على قائمتين سأعديهم عمداً... سأعدي فـي كل أمسية عشرة أو خمسة عشر رجلاً. فليتعفنوا، ولينقلوا الزهري إلى زوجاتهم وعشيقاتهم وأمهاتهم، نعم، نعم، إلى أمهاتهم أيضاً، وإلى آبائهم ومربياتهم، وحتى إلى أمهات جداتهم. فليهلكوا جميعاً، هؤلاء السفلة الشرفاء!

[1] الباتستة: قماش رقيق قطني أو كتاني سمي باسم صانعه (باتيست).

مسحت تمارا رأس جينكا بحذر ورقة وتساءلت:
- أحقاً تريدين أن تمضي حتى النهاية يا جينيتشكا؟..
- نعم، ودون أية رحمة. ولكن أنتن لا داعي لأن تتخوفن مني. فأنا سأنتقي الرجال بنفسي. سأختار أكثرهم غباءً وجمالاً وثراءً وأهمية؛ ولكنني بعد ذلك لن أسمح لأي واحد من هؤلاء بالوصول إليكن. أوه! سأتظاهر أمامهم باستبداد الشبق بي إلى درجة لو شاهدتها أنت لاستغرقت في الضحك. سأعضهم، وأخمشهم، وسأصرخ، وأرتجف كالمجنونة. وهم الأغبياء، سيصدقون.
- هذا شأنك، هذا شأنك ياجينيتشكا – قالت تمارا بشرود وهي تنظر إلى الأرض – ربما أنت على حق، من يعرف؟ ولكن قولي لي كيف أفلتّ من الطبيب؟
أشاحت جينكا بوجهها عنها فجأة، وألصقته بزاوية إطار النافذة وانخرطت بغتة في البكاء بدموع لاذعة حارقة، دموع الحقد والانتقام، وفي الوقت نفسه راحت تقول وهي تلهث وترتعد:
- لأن.. لأن.. لأن الرب أنعم علي بسعادة خاصة: فقد أصابني المرض في مكان لا أظن أن أي طبيب يستطيع رؤيته. وطبيبنا إلى ذلك هرم وغبي..
وفجأة، وكما انفجرت بالبكاء بغتة، كفت عنه على نحو مباغت بقوة إرادة خارقة، وقالت:
- هيا بنا إلى غرفتي يا تماراتشكا، طبعاً أنت لن تثرثري بما لا لزوم له؟
- طبعاً لا.

- عادت الفتاتان إلى غرفة جينكا هادئتين متماسكتين.
دخل سيميون بعد برهة. وكان برغم وقاحته الفطرية يعامل جينكا دائماً بطريقة تتسم بمسحة من الاحترام. قال متوجهاً إليها:
- ماذا يا جينيتشكا! لقد أتى معاليه لزيارة فاندا. اسمحي لي بالمغادرة لعشر دقائق..
نظرت فاندا الشديدة الشقرة، ذات العينين الزرقاوين، والفم الأحمر الكبير، والوجه الليتواني النموذجي إلى جينكا نظرة توسل، ولو أن جينكا قالت: «لا»، فإنها كانت ستبقى في الغرفة؛ ولكن جينكا لم تقل شيئاً، بل إنها أغمضت عينيها عمداً، وخرجت فاندا من الغرفة مذعنة.
كان هذا الجنرال يأتي بانتظام مرتين في الشهر، كل أسبوعين مرة (كما كان يأتي بانتظام أيضاً، ولكن يومياً، زبون محترم آخر، يلقبونه في المحل: المدير، لزيارة فتاة أخرى، هي زويا).
فجأة ألقت جينكا بالكتاب القديم المهترئ خلف ظهرها، وتوهجت عيناها البنيتان بنار ذهبية حقيقية، وقالت:
- عبثاً تتقززن من هذا الجنرال، فقد مرَّ عليَّ أشخاص أسوأ من الهمج. كان لدي زبون يجسد الحماقة بعينها، لم يكن يستطيع أن يحبني إلاَّ إذا.. إلاَّ إذا... لنقل ببساطة إنه كان يخزني بالإبر في صدري... وعندما كنت في فيلنو كان يتردد علي قس بولوني. كان يُلبسني ثياباً بيضاء من الرأس حتى القدم، ويطلب مني أن أضع البودرة على وجهي، ثم يمددني على السرير، ويشعل ثلاث شمعات عند رأسي. وعندما أبدو له كالميتة تماماً ينقض علي..

صاحت مانكا البيضاء فجأة:
- أنت صادقة فيما تقولين يا جينكا! أنا أيضاً كان عندي زبون شاذ. كان طوال الوقت يجبرني على أن أتظاهر بأنني عذراء. وذلك لكي أبكي وأصرخ. أنت يا جينيتشكا أذكانا، ومع ذلك لن تحزري ماذا كان يشتغل...
- مراقب السجن؟
- رئيس الإطفائية.
قهقهت كاتيا فجأة بصوت عريض وقالت:
- أما أنا فقد كان عندي زبون يعمل معلماً. كان يعلم نوعاً من الحساب لم أعد أذكر كيف يسمى. كان يجبرني طوال الوقت على أن أتخيل أنني رجل وأنه امرأة، وأن علي أن أغتصبه... ياله من غبي!.. تصورن يا بنات أنه كان طوال الوقت يصرخ: «أنا لك! أنا كلّي لك! خذني! خذني!».
- مخبول – قالت بحزم فيرا النشطة الزرقاء العينين بصوت كونترالتو[1] خفيض غير متوقع – مخبول.
فاعترضت فجأة تمارا اللطيفة المتواضعة:
- لا، لماذا؟ إنه ليس مجنوناً على الإطلاق، بل هو ببساطة، ككل الرجال. فاسق، متهتك. في البيت يصيبه الملل، أما هنا فإنه يستطيع بنقوده أن يحصل على المتعة التي يريدها. أظن أن الأمر واضح؟
كانت جينيكا حتى هذه اللحظة تلوذ بالصمت، وفجأة جلست على السرير بحركة واحدة سريعة، وصاحت:

[1] الغليظ: أخفض الأصوات النسائية.

- أنتن جميعاً غبيات! ما الذي يجعلكن تغفرن لهم كل هذا؟ من قَبْلُ أنا نفسي كنت غبية، أما الآن فإنني أجعلهم يسيرون أمامي على أربع، وأجعلهم يقبّلون أسفل قدمي، و هم يفعلون هذا بتلذذ... أنت جميعاً يا بنات تعرفن أنني لا أحب النقود، ولكنني أسلب الرجال كل ما أستطيع سلبه. إنهم، الأوغاد، يهدون، إليَّ صور زوجاتهم، وخطيباتهم، وأمهاتهم، وبناتهم... وأعتقد أنكن شاهدتن صوراً في مرحاضنا؟ ولكن فكّرن يا صغيراتي... المرأة تحب مرة واحدة، ولكن إلى الأبد، أما الرجل فإنه كالكلب السلوقي... ولو كان الأمر يقتصر على الخيانة لكان بسيطاً، ولكن الرجل لا يبقي في نفسه حتى مجرد شعور بسيط بالامتنان: لا لعشيقته القديمة ولا لعشيقته الجديدة، يقولون: كما سمعت، إن بين الشباب الآن كثيراً من الفتيان ذوي النفوس النقية. وأنا أصدق هذا، مع أنني لم أره بنفسي، ولم أصادفه. فكل من رأيت، كلهم فاسقون، وأوغاد، وسفلة، منذ مدة ليست بعيدة قرأت رواية تصور حياتنا التعسة. وكان ما فيها نسخة طبق الأصل تقريباً عما أتحدث عنه الآن.

عادت فاندا وجلست بحذر وتمهل على طرف سرير جينيا حيث كان غطاء المصباح يلقي بظله. وبحكم تلك اللباقة النفسية العميقة، والمشوهة في الوقت نفسه، التي يتسم بها المحكوم عليهم بالإعدام، ونزلاء سجون الأشغال الشاقة، والمومسات، لم تجرؤ أي منهن على أن تسألها كيف قضت الساعة والنصف الفائتين. أما هي فقد ألقت فجأة بخمسة وعشرين روبلاً على الطاولة وقالت:

- فليحضروا لي نبيذاً أبيض وبطيخاً.

ثم دست وجهها بين يديها المستلقيتين على الطاولة، وانخرطت في بكاء صامت. ومرة أخرى لم ت سمح أي منهن لنفسها بأن توجه إليها أي سؤال. وامتقع لون جينكا من شدة الغضب، وعضت على شفتها السفلى عضة قوية خلفت عليها فيما بعد عدة بقع بيضاء، وقالت: - نعم، أنا الآن أ صبحت أفهم تمارا، هل تسمعين يا تمارا؛ إنني أعتذر لك. لقد كنت أضحك كثيراً من أنك واقعة في غرام عشيقك اللص سينكا. أما الآن فإنني أقول لكن إن أكثر الرجال استقامة هم اللصوص أو القتلة. فالواحد منهم لا يخفي أنه يحب فتاة، وإذا احتاج الأمر فإنه يرتكب من أجلها جريمة: يسرق أو يقتل، أما هؤلاء، الآخرون، فليس لديهم سوى الكذب والدجل، ومكر تافه، وفسق في الخفاء. عند هذا الوغد ثلاثة أسر: زوجة وخمسة أولاد؛ مربية وطفلان في الخارج؛ الابنة الكبرى من الزوجة الأولى وله منها طفل. وهذا يعرفه الجميع في المدينة، ما عدا أبناءه الصغار. وربما كانوا هم أيضاً يخمنون ويتهامسون. وتصوَّرْنَ: إنه مع كل هذا شخص مبجل، يحترمه الناس جميعاً... أظن، يا صغيراتي، أننا لم نجلس من قبل قط جلسة مصارحة، وها أنا الآن أقول لكن إنه عندما كان عمري عشر سنوات ونصف باعتني أمي التي ولدتني للدكتور تارابوكين في مدينة جيتومير. كنت أبوس يديه وأتوسل إليه أن يرحمني، كنت أصرخ: «أنا صغيرة!»، فكان يجيبني: «لا بأس، لا بأس: ستكبرين». وطبعاً: الألم، والاشمئزاز، والشعور بالقذارة... وقد جعل هو من هذا فيما بعد نكتة متداولة. إنها صرخة روحي اليائسة...

- بما أننا بدأنا الكلام فلنتكلم حتى النهاية- قالت زويا بغتة بهدوء، وابتسمت باستهانة وأسى – لقد فض بكاتي معلم في المدرسة الوزارية اسمه ايفان بيتروفيتش سوس، دعاني إلى شقته، وكانت زوجته قد ذهبت إلى السوق لتشتري خنوصاً لمناسبة عيد الميلاد، وقدّم لي سكاكر، ثم قال لي بعد ذلك: اختاري أحد أمرين: إما أن تطيعيني في كل ما أطلبه منك، أو سأطردك من المدرسة على الفور لسوء سلوكك، وطبعاً أنتن تعرفن كم كنا نخاف من المعلمين. هنا لا يخفوننا، لأننا نستطيع أن نفعل بهم مانريد، ولكن آنذاك! آنذاك كان المعلم يبدو لنا أكبر من القيصر والرب.
- أما أنا فقد كان طالباً. وكان يُعلِّم أطفال السيد الذي كنت أخدم عنده.
- لا، أنا.. أنا – صاحت نورا، ولكنها في تلك اللحظة التفتت إلى الخلف نحو الباب، وبقي فمها مفتوحاً كما هو.
نظرت جينكا بالاتجاه الذي تنظر إليه زميلتها، وضربت كفاً بكف، في الباب كانت تقف لوبكا وقد ظهر عليها الهزال وأحاطت بأسفل عينيها هالتان سوداوان، وكانت تفتش بيدها، كالسائرة في نومها، عن مقبض الباب لتستند إليه.
صاحت جينكا بصوتٍ عالٍ:
- لوبكا، أيتها الغبية، مابك؟ ما الأمر؟
- طبعاً الأمر: إنه طردني.
لم ينبس أحد بكلمة. غطت جينكا عينيها براحتيها وتسارعت أنفاسها، وكان واضحاً كيف تتحرك عضلات وجنتيها المتوترة بسرعة تحت بشرة وجهها. قالت لوبكا بتعبير عميق عن العجز المفعم بالكآبة:

- جينيتشكا، كل الآمال معلقة عليك وحدك. الجميع يحترمونك. تكلمي، يا روحي، مع آنا ماركوفنا أو مع سيمون... قولي لهما أن يعيداني.
اعتدلت جينكا في جلستها على السرير، ورمقت لوبكا بعينين جافّتين لاهبتين ولكن كأنهما تبكيان، وسألتها باقتضاب:
- هل أكلت شيئاً اليوم؟
- لا، لا البارحة ولا اليوم، على الإطلاق.
قالت فاندا بصوت منخفض:
- اسمعي يا جينيتشكا، ما رأيك في أن أعطيها بعض النبيذ الأبيض ريثما تذهب فاركا إلى المطبخ وتحضر بعض اللحم، آ؟
- افعلي ما تشائين، طبعاً هذا جيد. ولكن انظرن يا بنات كيف هي مبللة كلها، آه، ياللك من حمقاء! هيا! بسرعة! تعري! مانكا البيضاء، أو أنت يا تمارتشكا، أعطياها سراويل جافة، وجوربين سميكين، وخفّين، - ثم توجهت إلى لوبكا - والآن اروي لنا أيتها البلهاء كل ما جرى لك!...
في ذاك الصباح الباكر الذي عمد فيه ليخونين فجأة، وربما على غير توقع منه ذاته، إلى إخراج لوبكا من محل آنا ماركوفنا الذي يضج باللهو، كان الصيف يعيش أيامه الأخيرة. الأشجار كانت لاتزال خضراء، ولكن في رائحة الهواء، وأوراق الشجر، والعشب، كنت تحس إحساساً ضعيفاً، كما لو عن بعد، برائحة رقيقة، سوداوية وأخاذة في الوقت نفسه هي رائحة أنفاس الخريف القادم. كان الطالب ينظر بدهشة إلى الأشجار التي بدت شديدة النقاء والبراءة والهدوء، وكأن الرب قد غرسها هنا في الليل خفية عن البشر، فراحت هي نفسها تتطلع حواليها بدهشة إلى الماء الأزرق الساكن الذي بدا أنه لا يزال غافياً في البرك، والقنوات، وتحت الجسر الخشبي الممتد عبر الجدول الضحل، وتتطلع إلى السماء العالية التي كأنها اغتسلت منذ مدة قريبة، وقد استيقظت لتوها في الفجر، وطفقت وهي بين النوم واليقظة تبتسم ابتسامة وردية كسلى سعيدة.

كان قلب الطالب يتسع ويخفق بقوة: من جمال هذا الصباح البهيج، ومن فرح الوجود، ومن الهواء العذب الذي ينعش رئتيه بعد الليلة التي قضاها دون نوم في غرفة ضيقة تغص بالدخان. ولكن ماكان يؤثر فيه أكثر من هذا كله هو جمال وسموّ الخطوة التي أقدم عليها.
«نعم، لقد تصرف كإنسان، كإنسان حقيقي بأسمى معاني هذه الكلمة! وهو الآن غير نادم على ما فعل. هم يطيب لهم (ولكن من هؤلاء «هم»)، حتى ليخونين نفسه لم يكن يعرف بالضبط) يطيب لهم الحديث عن فظائع البغاء وهم جالسون يحتسون الشاي ويقضمون الخبز والمرتديلا بحضرة فتيات نقيات وراقيات. ولكن هل قام أحد من الزملاء بأية خطوة فعلية لإنقاذ امرأة من الهلاك؟ هل حدث هذا؟ والأنكى من ذلك أن ثمة من يأتي إلى هذه «السونيا مارميلادوفا»[1] نفسها ويروح يحدثها بسخافات وترهات، ويصف لها فظاعات وتهاويلَ، ويتسلل إلى أعماق نفسها، حتى يوصلها إلى ذرف الدموع، ولا يلبث أن يذرف الدموع هو أيضاً، ويشرح يواسيها ويعانقها، ويمسح على رأسها، ويقبلها في خديها أولاً، ثم في شفتيها، وبعد ذلك، من المعرف ما الذي يحدث! تفوه! أما هو، ليخونين، فإن قوله لا يخالف لعله البتة».
طوّق جذع لوبكا بذراعه ورنا إليها بعينين مفعمتين بحنان يكاد يكون عشقاً، مع أنه كان يفكر في تلك اللحظة بأنه ينظر إليه كأب أو كأخ.

---

[1] سونيا مارميلادوفا: البغي في رواية دوستويفسكي «الجريمة والعقاب».

كان النعاس قد أضنى لوبكا وطفق يطبق أجفانها، وكانت تجهد في فتح عينيها كي لا تنام، وشفتاها لا تزالان تفترّان عن تلك الابتسامة الطفلية الساذجة المتعبة التي لاحظها ليخونين عندما كان في الغرفة. ولم يلبث أن سال من إحدى زاويتي فمها خيط دقيق من اللعاب.

- لوبا، يا غاليتي! أيتها المرأة العزيزة المعذبة! انظري ما أروع الدنيا حولنا! يا إلهي! أنا منذ خمس سنوات لم أر شروق الشمس كما ينبغي. إما اللعب بالورق، أو السّكْر، أو الإسراع إلى الجامعة. انظري، يا روحي، هناك، حيث أزهر الفجر. الشمس قريبة! هذا فجرك أنت يا لوبتشكا. إنها بداية حياتك الجديدة. استندي بجرأة على ساعدي القوي. سأوصلك إلى جادة العمل الشريف، إلى درب الصراع الجسور مع الحياة وجهاً لوجه.

نظرت إليه لوبكا بطرف عينها وفكرت بودّ: «إيه! لا يزال السّكر يلعب برأسه، ولكن لا بأس به، طيب وشهم. إلاّ أنه دميم بعض الشيء». وقالت بلهجة لوم مشاكس وهي تبتسم ابتسامة ناعسة:

- نعم! وما أدراني أنك لا تخدعني! أنتم الرجال جميعكم هكذا، تسعون في البداية إلى الحصول على مبتغاكم، وتحقيق متعتكم، وبعد ذلك لا تعودون تهتمون بالمرة!..

- أنا ! أوه! أنا أفعل هذا؟!.. – هتف ليخونين بحرارة ودق بيده المتحررة على صدره – إذاً أنت لا تعرفينني كما يجب! أنا أشرف من أن أخدع فتاة لا حامي لها، لا! أنا سأبذل كل قواي وروحي كلها كي أثقف عقلك، وأوسع مداركك، وأجعل قلبك المسكين المعذب ينسى كل جروحه وانكساراته التي أصابته بها الحياة!

سأكون لك أباً أو أخاً! وسأرعى كل خطوة من خطواتك! وإذا أنت أحببت شخصاً ما حباً نقياً مقدساً حقاً فإنني سأبارك ذلك اليوم وتلك الساعة التي أخرجتك فيها من هذا الجحيم الدانتوي[1]!
فـي نهاية الخطبة الحماسية استغرق الحوذي الشيخ فـي ضحك ذي مغـزى ولكـن دون صـوت، وراح ظهـره يهتـز مـن هـذا الضـحك الصـامت، الحوذيـون المسـنون يسـمعون أشـياء كثيـرة جـداً، لأن الحوذي الجالس فـي الأمام يسمع كل شيء بمنتهى الوضوح، و هو أمر لا يخطر فـي بال الركاب المتحادثين؛ والحوذيون المسنون يعرفون الكثير مما يجري بين الناس، ومن يدري؟! لعله قد سمع غير مرة خطباً أكثر تشوشاً، وأكثر سمواً من هذه!..
وخُيِّل للوبكا، لسبب ما، أن ليخونين غاضب منها، أو أنه يغار عليها سلفاً من منافس متخيل. فقد كان يلقي خطبته بصوتٍ عالٍ جداً وانفعال شديد. استيقظت تماماً، والتفتت بوجهها نحو ليخونين وقد فتحت عينيها على سعتهما، فأطل منهما تعبير ينم على عدم الفهم، وعلى الإذعان فـي الوقت نفسه، ولمست أصابعها برفق يده اليمنى المستقرة على خصرها:
- لا تغضب يا حبيبي. أنا لن أستبدل بك أحداً آخر أبداً! و هذه كلمة شرف مني وحق الرب! كلمة شرف أنني أبداً لن أفعل! و هل أنا لا أشعر أنك تريد أن تعولني؟ أتظن أنني لا أفهم؟ أنت جذّاب وظريف وفتي! لو أنك كنت عجوزاً أو بشعاً...

---

[1] نسبة إلى دانتي (الذي وصف الجحيم فـي «الملهاة الإلهية»).

- آخ، إنك تتكلمين عن أمر آخر! – صاح ليخونين، وعاد من جديد يحدثها بأسلوب رفيع عن المساواة بين الرجل والمرأة، وعن قدسية العمل، وعن العدالة الإنسانية، وعن الحرية، وعن النضال ضد الشر المسيطر.

لم تفهم لوبكا كلمة واحدة من كل ماقاله. وكانت تحس أنها مذنبة في أمر ما، فانكمشت على نفسها، واكتأبت، وأطرقت برأسها، ولاذت بالصمت. ولو استمر الحال قليلاً بعد لكانت انفجرت بالبكاء في الشارع، ولكن، لحسن الحظ، كانا في تلك اللحظة قد وصلا إلى المنزل الذي يقيم فيه ليخونين، قال الطالب:

- ها نحن قد وصلنا إلى البيت، قف أيها الحوذي!

وبعد أن دفع أجرة العربة لم يتمالك نفسه من أن يهتف بلهجة خطابية وهو يمد يده إلى الأمام بحركة مسرحية:

ادخلي بيتي بجرأة وطمأنينة.

وكوني سيدته المطلقة!..

ومرة أخرى غضنت ابتسامة غامضة تنبئية وجه الحوذي البني الهرم.

كانت الغرفة التي يقيم فيها ليخونين تقع في الطابق الخامس والنصف. وسبب هذا النصف هو أن ثمة أبنية مخصصة للإيجار تتألف من خمسة أو ستة أو سبعة طوابق، وأجرها رخيص، ولذا فإنها تكتظ بالسكان، مما يدعو مالكيها إلى أن يقيموا على سطحها ملاحق قميئة من صفيح السقوف تشبه العليات المسنمة، أو، على الأصح، علب الزرازير، وهي في الشتاء قارسة، وفي الصيف قائظة، كما لو كانت في منطقة استوائية. صعدت لوبكا بصعوبة إلى الأعلى، وكان يبدو لها أنها بعد خطوتين أخريين ستقع على درجات السلم، وتغرق في نوم عميق. وكان ليخونين يقول لها في أثناء ذلك.

- عزيزتي! أرى أنك تعبت. ولكن لا بأس! استندي إلي. سنتابع صعودنا إلى فوق! أعلى فأعلى! أليس هذا هو شعار جميع الطموحات الإنسانية؟ يا صديقتي، يا أختي، اتكئي على يدي!

وهنا ازدادت حالة لوبكا سوءاً، فهي عندما كانت تصعد وحدها كانت تجر نفسها بصعوبة، فما بالك بها الآن وهي تجر خلفها ليخونين الذي تثاقل تثاقلاً مفرطاً، ولو اقتصر الأمر على ثقله لهان، ولكن كثرة كلامه بدأت شيئاً فشيئاً تثير أعصابها، كما يثير الأعصاب أحياناً بكاءُ طفل رضيع بشكل مستمر ومضجر كألم الأسنان وزعيقُ كناري ثاقب، وصفيرٌ متواصل ونشاز بجانبك في الغرفة.

وصلا أخيراً، إلى غرفة ليخونين، لم يكن ثمة مفتاح في الباب. وعلى العموم لم تكن الغرفة تقفل على الإطلاق. دفع ليخونين الباب ودخلا، كانت الغرفة مظلمة لأن الستائر مسدلة، وكانت تعبق بها رائحة فئران، وكيروسين، وحساء شوندر بائت، وشراشف سرير بذرة، ودخان تبغ قديم، وفي شبه العتمة كان ثمة شخص لا تراه العين يشخر شخيراً عالياً متعدد النغمات.

رفع ليخونين الستارة، الأثاث المألوف في غرفة طالب عازب فقير: سرير غائر مقوس غير مرتب، يتكوم عليه لحاف مجعد؛ وطاولة عرجاء ينتصب عليها شمعدان لا شمع فيه، وبضعة كتب على الرف والطاولة، وأعقاب السكائر تملأ المكان، وعلى طول الجدار المقابل للسرير مقعد قديم مهترئ ينام عليه الآن شاب ذو شعر أسود، وشاربين أسودين، وقد فتح فمه واسعاً وراح يشخر. كانت ياقة قميصه مفكوكة وتكشف عن صدره المغطى بأشعار كثيفة جعدة لا تراها إلاَّ على الخراف الكاراتشافية

صاح ليخونين وهو يلكز النائم في خاصرته:

- نيجيرادزه! هيه، نيجيرادزه! انهض أيها الأمير!

- م م م م ....

- انهض ، أقول لك، أيها الحمار القفقاسي، أيها الأحمق الأوسيتي!

- م م م....

- فلتحل اللعنة على جنسك من أسلافك إلى أحفادك! وليُطردوا من أعالي القفقاس الرائع! وليُحرموا إلى الأبد من رؤية جورجيا المباركة! انهض ايها السافل! انهض أيها البعير العربي! انهض أيها اللئيم!...

وفجأة، وعلى غير توقع من ليخونين على الإطلاق، تدخلت لوبكا، أمسكته من يده وقالت بتهيب:

- يا عزيزي، لماذا تعذبه هكذا؟ ربما كان بحاجة إلى النوم، ربما كان منهكاً؟.. دعه ينم قليلاً، والأحسن أن أذهب أنا إلى البيت. هلاَّ أعطيتني نصف روبل لاكتراء عربة،؟ وغداً ستأتي إليَّ ثانية. أليس كذلك يا روحي؟

ارتبك ليخونين. بدا له غريباً جداً تدخل هذه الفتاة الصموت ذات المظهر الوسنان، لم يفطن بالطبع إلى أن ماكان يتكلم فيه هو شفقتها الغريزية اللا واعية على إنسان لم ينم بما فيه الكفاية، أو ربما هو احترامها المهني لنوم الآخرين. بيد أن الاستغراب لم يدم سوى هنيهة، إذ مالبث أن شعر بالاستياء، لسبب ما. رفع يده النائم المتدلية حتى الأرض، والتي كانت لا تزال تمسك بين إصبعيها بسيكارة منطفئة، وهزها بقوة، وقال بنبرة جادة تكاد تكون صارمة:

- اسمع يا نيجيرادزه، إنني أطلب منك بجد في النهاية، افهم، ليأخذك الشيطان، إنني لست وحدي، بل معي امرأة. أيها الخنزير!
وهنا حدث ما يشبه الأعجوبة: فقد قفز المتمدد فجأة، وكأن نابضاً ما ذا طاقة خارقة انفلت تحته للتو. جلس على المقعد، ومسح بسرعة عينيه وجبينه و صدغيه براحتيه، و ما إن رأى المرأة حتى خجل وتمتم وهو يزرر قميصه على عجل:
- هذا أنت، ليخونين؟ انتظرتُ، انتظرتُ، ثم غفوتُ، قل لرفيقتك التي لا أعرفها أن تدير وجهها لدقيقة.
وسارع إلى ارتداء سترته الطلابية الرمادية، وخلخل بأصابع يديه الاثنتين شعره الجعد الأسود الأثيث. أما لوبكا فقد اقتربت، بالغنج الذي يلازم جميع النساء أياً كانت أعمارهن وأوضاعهن، إلى شظية مرآة معلقة على الجدار لتصلح من تسريحتها. نظر إليها نيجيرادزه شزراً وأشار نحوها بحركة من عينه متسائلاً:
فقال ليخونين بصوت مسموع:
- لا شيء، لا تلق بالاً، على كل لنخرج من هنا، سأخبرك الآن بكل شيء. عفواً يا لوبوتشكا، سأخرج لدقيقة واحدة. وسأعود فوراً لأدبر أمورك، ثم سأتلاشى كالدخان.
قالت لوبكا معترضة: - أنت لا تشغل بالك بالمرة، فأنا سأستريح جيداً هنا على المقعد، وأنت تمدد على السرير.
- لا، هذه ليست طريقة، يا ملاكي! لدي هنا أحد الزملاء، وسأذهب لأبيت عنده، سأعود الآن على الفور.
خرج الطالبان إلى الممر. سأل نيجيرادزه، وهو يوسع بعض الشيء عينيه الشرقيتين الخروفيتين:

- ما معنى هذا الحلم؟.. من أين هذه الطفلة الحلوة، هذا الرفيق المرتدي تنورة؟

أدار ليخونين رأسه بحركة ذات مغزى وغضن وجهه، الآن، وبعد أن جعلته الرحلة، والهواء الطلق، والموقف العملي العادي المألوف يصحو تماماً تقريباً، بدأ يحس في داخله على نحو غامض بحرج ما، وبمجانية تصرفه المفاجئ، و في الو قت نفسه بشعور يشبه الغيظ اللا واعي من نفسه. و من المرأة التي أحضرها. لقد أحس مسبقاً بعبء الحياة المشتركة، وبكثرة المتاعب والمزعجات والمصاريف والابتسامات التي تنطوي على أكثر من معنى، بل حتى بأسئلة الرفاق الوقحة، وأخيراً بالعائق الجدي عن التفرغ للدراسة في أثناء الامتحانات العامة، ولكنه ما إن بدأ يتحدث إلى نيجيرادزه حتى خجل على الفور من تخاذله، وقد بدأ حديثه بذبول، ثم مالبث قبيل النهاية أن اعتلى ثانية جواد البطولة. قال بارتباك وهو يفتل زر سترة زميله دون أن ينظر إلى عينيه:

- إنك، أيها الأمير، قد أخطأت. هذه ليست رفيقاً في تنورة على الإطلاق، بل هي... ببساطة كنت للتو مع الزملاء، كنت... في الحقيقة لم أكن، بل عرجت لدقيقة مع الرفاق على «الحفرة» إلى محل آنا ماركوفنا .

سأل نيجيرادزه وقد دبت فيه الحيوية:

-مع من؟

- وما الفرق بالنسبة إليك أيها الأمير؟ كان هناك تولبيغين، ورمسيس، وأحد المدرسين الجامعيين: يارتشينكو، وبوريا سوباشنيكوف وآخرون... لا أتذكر من هم. جدفنا في القارب طوال المساء، ثم غطسنا في إحدى الخمارات، وبعد ذلك ذهبنا إلى «الحفرة» كالخنازير.

وأنا، كما تعرف، شخص متعفف جداً. وقد اكتفيت بالجلوس وامتصاص الكونياك كالإسفنجة مع مراسل صحفي أعرفه، أما الآخرون فكلهم ارتكبوا الإثم، وفي الصباح رقّت نفسي كثيراً، لا أدري لماذا، ودهمني شعور بالأسى والشفقة وأنا أنظر إلى أولئك النسوة التعسات. ورحت أفكر بيني وبين نفسي في أن أخواتنا يحظين باهتمامنا وحبنا وحمايتنا، وأمهاتنا نجلّهن إجلال عبادة، وليجرب أحد أن يوجه إليهن كلمة فظة، أو يلكزهن، أو يهينهن. إننا مستعدون لأن نمزق عنقه بأسناننا! أليس كذلك؟

- م م م ؟

غمغم الجورجي بلهجة ممطوطة تراوح بين السؤال والترقب، وحرف بؤبؤي عينيه إلى جانب.

- ثم إنني فكرت كيف أنَّ بإمكان أي وغد، وأي صبي، وأي شيخ متهدم أن يأخذ أية واحدة من هؤلاء النسوة لدقيقة أو لليلة ليشبع نزوة عابرة، ومرة أخرى، ربما هي المرة الواحدة بعد الألف، ينجس ويدنس فيها دون مبالاة أثمن ما في الإنسان وهو الحب... ينتهكه، يدوسه بالأقدام، ويدفع أجر الزيارة، ويغادر باطمئنان، وقد دس يديه في جيبي بنطاله وراح يصفر لحناً ما. والأفظع من هذا كله أن كل هذا قد جرى عندهم مجرى العادة. فلا هي تبالي به، ولا هو يبالي، تبلَّدَ الحس، وشحبت النفس، أليس كذلك؟ علماً بأنه في كل منهن تهلك أخت رائعة، وأم مقدسة.آ؟ أليس هذا صحيحاً؟

- ن ن – نعم؟

غمغم نيجيرادزه ، وحوّل بصره مرة ثانية إلى جانب.

وأردف ليخونين:
- وفكرت عندئذٍ : ما نفع الكلمات والهتافات النافلة؟ فلتذهب إلى الشيطان الخطابات المرائية في المؤتمرات. ولتذهب إلى الشيطان حركة الإلغاء[1] والنظام[2] (هنا تبادرت إلى ذهنه فجأة، دون إرادة منه، الكلمات التي سمعها من المراسل). وكل هذه المآوي المجدلانية! فلأتصرف كإنسان شريف حقيقي، وأنتشل فتاة من هذا المستنقع، وأغرسها في تربة صلبة حقيقية، ولأدخل الطمأنينة إلى قلبها وأشجعها وألاطفها.
- هـ.... م!..
زحر نيجيرادزه متهانفاً:
- إخْ، أيها الأمير! دائماً لا تخطر لك سوى البذاءة، إنك تفهم أنني لا أتحدث عن المرأة، بل عن الإنسان، لا عن الجسد، بل عن الروح.
- طيب، طيب، يا روحي، وبعد ذلك!
- بعد ذلك، فعلت ماعزمت عليه، أخذتها من محل آنا ماركوفنا وأحضرتها إلى منزلي مؤقتاً. وبعد ذلك يفعل الرب ما يريد. سأعلمها في البداية القراءة والكتابة، وبعد ذلك سأفتح لها مطعماً صغيراً متواضعاً أو بقالة صغيرة. وأظن أن الرفاق لن يرفضوا مساعدتي. القلب البشري، يا أخي الأمير، أي قلب كان، بحاجة إلى دفء، إلى حنان. وسترى أنني بعد سنة أو سنتين سأعيد إلى المجتمع عضواً جيداً عاملاً كريماً، ذا نفس بكر مفتوحة لأية إمكانية عظيمة... فهي لم تكن تعطي إلاَّ الجسد، أما نفسها فقد ظلت نقية، عذراء.

---

[1] الحركة الاجتماعية المناهضة للبغاء المرخص به.(الناشر).

[2] المقصود بالنظام هنا هو المراقبة الطبية – الشُرطية للمحال العمومية والمومسات المنفردات. (الناشر).

- دائماً، يا روحي، يحدث هكذا في الروايات. ما إن ينقذ البطل مخلوقة فقيرة، ولكن هالكة[1]، حتى يشتري لها آلة خياطة:

أشاح ليخونين بيده غاضباً وقال:

- كف عن هذه السخافات. مهرج!

احتد الجورجي فجأة، والتمعت عيناه السوداوان، وتلون صوته مباشرة بالنبرة القفقاسية:

- لا، هذه ليست سخافات، يا روحي! هنا واحد من اثنين، ونتيجة الاثنين واحدة، إما أن تنسجم معها، ثم بعد خمسة أشهر تلقي بها إلى الشارع، فتعود هي إلى المحل العمومي، أو تذهب إلى الرصيف. هذه حقيقة! أو أنك لن تنسجم معها وتفرض عليها أن تقوم بعمل يدوي أو ذهني، وستحاول أن تطور عقلها الجاهل المظلم، وستهرب هي من الملل فتجد نفسها إمّا على الرصيف أو في المحل العمومي. وهذه أيضاً حقيقة! وعلى العموم هناك احتمال ثالث: فأنت ستعتني بها كأخيها، كالفارس لانسلوت[2]، وهي ستقع في غرام شخص آخر سراً. يا روحي، صدقني. إن المرأة مادامت امرأة فهي امرأة. ولن تستطيع أن تعيش دون حب، وستهرب منك إلى آخر، والآخر سيلهو بجسدها قليلاً، وبعد ثلاثة أشهر يلقي بها إلى الشارع أو إلى المحل العمومي.

---

[1] «مخلوقة فقيرة ، ولكن هالكة»، نقل بتصرف من «مأدبة في زمن الطاعون»، لبوشكين (١٨٣٢). (الناشر).

[2] بطل العديد من روايات القرون الوسطى، التي تتحدث عن حب الفارس لانسلوت لجينفر، زوجة الملك آرثر. (الناشر).

تنهد ليخونين بعمق. فـي مكان عميق ما، ليس فـي عقله، بل فـي خبايا وعيه المكنونة التي لا تكاد تُدرك ومض شيء ما كالفكرة يوحي بأن نيجيرادزه على حق بيد أنه مالبث أن تمالك نفسه وهز رأسه بقوة ومد يده إلى الأمير قائلاً بنبرة خطابية:

- أعدك بأنك بعد نصف سنة ستسحب كلماتك هذه، وستقدم لي أيها الحنظل اليريفاني، أيها الباذنجان الأرمافيري، دزينة من قناني النبيذ الكاخيتيني، تعبيراً عن اعتذارك.

قال الأمير، وهو يرفع يده على مداها ثم يهوي بها مصافحاً ليخونين

- ها! قبلت! بكل سرور. ولكن إذا صدق توقعي، فالدزينة عليك.

- علي، والآن إلى اللقاء أيها الأمير، عند من ستبيت الليلة؟

- هنا، فـي الممر نفسه، عند سولوفيوف، وأنت طبعاً، كفارس من القـرون الوسـطى، ستضـع سـيفاً ذا حـدّين بينـك وبـين روزامونـدا الرائعة؟ آ؟

- سخافات. أنا نفسي كنت أنوي المبيت عند سولوفيوف. ولكن الآن سأتجول فـي الشوارع، ثم سأعرج على شخص ما؛ زايتسيفتش أو شترومب. وداعاً أيها الأمير.

وما أن ابتعد عدة خطوات حتى ناداه نيجيرادزه :

- توقف، توقف! لقد نسيت أن أبلغك الخبر الأهم: بارتسان انكشف!

- أهكذا؟ - قال ليخونين متعجباً وتثاءب بلذة تثاؤباً طويلاً وعميقاً.

- نعم، ولكن ليس هناك مايخيف: حيازة منشورات فقط، لن يسجن أكثر من سنة.

- لا يهم، إنه فتى صلب، لن ينهار.

- صلب. – قال الأمير موافقاً.

بقي ليخونين وحده، كانت تعبق في الممر شبه المظلم رائحة كيروسين يتصاعد من فتيل مصباح تنكي يخبو نوره شيئاً فشيئاً، ودخان تبغ رديء فاسد، ولم يكن ضوء النهار الكابي ينفذ إلى هنا سوى من الأعلى، عبر نافذتين زجاجيتين صغيرتين في سقف الممر.

كان مزاج ليخونين يجمع في وقت واحد بين الشعور بالارتخاء وبالحيوية، وهي حالة معروفة لكل من اتفق له أن ظل مدة طويلة دون نوم، كان كأنه قد تجاوز حدود الحياة البشرية اليومية العادية، وأصبحت هذه الحالة بالنسبة إليه بعيدة وغير مهمة، ولكن في الوقت نفسه اكتسبت أفكاره ومشاعره وضوحاً ما هادئاً وجلاء لا مبالياً، وكانت في هذه النيرفانا الصافية كالبلور فتنة مملة وممضة.

كان يقف قرب غرفته مستنداً إلى الجدار ويخيل إليه أنه يشعر ويرى ويسمع كيف ينام قربه وتحته بضع عشرات من الناس أواخر سويعات نومهم الصباحي العميق، وهم فاغرو الأفواه، وقد انتظمت أنفاسهم العميقة، وعلا وجوهَهم اللامعة من النوم شحوب ذابل، وخطرت في ذهنه فكرة قديمة مألوفة منذ الطفولة تقول له: كم هم مخيفون الأشخاص النائمون؛ إنهم مخيفون أكثر بكثير من الأموات.

ثم تذكر لوبكا. وهمس له «أنا»ه التحتي العميق السري بسرعة خاطفة إنه ينبغي المرور بالغرفة والنظر: هل الفتاة مستريحة هناك؟ كم ينبغي اتخاذ بعض التدابير بخصوص شاي الصباح، ولكنه تظاهر أمام نفسه بأنه لم يفكر في هذا البتة، وخرج إلى الشارع.

سار متفرساً فـي كل العيون التي تقابله بفضول كسول وثاقب لم يعهده فـي نفسه من قبل، وكاتن كل قسمة ترتسم أمامه بارزةً بروزاً حتى لكأنه يلمسها بأصابعه... ها هي امرأة تمر، إنها تحمل على كتفها عارضة متوازنة علق فـي كل من طرفيها دلو كبير مليء بالحليـب، وجهها لـيس فتيـاً، وصـدغاها مغطيـان بشـبكة مـن التغضـنات، وثمـة أخـذ ودان عميقـان يمتـدان مـن جانـب فتحتـي المنخرين إلى زاويتي الفم، بيد أن وجنتيها حمراوان، ولابد أنهما صلبتا الملمس، وتشع من عينيها البنيتين سخرية أكرانية متوثبة، كانت حركة العارضة الثقيلة والمشية الانسيابية تجعلان وركي المرأة يهتزان بإيقاع منتظم ذات اليمين وذات الشمال، وكان يتجلى فـي حركتهما المتموجة هذه جمال شهواني فظ.
قال ليخونين لنفسه: «امرأة مقدامة، وقد عاشت حياة مبرقشة»، وفجأة، ودون أن يتوقع هذا من نفسه شعر بأنه يشتهي بجموح هذه المرأة التي لا يعرفها بالمرة، هذه المرأة غير الجميلة وغير الشابة والتي هي على الأرجح قذرة وجلفة، ولكنها مع ذلك تشبه، كما تراءى له، تفاحة كبيرة انطونيّة[1] سقطت من شجرتها، وفقدت بعض طزاجتها، ونخرتها الدودة قليلاً، إلاّ أنها لا تزال محتفظة بلونها الزاهي وشذاها النبيذي العطر.

---

[1] نوع مشهور من التفاح فـي روسيا.

تجاوزته عربة موتى سوداء فارغة يجرها حصانان، ويعدو خلفها حصانان آخران رُبطا بعموديها الخلفيين. كان حملة المشاعل والتوابيت، بوجوههم الحمراء التي تشبه وجوه الوحوش، وقبعاتهم العالية التي حال لونها إلى الاحمرار، قد سكروا منذ الصباح، وجلسوا الآن في كومة فوضوية فوق بزاتهم الرسمية وأغطية الخيل الشبكية ومصابيح الحِداد، وراحوا ينشدون أغنية مشوشة بأصواتهم الصدئة المبحوحة. فكّر ليخونين : «لابدَّ أنهم مسرعون لإخراج ميت، أو الأرجح أنهم انتهوا من ذلك. فتيان مرحون!»، توقف في شارع مشجر وجلس على مقعد خشبي واطئ مدهون بالأخضر. كان ثمّة صفان من أشجار الكستناء الضخمة التي يبلغ عمرها مئة سنة يمتدان إلى المدى البعيد، ويندمجان في مكان ما قصيّ، فيشكلان صفاً أخضر مستقيماً. وكانت تتدلى من الأشجار جوزات كبيرة شائكة، تذكر ليخونين فجأة أنه كان قد جلس أول الربيع في هذا البولفار بالذات، وفي هذا المكان بالذات، كان ذلك في أمسية هادئة لطيفة تغفو بسكون، متشحة بغلالة من ضباب أرجواني شفيف، كفتاة تعبة تبتسم. آنذاك كانت أشجار الكستناء الضخمة، ذات الأوراق العريضة في الأسفل والضيقة في الأعلى، مرصعة بعناقيد الأزهار التي تبرعمت أكوازاً رفيعة، ذات لون وردي فاتح، متجهة نحو السماء، وكأن أحداً قد علق بالخطأ على جميع هذه الأشجار التي بدت له كالثريات شموع عيد الميلاد الوردية، وفجأة تملك ليخونين شعور حاد إلى درجة غير عادية – وكل إنسان لابد له من أن يجتاز عاجلاً أو آجلاً هذه الحالة من الشعور الداخلي – بأن الجوزات تنضج الآن،

أما آنذاك فقد كانت لا تزال شمعيات وردية موهرة، وأنه سيأتي كثير من الأربعة، وسيتفتح كثير من الأزهار، ولكن ذاك الربيع الذي مضى ليس بمقدور أحد أن يعيده إليه، وفيما هو ينظر بأسى إلى عمق الممشى المتلف الأشجار والممتد إلى البعيد، أحس فجأة أن دموع التأثر تلذع عينيه.

نهض وتابع سيره منعماً النظر في كل ما يقابله بانتباه قوي مرهف، وهادئ في الوقت نفسه، وكأنه كان ينظر إلى العالم الذي أبدعه الخالق لأول مرة، مرت من جانبه مجموعة بنائين، وانعكسوا جميعهم في بصره الداخلي بسطوع مفرط زاخر بالألوان، كما تنعكس الصورة على زجاج «الحجرة المظلمة»[1] الكامد. كبير العمال ذو اللحية الحمراء المائلة إلى جانب والعينين الزرقاوين الصارمتين؛ والشاب الجسيم الذي احتقنت عينه اليسرى، وانفرشت من جبهته إلى قمة وجنته ومن أنفه إلى صدغه لطخة ذات لون أشهب ضارب إلى السواد؛ والصبي ذو الوجه القروي الساذج، والفم المنفغر كما لدى فرخ الطائر، فم رطب مسلوب الإرادة؛ والشيخ المتأخر الذي كان يهرول خلف المجموعة هرولة تيسية مضحكة؛ وملابسهم الملوثة بالكلس، ومآزرهم، وأزاميلهم، كل هذا لاح أمامه رتلاً جامداً لا روح فيه؛ شريطاً سينمائياً ملوناً ومبرقشاً، ولكنه ميت.

وفيما كان يجتاز سوق نوفوكيشينيوفسكي فغمت أنفه فجأة رائحة شواء دسمة ولذيذة جعلته يوسع فتحتي منخريه. تذكر أنه لم يأكل شيئاً منذ ظهر أمس وشعر على الفور بالجوع، انعطف إلى اليمين وتوجه إلى عمق السوق.

---

[1] «الحجرة المظلمة» وسيلة قديمة لعكس صور الأشياء.

في أيام المجاعات - وقد عاناها أكثر من مرة – كان يأتي إلى هنا ويشتري بقروشه القليلة ا لتي تعب في الحصول عليها خبزاً ومر تديلا مشوية. و كان هذا يحدث أكثر ما يحدث شتاءً. كا نت البائعة المتدثرة بكومة من الثياب تجلس عادة على و عاء فيه جمر لتستدفئ، وأمامها صاج حديدي تنش وتفح فوقه مارتديلا بيتية سميكة قُطّعت أقتاراً وتُبِّلت بكثير من الثوم. وكانت قطعة المار تديلا تباع عادة بعشرة كوبيكات، وقطعة الخبز بكوبيكين.

السوق كان اليوم مكتظاً بالناس. و قد تنا هت إلى سمع ليخونين من بعيد وهو يجر نفسه نحو كشكه المعهود المفضل أصوات مو سيقا. شق لنفسه طريقاً بين جمهور احتشد حول أحد الأكشاك في حلقة محكمة، فشاهد منظراً ساذجاً ولطيفاً لا يمكن للمرء أن يشاهده إلاَّ في جنوبي رو سيا المبارك. كان ثمّة عشر أو خمس عشرة بائعة تجدهن في الأوقات العادية نمامات، مفتر يات، شتامات جامحات، لا ينضب لابتكاراتهن الكلامية معين، قد تآلفن الآن كصديقات لطيفات مت...قات، ويبدو أنهن قد بدأت اللهو منذ الأمسية الفائتة، وقصفن طوال الليل، وا نتقلن الآن بمرحهن الصاخب إلى السوق. و كان المو سيقيون المُستأجَرون، و هم عازف كمان أول و عازف كمان ثان وضارب دفء، منهمكين في عزف لحن رتيب، ولكنه مفعم بالحيوية، والمرح المتوثب، والغنج. بعض النسوة كن يتقارعن بالكؤوس ويتباوسن ويتراشقن بالفودكا، وبعضهن يسكبن الفودكا في الأقداح وعلى الطاولات، وأخريات يصفقن على إيقاع الموسيقا، ويتأوهن، و يزعقن و هن يثنين ركبهن ثم يشددنها مراوحات في أماكنهن.

وفـي وسط الحلقة كان ثمة امرأة سمينة تدور على بلاط الشارع، وتدق الأرض بقدميها دقات سريعة متلاحقة، مراوحة فـي مكانها، كانت المرأة تناهز الخامسة والأربعين، ولكنها لا تزال جميلة؛ شفتاها حمراوان مكتنزتان، وعيناها نديتان مخمورتان كأنهما مغشاتان بالزيت، تشعان بمرح لعوب تحت قوسي حاجبيها العاليين الأسودين الأكرانيين المتسقين. كان كل جاذبية رقصتها وكل فنيتها تكمنان فـي أنها كانت تارة تحني رأسها وتنظر بتحد مقطبة حاجبيها، وتارة أخرى تلقي برأسها فجأة إلى الخلف، وترخي أهدابها، وتمد ذراعيها إلى الجانبين، وأيضاً فـي أن ثدييها الكبيرين كانا يهتزان ويتواثبان تحت بلوزتها القطنية الحمراء على إيقاع الرقصة. وكانت فـي أثناء الرقص تغني وهي تخبط الأرض تارة بكعبي حذائها المصنوع من جلد الماعز وتارة بمقدمتيه.

فـي الشارع تعزف كمنجة

وأوتارها تناديني

أمي لا تسمح لي بالخروج

وحبيبي ينتظرني

كانت هذه المرأة هي غريبا نفسها التي كان ليخونين فـي الأوقات العصيبة يتردد عليها لا كزبون فحسب، بل ليستلف منها أيضاً.
عرفتـه المـرأة فجـأة، فخفـت إليـه، وعانقتـه، وشـدته إلـى صـدرها، وقبلته فـي فمه مباشرة بشفتيها المكتنزتين النديتين الحارتين. ثم لوحت بكلتا يديها، وضربت كفاً بكف، وشبكت أصابعها، وهدلت هديلاً عذباً لا تجيده سوى النساء البودوليات[1]:

- يا سيدي الصغير، يا ذهبي الفضي. يا حبيبي!.. سامح المرأة السكرانة. وماذا فـي ذلك؟ لهوت وسكرت!..

---

[1] نسبة إلى منطقة بودولييه فـــي أكرانيا.

واندفعت تقبل يده، ثم أردفت: ـ أنا أعرف أنك لست متكبراً كالسادة الآخرين، اعطني يا طفلي يدك أقبلها! لا، لا، لا! أرجوك؟..
ـ قاطعها ليخونين وفجأة وقد دب فيه النشاط:
ـ ما هذه الحماقات يا خالة غريبا! الأحسن أن نتباوس أنا وأنت. لك شفتان لذيذتان جداً!
فصاحت غريبا وقد استبد بها التأثر:
ـ آه يا قُليبي! يا شمسي الساطعة، يا تفاحة جنتي، اعطني شفتيك! اعطني إياهما، شفتيك هاتين؟!...
ضمته بحرارة إلى صدرها الضخم وبللته ثانية بشفتيها الغوتينتوتيتين[1] الحارتين. ثم أمسكت به من كمه وقادته إلى وسط الحلقة، ودارت حوله بخطوات انسيابية متقاربة، وقد ثنت جذعها بغنج وطفقت تغني:
أوه! ليذهب كل إلى حبيبته ، وأنا إلى باراسكا
فـي سروالي الشيطان جائع
وعندها مؤونتي!
وبعد ذلك انتقلت فجأة إلى رقصة «الغوباك» الأكرانية المرحة، وتبعها الموسيقيون فـي العزف:
أوه، لقد حدث ما حدث، لايهم..
رفعت تنورتها عالياً،
لا تزعلي يا بريسكا

---

[1] نسبة إلى الغوتينتوتيين: وهم شعب يعيش فـي وسط وجنوبي ناميبيا وجنوبي أفريقيا.

وإذا كنت تبللت، نشّفي!
ترا لا لا ، ترا لا لا ....
خيما نائم، لا يسمع
أن القوزاقي ينام معها
تكذب يا خيما، إنك تسمع
لكنك تتظاهر بالنوم
تاي، تاي، ترا لا لا ...

استخف الطرب ليخونين ودفعه، على غير توقع منه إلى التواثب حولها، بساقيه الطويلتين، وذراعيه المديدتين، وظهره المحدودب، وقامته المتناسقة بالمرة، و:أنه تابع يدور بحركة خرقاء حول كوكب يدوّم بسرعة:

- حيّى الجمهور مشاركة ليخونين بقهقهة جماعية ولكنها ودية إلى حد ما، وأجلسوه إلى الطاولة وقدموا له فودكا ومارتديلا. وأرسل هو من جهته متشرداً يعرفه لإحضار بيرة، وألقى وهو يمسك بالكأس ثلاث خطب سخيفة: واحدة عن ا ستقلالية أكرانيا، والثانية عن مزايا المارتديلا الأكرانية وارتباط ذلك بجمال النساء الأكرانيات وميلهن إلى الحياة العائلية، والثالثة كانت، لسبب ما، عن التجارة والصناعة في جنوبي روسيا، وكان طوال مدة جلوسه بجانب غريبا يحاول أن يطوق خصرها ويحتضنها، ولم تكن هي تمانع في ذلك، إلاَّ أنَّ ذراعيه، على طولهما، لم تستطيعا تطويق جذعها المدهش. وكانت وهي تضغط على يده تحت الطاولة بيدها الضخمة الطرية الحارة كالنار ضغطاً قوياً حتى حد الألم.

وفـي هذه الأثناء أخذت تذر قرنها بين البائعات، اللواتي كنّ حتى تلك اللحظات، يتبادلن القبلات بحنان، نزاعاتٌ وإهانات قديمة لم تمّح آثارها بعد.
انحنـت امرأتـان إحـداهما نحـو الأخـرى كـديكين متـأهبين للعـراك، وأسندت كل منهما يديها إلى خصرها، وراحت تقذف غريمتها بأقذع الشتائم السوقية. كانت إحداهما تصيح قائلة: - غبية، سافلة، بنـت كلـب، أنـت لا تسـتحقين أن تبوسـيني حتـى مـن هنـا – أدارت ظهرها إلى غريمتها وخبطت بقوة على مؤخرتها – من هنا! أيتها الحقيرة.
ردّت عليها الأخرى بزعيق مسعور:
- تكذبين، أيتها الساقطة، فأنا أستحق، أستحق!
انتهز ليخونين الفرصة، وقفز إلى خارج الكشك بسرعة متظاهراً بأنه تذكر شيئاً ما وصاح:
- انتظريني يا خالة غريبا، سأعود بعد ثلاث دقائق!
وانـدس بـين الجمهـور مخترقـاً حلقـة المتفـرجين الحيـة. وصـاحت جارته فـي إثره: - أيها السيد! أيها السيد!.. ارجع بسرعة! هناك كلمة أريد أن أقولها لك.
عندما انعطف متجاوزاً زاوية الشارع قضى بعض الوقت فـي بذل جهـد مضـن ليتـذكر: مـاذا ينبغـي عليـه حتمـاً أن يفعـل الآن، هـذه اللحظة؛ وكالسابق، كان فـي أعماق نفسه يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل، ولكنه كان يتلكأ فـي الاعتراف بهذا لنفسه. فـي هذه الأثناء كان النهار قد أضحى نيّراً، ساطعاً، وكانت الساعة بين التاسعة والعاشـرة؛ وقـد راح بوابـو الأفنيـة يرشـون الشـوارع بخـراطيم مطاطيـة؛ وجلسـت بائعـات الأزهـار فـي السـاحات وعند بوابـات البولفارات وأمامهن طاقات الورد والمنثور والنرجس. إنها الحياة تدب فـي المدينة الجنوبية الوضّاءة، المرحة، الغنية.

وعلى بلاط الشارع كانت ترتج بصخب عربة تحمل قفصاً حديدياً مملوءاً بكلاب من شتى الأنواع والأصناف والأعمار، ويجلس على مقعد القيادة اثنان من السّلاّخين – أو كما يسمون أنفسهم احتراماً «السّلاخين الرسميين»، أي: قنّاصي الكلاب الشاردة – وهما الآن عائدان إلى المنزل من جولتهما الصباحية.

«لابدَّ أن تكون قد استيقظت الآن –صاغ ليخونين أخيراً فكرته السرية – وإذا لم تكن قد استيقظت فإنني سأتمدد بهدوء على المقعد وأغفو قليلاً»..

في الممر كان مصباح الكيروسين المحتضر لا يزال كالسابق يرسل نوراً شاحباً مشوباً بالدخان. وكان شبه الضوء المائع القذر يتسرب بصعوبة عبر هذا الصندوق الطويل الضيق. وقد بقي باب الغرفة غير مقفل كما كان. فتحه ليخونين دون أن يصدر أي صوت، ودخل.

كان ثمة ضوء أزرق ضعيف ينسكب من الفرجات التي تركتها الستائر بينها وبين النافذة، وقف ليخونين وسط الغرفة وراح يصغي بنهم مرهف إلى أنفاس لوبكا الخافتة الوسنى. سخنت شفتاه وجفّتا بشدة مما جعله مضطراً إلى لحسهما باستمرار. وشرعت ركبتاه ترتجفان.

وخطر له فجأة أن يسألها: هل هي بحاجة إلى شيء.

اقترب من السرير وهو يتنفس بصعوبة، وقد فغر فاه وراح يترنح على قدميه المرتعشتين كالسكران.

كانت لوبا تنام مستلقية على ظهرها، وقد مدت إحدى يديها العاريتين على طول جسمها، ووضعت الأخرى على صدرها، انحنى ليخونين فوقها وقرّب وجهه من وجهها. كانت تتنفس بانتظام وعمق، وكانت أنفاسها التي تتردد في الجسم الفتي المعافى نقية وشذية تقريباً برغم النوم، أمرّ أصابعه بحذر على يدها العارية، ومسح صدرها تحت الترقوة بقليل. «ماذا أفعل؟!» - فجأة صاح فيه عقله بارتياع، ولكن كائناً آخر أجاب عن ليخونين: «أنا لا أفعل شيئاً، أنا أريد فقط أن أسأل: هل هي مرتاحة في نومها هنا، وهل تريد شاياً؟»..

ولكن لوبكا استيقظت بغتة، وفتحت عينيها، وضيقتهما دقيقة، ثم عادت وفتحتهما ثانية، وتمطت مادة ذراعيها إلى أوسع مدى، وطوقت عنق ليخونين بيد حارة قوية وهي تبتسم ابتسامة عذبة لم تكن تدرك كنهها بعد، وقالت بصوت حنون، كالهديل تشوبه بعض البحة من النوم:

- صغيري! عزيزي، انتظرتك، انتظرتك، طويلاً جداً، حتى إذني بدأت أغضب. ثم غفوت، وظللت طوال الليل أراك في الحلم. تعال إليَّ يا كتكوتي الصغير المدلل!..

جذبته إليها حتى كاد صدره يلامس صدرها، لم يبد ليخونين مقاومة تقريباً. بل كان يرتعش بجسمه كله كما لو أنه مصاب بالبرداء، ويكرر هامساً بصوت مضطرب ولهجة خالية من المعنى وأسنانه تصطك:

- لا ، يا لوبا، لا لزوم لهذا.. حقاً.. لا لزوم له، لوبا، هكذا.... آه، فلندع هذا يالوبا... لا تعذبيني، أنا لا أضمن نفسي... اتركيني يا لوبا، بحق الرب!..

صاحت المرأة بصوت مرح ضاحك:

- يا أحمقي العزيز! تعال إلي! يا فرحتي أنت!..

وما لبثت أن تغلبت على آخر محاولاته في المقاومة الضئيلة المتخاذلة، وألصقت فمها بفمه، وقبلته بقوة وحرارة، قبّلت بصدق، ربما لأول وآخر مرة في حياتها.

«أوه، وغد! ماذا أفعل أنا؟»، هتف داخل ليخونين شخص شريف وعاقل ومزيف.

- ايه، ماذا؟ هل ارتحت؟ - سألته لوبا بحنان و هي تلثم شفتيه للمرة الأخيرة – آه منك، يا طالبي الصغير!..

امتلأت نفس ليخونين بالألم، والحنق والاشمئزاز من نفسه و من لوبكا، وربما من العالم كله، وألقى بنفسه دون أن يخلع ملابسه على المقعد الخشبي المعوج المتلبد من طول الاستعمال، و شرع يصرف بأسنانه من شدة الخجل الحارق، لم يواته النوم، وكانت أفكاره تدور طوال الوقت حول هذا التصرف الغبي، كما كان هو نفسه يسمي إخراج لوبكا من المحل العمومي، هذا التصرف الذي امتزج فيه على نحو كريه فودفيل ممجوج ودراما عميقة. وكان في أثناء ذلك يؤكد لنفسه بعناد: «أياًكان الأمر، بما أنني قطعت على نفسي عهداً فإنني سأمضي في الطريق حتى النهاية. وطبعاً هذا الذي حدث الآن لن يتكرر أبداً، أبداً!، يا إلهي؛ و من الذي لم يسقط مستسلماً لحظة اختلال أعصابه؟.. ما أعمق وأروع تلك الحقيقة التي عبّر عنها أحد الفلاسفة بقوله: إن قيمة النفس الإنسانية تُعرف من عمق سقوطها، وعلو سموها. ولكن مع ذلك ليأخذ الشيطان كل هذا اليوم الأحمق، و هذا المراسل – الواعظ بلاتونوف، الذي تحمل أقواله أكثر من وجه، واندفاعه هو، ليخونين ، بهذه الفروسية السخيفة! لكأن كل هذا، في الحقيقة، ليس من واقع الحياة، بل من رواية: «ما العمل؟ »للكاتب تشيرنيشيفسكي. ياللشيطان!.. كيف، وبأي عين سأنظر إليها غداً؟!».

كان رأسه يلتهب، وجفون عينيه تحترق، وشفتاه تجفان، راح يدخن بعصبية سيكارة إثر سيكارة، وينهض ببعض جسمه بين فينة وأخرى ليتناول دورق الماء من على الطاولة ويعب بنهم من الفوهة مباشرة بضع جرعات كبيرة، وقد استطاع فيما بعد بجهد إرادي عارض لا يدري كنهه أن يبتعد بأفكاره عن الليلة الفائتة، ثم مالبث أن غرق في لجة نوم عميق خال من أية رؤى وصور، وكأنه غطس في كومة قطن أسود.

استيقظ بعد منتصف النهار بكثير، في الساعة الثانية أو الثالثة، وظل طويلاً في البداية غير قادر على أن يعود إلى وعيه، وراح يتمطق بفمه ، ويجول بعينين عكرتين متثاقلتين في أنحاء الغرفة، وكأن كل ما حدث ليلاً قد تلاشى من ذاكرته. ولكن ما أن رأى لوبكا التي كانت تجلس بصمت وسكون على السرير، منكسة رأسها، وواضعة يديها على ركبتيها، حتى أنَّ وزحر من الأسف والحرج. تذكّر الآن كل شيء. وفي هذه اللحظة خبر بنفسه مدى الضيق الذي يشعر به المرء صباحاً عندما يشاهد بأم عينه الحماقة التي ارتكبها مساء أمس:

سألته لوبكا برقة: - هل استيقظت يا عزيزي؟

نهضت عن السرير، واقتربت من المقعد، جلست عند قدمي ليخونين ومرت بيدها على رجله فوق البطانية، وأردفت:

-أنا استيقظت منذ مدة طويلة، وبقيت جالسة هكذا: خشيت أن أوقظك، كنت غارقاً في نوم عميق.

تطاولت نحوه وقبلته في خده. فغضن وجهه ونحاها عنه برفق.

- انتظري يا لوبوتشكا! انتظري، هذا لا لزوم له. هل تفهمين؟ لا لزوم له أبداً، على الإطلاق، ما حدث أمس هو مجرد مصادفة، لنقل إنه ضعف من جانبي، بل أكثر من ذلك: ربما كان سفالة آنية عارضة، أقسم بالرب، صدقيني، أنا لم أكن أريد على الإطلاق أن أجعل منك عشيقة. أردت أن أراك صديقة، أختاً، رفيقة... لا، لا، لا بأس: كل شيء سيتصلح، سنصبر ونعتاد. المهم ألاَّ نفقد العزيمة، والآن، يا عزيزتي، اذهبي، وأطليّ من النافذة قليلاً ريثما أصلح هندامي.

مطت لوبكا شفتيها بعض الشيء وذهبت إلى النافذة مولية ليخونين ظهرها. لم يكن بمقدورها أن تفهم بدماغها الذي يعادل دماغ دجاجة، وبنفسها القروية البسيطة، كل هذه الكلمات التي قيلت عن الصداقة والأخوّة والرُّفقة، كان يلذ لخيالها أكثر بكثير أنْ تتصور أنَّ طالباً – هو على كل حال ليس أياً كان، بل إنه شخص مثقف يمكن أن يصبح طبيباً أو محامياً أو قاضياً – قد تعهدها وتكفل بإعالتها... أما الآن فقد تبين أن ما فعله هو تلبية لنزوة لا أكثر، وأنه قد نال ما أراد، وبدأ الآن بالتراجع. كلهم هكذا، هؤلاء الرجال!

نهض ليخونين على عجل، ورش وجهه بعدة حفنات من الماء، وجففه بمنشفة قديمة، ثم رفع الستائر وفتح كلا صفقي النافذة، فتدفق على الفور إلى الغرفة الصغيرة المقامة على السطح ضوء الشمس الذهبي، والسماء اللازوردية، وجلبة المدينة، وخضرة أشجار الزيزفون والكستناء الوارفة، ورنين أجراس ترامات الخيل[١]، والرائحة الجافة المنبعثة من الشارع الحار المغبر، اقترب ليخونين من لوبكا وربّت كتفها بود قائلاً:

---

[١] ترام الخيل: حافلة تجري على سكتين وتجرها الخيول، كانت تستخدم في المدن قبل اختراع الترام الكهربائي (المترجم).

- لا بأس، يا فرحتي... ما جرى لا يمكن إصلاحه، وهو درس للمستقبل، ألم تطلبي الشاي بعد؟
- لا، كنت أنتظرك، ثم إذني لا أعرف لمن أقول. وأنت أيضاً لا بأس بك. فأنا قد سمعت كيف أنك، بعد أن خرجت مع زميلك، عدت ووقفت عند ا لباب، ولم تفكر حتى في أن تودعني، هل هذا تصرف جيد؟
«أول مشادة عائلية»، - قال ليخونين في نفسه ولكن دون غضب، بل من قبيل المزاح.
الاغتسال، وسحر سماء الجنوب الذهبية والزرقاء، ووجه لوبكا الساذج الذي يختلط فيه الخضوع بعدم الرضا، والوعي بأنه هو الرجل في نهاية المطاف، وهو، لا هي، مَنْ عليه أن يتحمل مسؤولية الخطوة التي أقدم عليها –كل هذا معاً استنفر أعصابه ودفعه إلى أن يتمالك نفسه. فتح الباب وزعق في عتمة الممر النتن:
- الكساندرا! السماور! ورغيفين، وزبدة، ومارتديلا! وزجاجة فودكا صغيرة!..
سُمع في الممر خفق نعل نسائي، وعلا من بعيد صوت عجائزي يقول مغمغماً:
- لماذا تبعق؟ آ؟ لماذا تبعق؟ غو – غو – غو ! غو – غو – غو غو – غو – غو! كالحصان المحبوس. أنت لست صغيراً لقد نبت الوبر على جسمك، ومع ذلك تتصرف كصبي من الشارع ! إيه، ماذا تريد؟..

دخلت الغرفة عجوز ضئيلة ذات عينين ضيقتين كشقين، وجفون حمراء، ووجه شديد الصفرة، والجفاف، يبرز منه على نحو متجهم ومتوعد أنف حاد طويل ممتد نحو الأسفل، كانت هذه هي الكساندرا، الخادمة القديمة لعلب الزرازير التي يستأجرها الطلاب، وصديقتهم جميعاً، ودائنتهم، وهي امرأة في الخامسة والستين، ديدنها الوعظ والتذمر.

كرر ليخونين طلبه مرة ثانية، وأعطى العجوز روبلاً ورقياً، بيد أنها تذهب، بل أخذت تتململ في مكانها وهي تنخر وتمضغ بشفتيها، وتحدج بعداء الفتاة التي كانت تجلس مولية ظهرها مصدر النور، سألها ليخونين ضاحكاً: - مالك يا الكساندرا! كأنك تحجرت؟ أم أن متعة النظر أنستك نفسك؟ إذاً، اعلمي أن هذه ابنة عمي، أي أنها بمنزلة أختي، واسمها لوبوف[1]... – تردد هنيهة واحدة فقط ثم أردف بسرعة – لوبوف فاسيليفنا، أما بالنسبة لي فهي ببساطة لوبوتشكا، أعرفها من ذأن كانت هكذا – أشار بيده إلى ما يعلو الطاولة بمقدار فتر – وكنت أشدها من أذانها إذا تشيطنت، وأضربها على المكان الذي تنبت منه الساقان، وكنت... أصيد لها الزيزان... ولكن... مالك لا تذهبين! هيا اذهبي أيتها المومياء المصرية، يا حطام القرون الماضية! هيا!.. وليسبق رأسك قدميك!

بيد أن العجوز لم تكن على عجل، دارت حول نفسها، وتوجهت ببطء شديد صوب الباب دون أن تكف عن شزر لوبكا بنظرة حادة ماكرة، وكانت في الوقت نفسه تدمدم بفمها الغائر: - ابنة عمه! نعرفهن بنات العم هؤلاء! كثيرات منهن يتجولن في شارع كاشتانوفا. يالهؤلاء القرود الذين لا يشبعون!..

---

[1] لوبا، ولوبكا، ولوبوتشكا الخ... تصغير اسم : لوبوف.

صاح بها ليخونين : - هيا أيتها الرّمة العفنة! أسرعي وكفّي عن التذمر! وإلاَّ فإنني سأفعل ما فعله صديقك الطالب ترياسوف وسأحبسك في المرحاض أربعاً وعشرين ساعة!
ذهبت الكساندرا، وظل الممر مدة طويلة يردد بعد ذهابها خفق خطاها العجائزية، ودمدمتها التي لا تُفهم. كانت ميّالة بطيبتها الحازمة المتذمرة إلى أن تصفح عن كثير مما كان يقترفه هؤلاء الطلاب الشباب الذين قضت في خدمتهم زهاء أربعين سنة، كانت تصفح عن سكرهم ولعبهم بالورق، ومشاداتهم الصاخبة، وغنائهم بصوت عال، وديونهم، ولكنها، أواه، كانت عانساً؛ وكان الأمر الوحيد الذي لا تحتمله نفسها العفيفة هو الفجور.
قال ليخونين وهو يحوم قرب الطاولة العرجاء ويغير أماكن أواني الشاي دونما حاجة إلى ذلك:
- ياللروعة... شيء ظريف ولطيف،من مدة طويلة لم أنعم، أنا التمساح العجوز، بشرب الشاي كما ينبغي، على الطريقة المسيحية، في جو عائلي. اجلسي يالوبا، اجلسي يا عزيزتي، هنا على المقعد، وتصرفي كربّة منزل. أنت، على الأرجح ، لا تشربين فودكا صباحاً، أما أنا فسأشرب إذا سمحت... فهذا ينشط الأعصاب على الفور. من فضلك أريد الشاي ثقيلاً ومع قطعة ليمون، أوه، أي شيء يمكن أن يكون ألذ من كأس شاي ساخن تصبّه لك يدان أنثويتان؟
وفيما كانت لوبكا تستمع إلى ثرثرته التي كان يمكن أن تبدو طبيعية تماماً لولا بعض المبالغة في صخبها، كانت ابتسامتها التي اتسمت بالريبة والحذر في البداية ما تنفك ترق وتزداد إشراقاً. إلاَّ أن إعداد الشاي لم يتيسر لها كما ينبغي، ففي بيت عائلتها في قريتها المنعزلة

حيث لا يزال هذا المشروب يُعتبر من النوادر تقريباً، ويُنظر إليه على أنه ترف تتلذذ به الأسر الموسرة، ولا يُغلى إلاَّ عند قدوم ضيوف مكرمين أجلاء، وفـي الأعياد الكبيرة – كان أكبر أفراد العائلة سناً هو الذي يتولى القيام بطقس صب الشاي فـي الكؤوس. وفيما بعد، عندما استقرت لوبكا فـي بلدة صغيرة، وعملت خادمة «تقول بكل شيء»، عند قسّيس فـي البداية، ومن ثم عند وكيل شركة تأمين، وهو أول من دفعها إلى سلوك طريق الدعارة، كانت ربة المنزل نفسها، سواء زوجة القسيس النحيلة النزقة اللئيمة، أو زوجة الوكيل العجوز السمينة، المترهلة، الشريرة، القذرة، الغيورة، البخيلة، تترك لها عادة كأس شاي خفيف، مذق، فاتر قليلاً، مع بقية من قطعة سكر مقضومة، ولذا فإن عملية إعداد الشاي البسيطة كانت بالنسبة إليها الآن لا تقل صعوبة عن التمييز بين اليد ا ليسرى واليد اليمنى أو عن عقد الحبل على شكل أنشوطة بالنسبة إلينا جميعاً عندما كنا صغاراً. وكان ليخونين بحركته الدائبة يشوش عليها ويزيد من ارتباكها.

- عزيزتي، إن فن غلي الشاي فن عظيم، ويجب تعلمه فـي موسكو . فـي البداية نسخن الإبريق الجاف قليلاً، ثم نضع فيه أوراق الشاي ونصب فوقها بسرعة ماءً غالياً، ونسكب هذا الماء على الفور فـي طست غسيل الكؤوس، و هذه العملية تجعل الشاي أنظف وأذكى رائحة. و من المعروف، بالمناسبة، أن الصينيين وثنيون، ويُعدّون أعشابهم بطريقة قذرة جداً، بعد ذلك نملأ ربع الإبريق بماءٍ غالٍ، ونضعه على صينية، ونغطيه بفوطة، ونتركه هكذا مدة ثلاث دقائق ونصف، ثم نملؤه حتى الحافة، تقريباً بماءٍ غالٍ، ونغطية ثانية، ونتركه قليلاً ليختمر، وعند ذلك سيكون لديك يا عزيزتي شراب ربانيك عَطِر ومنعش ومقو.

وجه لوبكا غير الجميل ولكن الجذاب والمبرقش كله بالنمش كبيضة الوقواف استطال قليلاً وامتقع لونه.

- كرمى للرب لا تغضب مني... أعتقد اسمك فاسيل فاسيليتش؟ لا تغضب يا حبوبي فاسيل فاسيليتش.. أنا، أؤكد لك، سأتعلم سريعاً، أنا شاطرة. ثم لماذا مازلت حتى الآن تخاطبني بصيغة الاحترام الرسمية؟ أظن أننا لم نعد غريبين؟..

رمقته بنظرة حنان. وفي الحقيقة فإنها في هذا الصباح، لأول مرة في حياتها غير الطويلة والمشوهة، تمنح الرجل جسدها طوعاً، وإن بدون لذة، بل على الأرجح بدافع الامتنان والشفقة. ولكنها، على كل حال، لم تفعل ذلك لقاء المال، أو بالإكراه، أو خوفاً من المحاسبة، أو تجنباً لإثارة الفضائح؛ وكان قلبها الأنثوي، هذا القلب الذي لم يذبل قط، والذي ما انفك يصبو دائماً إلى الحب كما عباد الشمس إلى النور، كان الآن نقياً ومفعماً بالحنان.

بيد أن ليخونين شعر بغتة بحرجٍ خَجِلٍ شائك وشعور ما عدائي تجاه هذه المرأة التي لم يكن حتى البارحة يعرفها، وقد أصبحت الآن عشيقته بالمصادفة، فكر على غير إرادة منه: «بدأت الآن مباهج الحياة العائلية»، ولكنه مالبث أن نهض عن الكرسي، ودنا من لوبكا، وأمسك بيدها، وجذبها نحوه، ومسح رأسها براحة كفه، وقال بتأثر زائف:

- عزيز تي، أختي الغالية، ماحدث اليوم يجب أن لا يتكرر أبداً، وأنا وحدي المذنب فـي كل شيء، وإذا أردت، أنا مستعد لأن أ ركع أمامك وأطلب الصفح. افهمي أرجوك، افهمي: إن كل هذا قد حدث دون إرادة مني، بشكل ما عفوي، فجأة على نحو مبا غت، أنا نفسي لم أكن أتوقع أن يحدث هذا!.. هل تفهمين؟ أنا من مدة طويلة جداً... لم أعرف امرأة عن قرب... لقد استيقظ فـي داخلي وحش، وحش كريه جامح... و... ولم أستطع الصمود... ولكن، يا الهي! هل ذنبي كبير إلـى هـذا الحـد؟ إن القديسـين، والنسّـاك، والزهّـاد، والرهبـان المتقشفين، والعُبّاد المعتكفين على الأعمدة وفـي الصحراء، وشهداء العقيدة – وشتّان مابيني وبينهم من حيث قوة الروح -، حتى هؤلاء سقطوا فـي الصراع مع وسوسة شيطان الجسد، ولكن مع هذا فإنني أقسم لك بما تريدين، على أن هذا لن يتكرر بعد الآن.. أليس كذلك؟
نترت لوبكا يدها من يده بعناد، وتبرطمت شفتاها قليلاً، وأخذ جفناها المسـبلان يرفـان بسـرعة، وقالـت بصـوت ممطـوط، كطفـل عنيـد يرفض الإذعان:
- نعم.. أرى إنني لا أعجبك، وماذا فـي الأمر؟ من الأفضل أن تقول لي هذا بصراحة، وتعطيني بعض النقود لأكتري عربة، و.... المبلغ ا لذي تراه مناسباً.. أما أجحر الليلة فهو مدفوع سلفاً... لم يبق إلاَّ أن أصل... إلى هناك.
أمسك ليخونين بشعر رأسه، واندفع يجول فـي الغرفة جيئة وذهاباً ويصيح بلهجة خطابية:

- أوه، لـيس هكـذا، لـيس هكـذا، لـيس هكـذا! افهمينـي يـا لوبكـا! الاستمرار فيما حدث صباحاً هو... هو خنزرة، حيوانية، ولا يليق بالإنسان الذي يحترم نفسه، الحب! الحب: هو الاندماج الكامل بين العقل والأفكار والأرواح، والاهتمامات، وليس بين الأجساد فقط، الحب: شعور طاغٍ، عظيم، جبار كالعالم، وليس مجرد تمرغ على السرير. ومثل هذا الحب لا وجود له بيننا يا لوبوتشكا، وإذا أتى فإننا ، أنـا وأنـت، سـننعم بسـعادة أسـطورية، أمـا الآن فـإنني صـديقك، ورفيقك المخلص على درب الحياة. وكفى... انتهينا... وأنا، مع أنني غير منزه عن الضعف الإنساني، لكني أعتبر نفسي إنساناً شريفاً.

بـدا الـذبول علـى لوبكـا، وفكـرت بأسـى: «يظـن أننـي أريـده أن يتزوجني، وأنا لست بحاجة إلى هذا بالمرة، يمكنني العيش هكذا، هاهن الأخريات يعشـن فـي كفالـة الرجال، ويقلـن إن هذا أفضـل بكثير من الطواف حول منضدة المقدسات[1]. وماهو السيء فـي هذا؟ حيـاة آمنـة، هادئـة، نبيلـة... سـأرفوله جواربـه، وأمسـح الأرض، وأطبخ له... الطبخات البسيطة طبعاً، يوماً ما سيأتي نصيبه ويتزوج امرأة غنية. ومن المؤكد أنه لن يلقي بي فـي الشارع هكذا، كما ولدتني أمي، ومع أنه أحمق بعض الشيء، ويثرثر كثيراً، لكن من الواضح أنه إنسان شهم، وسيؤمن لي مايعيلني. وربما أَلفني بالفعل، واعتاد الحياة معي؟ فأنا فتاة بسيطة، متواضعة، ولا يمكن أبداً أن أقدم على الخيانة. يقولون إن هذا يمكن أن يحدث... ولكن يجب ألاَّ أظهر له شيئاً، أما أنه سيأتي إليَّ ثانية إلى السرير، وسيأتي اليوم بالذات مساءً: فهذا أمر مفروغ منه.».

[1] كناية عن الزواج الشرعي فـــي الكنيسة.

كان سوليوفيوف، وهو شاب طويل القامة مكتنز الجسم بعض الشيء، ذو وجه عريض متورد كوجوه أهالي الفولغا، ولحية صغيرة جعدة فاتحة اللون، واحداً من أولئك الشبان الطيبين المرحين البسطاء الذين نصادفهم بأعداد لا يستهان بها في أية جامعة. وكان قد وزع أوقات فراغه – وأوقات الفراغ لديه أربع وعشرون ساعة في اليوم – بين حانة البيرة والتسكع في البولفارات، وبين البلياردو وورق اللعب والمسرح، ومطالعة الصحف والروايات، ومشاهد الصراع في السيرك. أما الفترات القصيرة التي بين هذا وذاك فكان يقضيها في الأكل والنوم وإصلاح هندامه منزلياً بواسطة الخيطان، والكرتون، والدبابيس، والدبر، وفي ممارسة أقصر أشكال الحب وأكثرها واقعية مع امرأة يصادفها عرضاً في المطبخ، أو المدخل، أو الشارع. وهو، شأنه شأن شبان وسطه كافة، كان يعتبر نفسه ثورياً، على الرغم من أنه كان يستثقل النقاشات والخلافات والوخزات السياسية، ولا يطيق مطالعة الكراريس والمجلات الثورية، ويكاد يكون في واقع الأمر جاهلاً تماماً، لذا فإنه لم يحظ حتى بأدنى مرتبة من المراتب الحزبية على الرغم من أنهم كانوا يوكلون إليه أحياناً تنفيذ بعض المهام المحفوفة بخطر أكيد دون أن يوضحوا له مغزاها. وليس عن عبث كانوا يعتمدون على نقاء ضميره وصلابته: فقد كان ينفذ مايوكل إليه بسرعة ودقة، وبإيمان جريء بالأهمية العالمية للقضية، ينفذه بابتسامة لا مبالية واستهانة بالغة بخطر الهلاك المحتمل، كان يخبئ الرفاق السريين، ويحفظ لديه المطبوعات الممنوعة وحروف الطباعة، ويتسلم ويسلم جوازات سفر ونقوداً، كان يتمتع بقوة جسدية كبيرة ويتسم بسماحة نفس فطرية وسلامة طوية عفوية،

ولم يكن يندر أن يتسلم من بيت العائلة من بقعة ما في أقاصي مقاطعة سيمبيرسك أو أوفا، مبالغمالية كبيرة بالنسبة إلى طالب، ولكنه كان خلال يومين يبددها ويوزعها هنا وهناك بلا مبالاة نبيل فرنسي من القرن السابع عشر، ولا يبقى لديه هو نفسه ما يرتديه شتاءً سوى سترة واحدة، وجزمة يرممها بوسائله الخاصة.
وعلاوة على كل هذه الصفات الساذجة، المؤثرة، المضحكة، السامية، الفوضوية التي يتسم بها الطالب الروسي القديم المغادر قريباً إلى عالم الذكريات التاريخية – والله أعلم هل هذا خير أم لا؟.
– كان صاحبنا يحوز على ملكة مدهشة أخرى وهي «خلق» النقود «خلقاً» وتدبير شؤون الاقتراض في المقاصف الصغيرة، والمطاعم المتواضعة، وكان على معرفة وثيقة جداً بجميع مستخدمي مؤسسات الرهن، وصناديق التسليف، والمرابين السريين والعلنيين، والمتاجرين بالأشياء المستعملة.
وإذا ما حالت أسباب ما دون اللجوء إليهم لم يكن سولوفيوف يفقد القدرة على البقاء في قمة مراتب الفطنة وسرعة الخاطر. فأحياناً، فيما يكون سائراً في مقدمة زمرة من أصدقائه المعوزين وقد ضاق صدره بمسؤوليته العملية المعهودة، تشرق نفسه بغتة بإلهام داخلي، فيشير من بعيد، عبر الشارع، بإيماءة سرية، إلى تتري عابر يحمل صرته على ظهره، ويغيب معه خلف أقرب بوابة بضع ثوان، ولا يلبث أني عود بسرعة دون سترته، وليس عليه سوى قميصه المسدل فوق بنطاله، وقد تمنطق فوقه بشريط رفيع، أو يعود في الشتاء دون معطفه، مكتفياً بطقمه الخفيف، أو مستبدلاً بسدارته الرسمية الجديدة التي اشتراها حديثاً قلنسوةَ جوكي صغيرةً جداً تستقر على رأسه بأعجوبة.

الجميع كانوا يحبونه: رفاقه، والخدم، والنساء، والأطفال. والجميع كانوا يتعاملون معه دون كلفة، وكان أصحابه ا لتتر يكنون له مودة خاصة ويرون فيه، على مايبدو، بعض صفات الأشخاص «المبروكين». أحياناً في الصيف كانوا يهدون إليه حليبَ خيلٍ قوياً مسكراً في زجاجات رباعية[1] كبيرة، وكانوا يدعونه في الأعياد إلى ولائم يقدمون فيها لحمَ مهرٍ رضيع. ومهما بدا الأمر بعيداً عن التصديق فإن سولوفيوف كان في اللحظات الحرجة يأتمن التتر على بعض الكتب والكراريس، ويقول لهم وهو يسلمهم إياها متظاهراً بالبساطة المتناهية، وموحياً بأهمية الأمر: «هذا الذي أعطيك إياه متظاهراً بالبساطة المتناهية، وموحياً بأهمية الأمر: «هذا الذي أعطيك إياه – هو الكتاب الأعظم، إنه يقول: الله أكبر ومحمد رسوله، وإن في الدنيا كثيراً من الشر والفقر، وإن الناس يجب أن يكونوا رحماء وعادلين فيما بينهم».

وكان إلى ذلك يتميز بسمتين أخريين: هما حسن الإلقاء عند القراءة، ولعب الشطرنج بمهارة مدهشة تبلغ حد العبقرية، وتجعله يتغلب، وهو يمزح، على لاعبي الدرجة الأولى، كان هجومه على الدوام عنيفاً وكاسحاً، ودفاعه حكيماً وحذراً، وأكثره في الاتجاه الالتفافي. وكانت تنازلاته للخصم تنطوي على حسابات دقيقة بعيدة النظر، وكان في أثناء تنقيل أحجاره على الرقعة كأنه يتبع ما توحي به إليه غريزة ما خاصة أو إلهام داخلي، فهو لا يفكر أكثر من أربع أو خمس ثوان، ويستهين دون تردد بما تقضي به التقاليد الموقرة.

---

[1] الرباعي: ما سعته ربعية، وهي مكيال قديم يساوي ثلاثة ليترات.

وكـان الآخـرون يلعبـون معـه علـى مضـض، لأنهـم يعتبـرون أن طريقته فـي اللعب حوشية، ولكنهم أحياناً كانوا يلعبون معه على مبالغ ضخمة، فيربحها حتماً، ويضحي بها عن طيب خاطر على مذبح تلبية حاجات الرفاق: إلاَّ أنه كان يرفض دائماً الاشتراك فـي المبـاراة التـي مـن شـأنها أن ترفعـه إلـى مرتبـة النجـوم فــي عـالم الشـطرنج. كـان يقـول: إننــي بطبيعتــي لا أحـب هـذه السـخافة ولا أحترمها، كل ما في الأمر أن ذهني يتمتع بقدرة ما ميكانيكية، وأن لدي شذوذاً نفسياً ما، كما هو الأمر لدى العُسر، ولذلك ليس لدي الشعور بالغيرة الحِرْفية، أو بالاعتزاز عند الفوز، وبالمرارة عند الخسارة.

هكذا كان الطالب المخضرم سولوفيوف؛ وكان نيجيرادزه أقرب زملائه إليه، إلاَّ أن هذا لم يكن يمنع من أن يتهكم كل منهما على الآخر، ويجادله ويشتمه من الصباح حتى المساء، ولم يكن يعلم إلاَّ الله كيف وعلام كان يعيش الأمير الجورجي. وكان هو يقول عن نفسه إنه يتمتع بقدرة الجمل على اختزان الغذاء لعدة أسابيع قادمة، وعلى البقاء بعد ذلك شهراً كاملاً دون طعام. ولم يكن يصله من بيت أهله فـي وطنه المبارك جورجيا سوى القليل، وأكثر ما يصله مـن هنــاك كــان مــن الموادالغذائيــة، وكــانوا يرســلون إليــه فـــي عيدالميلاد، والفصح، وعيد شفيعه (فـي آب) مع أحد القادمين من أبناء جلدته حصراً أحمالاً كاملة من السلال الملأى بلحم الضأن، والعنب، والفستق، والمرتديلا، والمشمش الهندي المجفف، وراحة الحلقوم، والباذنجان، والخبز اللذيذ جداً، ويرسلون إليه أيضاً زقاقاً ملأى بنبيذ بيتي ممتاز؛ قوي المفعول، وذي رائحة ذكية

إلاَّ أنه مشوب بعض الشيء برائحة فروة الضأن، عندئذٍ كان الأمير يدعو إلى مسكن أحد رفاقه (إذ لم يكن لديه شقة خاصة به قط) جميع أصدقائه وأبناء وطنه المقربين، ويقيم مأدبة باذخة – يسميها القفقاسيون «توي» - تباد فيها خيرات جورجيا الخصبة حتى آخر ذرة، وينشدون فيها الأغاني الجورجية، وفي مقدمتها، بالطبع، «مرافول - جامييم»[1]، و«كل ضيف يأتينا هبة من عند الله – أياً كان البلد الذي أتى منه» ويرقصون الليزغينكا[2] دون كلال، وهمه يلوحون بسكاكين المائدة في الهواء بوحشية، ويلقي التولومباش[3] (أو ربما يسمونه التامدا؟) أنخابه المرتجلة.وكان المتكلم غالباً هو نيجيرادزه نفسه.

كان متكلماً مفوهاً لا يشق له غبار، ويستطيع إذا ما اشتدت به الحماسة أن ينطق نحو ثلاثمئة كلمة في الدقيقة، وكان أسلوبه يتميز بالعاطفة المشبوبة، والفخامة، والغنى في المجاز، أما لكنته القفقاسية، بما تتميز به من تَسْيينٍ[4] ونطق للحروف الحلقية بطريقة تشبه وقوقة دجاجة الأرض تارة وصياح العقاب تارة أخرى، فإنها لم تكن لتسيء إلى خطبته، بل، بالعكس، كانت تزينها وتُحلّيها على نحو ما غريب وخاص. وأياً كان الموضوع الذي يتحدث عنه فإنه كان دائماً يُتوّج خطبته بمناجاة يتغنى فيها بأروع البلدان، وأخصبها، وأكثرها تقدماً وفروسية

---

[1] «مرافول – جامييم» أو على وجه أدق«مرافال جامبير» أغنية ينشدها الجورجيون على مائدة الشراب ويتمنون فيها طول العمر للضيوف.(الناشر)

[2] الليزغينكا: رقصة يشتهر بها الليزغينيون وهم شعب في داغستان وأذربيجان. (الناشر).

[3] سلطان المائدة.

[4] قلب الشين بعد التاء إلى سين في اللغة الروسية.

وفـي الوقت نفسه أكثرها تعرضاً للظلم –وهي جورجيا، وكان لابد من أن يستشهد بأبيات من قصيدة «إهاب النمر» للشاعر الجورجي روستافيلي، مؤكداً أن هذه القصيدة أعظم بمئة مرة من كل ما كتبه شكسبير، مضافاً إليه هوميروس.
ومع أنه كان يحتد بسرعة إلاَّ أنَّه كان مايلبث أن يهدأ، وكان يعامل الآخـرين بدماثــة أنثويــة، ورقــة ولباقــة دون أن يفـرّط بكبريائــه الفطرية... سمة واحدة فيه لم تكن تعجب رفاقه ي ولعه بالنساء ولعاً مبالغاً فيه إلى حد الشذوذ، كان يؤمن إيماناً لا يتزعزع يصل إلى درجة القداسة، أو إلى درجة الحماقة، بأنه ذو جمال خارق، وأن جميـع الرجـال يحسـدونه وجميـع النسـاء مغرمـات بـه، والأزواج يغـارون منـه... كانـت هـذه «الدونجوانيـة» المغـرورة الملحاحـة لا تفارقه لحظة واحدة حتى فـي أثناء النوم. وكان وهو سائر فـي الشارع لا ينـي يلكز بمرفقه خاصرة ليخونين أو سولوفيوف أو أي مرافق آخر ويقول له وهو يعوج وجهه ويومئ برأسه إلى الخلف مشيراً إلى المرأة التي عبرت بهم: «تسي، تسي، تسي... واي، واي! امـرأة رائعـة! أرأيـت كيـف نظـرت إلـي، سـتكون لـي إن أردتُ!...».
كانوا يعرفـون عيبه المضـحك هذا، ويسخرون بحسـن نيـة ودون مجاملة من هذه السمة التي تلازمه، ولكنهم يصفحون عنه بطيب خاطر كرمى لسجيّتَيْن تتجليان لديه بمنتهى العفوية، هما استعداده المطلـق لخدمـة رفاقـه، وبـرّه بـالوعود التـي يقطعهـا للرجـال (أمـا الأيمان التي يقسمها للنساء فلم تكن تؤخذ بالحسبان). وعلى العموم ينبغي الاعتراف بأنه كان يحظى فعلاً بنجاح كبير لدى النساء. فالخياطــات، وصــانعان الأزيــاء، ومغنيــات الكــورس، والصــبايا العاملات فـي محال الحلويات ومقاسم الهاتف كن يذبن ذوباناً من نظراتـه النفـاذة المصـوبة مـن عينيـه الجـذابتين الفـاترتين الثقيلتـي الوطأة، اللتين تختلط فيهما الزرقة بالسواد...

- تحيتي لهذا البيت ولجميع ساكنيه بصلاحه وأمن ودون دنس...
بدأ سولوفيوف تحيته بأسلوب كبار الشمامسة، ثم أرتج عليه فجأة، ولكنه ما لبث أن عاد يتمتم بدهشة محاولاً إكمال مزحته غير الموفقة: - أيها الآباء القديسيون، إن هذه... هذه طبعاً، آه، ياللشيطان، هذه سونيا، لا، آسف، إنها ناديا... نعم، نعم، هذه لوبا من محل آنا ماركوفنا.
تضرجت لوبا بالحمرة حتى السخونة، حتى انبثاق الدموع، وغطت وجهها براحتيها. لاحظ ليخونين هذا، وأدرك ما أصاب الفتاة، وأحس بارتباكها الداخلي، فسارع إلى نجدتها، قال مقاطعاً سولوفيوف بصرامة تكاد تبلغ حد الفظاظة:
- بالضبط هكذا، يا سولوفيوف. كما في سجل العناوين. لوبا من حي «الحفرة» . في السابق مومس. بل أكثر من ذلك: بالأمس فقد كنت مومساً، واليوم هي صديقتي وأختي، وهكذا يجب أن ينظر إليها كل من يُكِنُّ لي ولو بعض الاحترام. وإلاَّ... خف سولوفيوف الجسيم إلى ليخونين، وعانقه بود صادق، وشده إلى صدره بقوة:
- ايه، يا عزيزي، ايه، كفى... لقد تسرعتُ وارتكبتُ حماقة. لن يتكرر هذا ثانية. مرحباً يا أختي الشاحبة الوجه – مد يده على مداها عبر الطاولة نحو لوبكا وضغط أصابعها الصغيرة القصيرة الواهنة ذات الأظافر الدقيقة المقضومة – رائع أنك أتيت إلى كوخنا المتواضع، هذا ينعشنا ويغرس في وسطنا الأخلاق الهادئة المحتشمة. الكساندرا! أحضري لنا بيرة – صاح بصوتٍ عالٍ – من هنا توحشنا، قست طباعنا، انغمسنا في البذاءة، والسكر والكسل، والرذائل الأخرى. وكل هذا لأننا كنا محرومين من تأثير المجتمع الأنثوي الذي يهذب النفس ويشيع فيها السكينة. مرة أخرى أشد على يدك. يدك الصغيرة اللطيفة. بيرة!

- آتية – علا صوت الكساندرا المستاء خلف الباب – ها أنا آتية. لماذا تصرخ؟ كم شخصاً؟

خرج سولوفيوف إلى الممر ليتفاهم معها. شيعه ليخونين بابتسامة شكر، وربَّتَ الجورجي بطيبة ظهرَه بين اللوحين و هو مار به. لقد أدرك كلاهما وقدّرا لباقة سولوفيوف المتأخرة الخشنة بعض الشيء.

- والآن - قال سولوفيوف عندما عاد إلى الغرفة وجلس بحذر على الكرسي الخشبي – والآن لنباشر جدول أعمال اليوم. هل يمكنني أن أفيدكم بشيء؟ إذا أمهلتموني نصف ساعة ذهبت بسرعة إلى المقهى، وشلّحت من أجلكم أحسن لاعب شطرنج هناك. باختصار: أنا تحت تصرفكم.

- يالك من مضحك – قالت لوبكا باستحياء و هي تضحك.

لم تكن تفهم أسلوب المزاح غير المألوف الذي يتحدث به الطالب، ولكن شيئاً ما جذب قلبها البسيط نحوه.

قال ليخونين :- هذا لا لزوم له بالمرة، أنا حتى الآن مازلت فاحش الغنى، اقترح أن نذهب كلنا إلى حانة ما، إنني بحاجة إلى أن أستشيركما في أمر ما، فأنتما أقرب الناس إلي، ولستما بالطبع غبيين وقليلي الخبرة إلى الدرجة التي تبدوان بها أول وهلة، وبعد ذلك سأذهب وأحاول أن أدبر أمر... هويتها... هوية لوبا الشخصية. وأنتم ستنتظرونني. لن يستغرق الأمر طويلاً... باختصار أنتما تفهمان جوهر القضية، ولن تبدأ بنثر نكات لا لزوم لها. أنا – وهنا ارتعش صوته ارتعاشة عاطفية زائفة – أريدكما أن تأخذا على عاتقكما جزءاً من الهم الذي يشغلني. ماشي؟

- ايوه! ماشي – صاح الأمير (قالها بلكنة تجعل السامع يظنها «أبله»[1]). ولسبب ما نظر إلى لوبكا نظرة ذات معنى، وفتل شاربيه، فحدجه ليخونين شزراً، أما سولوفيوف فقال بطيبة قلب:
- معقول، أنت أقدمت على أمر كبير ورائع يا ليخونين، لقد حدثني الأمير عنه ليلاً. ماذا في ذلك، و هل الشاب إلاَّ للقيام بمثل هذه الحماقات المقدسة. ناوليني الزجاجة يا الكساندرا، أنا سأفتحها لئلا تجهدي نفسك فينقطع لك عرق.
نخب الحياة الجديدة يا لوبوتشكا، آسف... يا لوبوف... لوبوف[2]...
- نيكونوفنا. ولكن نادني كما قلت: لوبا..
- نعم طبعاً، لوبا، بصحتك أيها الأمير.
- بصحتك – رد نيجيرادزه وقرع كأسه بكأس صديقه.
ومضى سولوفيوف يقول بعد أن وضع كأسه ولحس شاربيه:
- وأريد أن أقول أيضاً إنني مسرور جداً من أجلك يا صديقي ليخونين. مسرور وأحني رأسي أمامك. فأنت بالذات الوحيد القادر على القيام بمثل هذه البطولة الروسية الحقيقية، وعلى تجسيدها ببساطة وتواضع، بدون أية كلمات زائدة. قال ليخونين مقطباً مابين حاجبيه: - دعك من هذا... أية بطولة هذه!..

---

[1] تلفظ «ماشي» بالروسية: إيديوت و«أبله» إيدي يوت.

[2] لوبوف صيغة الاسم الأصلية وتستعمل في مقام الاحترام وعدم رفع الكلفة. أما لوبكا ولوبوتشكا الخ... فهي صيغ تصغير تستعمل للتحبب وعند التبسط ورفع الكلفة، والصيغة الأصلية تستعمل عادة مع الكنية المشتقة من اسم الأب وكان سولوفيوف ينتظر أن تخبره لوبكا بها. (المترجم).

.
وأكد نيجيرادزه : - بالفعل، دائماً تلومني لأذني أثرثر كثيراً، بينما أنت نفسك تهذر كل هذا الهذر.
قال سولوفيوف معترضاً: - لايهم! ربما كان كلامي مزوقاً، ولكن لا يهم! وأنا بصفتي عمدة مشاعتنا المجتمعة في العليّة أعلن لوبا عضواً فخرياً متساوياً في الحقوق مع الجميع.
ثم نهض ومد ذراعيه على سعتهما وقال بلهجة خطابية:
- ادخلي بيتنا بجرأة وحرية وكوني ربَّتَه اللطيفة!
تذكر ليخونين بوضوح أنه قال العبارة نفسها اليوم في الفجر بلهجة تمثيلية، فأغمض عينيه من شدة الخجل:
- كفى تهريجاً. هيا بنا أيها السادة، البسي يا لوبا.
كانت المسافة إلى مطعم «العصافير» لا تتجاوز مئتي خطوة، في الطريق شدت لوبكا ليخونين من كمه خلسة فتأخرا بضع خطوات عن سولوفيوف ونيجيرادزه السائرين في المقدمة. سألته وهي تنظر إليه من أسفل إلى أعلى بعينيها السوداوين اللطيفتين: - إذاً، أنت جاد في هذا يا فاسيل فاسيليتش؟ أنت لا تضحك علي؟
- أي ضحك هذا يا لوبوتشكا! سأكون أخس إنسان في الوجود إذا سمحت لنفسي بأن أضحك في مثل هذه الأمور. أكرر لك إنني بالنسبة إليك أكثر من صديق، إنني أخ لك ورفيق. ولن نعود إلى الحديث عن هذا بعد الآن، أما ما حدث اليوم صباحاً، فاطمئني إلى أنه لن يتكرر. واليوم بالذات سأجد لك غرفة منفردة.

تنهدت لوبكا، إنها لم تمتعض من القرار العفيف الذي اتخذه ليخونين، فإيمانها بصدق هذا القرار كان في الحقيقة ضعيفاً. لكن عقلها الضيق المظلم لم يكن بمقدوره أن يتصور ولو نظرياً أية علاقة بين الرجل والمرأة سوى العلاقة الجسدية. كما عاودها رجع ذاك الشعور القديم بالاستياء الذي يستولي على الأنثى المرفوضة أو التي يفضلون غيرها عليها؛ الشعور الذي تأصل لديها بقوة في محل آنا ماركوفنا في إطار المنافسة المتبجحة، وقد تجلى لديها الآن على شكل استياء مكبوت، لكنه صادق وغاضب. وكانت لسبب مالا تثق كثيراً بصدق ليخونين ، وتحس إحساساً لا واعياً بكثير من التصنع وقلة الإخلاص في كلماته. أما سولوفيوف، فعلى الرغم من أنه كان يقول كلاماً غير مفهوم، شأنه شأن أكثرية الطلاب الذين تعرفهم عندما يتمازحون فيما بينهم، أو يمزحون مع البنات في الصالة العامة (أما وهم على انفراد في الغرفة فكلهم دون استثناء رجال، وكلهم يقولون ويفعلون الشيء ذاته)، فقد كانت ستصدقه بسرعة ويسر، ثمة بساطة ماكانت تشع من عينيه الرماديتين المتباعدتين المرحتين البراقتين.

في مطعم «العصافير» كان ليخونين يحظى بالاحترام لرصانته، ودماثة طبعه، ودقته في الشؤون المالية، لذا فقد أفردوا له على الفور غرفة صغيرة خاصة؛ وهذا شرف لا تستطيع سوى قلة قليلة من الطلاب أن تتباهى به. كان مصباح الغاز يظل مُضاءً طوال النهار في هذه الغرفة لأن النور لا يصل إليها سوى من شريحة ضيقة في أسفل نافذة يقطعها السقف، ولا يرى المرء منها سوى جزمات المارين على الرصيف وأحذيتهم ومظلاتهم ومحاجنهم.

وقد اضطرت المجموعة إلى أن تضم إليها طالباً آخر يدعى سيمانوفسكي التقته عند المشجب. فكرت لوبكا: «ما هذا! كأنه يقودني ليعرضني على الناس، ولعله يتباهى بهذا أمامهم»، وما إن سنحت لها فرصة مناسبة حتى همست لليخونين وهو ينحني نحوها:
- حبيبي، لم كل هؤلاء الناس الكثر؟! أنا خجولة جداً كما تعرف، ولا أستطيع مجاراة المجموعة.
- لا عليك، لا عليك، يا عزيزتي لوبوتشكا – همس ليخونين بسرعة متوقفاً في مدخل الغرفة – لا عليك يا أختي، كل هؤلاء من جماعتنا، رفاق جيدون وطيبون. سيساعدونك، سيساعدوننا معاً، لا تلقي بالاً إلى أنهم أحياناً يمزحون ويختلقون قصصاً سخيفة؛ فقلوبهم من ذهب..
- ولكنني أشعر بحرج شديد، وأخجل. فكلهم يعرفون من أين أخذتني.
- لا عليك، لا عليك! فليعرفوا – اعترض ليخونين بحرارة – ما الداعي للخجل من الماضي وتجاهله؟ بعد سنة ستنظرين بجرأة في عيني كل إنسان مباشرة وتقولين: «من لا يقع لا ينهض». هيا بنا، هيا يالوبوتشكا!
وفيما كانوا يقدمون لهم بعض المقبلات البسيطة ويوصون على الطعام كان الجميع، ماعدا سيمانوفسكي، يشعرون بالحرج، وكأنهم مقيدون، وكان سبب ذلك يعود جزئياً إلى وجود سيمانوفسكي بالذات، وسيمانوفسكي هذا شاب حليق الذقن، يضع «بينسنيه»، ذو شعر طويل، ورأس مائل إلى الخلف بكبرياء، وشفتين ضيقتين زاويتاهما مرخيتان إلى أسفل، ويطل منهما تعبير ينم على الاحتقار، لم يكن له بين الرفاق أصدقاء مقربون حميمون،

بيد أن آراءه وأحكامه كانت ذات نفوذ كبير بينهم، ولكن لا أحد على الأرجح كان يستطيع أن يحدد مصدر هذا النفوذ الذي يتمتع به: أهو من مظهره الذي يدل على الثقة بالنفس، أم من قدرته على أن يميز ذاك الشيء المبعثر والغامض الذي تبحث عنه الأكثرية على غير هدى وتصبو إليه، فيلتقطه هو ويعبر عنه بكلمات عامة شاملة، أم لأنه كان دائماً يحتفظ باستنتاجاته ليعلنها فـي اللحظة المناسبة تماماً.
ثمة كثيرون من أمثال هؤلاء الأشخاص فـي كل مجتمع: بعضهم يؤثر فـي المحيطين به بالسفسطة، وبعضهم بثبات القناعات ثباتاً راسخاً لا يتزعزع، وبعضهم بالتشدق والصوت العالي، وبعضهم بالسخرية الخبيثة، وبعضهم بمجرد الصمت الذي يوهم الآخرين بأن وراءه فكراً عميقاً، وبعضهم بسعة الاطلاع الكلامية الظاهرية الرنانة، وآخرون بالتهكم اللاذع بكل ما يقال... وكثيرون بالكلمة الروسية المرعبة «سخافة!» ، إنهم يقولون: «سخافة!» بلهجة احتقار تعليقاً على كلمة حارة مخلصة، وربما صادقة، ولكنه ملفوظة بارتباك. وإذا سألتهم: «ولماذا سخافة؟»، يجيبونك وهم يهزون أكتافهم وكأنهم يضربونك بحجر على رأسك: «لأنه هُراء وهَذَر». وثمة أصناف أخرى كثيرة من أمثال هؤلاء الناس الذين يفرضون سيطرتهم على الأشخاص الهيّابين الخجولين المتواضعين بنبل، بل غالباً ما يفرضون سيطرتهم حتى على بعض ذوي العقول الكبيرة، وسيمانوفسكي واحد من هواة السيطرة هؤلاء.
فـي منتصف الغداء انحلت عقدة ألسنة الجميع ما عدا لوبكا التي ظلت لائذة بالصمت لا تجيب إلاّ بـ«نعم» و«لا»، ولاتكاد تقرب الطعام، وكان ليخونين وسولوفيوف ونيجيرادزه يتكلمون أكثر من البقية. الأول كان يتكلم بنبرة حاسمة وعملية محاولاً أن يخفي وراء كلمات الاهتمام شيئاً ما حقيقياً جوّانياً، شائكاً ومحرجاً. وكان سولوفيوف يتكلم بحماسة صبيانية، ويشير بيديه إشارات واسعة المدى ويخبط الطاولة بقبضته. أما نيجيرادزه فكان حديثه يتسم بشيء من التشكك والتكتم، وكأنه كان يعرف ما الذي ينبغي أن يقال ولكنه يخفيه

وكان يبدو، على العموم، أن مصير الفتاة الغريب قد شغل خواطر الجميع، وأثار اهتمامهم، وكان كل منهم، وهو يعبر عن رأيه، يتوجه حتماً، لسبب ما، نحو سيمانوفسكي، أما هو فكان في أكثر الأحيان يلتزم الصمت، ويرمق كلاً منهم من تحت زجاج البينسنية مما يجعله يرفع رأسه عالياً.
- هكذا إذاً – قال أخيراً وهو ينقر الطاولة بأصابعه – إن ما فعله ليخونين رائع وجريء، ومساندة الأمير وسولوفيوف له أمر جيد جداً أيضاً، وأنا من جهتي مستعد لدعم مبادرتكم بقدر ما أستطيع، ولكن أليس من الأحسن أن نسير بصاحبتنا، إذا جاز القول، في طريق ميولها وقدراتها الطبيعية. أخبريني يا عزيزتي – قال مخاطباً لوبكا – ما الشيء الذي تعرفينه، تحسنينه؟ أقصد عملاً ما أو شيئاً من هذا القبيل. أعني: الخياطة مثلاً، أو الحياكة أو التطريز.
- أنا لا أعرف أي شيء – أجابت لوبكا همساً وهي ترخي بصرها إلى أسفل وتضغط أصابعها تحت الطاولة وقد تضرجت كلها بالحمرة - إنني لاأفهم أي شيء مما يجري هنا.
وتدخل ليخونين قائلاً:
- بالفعل، نحن لم نتناول القضية بطريقة صحيحة، فنحن عندما نتحدث عنها بحضورها لا نفعل أكثر من جعلها تشعر بالحرج، انظروا، لقد انعقد لسانها من شدة الارتباك. هيا بنا يالوبا. سأرافقك إلى البيت وأعود أنا إلى هنا بعد عشر دقائق. وسنفكر نحن في الأمر بدونك، ونرى ماذا يجب أن نفعل. جيد؟
- أنا لا فرق عندي، أنا لا شيء لدي – أجابت لوبكا بصوت لا يكاد يسمع – أنا كما تريد أنت، فاسيل فاسيليتش، ولكن لا أريد الذهاب إلى البيت.

- لماذا؟..
- لا أشعر بالراحة وأنا وحدي هناك، من الأحسن أن أنتظرك في البولفار، على المقعد الذي في بدايته بالضبط..
قال ليخونين متذكراً: - آه، نعم!.. هذه الكساندرا أفزعتها إلى هذا الحد. يجب أن أشد لجام هذه العظاءة العجوز. هيا بنا يا لوبوتشكا.
وبعد عدة دقائق عاد الشاب وجلس في مكانه. ساوره إحساس بأنهم تحدثوا عنه في غيابه، فأجال بصره فيهم بقلق، ثم وضع كلتا يديه على الطاولة وبادر إلى القول:
- إنني أعرفكم كلكم أيها السادة كأصدقاء مقربين مخلصين – وهنا رشق سيمانوفسكي بنظرة جانبية سريعة – وكأناس تستجيبون لطالب العون. وأنا أرجوكم من كل قلبي أن تساعدوني، لقد قمت بخطوتي هذه على عجل، وعلي أن أعترف بهذا، ولكنني قمت بها بإخلاص، ونية سليمة صادقة.
- وهذا هو المهم –قال سولوفيوف.
- وأنا لا يهمني على الإطلاق ما سيقوله عني من يعرفني ومن لا يعرفني. ولن أتخلى عن عزمي على إنقاذ – عفواً عن هذه الكلمة الغبية التي أفلتت مني – على تشجيع هذه ا لفتاة ومؤازرتها. أنا قادر، طبعاً، على أن أستأجر لها غرفة رخيصة، وأن أعطيها في الفترة الأولى ما تنفقه على معيشتها، ولكن ماذا بعد ذلك؟! هذا هو ما يجعلني في حيرة من أمري. وليست القضية في النقود طبعاً، إذ يمكنني دائماً أن أدبر لها ما تحتاج إليه، ولكن تقديم الطعام والشراب لها وتركها لا تقوم بأي عمل يعني الحكم عليها بالتكاسل، واللامبالاة، والخمول، ونتيجة ذلك معروفة سلفاً، وعلى هذا فإن المطلوب هو أن نجد لها عملاً تشغل به نفسها. هذا هو الجانب الذي ينبغي إعمال الفكر فيه. ابذلوا جهدكم أيها السادة، وأشيروا علي بشيء ما.

قال سيمانوفسكي: - يجب أن نعرف ماالذي تقدر عليه، لا بد أنها كانت تقوم بعمل ما قبل أن تدخل المحل.
بسط ليخونين يديه وقال وقد بدا عليه اليأس:
- تقريباً لا شيء. كانت تمارس الخياطة قليلاً كأي فتاة ريفية، فهي لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة عندما أغواها أحد الموظفين. تكنس الغرفة، وتغسل، وأعتقد أن بإمكانها أيضاً إعداد حساء الملفوف والعصيدة، ولا شيء أكثر من هذا على ما أظن.
- هذا قليل – قال سيمانوفسكي وطقطق بلسانه.
- وهي إلى هذا أمية.
- هذا كله غير مهم - تدخل سولوفيوف في الحديث بحماسة - لو أننا كنا نتعامل مع فتاة مثقفة، أَوْ، وهو الأسوأ، نصف مثقفة، لكان ما ننوي أن نفعله لن يسفر إلاَّ عن هراء، عن فقاعة صابون، ولكننا الآن أمام تربة بكر، أمام أرض عذراء لم يمسسها أحد بعد.
صهل نيجيرادزه بصوت ذي مغزى خفي:
- هيه... هيه...
فانقض عليه سولوفيوف دون مزاح هذه المرة، وصاح فيه بغضب حقيقي:
- اسمع أيها الأمير!.. إن أية فكرة مقدسة، وأي عمل طيب يمكن تلويثهما وتدنيسهما. وليس في هذا ما يدل على الذكاء أو يستحق الثناء. وإذا كنت ستتخذ مثل هذا الموقف الجلف مما نحن عازمون على فعله فهاهو الباب مفتوح على مصراعيه أَرِنا قفاك!..
اعترض الأمير مرتبكاً: - ولكن أنت نفسك منذ قليل في النزل...
خفف سولوفيوف على الفور من حدته

وقال بهدوء:
- نعم، وأنا أيضاً.... لقد اندفعت بغباء، وأنا نادم على ذلك. أما الآن. أما الآن فإنني أعترف من كل قلبي بأن ليخونين شخص مقدام ورائع، وأنا من جهتي مستعد للقيامب كل ما أستطيع.وأكرر رأيي في أن إزالة الأمية أمر ثانوي، ويمكن تحقيقه بمنتهى السهولة، فتعلم القراءة والكتابة والحساب لمثل هذا العقل البكر، وخاصة بدون مدرسة، بل عن رغبة، هو بسهولة قضم البندقة، أما بالنسبة إلى تعلم حرفة يدوية مايمكن التعيش منها فإن هناك مئات الحرف التي يمكن تعلمها بسهولة خلال أسبوعين.
سأل الأمير: - مثل ماذا؟
- مثل... مثل... يعني مثل صنع أزهار صناعية. أو من الأحسن أن تعمل في محل لبيع الأزهار، عمل لطيف، ونظيف، وجميل.
علّق سيمانوفسكي بلا مبالاة: - هذا يتطلب ذوقاً.
- ليس هناك أذواق فطرية، ولا قدرات فطرية، وإلاَّ لكانت المواهب لا تولد إلاَّ في أوساط مجتمع الصفوة العالي الثقافة، ولكان الفنانون لا يولدون إلاَّ لفنانين، والمغنون لمغنين، ولكننا لا نرى مثل هذا في الواقع. على كل أنا لا أجادل. إذالم يكن صنع الأزهار فليكن أي شيء آخر. لقد شاهدت في الشارع منذ أيام، على سبيل المثال، فتاة تجلس في واجهة محل تجاري وأمامها آلة تُشغّل بالقدم.
قال الأمير وهو يبتسم وينظر إلى ليخونين:
- أوه! آلة مرة ثانية!..
فرد عليه ليخونين بصوت خفيض ولكن صارم:
- كفى يانيجيرادزه، عيب.

وقال له سولوفيوف: ـ أحمق! ـ ثم أردف: ـ وهذه الآلة تتحرك إلى الأمام والخلف، وقد شدت عليها قطعة قماش رقيق ضمن إطار مربع، وفي الحقيقة أنا لا أعرف كيف تعمل هذه الآلة، لم أستطع أن أفهم هذا، إلاَّ أن الفتاة كانت تمرر فوق الشاشة قطعة معدنية فتتشكل عليها رسمة بديعة من حرير مختلف الألوان. تخيلوا بحيرة صفحتها كلها موشاة بالنيلوفر بتويجاته البيضاء، وأَسديته الصفراء، وتحفُّ بها أوراق خضراء كبيرة، وتسبح في الماء تمّتان بيضاوان إحداهما باتجاه الأخرى، وفي الخلفية حديقة معتمة فيها ممشىً مشجر، وكل هذا مرسوم بدقة ووضوح كما لو كان لوحة بالألوان المائية، وقد أثارت هذه الآلة اهتمامي إلى درجة أنني دخلت وسألت عن سعرها، وإذا به لا يزيد على سعر آلة الخياطة العادية إلاَّ قليلاً، وهي تباع بالتقسيط. ويمكن لأي شخص يعرف ولو قليلاً كيف يعمل على آلة الخياطة أن يتعلم هذا الفن خلال ساعة واحدة فقط. وهناك كثير من النماذج الأصلية البديعة. والشيء الأهم هو أن هذه الأعمال تلاقي إقبالاً شديداً عليها من أجل إعدادات الشاشات، والألبومات، واللمبديرات، والستائر، وغير ذلك من التفاهات، ويدفعون لقاءها مبالغ محترمة.

قال ليخونين موافقاً وهو يمسد لحيته مستغرقاً في التفكير:

ـ ولم لا، فكرة لا بأس بها أيضاً، أنا في الحقيقة كنت أفكر في أمر آخر. كنت أريد أن أفتح لها... أن أفتح مطعماً متواضعاً، في البداية سيكون صغيراً جداً بالطبع، على أن يكون كل ما يُقَدَّم فيه رخيصاً جداً ونظيفاً ولذيذاً، فكثير من الطلاب لا فرق لديهم على الإطلاق أين وماذا يأكلون! وفي المطعم الطلابي الأماكن دائماً تقريباً غير كافية، وهذا يمكن أن يتيح لنا إمكانية جذب جميع معارفنا وأصحابنا.

قال الأمير موافقاً: ـ هذا صحيح، نعم... ولكنه غير عملي: سنبدأ الأكل بالدين، وأنت تعرف مدى التزامنا بالتسديد، هذا العمل يتطلب شخصاً عملياً وداهية، أما إذا تولته امرأة فيجب أن تكون أسنانها كأسنان القرش، ومع ذلك لابد من أن يقف رجل وراء ظهرها. وطبعاً لن يقف ليخونين ليقبض النقود، ويراقب الذين يأكلون ويشربون ثم ينسلّون فجأة دون أن يدفعوا.

وانبرى سيمانوفسكي يقول بنبرته المتزنة القاطعة، وهو يعبث بزجاج البينسنية: نيّاتكم، أيها السادة، رائعة، لا جدال في ذلك، ولكن هل انتبهتم إلى نقطة يمكن أن نصفها بأنها سلبية؟ إن فتح مطعم، أو تدبير أية مصلحة أخرى يتطلب نقوداً في البداية، يتطلب مساعدة، ظهراً آخر إذا جاز التعبير. النقود لا يؤسف عليها، هذا صحيح، وأنا متفق مع ليخونين في الرأي، ولكن البدء بالحياة العملية على هذا النحو، عندما تكون كل خطوة مضمونة سلفاً، سيؤدي حتماً إلى الاستهتار والتهاون، وفي النهاية إلى عدم الاكتراث بالعمل، وإهماله. فالطفل لا يتعلم المشي إلاَّ بعد أن يقع خمسين مرة. وأنتم إذا كنتم تريدون حقاً مساعدة هذه الفتاة المسكينة عليكم أن تمنحوها إمكانية الوقوف على قدميها منذ البداية كإنسان كادح، لا كيعسوب متطفل، صحيح أنها ستتعرض في هذه الحالة لا متحان عسير، وستعاني مشقة العمل والعوز المؤقت، ولكن بالمقابل إذا هي تغلبت على كل هذا فإنها ستتغلب على الباقي.

سأل سولوفيوف بنبرة تدل على عدم الثقة:

ـ هل معنى هذا أن تعمل، حسب رأيك ، جلاّية صحون؟

فرد عليه سيمانوفسكي بهدوء:
ـ أي نعم، جلاّية صحون، غسالة، طباخة، إن العمل، أياً كان، يسمو بالإنسان.
هز ليخونين رأسه وقال:
ـ كلمات من ذهب. الحكمة نفسها، تنطق بلسانك يا سيمانوفسكي. جلاّية، طباخة، خادمة، مدبرة... ولكن، أولاً: لا أعتقد أنها قادرة على شيء من هذا، وثانياً: هي عملت خادمة مرة وذاقت كل مفاتن صراخ السيد في وجهها بحضور الجميع، وقرصاته خلف الأبواب وفي الممر. ثم ألا تعرف أن تسعين بالمئة من المومسات يأتين من بين الخادمات، وهكذا فإن لوبا المسكينة بمجرد أن تشعر بالظلم أو الإخفاق ستجد أن من الأسهل عليها والأقرب إلى نفسها أن تعود إلى المكان الذي انتزعتُها منه، إذا لم يحدث ماهو أسوأ. إذ إن هذا بالنسبة إليها شيء مألوف وغير مخيف، بل ربما أصبح، بفضل معاملة الأسياد لها، يبدو مرغوباً فيه. وعلاوة على ذلك هل يستحق الأمر مني، أي أنني أريد أن أقول هل يستحق الأمر منا كلنا أن نخلّص إنساناً من نير عبودية ما لنخضعه لنير عبودية أخرى؟
ـ صحيح ـ قال سولوفيوف موكداً.
ـ كما تريدون.
علق سيمانوفسكي من بين أسنانه وقد بدت عليه علائم الاحتقار، وقال الأمير: أما بالنسبة لي فإنني بصفتي صديقك، وكشخص محب للاطلاع، مستعد لأن أشهد هذه التجربة وأساهم فيها، ولكنني كنت قد حذرتك منذ الصباح، وقلت لك إن مثل هذه التجارب قد جرت من قبل وكانت دائماً تنتهي بإخفاق مزرٍ، على الأقل تلك التي نعرفها شخصياً، أما التي نعرفها بالسماع فقط فمشكوك بصحتها، ولكن بما أنك بدأت هذا الأمر يا ليخونين فهيا أكمل، ونحن سنساعدك.

خبط ليخونين الطاولة براحة كف وهتف بعناد:
- لا!.. إن سيمانوفسكي محق إلى حد ما عندما يقول إن هناك خطراً كبيراً على الإنسان إذ أنت وجهت كل خطواته دون أن تدعه يعتمد على نفسه، ولكنني لا أرى سبيلاً آخر، ففي الفترة الأولى سأساعدها بالسكن والطعام... وسأجد لها عملاً غير صعب، وأشتري لها اللوازم الضرورية، ليكن ما يكون! كما أننا سنفعل كل ما بوسعنا لنوسع مداركها العقلية ولو قليلاً، أما قلبها ونفسها فأنا أعتقد أنهما رائعان. ليست لدي أية أسس تبرر هذا الاعتقاد، ولكنني أؤمن بهذا وأكاد أقول إنني أعرفه، نيجيرادزه ! لا تهرج - صاح بحدة وقد امتقع وجهه - لقد تمالكت نفسي عدة مرات عن الرد على تصرفاتك السخيفة. وكنت حتى الآن أعتبرك إنساناً ذا ضمير وإحساس، ولكن الآن أية نكتة أخرى ليست في محلها ستجعلني أغيّر رأيي فيك، وأعلَمْ أن هذا سيدوم إلى آخر العمر.
- ولكن أنا لا أقصد شيئاً... أنا في الحقيقة.. ولِمَ النرفزة يا روحي؟ إذا كان لا يعجبك مزاحي فسألزم الصمت. هات يدك يا ليخونين، لنشرب!..
- طيب، لا بأس، إليك عني، في صحتك! ولكن لا تتصرف كالأطفال أيها الخروف الأوسيتي! لأتابع حديثي أيها السادة. إذا نحن لم نجدأي شيء يتناسب مع الرأي الصائب الذي أبداه سيمانوفسكي حول مزايا العمل الذي لا يعتمد على أي شيء آخر فإنني عندئذٍ سأطبق منهجي أنا، وهو أن أعلّم لوبكا بقدر المستطاع، وأصحبها إلى المسارح والمعارض، والمحاضرات الشعبية، والمتاحف، وأقرأ لها بصوتٍ عالٍ، وأهيء لها إمكانية الأصغاء إلى الموسيقا... المفهومة طبعاً. ومن البدهي أنني لن أستطيع القيام بكل هذا وحدي،إنني أنتظر المساعدة منكم، وبعد ذلك يفعل الرب مايريد.

قال سيمانوفسكي :
- ولم لا! أمر جديد،وليس مبتذلاً، وكيف يعرف المرء مالا يعرفه! وربما تصبح يا ليخونين أباًروحياً حقيقياً لشخص جيد، أنا أيضاً أعرض خدماتي.
- وأنا! وأنا!
قال الاثنان الآخران؛ وفي الحال عكف الطلاب الأربعة، دون أن ينفضوا من حول الطاولة، على وضع برنامج واسع جداً، وغريب جداً، لتعليم لوبكا وتثقيفها.
أخذ سولوفيوف على عاتقه تعليم الفتاة القواعد والكتابة. ولكي لا يرهقها بدروس مملة، وكمكافأة لها على النجاحات التي ستحرزها سيقرأ لها بصوتٍ عالٍ قصصاً سهلة الفهم من الأدب الروسي والأجنبي، واحتفظ ليخونين لنفسه بمهمة تعليمها الحساب والجغرافيا والتاريخ، أما الأمير فقال بنية سليمة متخلياً عن مزاحه المألوف هذه المرة:
- أنا يا أولادي، لا أعرف شيئاً، والشيء الذي أعرفه لا أجيده بالمرة. ولكنني سأقرأ لها القصيدة الرائعة التي ألفها الشاعر الجورجي العظيم روستافيلي وأترجمها لها بيتاً بيتاً. أعترف لكم أنني لا أصلح مربياً البتة: حاولت أن أكون مدرّساً خاصاً، غير أنهم طردوني بأدب بعد الدرس الثاني.ولكن لا أحد يتفوق علي في تعليم العزف على الغيتار والمندولين والزورنا.
كان نيجيرادزه يتكلم بجدية تامة مما جعل ليخونين و سولوفيوف يضحكان بطيبة قلب، ولكن فجأة، وعلى غير توقع بالمرة، أدهش سيمانوفسكي الجميع بتأييده له:

- يقوله الأمير معقول، إتقان العزف على آلة مامن شأنه في جميع الأحوال أن يسمو بالذوق الجمالي، كما أنه أحياناً يكون عوناً في معترك الحياة. وأنا من جهتي أيها السادة... أقترح أن أقرأ مع الفتاة «راس المال» لماركس وتاريخ الثقافة الإنسانية، وأن أدرسها كذلك الفيزياء والكيمياء.

لولا السمعة المعروفة التي يشتهر بها سيمانوفسكي ، والرصانة التي تكلم بها لانفجر الثلاثة مقهقهين في وجهه. ولكنهم لم يفعلوا أكثر من التحديق إليه بأعين جاحظة،وتابع هو يقول بهدوء:

- أي نعم... وسأريها عدداً لا بأس به من التجارب الكيميائية والفيزيائية التي يمكن إجراؤها في المنزل والتي من شأنها دائماً أن تجتذب الانتباه، وتفيد العقل، وتقضي على المعتقدات البالية. وفي أثناء ذلك سأشرح لها بعض الأمور عن بنية العالم وخواص المادة. أما بالنسبة إلى كارل ماركس فتذكروا أن الكتب العظيمة تكون في متناول فهم العالِم والفلاح الأمي على حد سواء، على أن يجري عرض محتواها على نحو مفهوم، ومن المعروف أن كل الأفكار العظيمة تتسم بالبساطة.

***

وجد ليخونين لوبكا في المكان المتفق عليه، على مقعد البولفار، وقد ذهبت معه إلى البيت على مضض، وكما خمن ليخونين، فإنها، وهي التي انقطعت مدة طويلة عن الواقع اليومي القاسي الحافل بالمنغصات، كانت ترهب اللقاء مع العجوز المتذمرة الكساندرا، كما كانت تشعر بضيق شديد لأن ليخونين لا يريد أن يخفي ماضيها. ولكن بما أنها كانت قد فقدت في محل آنا ماركوفنا إرادتها وشخصيتها، وغدت مستعدة للسير وراء أي شخص يناديها، فقد سارت خلفه دون أن تقول له أي كلمة.

كانت الكساندرا اللئيمة قد تمكنت خلال تلك الفترة من الذهاب إلى مدير النزل والاشتكاء إليه، وإبلاغه أن ليخونين قد أتى بفتاة، وبات معها في الغرفة، وأنها، أي الكساندرا، لا تعرف من هي هذه الفتاة، وأن ليخونين يدعي أنها ابنة عمه، ولكنه لم يرها بطاقة هويتها، وقد اضطر ليخونين إلى خوض نقاش طويل ومستفيض ومضنٍ للتفاهم مع المدير، وهو شخص جلف ووقح، يعامل جميع سكان النزل كما لو كانوا أهالي مدينة محتلّة، ولكنه يتهيب الطلاب بعض الشيء لأنهم يصدونه بعنف أحياناً. ولم يستطع ليخونين إرضاءه إلاَّ باستئجار غرفة أخرى للوبكا بعد غرفته بعدة غرف، وتقع تحت الجزء المائل من السقف مباشرة، مما يجعلها تشبه من الداخل هرماً واطئاً مربع الأضلاع بترت قمته بشكل شديد الانحدار، وفتحت فيه نافذة صغيرة واحدة.

قال المدير بإصرار عند الوداع:
- ومع ذلك، يا سيد ليخونين ، عليك أن تحضر بطاقتها الشخصية غداً من كل بد.. وأنا أ فعل هذا من أجلك فقط، لأنك شخص محترم، وكادح، وأعرفك من مدة طويلة، وكذلك لأنك تدفع بانتظام، أنت تعرف في أية أوقات عصيبة نعيش الآن. إذا وشى بي أحد فإنهم لن يكتفوا بتغريمي، بل يمكنهم أن يبعدوني عن المدينة كلها، الأنظمة الآن صارمة.
في المساء تنزه ليخونين ولوبكا في حديقة كنياجيسكي، واستمعا إلى الموسيقا في جمعية النبلاء، وعادا إلى المنزل باكراً: أوصلها إلى باب غرفتها وودعها على الفور، طابعاً في أثناء ذلك بحنان قبلة أبوية على جبينها، ولكن بعد عشر دقائق، وفيما هو متمدد عارياً على السرير يقرأ «حق الدولة» فوجئ بلوبكا تتسلل عبر الاباب كالهرة، وتدخل عليه.
- حبيبي، حياتي... اعذرني لأني أزعجتك، هل أجد لديك إبرة وخيطاً؟
لا تغضب مني أرجوك، الآن سأغادر.
- لوبا! أرجوك، ليس «الآن» ، بل «في التو واللحظة»، يجب أن تغادري.
إنني أطلب منك هذا طلباً في نهاية الأمر!
قالت لوبكا شاكية بصوت ممطوط مضحك:
- عزيزي ، حنوني... لماذا تصرخ في وجهي هكذا طوال الوقت؟
ثم نفخت فجأة على الشمعة واندست بجانبه في الظلام وهي تضحك وتبكي.

- لا، هكذا لا يجوز يا لوبا! هكذا لا يمكن أن نستمر – قال ليخونين بعد عشر دقائق وهو يقف عند الباب ملتفاً بالبطانية كفارس إسباني متلفع بردائه – غداً بالضبط سأجد لك غرفة في منزل آخر. وعلى العموم لا أريد لهذا الأمر أن يتكرر!.. اذهبي الآن بسلام، تصبحين على خير! ومع ذلك يجب أن تعاهديني على أن تكون العلاقة بيننا علاقة صداقة فقط.

- أعاهدك ، يا عزيزي، أعاهدك، أعاهدك، أعاهدك!..

غمغمت وهي تبتسم،ولثمته بسرعة في شفتيه، ثم قبّلت يده، وجاءت هذه القبلة الأخيرة بدافع غريزي بحت، وربما كانت مفاجئة حتى للوبكا نفسها. فهي لم يسبق لها قط أن قبّلت يد رجل، اللهم إلاَّ يد الكاهن، ولعلها كانت تريد بهذا أن تعبر عن عرفانها لليخونين بالجميل، وتعظيمها إياه ككائن سامٍ.

يوجد بين المثقفين الروس، كما لاحظ كثيرون، عدد لا يستهان به من الأشخاص العجيبين، فهم أبناء حقيقيون للأرض الروسية والثقافة الروسية، وبمقدورهم أن يجابهوا الموت وجهاً لوجه ببطولة، دون أن تختلج فيهم عضلة واحدة، ويمكنهم في سبيل الفكرة أن يتحملوا ضروباً لا يمكن تخيلها من الحرمان والمعاناة تعادل التعذيب، ولكن هؤلاء الأشخاص بالمقابل تراهم يرتبكون أمام غطرسة البوّاب، وينكمشون أمام صراخ الغسّالة، ويدخلون قسم الشرطة بتهيب كئيب ممض. وليخونين كان ينتمي إلى هذه الفئة من الناس بالذات. وعندما استيقظ في بكرة اليوم التالي

وتذكر أن عليه السعي لتسلم هوية لوبكا (أمس لم يكن هذا ممكناً بسبب العيد وتأخر الوقت) شعر بأنه في حال جد سيئة كتلك التي كان يشعربها في الأيام الخوالي وهو تلميذ، عندما كان يذهب إلى الامتحان وهو متيقن من أنه سيسقط، كان يشكو الصداع، ويخيل إليه أن يديه وقدميه غريبة عنه ولا لزوم لها وإلى ذلك كان المطر في الخارج يهطل منذ الصباح رذاذاً ناعماً تخاله قذراً. «دائماً عندما يكون بانتظاري أمر مزعج يهطل المطر حتماً»، فكر ليخونين وهو يرتدي ملابسه ببطء.

لم يكن حي الحفرة يبعد عن مسكنه كثيراً، فالمسافة بينهما لا تزيد على فرسخ واحد. ولم يكن من النادر على العموم أن يذهب ليخونين إلى تلك النواحي، ولكن ما صدف له قط أن ذهب إلى هناك نهاراً، وخيل إليَّ في الطريق أن كل عابر سبيل وكل سائق عربة وكل شرطي ينظر إليه بفضول ولوم، أو باستهانة، وكأنه يخمن الهدف من زيارته. وكما يحدث دائماً في الصباحات المكفهرة الماطرة كانت كل الوجوه التي يقع عليها بصره تبدو شاحبة، غير جميلة، تشوبها عيوب بارزة.

عشرات المرات أدار في رأسه ما سيقوله في البداية هناك في المحل، ثم في قسم الشرطة، وفي كل مرة كان يخطر له ما يختلف عن المرة السابقة، وكان أحياناً يغضب على نفسه بسبب هذه البروفات المسبقة، ويوقف الحوار قائلاً:

- أوه! لا داعي للتفكير، لا داعي للتخمين ما ستقوله. فما يأتي ابن ساعته يكون دائماً أفضل بكثير...

ولكن مايلبث أن يعود إلى تخيل الحوار الذي سيجري:

- ليس لكم الحق في الاحتفاظ بالفتاة ضد رغبتها.

- نعم، ولكن دعها تصرخ بنفسها عن مغادرتها.

- أنا أتصرف بالوكالة عنها.
- حسن، ولكن بم يمكنك إثبات ذلك؟
ومرة أخرى كان يقاطع نفسه ذهنياً ويوقف الحوار.
اجتاز مرعى المدينة الذي ترتع فيه الأبقار، ثم الرصيف الخشبي الممتد على طول السياج، ثم الجسور الصغيرة المتقلقلة الممتدة عبر الجداول والقنيّات، وانعطف أخيراً نحو حي الحفرة، كانت النوافذ في محل آنا ماركوفنا مغلقة كلها بأبجورات حفرت في أواسطها فتحات بشكل قلوب. كما كانت سائر المحلات الأخرى مغلقة في الشارع المقفر الذي خلى من كل حي، وكأن وباءً مبيداً قد اجتاحه.
شد ليخونين ذراع الجرس بقلب منقبض. ففتحت له الباب خادمة حافية القدمين ملطخة الوجه بخطوط من القذارة، وقد رفعت حاشية ثوبها، وأمسكت بيدها خرقة مبلولة كانت تمسح بها الأرضية، قال ليخونين بتهيب:
- لو ناديت لي جينكا.
- الآنسة جينيا مشغولة مع ضيف، لم تستيقظ بعد.
- إذاً نادي لي تمارا.
نظرت إليه الخادمة بارتياب:
- الآنسة تمارا!.. لا أعرف... أظن أنها مشغولة أيضاً، ولكن أنت بأي صفة؟ زيارة أم ماذا؟
- أوه، وهل هناك فرق؟ ! لنقل زيارة.
- لا أعرف، سأذهب لأرى، انتظر.

ذهبت تاركة ليخونين في الصالة شبه المظلمة، كانت الأعمدة الغبارية الزرقاء الممتدة من فتحات الأبجورات تخترق الغبشة الدكناء بمسارات مستقيمة ومائلة.وكانت قطعُ الأثاث الملونة، واللوحات الأوليغرافية المحلاة المعلقة على الجدران تبرز من العكر الرمادي كبقع شوهاء، ويعبق المكان برائحة تبغ الأمس، والرطوبة، والحموضة، وشيء ما خاص، غير محدد، وغير سكني، شيء تحس برائحته دائماً عندما تدخل صباحاً إلى مبانٍ لا يعمرونها إلاَّ مؤقتاً: كالمسارح، وصالات الرقص، وقاعات المحاضرات الخالية من الرواد، وبعيداً في المدينة كانت ترتفع قعقعة العربات على نحو متقطع، وخلف الحائط كان ثمة ساعة جدارية تدق برتابة. وكان ليخونين يذرع الصالة جيئة وذهاباً وقد تملكه اضطراب غريب، وراح يفرك يديه المرتعشتين ويدعكهما، وتحدب ظهره لسبب ما، وشعر بأنه مقرور.

فكر بحنق : «ماكان ينبغي التورط في هذه هذه المهزلة الزائفة، من المؤكد أنني قد أصبحت الآن حكاية مخزية في الجامعة كلها، وسوس لي الشيطان! مع أنه حتى البارحة نهاراً لم يكن قد فات الوقت عندما قالت إنها مستعدة للعودة. لو أني أعطيتها أجر العربة فقط، وبعض النقود كمصروف جيب لكانت ذهبت وانتهى كل شيء بشكل رائع، ولكنت الآن حراً مستقلاً، ولما عانيت هذه الحالة النفسية المؤلمة والمخزية. ولكن الآن فات وقت التراجع، وغداً سيفوت أكثر، وبعد غد أكثر وأكثر. إذا ارتكبت حماقة ما عليك الكف عنها على الفور، وإذا لم تفعل هذا في الوقت المناسب جرّت وراءها حماقتين، وهاتين: عشرين حماقة جديدة، ولكن ألا يمكن أن يكون الأوان لم يفت بعد؟ فهي غبية، غير متطورة، وعلى الأرجح مصابة بالهستيريا، شأنها شأن أغلبيتهن، إنها مجرد حيوان لا يصلح إلاَّ للأكل والفراش! أوه! ياللشيطان...

ضغط ليخونين بشدة على وجنتيه وجبينه براحتيه وأغمض عينيه: -
لو أنني على الأقل صمدت أمام الإغراء الجسدي البسيط الفظ! أنت نفسك ترى أن هذا حدث مرتين، وبعد ذلك سيحدث ويحدث... »
وإلى جانب هذه الأفكار كانت تعدو أفكار أخرى مقابلة: «ولكن أنا رجل!.. وأنا سيد كلمتي، ومادفعني إلى القيام بهذه الخطوة رائع ونبيل وسامٍ. إنني أ تذكر جيداً تلك النشوة التي تملكتني عندما تحولت فكرتي إلى فعل! لقد كان هذا شعوراً نقياً طاغياً، أم أن هذا كان نزوة غبية من نزوات العقل الذي استفزته الخمرة، ونتيجة للسهر طوال الليل، والتدخين والأحاديث الطويلة المجردة؟».
وفي هذه اللحظة تراءت له لوبكا؛ تراءت من بعيد، وكأنها تطل من عمق الأزمنة الضبابي، مرتبكةً وجلةً، بوجهها اللطيف الخالي من الجمال، هذا الوجه الذي أصبح فجأة يبدو له قريباً بلا حدود، ومألوفاً من مدة جد بعيدة، وفي الوقت نفسه غير مريح، من دون سبب واضح أو مسوغ عادل.
- «هل أنا جبان وضعيف الإرادة حقاً؟!»، - صرخ ليخونين داخل نفسه وهو يلوي أصابعه من شدة الانفعال – ما الذي أخافه، ومن الذي أخجل منه؟ ألم أكن أفخر دائماً بأنني أنا وحدي سيد نفسي؟ ولنفترض حتى إنه خطرت في بالي فكرة خيالية أو نزوة غبية دفعتني إلى إجراء تجربة سيكولوجية على النفس البشرية، تجربة نادرة لا يزيد حظها من النجاح على واحد في المئة، فهل يجب علي أن أقدم إلى أحد ما كشف حساب عن هذا أو أخاف رأي أحد مافي هذا؟ ليخونين ! انظر إلى البشرية من فوق إلى تحت!».
دخلت جينيا الغرفة مشعثة، تبدو عليها آثار النوم، وقد ارتدت بلوزة ليلية بيضاء فوق تنورة داخلية بيضاء.

- آ – آ – قالت متثائبة وهي تمد يدها لليخونين – مرحباً، أيها الطالب اللطيف! كيف حال فتاتك لوبوتشكا في سكنها الجديد؟ ادعوانا للزيارة. أم أنكما تحتفلان بشهر العسل بعيداً عن الأعين؟.. دون شهود غرباء؟..
- دعك من الهذر يا جينيتشكا، جئت من أجل الهوية.
- ها.. كذا، من أجل الهوية – قالت جينكا وهي تفكر –ولكن الهوية ليست هنا، بل هنا البطاقة المهنية التي يجب عليك أن تأخذها من المدبرة، أعني بطاقتنا العادية، بطاقة المومس، وفي القسم يبدلونها لك ببطاقة الهوية الأصلية. ولكن يجب أن تعرف يا عزيزي أنني سأكون معاونة سيئة لك في هذه القضية. وربما تعرضتُ للضرب إذا حشرت نفسي وذهبت إلى المدبرة مع الحاجب، لذلك من الأحسن لك أن ترسل الخادمة في طلب المدبرة. ولتقل لها إن أحد الزبائن الدائمين قد أتى لحاجة معينة، ومن الضروري جداً أن يقابلها شخصياً، أما أنا فأرجو أن تعذرني، أنا سأنسحب، وأرجو ألاَّ تزعل مني، أنت نفسك تعرف: صاحب القضية أولى بها، لماذا تتسكع هنا وحدك في العتمة؟ من الأفضل أن تذهب إلى غرفة الاستقبال. وإذا كنت ترغب سأرسل لك بيرة إلى هناك، أو ربما تريد قهوة؟ أو – وهنا لمعت عيناها بمكر – أو ربما فتاة ؟ تمارا مشغولة، ربما نورا أو فيركا؟..
- كفي عن هذا يا جينيا! لقد أتيت لأقضي حاجة جدية وهامة، وأنت...
- طيب،طيب،لن أفعل، لن أفعل! مجرد كلام لا أكثر، أرى أنك ثابت على الإخلاص، وهذا دليل نبل أصيل فيك. والآن هيا بنا.

اصطحبته إلى غرفة الاستقبال، وأزاحت مزلاج الدرفة الداخلي، وفتحت النافذ، فانساب ضوء النهار بلين وسأم فوق الجدران الحمراء المذهبة، والشمعدانات، والأثاث المخملي الوثير الأحمر.

فكر ليخونين بندم مفعم بالكآبة: - «هنا بالذات كانت البداية»...

قالت جينكا: - أنا ذاهبة، وأنت لا تتساهل معها، ولا مع سيميون، أشبعهما سباً وشتماً، الوقت الآن نهاراً ولن يجرؤا على فعل أي شيء معك. وإذا حدث شيء قل لهما مباشرة إنك ستذهب حالاً إلى المحافظ وتشي بهم جميعاً، قل لهما إن السلطات ستغلق المحل خلال أربع وعشرين ساعة وتنفيهم من المدينة. عندما تصرخ في وجوههم يصبحون كالحرير، ايه، أرجو لك النجاح!

بعد ذهابها بعشر دقائق دلفت المدبرة ايما ادواردوفنا إلى الغرفة مرتدية ثوباً فضفاضاً من الساتين الأزرق، وتهادت بجسمها الممتلئ ووجهها المتشامخ الذي يزداد عرضاً من الجبين باتجاه الوجنتين كيقطينة مشوهة، وبكل غباغبها اللحيمة، وثدييها الضخمين، وعينيها السوداوين الصغيرتين الثاقبتين الخاليتين من الرموش، وشفتيها الرقيقتين المزمومتين الغاضبتين، نهض ليخونين قليلاً، وصافح اليد السمينة المرصعة بالخواتم الممدودة نحوه، وفكر فجأة بتقزز:

- «ياللشيطان! لو كان لدى هذه السافلة نفس، ولو كان بالإمكان قراءة مافي هذه النفس، كم من جرائم القتل المباشر وغير المباشر كان يمكن الكشف عنها عندئذ!»..

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن ليخونين عندما نوى الذهاب إلى اللحفرة أخذ معه، إضافة إلى النقود، مسدساً، وكان وهو في طريقه إلى هنا غالباً ما يدس يده في جيبه ويتحسس ملمس المعدن البارد. كان يتوقع الإهانة والعنف ، وقد أعدَّ نفسه للرد عليهما بالشكل المناسب. إلاَّ أنه دهش عندما تبين أن كل ما افترضه وخشية لم يكن أكثر من توهم خيالي جبان، فالقضية كانت بسيطة ومملة وعادية، وفي الوقت نفسه مقيتة، أكثر مما كان يتوقع بكثير.

- Ja, mein herr قالت المدبرة بلا مبالاة وببعض التعالي وهي تجلس على الكنبة الواطئة وتدخن لفافتها. أنت دفعت عن ليلة واحدة، ولكنك أخذت الفتاة لنهار آخر ولليلة أخرى كذلك.Also عليك أن تدفع خمسة وعشرين روبلاً أخرى. نحن عندما نرسل فتاة لليلة نأخذ عشرة روبلات، ولكن عن اليوم الكامل نأخذ خمسة وعشرين. هذه هي التسعيرة، ألا ترغب في التدخين أيها الشاب؟

مدت له يدها بعلبة السكائر فأخذ منها ليخونين لفافة بحركة عفوية.

- أتيت لأتحدث معك حول أمر مختلف تماماً.

- أوه! .. لا تزعج نفسك بالكلام! أنا أفهم كل شيء تماماً، أظن أن الشاب يريد أن يأخذ الفتاة، لوبكا هذه، نهائياً لتعيش عنده، أو كما يقولون، كيف يقولون هذا بالروسية، من أجل أن ينقذها[١] ؟ نعم، نعم، نعم، هذا يحدث أحياناً، أنا أعيش في المحلات العمومية منذ اثنتين وعشرين سنة، ودائماً في أحسن المحلات وأليقها، وأعرف أن هذا يحدث للشباب الأغبياء جداً. ولكنني أؤكد لك أن هذا لن يؤدي إلى نتيجة.

---

[١] يورد الكاتب حديث المدبرة باللكنة التي تميز الألمان عندما يتكلمون بالروسية، بكل ما يتخلل ذلك من أخطاء لفظية ونحوية الخ...

- يؤدي أو لن يؤدي: هذا شأني أنا – رد ليخونين بصوت خفيض وهو ينظر إلى أسفل محدقاً إلى أصابعه التي ترتعش فوق ركبتيه.
- أوه، طبعاً، هذا شأنك أنت أيها الطالب الشاب – اهتزت وجنتا ايما ادواردوفنا المتهدلتين، وغباغبها الهائلة من الضحك المكتوم – وأتمنى لكما من كل قلبي الحب والمودة، ولكن أرجو أن تكلف نفسك وتقول لهذه الوغدة، هذه اللوبكا، أن لا تتجرأ على أن تريني وجهها هنا، عندما تلقي بها أنت إلى الشارع كالكلبة، فلتمت جوعاً تحت السياج، أو فلتذهب إلى محل النصف روبل الذي يرتاده الجنود!..
- صدقيني لن تعود.. أرجوك فقط أن تعطيني شهادتها حالاً.
- شهادتها؟ آه، بكل سرور! هذه اللحظة إذا أردت. ولكن قبل ذلك كلف نفسك وادفع عنها ثمن كل ما أخذته من هنا بالدّين. انظر، هاهو دفتر حساباتها. لقد أحضرته معي عمداً، فقد كنت أعرف إلامّ سينتهي حديثنا.
مدت يدها عبر فتحة ثوبها، كاشفة أمام ليخونين للحظة عن صدرها الشحيم الضخم الأصفر، واستلت دفتراً صغيراً ذا غلاف أسود كتب عليه «حساب البنت ايرينا فوشينكوفا في بيت التسامح الذي تملكه آنا ماركوفنا شايبس في حي الحفرة في البناء رقم كذا»، وناولته إياه عبر الطاولة. وقلب ليخونين الصفحة الأولى وقرأ ثلاث أو أربع فقرات من القواعد المطبوعة التي تقول بجفاف وإيجاز: إن هذا الدفتر منظم على نسختين، إحداهما تحفظ عند صاحبة المحل والأخرى عند المومس

وإن جميع الدخول والمصارف تسجل في كلتا النسختين، وإن الاتفاق يقضي بتقديم الطعام والسكن والتدفئة والإنارة وملاءات السرير والحمّام وغير ذلك للمومس التي تدفع لقاء ذلك لصاحبة المحل مبلغاً لا يجوز أن يزيد بحال من الأحوال على ثلثي ما تكسبه، أما النقود المتبقية فهي ملزمة بإنفاقها على ملابسها التي يجب أن تكون نظيفة ولائقة، وينبغي أن يكون لديها فستانا خروج على الأقل. ثم تنص القواعد بعد ذلك على أن تجري المحاسبة بواسطة طوابع تسلمها صاحبة المحل للمومس عندما تتسلم منها النقود. ثم يُصفّى الحساب في نهاية كل شهر. وتنص أخيراً على أن للمومس الحق في أن تترك بيت التسامح في أي وقت تشاء حتى ولو بقي في ذمتها دين، على أن تلتزم بتسديده وفقاً للقوانين المدنية العامة.

وضع ليخونين إصبعه على البند الأخير وأدار الدفتر نحو المدبرة وقال بلهجة الظافر:

- انظري! أترين: لها الحق في أن تترك المحل في أي وقت تشاء. وعلى هذا فإنها تستطيع في أي وقت أن تهجر ماخوركم الشنيع هذا، أن تهجر وكركم اللعين، وكر القهر والسفالة، والفجور، الذي ترتكبون فيه...

وكان يمكن أن يستمر ليخونين في معزوفته لولا أن المدبرة قاطعته بهدوء قائلة:

- أوه، أنا لا أشك في هذا. فلتذهب. ولكن لتدفع ما عليها من نقود.

- سند؟ يمكنها أن تعطيكم سنداً.

- إخ! سند! أولاً هي أمية، وثانياً ما قيمة سندها؟ تفوه! ولا شيء أكثر! فلتجد لنفسها كفيلاً يمكن أن يوثق به، وعندئذٍ لن يكون لدي أي مانع.

- ولكن في «القواعد» لا يوجد أي ذكر للكفلاء.
- لا يهم، إن كان لهم ذكر أو لا! فالقواعد لا تذكر أيضاً أن من الممكن أخذ الفتاة من المحل دون إبلاغ أصحابه.
-ولكن على كل حال يجب عليك أن تعطيني بطاقتها.
- لا يمكن على الإطلاق، أن أرتكب مثل هذه الحماقة! تعال إلى هنا مع شخص محترم ومع الشرطة، ولتشهد الشرطة أن هذا الشخص ميسور، وليصرح هذا الشخص بأنه يكفلك، ولتؤكد الشرطة أيضاً أنك تأخذ الفتاة لا من أجل أن تتاجر بها أو تبيعها لمحل عمومي آخر، وعندئذٍ أهلاً وسهلاً بيديّ وقدميّ!..
هتف ليخونين: - ياللشيطان! طيب إذاكنت أنا هذا الكفيل، أنا نفسي! وإذا وقّعت لك الآن على الفور سنداً.
- أيها الشاب! لا أدري ماذا يعلمونكم في معاهدكم وجامعاتكم، ولكن أيُعقل أنك تظنني بكل هذا الغباء؟ أنت يجب أن تحمد الرب إذا كان عندك بنطال آخر غير هذا الذي ترتديه، وأن تحمد الرب إذا كنت تحصل ولو كل يومين مرة على بقايا مارتديلا من البقالية لتتغداها، ومع ذلك تقول: سند! لماذا هذا الخداع؟
استشاط ليخونين غضباً، وأخرج محفظته من جيبه وألقى بها على الطاولة:
- في هذه الحالة أنا شخصياً سأدفع وعلى الفور!..
فردت المدبرة بصوت ممطوط وبلهجة عذبة ولكنها مشوبة بالريبة:
- آه، هذا أمر آخر، كلف نفسك واقلب الصفحة لترى حساب حبيبتك.

صاح بها ليخونين :
- اصمتي أيتها الساقطة!
فردّت عليه المدبرة بهدوء:
- سأصمت أيها الغبي.
كانت صفحات الدفتر مقسمة إلى حقول، وقد خُصِّص الجزء الأيسر منها لتسجيل الدخل، والجزء الأيمن لتسجيل الخرج، قرأ ليخونين: «المقبوض لقاء طوابع في ١٥ شباط، ١٠ روبلات وفي ١٦-٤ ر. وفي ١٧ -١٢ ر – وفي ١٨ مريضة وفي ١٩ – مريضة وفي ٢٠-٦ ر . وفي ٢١ – ٢٤ر.».
- «يا إلهي – قال ليخونين لنفسه بتقزز واستهوال – اثنا عشر شخصاً! في ليلة واحدة!»..
وقد سُجِّلَ فينهاية الشهر: «المجموع ٣٣٠ روبلاً».
- «يا إلهي، هذا هذيان غير معقول!.. مئة وخمس وستون زيارة»، فكر ليخونين بعد أن حسب عفوياً عدد الزيارات، وتابع تقليب الصفحات، ثم انتقل إلى الحقول اليمنى «فستان حريري أحمر مع دانتيلا ٨٤ روبلاً. الخيّاطة يلدوكيموفا. ثوب نهاري مع دانتيلا ٣٥ روبلاً. الخيّاطة يلدوكيموفا. جوارب حريرية ٦ أزواج ٣٦ روبلاً » الخ... الخ... «أجرة عربة، ثمن سكاكر، ثمن عطر» الخ... الخ،... «المجموع ٢٠٥ روبلات»، وبعد ذلك يُطرح من ٣٣٠ روبلاً مبلغ ٢٢٠ روبلاً – نصيب صاحبة المحل لقاء المعيشة والخدمات – فيبقى ١١٠ روبلات. ويُختتم الحساب الشهري على النحو الآتي: "الناتج بعد دفع ١١٠ روبلات لقاء تكاليف الخياطة وثمن الأشياء الأخرى تظل ايرينا فوشينكوفا مدينة بخمسة وتسعين (٩٥) روبلاً بالإضافة إلى الأربعمئة وثمانية عشر روبلاً – المتبقية من السنة الماضية – المجموع: خمسمئة وثلاثة عشر (٥١٣) روبلاً.

وهنا خارت عزيمة ليخونين، في البداية حاول أن يستنكر غلاء الأشياء المقدمة، بيد أن المدبرة اعترضت ببرودة مدعية أن هذا لا يخصها البتة، وأن المحل لا يطالب إلاَّ بأن ترتدي الفتاة ملابس ملائمة تليق بفتاة من بيت محترم نبيل، أما الباقي فلا علاقة للمحل به. وهو لا يفعل أكثر من تقديم قرض لها كي تدفع مصاريفها.
صرخ ليخونين بحنق شديد: - ولكنها امرأة شريرة، إنها عنكبوت بشكل إنسان خياطتكم هذه، وهي متواطئة معك. أنت علقة ، مصاصة دماء، سلحفاة مقرفة! أخطبوط! أين ضميرك؟!..
كان كلما ازداد انفعالاً ازدادت ايما ادواردوفنا هدوءاً وسخرية.
- مرة أخرى أكرر: هذا ليس شأني، وأنت أيها الشاب لا تشتم ، وإلاَّ ناديت الحاجب ليلقي بك إلى الشارع.
واضطر ليخونين إلى أن يساوم المرأة القاسية طويلاً، وبضراوة، حتى البحة في الحلق، إلى أن وافقت أخيراً على أن تأخذ مئتين وخمسين روبلاً نقداً، ومئتي روبل في سندات ولم تقبل بهذا إلاَّ بعد أن أراها ليخونين شهادة الفصل الدراسي التي تثبت أنه سينهي الدراسة في هذا العام ويصبح محامياً...
ذهبت المدبرة لتحضر البطاقة وراح ليخونين يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، كان قد تأمل كل اللوحات المعلقة على الجدران: ليدا وطائر التم والاستحمام على شاطئ البحر، ومحظية في الحريم، وساطو يحمل على يديه حورية عارية، ولكن فجأة استرعت انتباهه لائحة مطبوعة غير كبيرة تغطي الستارةُ نصفَها. كانت اللائحة مؤطرة ومزججة وتحتوي على مجموعة القواعد والتعليمات الناظمة للحياة اليومية في المحلات العمومية. لم يكن الطالب قد رأى هذه اللائحة من قبل، وقد استولت عليه الدهشة والشعور بالاشمئزاز

وهو يقرأ سطورها المكتوبة بتلك اللغة الرسمية الميتة التي تستخدمها أقسام الشرطة؛ السطور التي تتحدث ببرود عملي مخجل عن مختلف الإجراءات والاحتياطات الهادفة إلى تفادي الإصابة بالعدوى، وعن عناية المرأة بشؤون زينتها الحميمة، وعن الفحوص الطبية الأسبوعية، وعن جميع الأجهزة التي تستعمل في أثناء ذلك. وقرأ ليخونين أيضاً أن بُعد المحل عن الكنائس والمؤسسات التعليمية والقضائية لا يجوز أن يقل عن مئة خطوة، وأن مُلاك بيوت التسامح يجب أن يكونوا من النساء حصراً، ولا يجوز أن يسكن معصاحبة المحل سوى أقاربها من الإناث حصراً، على ألاَّ تزيد أعمارهن عن سبع سنوات، وأن على الفتيات النزيلات وصاحبات المحل والخادمات أن يتعاملن فيما بينهن، ويعاملن الزوّار أيضاً بأدب وهدوء ولباقة واحتشام، وألاَّ يسمحن لأنفسهن البتة بالسكّر، والسباب، والعراك، وأن على المومس ألاَّ تسمح لنفسها بممارسة الحب وهي في حالة سكر أو مع رجل مخمور، وكذلك في أثناء الحالات العضوية المعروفة، وتنص التعليمات بعد ذلك مباشرة على منع المومسات منعاً باتاً من الإجهاض المتعمد.
«أية نظرة جدية وأخلاقية إلى الأشياء!» قال ليخونين في سره بسخرية غاضبة.
وأخيراً انتهت القضية مع ايما ادواردوفنا : فقد وقّعت إيصالاً يشهد على أنها قبضت النقود ومدت يدها به وبالبطاقة إلى ليخونين الذي مدّ يده إليها بالنقود، وكان كل منهما في أثناء هذه العملية ينظر إلى عيني الآخر ويديه بحدة وحذر. كان من الواضح أن الثقة بينهما لم تكن بالكبيرة. خبأ ليخونين الوثيقتين في محفظته وتأهب للذهاب، ورافقته المدبرة حتى الرواق الخارجي؛ وعندما خرج إلى الشارع أطلت عليه من موقفها على الدرج ونادته:

- أيها الطالب ! هيه ! أيها الطالب!..
وقف والتفتت نحوها : - ماذا بعد؟
- اسمع ماذا بعد. يجب علي الآن أن أقول لك إن فتاتك لوبكا سيئة جداً، ولصة، ومصابة بالزهري! ولم يكن أحد من ضيوفنا المحترمين يطلبها، ولو لم تأخذها أنت عنا لكنا في الغد طردناها! وأقول لك أيضاً أنها تورطت مع الحاجب ومع الخفراء والبوابين وصغار اللصوص، أهنئك بزواجك الشرعي!..
- أوووو! أيتها السافلة!..
زمجر ليخونين في وجهها:
- غر أحمق!..
صاحت المدبرة وصفقت الباب.
ذهب ليخونين إلى القسم في عربة، وفي الطريق تذكر أنه لم يفحص البطاقة كما ينبغي، هذه «البطاقة الصفراء» السيئة الذكر التي سمع عنها الكثير. إنها ورقة بيضاء عادية لا يزيد حجمها على حجم الظرف البريدي. وقد سُجّل على أحد وجهيها في الحقل المناسب اسم لوبكا وكنيتها ولقبها ومهنتها: «مومس»، وعلى الوجه الآخر مقتطفات موجزة مقتبسة من فقرات اللائحة التي قرأها قبل قليل – لائحة القواعد الشائنة المرائية التي تتحدث عن السلوك اللائق والنظافة الخارجية والداخلية – ومما قرأه هنا أن «لكل زائر الحق في أن يطلب من المومس إبراز شهادة مكتوبة من قبل الطبيب الذي فحصها آخر مرة». ومن جديد امتلأ قلب ليخونين بشفقة عاطفية وفكر بأسى: «ياللنساء المسكينات! .. مامن شيء يتورعن عن فعله بكن، ومامن فرصة يفوتونها للسخرية منكن إلى أن تعتدن كل شيء وتصبحن كالخيول المعصوبة العيون والمربوطة بنورج الدارس!».

استقبله فـي القسم مفوض الحي كيربيش الذي كان قد قضى الليل مناوباً ولم ينل كفايته من النوم فغدا سريع الغضب، كانت لحيته الحمراء الكثة التي تشبه المروحة مشعثة، والنصف الأيمن من وجهه المتورد لا يزال مضرجاً بحمرة قرمزية من توسده مخدة المشمع غير المريحة وقتاً طويلاً. بيد أن عينيه الزرقاوين الناصعتين المدهشتين كانتا باردتين وصافيتين، وتطل منهما نظرة متيقظة وقاسية، فتبدوان كأنهما من خزف أزرق. وكان يستجوب شرذمة من الرعاع الذين أوقفوا ليلاً من أجل إفاقتهم من السكر، ويشتمهم فـي أثناء ذلك بكلمات مقذعة، وبعد أن انتهى من تسجيل أقوالهم وإحالتهم إلى أقسامهم، مال بجسمه إلى الخلف مستلقياً على مسند المقعد، ووضع يديه خلف عنقه وتمطى بشدة بكل جسمه الضخم العملاق، بحيث لم يبق مفصل ولا رباط فـي جسمه إلاَّ وطقطق، ثم نظر إلى ليخونين كما ينظر إلى شيء جامد وسأل:

ـ وأنت ماذا تريد أيها السيد الطالب؟

روى ليخونين له القضية بإيجاز، واختتم حديثه بقوله:

ـ وأنا الآن أريد أن آخذها لتعيش عندي.. كيف المفروض أن يحدث هذا عندكم؟... بصفة خادمة... أو بصفة قريبة، إذا أردتم باختصار... كيف يجري هذا الأمر؟

ـ فلنقل بصفة خليلة أو زوجة...

أجاب كيربيش دون اكتراث وهو يدير بين يديه علبة سكائره الفضية المزينة بالزخارف والرسوم، ومضى يقول:

ـ أنا ليس بإمكاني أن أفعل أي شيء من أجلك... على الأقل الآن، إذا كنت ترغب فـي الزواج منها عليك أن تقدم إذناً من رئاسة جامعتك بهذا، أما إذا كنت ستأخذها لتعيش عندك فحسب، فعليك أن تفكر بمنطق تصرفك هذا؟.. فأنت تأخذ فتاة من محل دعارة لكي تعيش معها حياة دعارة.

قال ليخونين : ـ طيب لنقل خادمة.
ـ وحتى إذا كانت خادمة، عليك أن تكلف نفسك وتقدم شهادة من صاحب الشقة التي تسكنها، ـ أظن أنك أنت نفسك لا تملك منزلاً؟...
ـ شهادة تثبت أنك قادر على دفع نفقة خادمة، وعلاوة على ذلك عليك تقديم جميع الوثائق التي تثبت أنك فعلاً أنت الشخص الذي تدّعي أنه أنت، ومنها مثلاً شهادة من قسم شرطة الحي الذي تسكن فيه، ومن الجامعة، وجميع الوثائق المشابهة، آمل أنك مسجل في سجل السكان؟ أم ربما أنت...؟.. تسكن بشكل غير شرعي؟
أجاب ليخونين معترضاً وقد بدأ يفقد صبره:
ـ لا. أنا مسجل!.
ـ ممتاز. والفتاة التي تسعى من أجلها؟
ـ لا، إنها لم تسجل بعد. ولكن بطاقتها عندي، وآمل أنك ستبدلها لي بهويتها الأصلية، وعندئذٍ سأسجلها فوراً.
قلب كيربيش كفيه، ثم عاد يعبث من جديد بعلبة السكائر:
ـ لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك أيها السيد الطالب، لا شيء على الإطلاق إلى أن تقدم جميع الأوراق المطلوبة. أما الفتاة فإنها، كشخص من دون إقامة سترسل على الفور إلى مديرية الشرطة ليتم احتجازها هناك، إلاَّ إذا رغبت هي نفسها أن تعود إلى المكان الذي أخذتها منه، مع السلامة أيها السيد.
اعتمر ليخونين قبعته بحركة عنيفة وتوجه نحو الباب، وفجأة لمعت في رأسه فكرة ذكية، ولكنها جعلته هو نفسه يشعر بالاشمئزاز، اقترب ثانية من الطاولة وهو يشعر بغثيان في أسفل صدره، وقد بردت يداه، وعرقتا، وراحت أصابع قدميه تنق بألم ممض، وقال متكلفاً عدم الاهتمام ولكن بصوت متقطع:

- آسف، سيادة المفوض، لقد نسيت الشيء الأهم: هناك شخص من معارفنا نحن الاثنين كلفني بأن أ عيد لك ديناً صغيراً لك في ذمته.
- هـ....م! من معارفنا؟ - سأل كيربيش وهو يحملق بعينيه اللازوردتين الرائعتين – ومن هو هذا الشخص؟
- بارسوكوفا... بارباريسوف.
- آ، بارباريسوف؟ نعم، نعم، نعم! تذكرته، تذكرته!
- هل تسمح إذاً بأن تتسلم مني هذه العشرة روبلات؟
هز كيربيش رأسه ولكنه لم يأخذ الورقة.
- ياله من خنزير صاحبك هذا.. أعني صاحبنا بارباريسوف
إنه مدين لي لا بعشرة روبلات بل بخمسة وعشرين، ياله من سافل! خمسة وعشرون روبلاً وبعض النقود الصغيرة كذلك. طبعاً أنا لن أحاسبه بالنقود الصغيرة، ليسامحه الرب! هذا في الحقيقة دين من لعبة بلياردو، ويجب أن أقول إن هذا الوغد يغش في اللعب... على كل أيها الشاب عليك أن تدفع خمسة عشر روبلاً أخرى.
- أنت شاطر حقاً أيها السيد المفوض!..
قال ليخونين وهو يخرج النقود، فعارضه كيربيش بطيبة نفس متناهية:
-عفواً !.. زوجة وأولاد... وراتبنا، أنت نفسك تعرف ماهو... استلم، أيها الشاب، الهوية، وقع إشعاراً بالاستلام... تمنياتي...
أمر غريب! إن التفكير في أن الهوية قد أصبحت أخيراً في جيبه أشاع فجأة الطمأنينة في نفسه لسبب لا يدريه، وأنعشه ونشّط أعصابه من جديد.

راح يفكر وهو يحث الخُطا فـي الشارع: «على كل، البداية الأولى قد وُضعت ، والشيء الأصعب قد أُنجز، تماسك الآن بقوة يا ليخونين ، واحذر أن تخور عزيمتك! ما فعلته رائع وسامٍ. وحتى إذا أصبحت أنا نفسي ضحية تصرفي هذا فإنني لن أهتم! من المخجل أن تفعل خيراً وتنتظر أن تنال الجزاء عنه فوراً. فأنا لست كلب سيرك ولا جملاً مدرباً، ولستُ الطالبةَ الأولى فـي معهد بنات النبلاء. ولكن عبثاً استرسلت البارحة فـي الكلام مع حملة الثقافة أولئك. كانت خطوة غبية وغير لبقة، وهي، على كل حال، سابقة لأوانها. ولكن كل شيء فـي الحياة قابل للإصلاح. يصبر المرء على أشد الأمور مشقة وخزياً، وبعد مرور بعض الوقت يتذكرها كأمور تافهة لا قيمة لها...»

أدهشته أن لوبكا لم تدهش كثيراً ولم تبتهج البتة عندما أراها بطاقة هويتها بطريقة احتفالية. كان الشيء الوحيد الذي أبهجها هو رؤيتها ليخونين ثانية. يبدو أن هذه النفس البدائية الساذجة لم تحتج إلى وقت طويل للتعلق بمتولي رعايتها.

هرعت إليه تريد معانقته، ولكنه أوقفها بهدوء، وسألها بصوت كالهمس:

- لوبا، أخبريني... لا تخافي من قول الحقيقة أياً كانت... قالوا لي الآن فـي المحل أنك مصابة بمرض... تعرفين، بذاك المرض الذي يسمونه المرض الخبيث. إذا كان لديك ولو أدنى قدر من الثقة بي قولي لي يا عزيزتي، أخبريني هل هذا صحيح أما لا؟..

تضرجت ا لفتاة بالحمرة، وغطت وجهها بيديها، وارتمت على المقعد وانفجرت بالبكاء.

- حبيبي ! فاسيل فاسيليتش! فاسينكا! وحق الرب! أقسم لك بالرب، لا شيء من هذا على الإطلاق! أنا دائماً كنت حذرة جداً. وكنت أخاف من هذا خوفاً شديداً، وأنا أحبك كثيراً. وكنت قلت لك حتماً – وهنا أمسكت بيديه وضغطت بهما على وجهها المبلل وتابعت تأكيدها له بحرارة صادقة ومضحكة ومؤثرة كطفل يدفع عن نفسه تهمة ظالمة.

وقد صدقها في قرارة نفسه على الفور. وقال بصوت خافت وهو يمسح شعرها:

- أصدقك، يا صغيرتي، لا تنزعجي، ولا تبكي، ولكننا لن نستسلم مرة أخرى لضعفنا. ماحدث قد حدث، ولن نكرر هذا بعد الآن.

- كما تريد – غمغمت الفتاة متلعثمة وهي تقبل يديه تارة وجوخ سترته تارة أخرى – إذا كنت إلى هذا الحد لا أعجبك، فطبعاً كما تريد.

ولكن الغواية تكررت من جديد هذا المساء أيضاً، وظلت تتكرر إلى أن كفت لحظات الخطيئة عن إثارة خجل حارق في نفس ليخونين ، وتحولت إلى عادة تمتص الندم وتخمده.

ينبغي أن نوفي ليخونين حقه: لقد فعل كل شيء كي يكفل للوبكا عيشة هادئة رغدة، ولما كان يعرف أنهما سيضطران في جميع الأحوال إلى أن يتركا علّيتهما، علبة الزرازير هذه المرتفعة فوق المدينة كلها، إن لم يكن بسبب ضيقها وكونها غير مريحة، فبسبب طبع العجوز الكساندرا التي تغدو مع كل يوم أكثر شراسة ومماحكة وميلاً إلى المشاجرة، فقد قرر أن يستأجر في طرف المدينة، في حي بورشاغوفكا، شقة صغيرة تتألف من غرفتين ومطبخ.

وقد تَسهَّلَ له استئجار شقة غير غالية، لقاء تسعة روبلات شهرياً دون حطب. وعلى الرغم من أنه كان مضطراً إلى قطع مسافات طويلة من هناك إلى أماكن الدراسة والتدريس، إلاّ أنه كان يعتمد بثقة على صحته وقدرته على التحمل، وغالباً ماكان يقول:
- قدماي لي أنا، ولا داعي للإشفاق عليهما.
وكان في الحقيقة فارساً لا يشق له غبار في السير على الأقدام. عمد مرة، على سبيل المزاح، إلى وضع عداد في جيب صداره، وقد بلغت المسافة التي قطعها حتى المساء عشرين فرسخاً[١]، وإذا ما أخذنا بالحسبان طول قدميه غير العادي وجدنا أن هذه المسافة تعادل نحو خمسة وعشرين فرسخاً، وكان عليه أن يقطع مسافات لا يستهان بها سيراً على الاقدام، لأن تكاليف حصوله على هوية لوبكا واقتناء بعض المتاع المنزلي ابتلعت كل ما كان قد ربحه مصادفة في ورق اللعب. وكان جرب أن يلعب من جديد، على أن يكون المبلغ ضئيلاً في البداية، لكنه ما لبث أن اقتنع أن نجمه في اللعب دخل الآن برج نحسه.
لم تعد طبيعة علاقته الحقيقية بلوبكا سراً على أحد من رفاقه بالطبع، ولكنه مع ذلك استمر وإياها في تمثيل مهزلة العلاقات الصداقية والأخوية أمامهم. ولسبب مالم يكن يستطيع، أو أنه لم يكن يريد، أن يدرك أنه لو لم يكذب ويزيف ويتظاهر لكان هذا أكثر حصافة وأكثر فائدة له بكثير. أو ربما كان يعرف ذلك، ولكنه لم يكن يدري كيف يغير النمط الذي استقر وترسخ؟.. وكان دوره في العلاقات الحميمية هو، على الدوام، الدور الثانوي، السلبي، فالمبادرة التي تأخذ شكل الملاطفة والمداعبة كانت دائماً تصدر عن لوبكا (لقد ظلت كالسابق تتسمى بلوبكا، ونسي ليخونين تماماً أنه قرأ بنفسه أن اسمها الحقيقي في الهوية هو ايرينا).

---

[١] الفرسخ الروسي يساوي ١.٠٦كم.

ولوبكا هذه التي كانت حتى وقت قريب تمنح جسدها عشرات الرجال فـي اليوم ومئات الرجال فـي الشهر بفتور أحياناً، ومتكلفة شهرة متأججة أحياناً أخرى، قد تعلقت الآن بليخونين بكل كيانها الأنثوي المحب والغيور، والتحمت به جسداً وعاطفة وأفكاراً، كان الأمير فـي نظرها مضحكاً وظريفاً، وسولوفيوف المقدام قريباً منها روحياً، وشائقاً مسلياً، وكانت هيبة سيمانوفسكي الطاغية تثير فيها الشعور بخوف تطيّري غامض، أما ليخونين فكان بالنسبة إليها السلطان والإله، وكان فـي الوقت ذاته، وهذا أفظع مافي الأمر، ملكها الخاص وبهجتها الجسدية.

من الملاحظ منذ القديم أن الرجل الذي استهلك نفسه واهترأ، ونهشته أنياب الأهواء الغرامية ومضغته أضراسها لن يكون بمقدوره أبداً أن يحب حباً قوياً واحداً، وفـي الوقت نفسه حباً نقياً متفانياً جارفاً، أما المرأة فلا تحكمها فـي هذا المضمار قوانين ولا تحدها حدود، وقد تأكدت هذه الملاحظة بصورة خاصة بمثال لوبكا التي كانت مستعدة لأن تزحف بتلذذ أمام ليخونين وتخدمه كجارية، ولكنها تريد فـي الوقت ذاته أن يكون امتلاكها إياه أقوى من امتلاكها طاولة ما، أو كلبة، أو قميص نوم. وكان هو يجد نفسه دائماً غير ثابت، ودائماً يسقط أمام ضغط هذا الحب المباغت الذي تحول بسرعة كبيرة من نهير متواضع إلى نهر متدفق فياض، وكان لا يندر أن يفكر بمرارة وتهكم: «كل ليلة ألعب دور يوسف الحسن، ولكن ذاك على الأقل أَفْلتَ من قبضة السيدة الشبقة تاركاً فـي يديها قطعة من ثوبه، فمتى أتخلص أنا من نيري هذا؟»..

نشبت فـي نفسه عداوة مكتومة تجاه لوبكا، وراحت تدور فـي رأسه أكثر فأكثر شتى الخطط الخبيثة للتحرر مما هو فيه، وكان بعضها من الخساسة بحيث أنه عندما كان يتذكرها بعد عدة ساعات أو فـي اليوم التالي كان يتلوى فـي داخله من شدة الخجل.
أحياناً كان يفكر بارتياع: «إننـي أنحط أخلاقياً وعقلياً! وليس عبثاً ما قرأته فـي مكان ما أو سمعته من شخص ما عن أن العلاقة بين رجل مثقف وامرأة قليلة الثقافة لا يمكن البتة أن ترفع المرأة إلى مستوى الرجل، بل، بالعكس، تجر الرجل إلى أسفل وتهبط به إلى مستوى المرأة العقلي والأخلاقي»..
وبعد أسبوعين، لم يعد الأمر يقلق خياله البتة، كان يرضخ إما كرهاً، بعد مداعبات طويلة وتوسلات، أو بدافع الشفقة كما كان يحدث غالباً.
وفـي تلك الأثناء كانت لوبكا التي استراحت وأحست بأن تحت قدميها تربة حية حقيقية قد أصبحت تزداد جمالاً بسرعة فائقة، كما يتفتح فجأة بعد مطر غادق ودافئ برعم الزهرة الذي كان بالأمس يحتضر. زايل النمش وجهها الغض، واختفى من عينيها السوداوين تعبير الذهول والحيرة الذي كان يجعلهما تشبهان عيني فرخ غراب صغير، وغدتا صافيتين براقتين، وقوي جسمها وامتلأ بالعافية، وتضرجت شفتاها بالحمرة. بيد أن ليخونين الذي كان يراها كل يوم لم يلاحظ هذا، ولم يكن يصدق عبارات الإطراء التي كان أصحابه يمطرونها بها. بل كان يعبس ويقول فـي سره: «مزاج غبي، يريدون إغاظتي كالصِبْية الصغار».

وكانت لوبكا كربة منزل كانت أقل من عادية، صحيح أنها كانت تستطيع طبخَ حساء ملفوف دسم وكثيف إلى درجة أن الملعقة تقف فيه منتصبة، وإعداد أقراص كفتة ضخمة وشوهاء لا شكل لها، وأنها أتقنت بسرعة لا بأس بها بإشراف ليخونين ذاك الفن العظيم: فن غلي الشاي(الرطل[1] بخمسة وسبعين كوبيكاً)، ولكنها لم تتقدم أكثر من ذلك، ولعل السبب في هذا يعود إلى أن لكل شخص في مضمار كل فن حدوداً قصوى يستحيل عليه تجاوزها. ولكنها بالمقابل كانت تحب جداً شطف الأرضية، وكانت تكرر ذلك كثيراً وبعناية كبيرة حتى إن الشقة سرعان ما أصبحت بؤرة للرطوبة وظهرت فيها دويبة عير القبان[2].

ذات مرة أغرت الدعاية الصحفية ليخونين فاشترى لها بالتقسيط آلة لحبك الجوارب، وكان فن العمل على هذه الآلة التي تَعِدُ، حسبما يقول الإعلان، بربح صاف يبلغ ثلاثة روبلات في اليوم، غير معقَد بالمرة إلى درجة أن ليخونين وسولوفيوف ونيجيرادزه أتقنوه بسهولة خلال عدة ساعات، بل إن ليخونين استطاع أن يحبك جراباً كاملاً فائق المتانة وذا أبعاد هائلة تجعله يبدو واسعاً حتى بالنسبة إلى أقدام مينين وبوجارسكي الماثلين في الساحة الحمراء في موسك. ولكن لوبكا لم تستطع بحال من الأحوال أن تمتلك ناصية هذه الحرفة، وكانت عند كل خطأ أو خلل تضطر إلى طلب المساعدة من الرجال. إلاَّ أنها بالمقابل تعلمت بأناقة شديدة وذوق مرهف،

---

[1] الرطل = ٤٠٩.٥ غرام.

[2] دويبة صغيرة كثيرة الأرجل تعيش في الأماكن الرطبة.

ولم يمض شهر واحد حتى أقبلت محلات صنع القبعات والمتاجر المختصة على اقتناء أعمالها، وكان أعجب مافي الأمر أنها لم تحتج إلى أكثر من درسين لدى خبيرة اختصاصية، ثم تعلمت الباقي من كتاب التعليم الذاتي مسترشدة فقط بالرسوم الملحقة به، ولم يكن بمقدورها أن تنتج ما يزيد ثمنه على روبل فـي الأسبوع، ولكن هذه النقود كانت على قِلّتها مدعاة لاعتزازها، وقداشترت بأول نصف روبل قبضته مبسم سكائر لليخونين.

بعد مضي عدة سنوات كان ليخونين يعترف بينه وبين نفسه، بحسرة وحنين هادئ، إن تلك الحقبة كانت أكثر حقب حياته هدوءاً وطمأنينة وأنساً سواء فـي أثناء دراسته الجامعية أو عمله فـي المحاماة، فقد كان لدى لوبكا هذه ذات الحركات الخرقاء، لوبكا هذه غير الرشيقة، وربما الغبية، روح ما بيتية غريزية، وقدرة ما غير مرئية على أن تخلق حولها جواً مفعماً بالهدوء المشرق المطمئن الهنيء، وإليها بالذات يعود الفضل فـي جعل شقة ليخونين خلال فترة جد قصيرة موئلاً محبباً هادئاً، يشعر فيه رفاقه كافة بالبساطة العفوية والألفة العائلية، ويجدون فيه الراحة النفسية بعد العناء والعوز والجوع والمشاق التي يكابدونها، شأنهم شأن أغلبية طلاب تلك الأيام، فـي أثناء كفاحهم المرير الذي تضطرهم إليه ظروف الحياة القاسية. كان ليخونين يتذكر بعرفان مفعم بالأسى اندفاعها الصادق لتقديم الخدمات، وصمّتها المتواضع المتنبه وهي جالسة أمام السماور فـي تلك الأمسيات التي كانت تزخر بالكلام والجدل والأحلام.

أما التعليم فقد كان يسير ببطء شديد، فجميع أولئك المنوِّرين الأدعياء كانوا يتحدثون مجتمعين ومنفردين عن أن تثقيف العقل البشري، وتربية النفس الإنسانية يجب أن ينطلقا من دوافع الفرد الذاتية، ولكنهم فـي الواقع كانوا يحشون رأس لوبكا بما يبدو لهم هم بالذات لازماً وضرورياً، ويحاولون أن يذللوا معها تلك العقبات العلمية بالذات التي لا يؤدي تجنبها إلى إلحاق أي ضرر.

كان ليخونين ، على سبيل المثال، يرفض تماماً، وهو يعلمها الحساب، تقبُّلَ طريقتها الغريبة، الوحشية، الهمجية، أو، على الأصح، الطفولية البدائية فـي العد. إذ لم تكن تعد إلاَّ بالآحاد والاثنينات والثلاثات والخمسات حصراً. فالرقم «اثنا عشر» مثلاً، هو عندها ثلاثتان مرتين، والرقم «تسعة عشر» هو ثلاث خمسات واثنينتان. وكانت بطريقتها هذه تعد بسرعة المِعداد حتى المئة تقريباً، ولم تكن تقدم على تجاوز هذا الحد، وفـي الحقيقة لم يكن ثمة حاجة عملية إلى ذلك. وعبثاً كان ليخونين يسعى لتحويلها إلى الطريقة العشرية فـي العد. ولم تكن جهوده تؤدي إلاَّ إلى جعله يستشيط غضباً، ويصيح فـي وجه لوبكا التي كانت تنظر إليه صامتة بعينين مفتوحتين على سعتهما، مشدوهتين ومذنبتين، وقد تلاصقت رموشهما من الدمع فبدت كسهام سوداء طويلة. وقد ساعدتها بنية عقلها النزوية كذلك على البدء بإتقان الجمع والضرب بسهولة نسبياً بينمنا كان الطرح والقسمة بالنسبة إليها سداً لا يمكن اختراقه، ولكنها بالمقابل كانت تستطيع أن تحل بسرعة مدهشة وسهولة وفطنة مختلف الأحاجي الفكاهية الشفوية، وكانت هي نفسها لا تزال تذكر كثيراً جداً من هذه الأحاجي المتداولة منذ مئات السنين فـي أوساط الفلاحين. بيد أن ذهنها كان ينغلق تماماً أمام الجغرافيا، صحيح أنها كانت أمهر من ليخونين بمئة مرة فـي تحديد الجهات الأربع فـي الشارع والحديقة والغرفة – بتأثير الغريزة الفلاحية القديمة – ولكنها كانت ترفض بعناد كروية الأرض ولا تعترف بالأفق، وعندما كانوا يقولون لها إن الكرة الأرضية تدور فـي الفضاء كانت تكتفي بأن تنخر فحسب،

وكانت الخرائط الجغرافية فـي نظرها مجرد رسوم مشوشة غير مفهومة مطلية بالألوان، إلاَّ أن بعض الأشكال كانت تتذكرها بدقة وسرعة. فعندما كان ليخونين يسألها: «أين إيطاليا؟» كانت تجيب بنبرة انتصار: «هاهي. الجزمة»، مشيرة بإصبعها إلى شبه الجزيرة الإبنينية. - «السويد والنروج؟» - «الكلب القافز من السطح». - «بحر البلطيق؟» - «الأرملة الجاثية على ركبتها» - «البحر الأسودج؟ » - «فردة الحذاء» - «إسبانيا» - «السمين ذو السدارة. هاهو...»، وهلم جرا. وفـي التاريخ لم تكن الأ/ور أفضل. لم يفطن ليخونين إلى أن لوبكا ذات النفس الطفولية التواقة إلى التخيل كان يمكن أن تستوعب الأحداث التاريخية بسهولة لو رويت لها كنوادر مضحكة أو قصص بطولية مؤثرة؛ أما هو فقد كان يعاملها كما اعتاد أن يعامل تلاميذ الصف الرابع أو الخامس الذين يدرّسهم بهدف إعدادهم لتقديم الامتحان، ويرهقها بحفظ الأسماء والسنوات، أضف إلى ذلك أنه كان ضيق الصدر جداً، وغير قادر على تمالك نفسه، وسريع الغضب، وسرعان ما يتعب؛ كما أن الكره المكنون تجاه هذه الفتاة التي شوهت كل حياته على نحو مباغت وغبي، هذا الكره الذي يستتر عادة فـي أعماقه، ولكنه لا ينفك يستفحل، غدا فـي أثناء الدروس يندفع إلى الخارج أكثر فأ:ثر وبتجنٍ أكبر.

فـي حين أن نيجيرادزه كان يحرز نجاحاً أكبر بكثير كمعلم. كان غيتاره ومندولينه معلقين على الدوام على مسمارين فـي المطبخ بواسطة شريطتين. وكانت لوبكا تميل إلى الغيتار ذي الصوت الناعم الدافئ أكثر من المندولين ذي الثغاء المعدني الذي يثير الأعصاب. وعندما كان نيجيرادزه يزورهما (ثلاث أو أربع مرات فـي الأسبوع مساء) كانت تنزع بنفسها الغيتار عن الجدار وتمسحه بمنديلها بعناية وتقدمه له. فيعكف هو بعض الوقت على ضبط أوتاره، ثم يتنحنح ويسترخي بفتور على مسند الكرسي، ويبدأ الغناء بصوت تينورحاد تشوبه بعض البحة ولكن حسن الوقع، منضبط الإيقاع:

صوت القبلة الخائن
انداح فـي سكون الليل،
القبلة التـي تسحر قلبين متقدين،
مباحة للعاشقين
خلال لحظة اللقاء............
وفـي أثناء ذلك كان يتظاهر بأنه يذوب طرباً لغنائه، ويغمغم عينيه ويهز رأسه فـي المقاطع العاطفية المتأججة، أو يعمد فـي هنيهات الوقف إلى إبعاد يده اليمنى عن الأوتار، ثم يتحجر فجأة للحظة، ويغرز عينيه الفاترتين النديتين الخروفيتين فـي عيني لوبكا. كان يعرف عدداً لا يحصى من القصائد والأغاني القصيرة والأهازيج الفكاهية القديمة. وكان أكثر ما يعجب لوبكا تلك المقاطع الرباعية الأرمنية عن كَرَبيت التي يعرفها الجميع:
كَرَبيت عنده بوفية
والبوفية فيها سكاكر
والسكاكر عليها صورة
والصورة صورة كربيت
وكان الأمير يعرف عدداً لا نهاية له من هذه المقاطع (وهي تسمى فـي القفقاس كينتو أوري – أي أغاني الباعة الجوالين)، بيد أن المذهب السخيف فيها جميعاً يظل دائماً هو نفسه:
مرحى، مرحى كاتينكا
كاترين بيتروفنا
لا تبوسيني فـي خدي
بل بوسيني فـي قفاي

وكان نيجيرادزه عندما يغني هذه المقاطع يخفض من صوته دائماً ويرسم على وجهه تعبير الاندهاش الجدي من كَرَبيت، وكانت لوبكا تضحك حتى الألم وانبثاق الدموع والتشنج العصبي. وذات مرة لم تتمالك نفسها واندفعت تغني معه، وجاء غناؤهما منسجماً جداً. وشيئاً فشيئاً، عندما كفت بالتدريج عن الاستحياء منه، أصبحت تشاركه الغناء أكثر فأكثر. وتبين أن لدى لوبكا صوت كونتر التو[1] خفيضاً يتسم على صغر مساحته بعذوبة فائقة لم تنل منها حياتُها السابقة، بما فيها من نزلات برد، ومعاقرة خمر، وإفراط في ممارسة المهنة؛ والأهم من ذلك أن العناية الإلهية قد وهبتها بالمصادفة هبة طريفة تتمثل بامتلاكها قدرة غريزية فطرية على أداء الصوت الثاني بمنتهى الدقة والجمال، وبأصالة لا تخونها البتة، وقد حلَّ وقتٌ في أواخر فترة تعارفهما لم تعد فيه لوبكا هي التي ترجو الأمير، بل أصبح هو الذي يرجوها أن تغني إحدى أغاني الحب الشعبية التي كانت تعرف منها الكثير. وكانت عندئذٍ تتكئ بمرفقها إلى الطاولة، وتسند رأسها براحتها على طريقة النساء القرويات، وتغني على أنغام موسيقا مرافِقةٍ تُعزف بهدوء واهتمام وإتقان:

أوه، سئمت هذه الليالي، أوه، ضجرت منها
ليالي الفراق والبعد عن حبيبي، صديقي
أوه، ألست أنا التي تحامقت
وأغضبت صديقي
عندما قلت له إنه سكير مدمن!

---

[1] أخفض الأصوات النسوية.

- سكير مدمن! – كان الأمير يردد معها الكلمتين الأخيرتين ويهز بشجن رأسه الجعد المائل إلى جنب، ويجهد الاثنان في أن ينهيا الأغنية بطريقة تجعل الصوتين، وارتعاش الأوتار الذي لا يكاد يلحظ، يخفتان شيئاً فشيئاً، بحيث يتعذر تمييز اللحظة التي يتلاشى فيها الصوت ويحل الصمت.

وبالمقابل أخفق الأمير نيجيرادزه إخفاقاً ذريعاً بشأن «إهاب النمر»، قصيدة الشاعر الجورجي الشهير روستافيلي. فجمال القصيدة كان بالنسبة إليه يتجلى، بالطبع، عندما يتلوها بلغته الأم، ولكنه ما إن كان يشرع بالترنم بها متفيهقاً، متقعراً، منتخعاً حتى كانت لوبكا تبدأ تهتز من الضحك الذي تحاول في البداية مقاومته، وتظل هكذا طويلاً إلى أن تنفجر في النهاية بقهقهة طويلة مجلجلة تملأ الغرفة كلها. وعندئذ كان نيجيرادزه يطبق كتاب شاعره المحبوب بغضب، ويشتم لوبكا ملقباً إياها بالحمار والجمل. ولكنهما سرعان ما كانا يتصالحان.

كان يحدث أحياناً أن يصاب نيجيرادزه بنوبات من المرح التيسي المشاكس، فيتظاهر بأنه يريد معانقة لوبكا، ويحملق إليها بعينين تطفحان شهوة مبالغاً فيها، ويهمس بصوت مسرحي مدنف:

- يا روحي أنت!.. يا أجمل وردة في جنة الله! العسل والحليب يسيلان على شفتيك؛ وأنفاسك ألذ من شذا اللحم المشوي. دعيني أعب حبور النرفانا من كأس شفتيك، آه، يا أطيب فستقة تفليسية لدي!..

وكانت هي تضحك، وتغضب، وتضربه على يديه، وتهدده بأنها ستشتكيه إلى ليخونين .

فيفتح الأمير ذراعيه ويقول: فاه! وماذا يعني ليخونين؟ ليخونين صديقي وأخي وصاحبي، ولكن هل يعرف ماهو الحب؟ وهل تفهمون أنتم، يا أهل الشمال، ماهو الحب؟ إننا نحن الجورجيين من خُلِقَ من أ جل الحب، انظري يا لوبا! سأريك الآن ماهو الحب ب ب!...

ثم يشد قبضتيه، وينحني بجذعه إلى الأمام، ويبدأ بتدوير حدقتيه بوحشية، ويصرف بأسنانه، ويزأر كالأسد زئيراً مخيفاً، مما يجعل لوبكا، على الرغم من أنها تعرف أن هذا مزاح، تمتلئ بخوف طفولي، وتهرب إلى الغرفة الأخرى.

ولكن ينبغي القول إن هذا الفتى الذي كان على العموم ضعيفاً جداً أمام إغراء العلاقات الغرامية العرضية الخفيفة كان قد رضع مع حليب أمه الجورجية الالتزام الثابت بالامتناع عن محرمات أخلاقية معينة، ومراعاة العادات المقدسة التي تحكم العلاقة بزوجة الصديق. ثم إنه كان، لابد، يدرك – وهنا ينبغي القول إن هؤلاء الشرقيين، على الرغم من سذاجتهم الظاهرية، وربما بفضلها بالذات، يمتلكون، متى أرادوا، حساً داخلياً شديد الرهافة – كان يدرك إنه إذا اتخذ من لوبكا عشيقة له، ولو لدقيقة واحدة، سيحرم إلى الأبد من الشعور بالألفة العائلية المسائية الهادئة المحببة التي شدّ ما اعتادها. إن هذا الإنسان الذي كان يخاطب كل من في الجامعة تقريباً بصيغة «المفرد»، كان مع ذلك يشعر بأنه وحيد تماماً في هذه المدينة الغريبة، وفي هذا البلد الذي لا يزال حتى الآن غريباً عنه!..

كان من يتمتع بهذه الدروس أكثر من الجميع هو سولوفيوف. فهذا الإنسان الضخم القوي اللا مبالي أخذ ينقاد على نحو ما لا إرادي، ودون أن يلحظ هو نفسه ذلك، لتلك الجاذبية البهية الناعمة الخفية اللا محسوسة التي تنطوي عليها الانوثة، والتي تستتر في أحيان غير قليلة تحت غطاء شديد الخشونة، وضمن وسط بالغ القساوة والبشاعة. كانت التلميذة تسيطر، والمعلم يطيع، وبحكم خصائص النفس البدائية، ولكن بالمقابل الطازجة، العميقة، الأصيلة، كانت لوبكا تميل إلى عدم الانقياد لمناهج الآخرين، وإلى البحث عن أساليب غريبة خاصة بها. فهي، مثلاً، شأنها شأن كثير من الأطفال، تعلمت الكتابة قبل القراءة، وليست هي، الوادعة والمتساهلة بطبعها، ومن كان يرفض بعناد عند القراءة ربط الحرف الصوتي بالساكن أو بالعكس، بل إحدى خواص عقلها هي التي كانت ترفض؛ أما في الكتابة فقد كانت تنجح في هذا. وخلافاً لما هو شائع بين التلاميذ كان تشعر بميل قوي إلى تعلم حسن الخط حسب الخطوط المائلة: كانت تكتب وهي منحنية بشدة فوق الورقة، وتتنهد بعمق، وتنفخ من شدة الجهد على الورقة، وكأنها تحاول إزالة غبار متخيل، وتلعق شفتيها، وتدفع بلسانها باطن خدها الأيمن تارة، والأيسر تارة أخرى. لم يكن سولوفيوف يعارضها في شيء، بل كان يسلك الطرقات التي تشقها غريزتها. وينبغي القول إن مدة الشهر والنصف هذه كانت كافية لأن تتعلق نفسه الضخمة الرحبة الجبارة بهذا المخلوق العرضي الضعيف المؤقت. كان هذا حباً حَدِباً مضحكاً سمحاً مندهشاً بعض الشيء، وعناية حريصة من جانب فيل طيب تجاه فرخ ضعيف عاجز أزغب الحوصلة.

كانت القراءة بالنسبة لكليهما متعة لذيذة، وهنا أيضاً كان ذوق لوبكا هو الذي يتحكم فـي اختيار الكتب، أما سولوفيوف فكان يكتفي بالسير فـي الاتجاه الذي يحدده هذا الذوق والمنعرجات التي يسلكها. فلوبكا، على سبيل المثال، تعبت من رواية دون كيشوت ولم تستطع أن تكملها، وانصرفت عنها فـي النهاية لتستمع بمتعة إلى رواية روبنسون كروزو، وقد بكت بغزارة عند مشهد لقائه بأقاربه، ولكن سمات الحياة اليومية الإنكليزية كانت بالنسبة إليها غريبة وغير مفهومة. وقد قرأا تشيخوف أكثر من مرة وكانت لوبكا تتبين بيسر ودون مشقة جمال لوحاته، وابتسامته وأساه. وكانت قصص الأطفال تمس مشاعرها وتؤثر فيها إلى درجة أن منظرها يغدو مثيراً للبهجة والضحك. وذات مرة قرأ لها سولوفيوف قصة تشيخوف «النوبة» حيث يصور الكاتب، كما معروف، طالباً يذهب أول مرة إلى المحل العمومي، ويصاب فـي اليوم التالي بنوبة من التشنجات المتأتية عن معاناة نفسية حادة وشعور بالذنب العام. ولم يكن سو نفسه يتوقع مثل هذا الانطباع العميق الذي أحدثته القصة فـي نفسها. فقد انخرطت فـي البكاء، وراحت تشتم وتضرب كفاً بكف ولا تكف عن الهتاف:

- يا إلهي! .. من أين يأخذ كل هذا، وما هذه البراعة! بالضبط كما يحدث عندنا!

وأحضر معه مرة كتاباً عنوانه «قصة مانون ليسكو والفارس دي غريو، تأليف ا لأباتي بريفو»، وينبغي القول إن هذه كانت أول مرة يقرأ فيها سولوفيوف نفسه هذه الرواية الرائعة، ولكن لوبكا قوّمتها على نحو أعمق منه وأرهف بكثير. إذ إن غياب الحبكة، وسذاجة السرد، والإفراط فـي العاطفية، وقِدَم أسلوب الكتابة

كل هذا مجتمعاً كان يشيع الفتور في نفس سولوفيوف. أما لوبكا فكانت تتلقى التفاصيل السارة والمحزنة والمؤثرة والخفيفة في هذه الرواية العجيبة الخالدة لا بأذنيها فحسب، بل بعينيها أيضاً كما يبدو، وبجماع قلبها المفتوح ببراءة ساذجة.
كان سولوفيوف يقرأ حانياً بشدة رأسه الأشعث الذهبي المضاء بنور مصباح الطاولة فوق الكتاب:
«نسينا في سين – ديني عزمنا على أن نتكلل، خرقنا قوانين الكنيسة، ودون أن نفكر في هذا، أصبحنا زوجين».
- ما هذا الذي فعلاه؟ يعني على هواهما؟ من دون كاهن؟ هكذا؟!
- سألت لوبكا بقلق تاركة العمل في أزهارها الاصطناعية.
- طبعاً ، وماذا في ذلك؟ الحب الحر، ولا شيء سواه، مثلكما أنت وليخونين.
- مثلي أنا! لا، هذه حالة أخرى تماماً، لقد أخذني، أنت نفسك تعرف من أين؟ بينما هي فتاة عذراء ونبيلة. إنَّ تصرفه على هذا الشكل سفالة منه، وصدقني يا سولوفيوف، إنه فيما بعد سيهجرها حتماً، ياللفتاة المسكينة! ايه، ايه، تابع القراءة..
ولكن بعد بضع صفحات تحولت شفقة لوبكا وعواطفها كلها من جانب مانون إلى جانب الفارس المخدوع:
«كانت زيارات السيد دي.ب. ومغادرته خلسة تثير حيرتي، كما أنني تذكرت مشتريات مانون غير الكبيرة التي تفوق إمكاناتنا المادية. كل هذا كانت تفوح منه رائحة سخاء عشيق جديد. ولكن، لا، لا، - كنت أردد بيني وبين نفسي - من المستحيل أن تخونني مانون! هل تعرف أنني أعيش من أجلها فقط. إنها تعرف حق المعرفة أنني أعبدها».
هتفت لوبكا: - آه، غبي، غبي! أليس من الواضح تماماً إنها تعيش كمحظية على حساب هذا الغني! آه، يالها من فاسدة!..

وكلما كان مضمون الرواية يزداد تكشفاً كان تجاوب لوبكا معها يزداد حيوية وحماسة، لم تعترض البتة على أن مانون كانت تسلب رعاتها الجدد أموالهم بمساعدة عشيقها وأخيها، وعلى أن دي غريو كان يغش بورق اللعب فـي أوكار القمار، ولكن كل خيانة جديدة كانت تجعلها تستشيط غضباً، وكانت معاناة الفارس وآلامه تدفع الدموع إلى عينيها. سألت ذات مرة:

- سولوفيوف، يا عزيزي، من هو مؤلف هذه القصة؟

- إنه كاهن فرنسي.

- لم يكن روسياً؟

- لا، قلت لك إنه فرنسي، ألا ترين أن كل شيء عنده فرنسي: المدن فرنسية، والناس أسماؤهم فرنسية.

- أنت تقول إنه كان كاهناً؟ فمن أين عرف إذاً كله هذا؟

لقد عرفه... هكذا. من قبل كان شخصاً مدنياً عادياً، من النبلاء، وبعد ذلك أصبح راهباً. وقد شاهد فـي حياته أشياء كثيرة. وفيما بعد ترك الرهبنة وعاد ثانية إلى الحياة المدنية. على كل هنا فـي مقدمة الكتاب كتبوا عنه كل شيء بالتفصيل.

قرأ لها سيرة الأباتي بريفو، وأصغت إليه لوبكا بانتباه، وكانت فـي أثناء ذلك تهز رأسها بحركة ذات مغزى، وتسأل فـي بعض الأحيان عما لم تفهمه، وعندما ا نتهى قالت بصوت ممطوط وهي مستغرقة فـي التفكير:

- هكذا كان إذاً! إن ما كتبه جميل جداً. ولكن لماذا هي منحطة هكذا؟ فهو يحبها بقوة، ويحبها مدى الحياة، بينما هي تخونه باستمرار.

- وماذا باليد يا لوبوتشكا؟ هي أيضاً كانت تحبه، ولكنها كانت فتاة فارغة، طائشة، لا يهمها سوى الملابس، وخيولها الخاصة، والألماس.
قالت لوبكا بحنق وهي تضرب قبضة بقبضة:
- لو كان الأمر لي لسحقتها سحقاً، هذه المنحطة! وهل يسمى هذا حباً؟! إذا أنت أحببت شخصاً، فكل شيء منه يجب أن يكون محبباً إليك، إذا أخذوه إلى السجن، يجب أن تذهب معه إلى السجن. وإذا صار لصاً يجب أن تساعده. وإذا صار شحاذاً عليك أن تكون معه. وما هَمَّ إذا كنت لا تجد ما تقتات به سوى كسرة خبز أسود مادام هناك حب؟ إنها منحطة وحقيرة! ولو كنت مكانه لهجرتها، أو لكنت، بدلاً من أن أنتحب، انهلت عليها ضرباً وتركتها شهراً كاملاً تداري كدماتها.. السافلة!
ظلت طويلاً لا تستطيع أن تسمع نهاية القصة: كانت كل هنيهة تنفجر باكية بدموع حارة صادقة فتتوقف القراءة، ولم يستطيعا إنهاء الفصل الأخير سوى على أربع دفعات. وقد اغرورقت عينا القارئ نفسه بالدموع أكثر من مرة في أثناء ذلك.
المصائب والنكبات التي حلت بالحبيبين في السجن، وإكراه مانون على السفر إلى أمريكا، وتضحية دي غريو ولحاقه بها طوعاً، كل هذا استحوذ على خيال لوبكا وهزها حتى الأعماق، إلى درجة أنها كانت تنسى إبداء ملاحظاتها. وكانت وهي تصغي إلى قصة موت مانون الهادئ الرائع وسط السهل المقفر تجلس دون حراك، وقد شدت ذراعيها إلى صدرها، وراحت تنظر إلى ضوء المصباح والدموع تنهمر بغزارة من عينيها المفتوحتين، وتسقط كالمطر على الطاولة

ولكن عندما شرع الفارس دي غريو الذي ظل يومين مستلقياً بجانب جثة غاليته مانون دون أن يحول شفتيه عن يديها ووجهها، عندما شرع أخيراً بحفر قبر لها بالقطعة المتبقية من سيفه المكسور، انخرطت لوبكا في بكاء شديد أفزع سولوفيوف وجعله يسارع لإحضار ماء. وبعد أن هدأت قليلاً ظلت طويلاً تنسج وطفقت تغمغم وشفتاها المنتفختان، ترتعشان:

- آخ! ما أتعس هذه الحياة التي عاشاها! وما أمرّ هذا المصير! ولا أدري على من أُشفق الآن أكثر: عليه أم عليها: قل لي يا عزيزي سولوفيوف: أحقاً هكذا يحدث دائماً؟ ما إن يعشق رجلٌ امرأةً وتعشقه، حتى يعاقبها الرب لا محالة، لماذا يحدث هذ يا عزيزي؟ لماذا؟

ولكن إذا كان الأمير الجورجي وسولوفيوف الطيب القلب يمثلان في هذه القضية الطريفة – قضية تثقيف عقل لوبكا ونفسها – عنصراً مخففاً لحدة الأشواك التي تنبتها مصاعب الحياة اليومية، وإذا كانت لوبكا تغفر لليخونين مماحكته الصارمة كرمى أول حب صادق لا نهائي يملأ قلبها، وتغفرها له بطيب خاطر، كما كانت ستغفر له اسباب أو الضرب أو أية جريمة خطيرة، فإن دروس يمانوفسكي كانت بالنسبة إليها عذاباً حقيقياً وعبثاً مديداً مستمراً. وينبغي القول إنه كان في دروسه كما لو للنكاية، أكثر انتظاماً ودقة بكثير من أي مدرس يعمل لقاء تعويض أسبوعي.

كان سيمانوفسكي هذا، بثبات آرائه التي لا تقبل الدحض، وثقة نبرته، وتعليمية لهجته، يسلب لوبكا المسكينة إرادتها، ويشل نفسيتها، كفعله في أثناء الاجتماعات الجامعية، أو اللقاءات الجماهيرية، عندما يُخضع لتأثيره عقول المبتدئين المتهيبة الخجولة.لقد كان خطيباً في الاجتماعات الجماهيرية، وعضواً بارزاً في لجان تنظيم المطاعم الطلابية

وكان يشارك في كتابة المحاضرات وطباعتها وإصدارها، ويُنتخب عريفاً للصف، وكان، أخيراً، يساهم مساهمة فعالة جداً في صندوق التسليف الطلابي، كان من أولئك الناس الذين يصبحون بعد تركهم مقاعد الدراسة زعماء أحزاب، وذوي سلطة لا محدودة على الضمائر النقية المتفانية، ويقضون حقبة اكتسابهم خبرة سياسية في مكان ما كبلدة تشو خلو ما مثلاً، جاذبين بشدة انتباه روسيا كلها إلى وضعهم البطولي البائس، ولا يلبثون بعد ذلك أن يستغلوا ماضيهم ببراعة لا تُضاهى، ويضمنوا لأنفسهم مستقبلاً باهراً بفضل نشاطهم الواسع في مجال المُحاماة، أو انتخابهم نواباً، أو زواجهم المقترن بتملك قطعة كبيرة من الأراضي الخصبة، والعمل في المجلس البلدي، ومن ثم يبدؤون الانحراف بحذر نحو اليمين، أو على الأصح يبدؤون الانسلاخ من جلودهم دون أن يلحظوا هم أنفسهم ذلك، وبالطبع، دون أن يلحظ ذلك الآخرون بالمرة، ويظلون على ذلك إلى أن يربّوا كروشاً، ويصابوا بالنقرس ومرض الكبد، وعندئذٍ يشرعون في التذمر من العالم كله، ويدّعون أن الناس لم يفهموهم، وأن زمنهم كان زمن المثل العليا المقدسة، وهم يتصرفون في حياتهم العائلية كطغاة مستبدين، ولا يندر أن يعملوا بالربا.

كان طريق تثقيف عقل لوبكا ونفسها واضحاً بالنسبة إليه كما هو واضح وغير قابل للدحش كل ماكان ينوي فعله؛ وقد أراد في البداية أن يثير اهتمامها بالتجارب الكيميائية والفيزيائية. كان يقول لنفسه: «العقل الأنثوي البكر سينبهر، وعندئذٍ سأستحوذ على انتباهها، وأنتقل من الترهات والحيل البهلوانية إلى ما سيقودها نحو مركز المعرفة العالمية، حيث لا مكان للخرافات والخزعبلات، وحيث لا يوجد سوى المجال الرحب لإجراء التجارب على الطبيعة».

وينبغي القول إنه لم يكن منطقياً مع نفسه في تدريسه، وكان يحضر معه كل ما يقع تحت يده، مما كان يثير دهشة لوبكا. فقد أحضر لها مرة سهم ألعاب نارية كبيراً صنعه بنفسه، يتألف من أنبوب طويل من الكرتون مملوء بالبارود ومثنى على شكل هارمونيكا، ومربوط ربطاً وثيقاً بشريط مشدود عرضانياً. وعندما أشعله راح الأنبوب يقفز في المطبخ وفي غرفة النوم، وظل هكذا مدة طويلة، مصدراً فرقعة، ومالئاً الشقة بالدخان والروائح الكريهة، بيد أن هذا لم يثر دهشة لوبكا تقريباً، وقالت إن هذا ليس أكثر من سهم ناري عادي، وإنها رأت مثله من قبل، وإن أمثال هذه الاشياء لا تدهشها. ولكنها طلبت منه الإذن بفتح النافذة، وقد أحضر بعد ذلك قارورة زجاجية كبيرة، وورقة رصاصية، وقلفونة[1]، وقطعة من القماش الخفيف الذي يسمونه «ذيل الهرة» وصنع منها وعاء ليدن، وبالرغم من أن الشحنة كانت ضعيفة إلاَّ أنها كانت محسوسة. وقد صاحت لوبكا عندما شعرت بنقرة جافة في خنصرها:

- فليأخذك ابليس، أيها الشيطان!

وقام سيمانوفسكي فيمابعد بعملية الحصول على الأوكسجين بواسطة ثاني أوكسيد المنغنيز المسخن المخلوط بالرمل، وقارورة صيدلانية صغيرة، وحبل من مادة الغوتابيرشا ممتد من كوخ ايسمارخ[2]، وطست مملوء بالماء، ومرطبان مربى فارغ. وقد توهجت الفلينة المشتعلة والفحم والسلك في المرطبان بنور باهر إلى حد يؤلم العين، فطفقت لوبكا تصفق وتزعق بابتهاج شديد:

---

[1] مادة هشة من صمغ الصنوبر.

[2] كوب خاص كان يستخدم لأغراض طبية.

- مرة أخرى أيها البروفيسور!.. مرة أخرى، مرة أخرى من فضلك!..
ولكن عندما مزج سيمانوفسكي بعضاً من الهيدروجين والأوكسجين داخل زجاجة شمبانيا فارغة، ولف الزجاجة بمنشفة من باب الحيطة، وأمر لوبكا أن تقرب فوهة الزجاجة من شمعة مشتعلة، فدوّى انفجار يجعلك تظن أن أربعة مدافع قد أُطلقت قذائفها معاً، وتساقطت من شدته قطع من طينة السقف، عندئذٍ أصيبت لوبكا بالذعر، ولم تسترد رباطة جأشها إلاَّ بصعوبة، وقالت بعد ذلك بشفتين مرتعشتين، ولكن بلهجة تنم على الاعتزاز بالنفس: - اعذرني من فضلك، ولكن بما أن لي الآن شقتي الخاصة بي، ولم أعد من أولئك الفتيات بالمرة، بل امرأة محترمة، فإنني أرجو ألاَّ تقوم عندي بعد الآن بمثل هذه الأعمال الشنيعة، كنت أظن أنك كإنسان ذكي ومثقف لا تتصرف إلاَّ برصانة ونبل، فإذا بك لا تقوم إلاَّ بالحماقات، هذا يمكن أن يودي بك إلى السجن.
وفيما بعد، عندما باتت هذا الأحداث من ذكريات الماضي البعيد كانت لوبكا تروي لمحادثيها أنها كانت تعرف طالباً يصنع الديناميت في حورها.
وعلى كل فإن سيمانوفسكي الغامض هذا، الذي كان يتمتع بنفوذ كبير في وسطه الشبابي، حيث كان يتعامل في أغلب الأحيان مع النظرية، والذي بدا أخرق عندما وجد نفسه يجري تجربة عملية على نفس حية، لابد أنه كان، في الحصيلة النهائية، غبياً، ولكنه كان يستطيع أن يخفي ببراعة هذه الصفة التي هي الصفة الوحيدة الصادقة لشخصيته الحقيقية.

وعندما مُني بالإخفاق في العلوم التطبيقية انتقل على الفور إلى الميتافيزيكا. وقد صرح للوبكا مرة بلهجة مفرطة في الثقة بالنفس وبنبرة لا تدع أي مجال للاعتراض أن الإله لا وجود له، وأنه مستعد للبرهنة على ذلك خلال خمس دقائق، فقفزت لوبكا من مكانها وقالت له بحزم إنها، وإن كانت في السابق مومساً، تؤمن بالإله ولا تسمح لأحد بأن ينال منه بحضورها، وأنه إذا استمر في هذه الحماقات فإنها ستشكوه إلى فاسيلي فاسيليفتش. وأردف بصوت باكٍ:

- وسأقول له أيضاً إنك، بدلاً من أن تعلمني، تثرثر بكلام سخيف، وتتفوه بكلمات قبيحة، وتظل طوال الوقت واضعاً يدك على ركبتي، وهذا بعيد كل البعد عن الشرف.

ولأول مرة منذ بداية تعارفهما ابتعدت بحركة مفاجئة عن معلمها الذي كانت طوال الوقت تهابه وتخجل منه.

وبالرغم من أن سيمانوفسكي مني بعدة إخفاقات إلاَّ أنه استمر يعمل بعناد على التأثير في عقل لوبكا وخيالها. حاول أن يشرح لها نظرية أصل الأنواع بدءاً من الأميبا وانتهاءً بنابليون.

وفيما كانت لوبكا تصغي إليه بانتباه كانت تطل من عينيها نظرة متوسلة تقول: «متى ستكف عن هذا في النهاية؟»، تثاءبت في منديلها ثم عللت ذلك بلهجة المذنب: «اعذرني، هذا يحدث معي بسبب ضعف الأعصاب»، ولم يكن ماركس بأسعد حظاً: فالبضاعة، وفائض القيمة، وصاحب المصنع، والعامل، المتحولون جميعاً إلى صيغ جبرية لم يكونوا ف ينظر لوبكا أكثر من أصوات لا معنى لها تهز الهواء، وكانت، وهي الصادقة جداً مع نفسها، تهب من مكانها بسرور في كل مرة تسمع فيها ما يجعلها تعتقد أن حساء الشوندر قد غلى، أو أن الماء في السماور يوشك أن يفور.

لا يمكننا القول إن سيمانوفسكي لم يكن يحظى بنجاح لدى النساء. فثقته المفرط بنفسه، ولهجته الرزينة القاطعة كانتا تؤثران دائماً في النفوس البسيطة، ولاسيما النفوس الطازجة الساذجة السريعة التصديق. وكان يتخلص من علاقاته الطويلة بمنتهى السهولة دائماً: فإما أنقدره يدعوه لأداء رسالة خطيرة كبرى تضمحل أمامها العلاقات العائلية والغرامية، أو يتظاهر بأنه شخص خارق فوق البشر، وكل شيء له مباح (آه، يانيتشيه، منذ زمن بعيد أساؤوا تفسيرك لتلاميذ المدارس على نحو شائن!)، كانت مقاومة لوبكا السلبية التي لا تكاد تلحظ، ولكنْ المراوغة بعناد، تثير حنقه وتقلقه،وكان أكثر مايثيره ويستفزه أن الفتاة كانت من قبل في متناول الجميع، وكانت مستعدة لأن تمنح حبها في يوم واحد عدة رجال على التوالي لقاء روبلين من كل واحد، وها هي الآن تلعب فجأة لعبة الحب الشريف المنزه عن الغرض، كان يقول: «هراء، هذا غير ممكن، إنها تتصنع، وربما لم أجد الأسلوب المناسب للتعامل معها».

وفي كل يوم كان يتشدد أكثر في طلباته، ويزيد من صرامته ومماحكته، وكان يعتمد في أثناء ذلك على نفوذه الدائم الذي يرهب الفكر ويسحق الإرادة، والذي قلما خانه، وأغلب الظن أن اعتماده عليه لم يكن يمليه عليه الوعي، بل العادة.

ذات مرة اشتكته لوبكا إلى ليخونين :

- إنه يا فاسيلي فاسيليفتش، صارم جداً معي، وأنا لا أفهم مايقول، ولا أريد أن أستمر في التعلم معه.

وقد هدّاها ليخونين بصعوبة وبعد جهد كبير، ولكنه مع ذلك فاتح سيمانوفسكي في الأمر، فأجابه هذا ببرود:

- كما تريد، يا عزيزي، إذا كانت طريقتي لا تعجبك أو لا تعجب لوبا فإنني مستعد للتخلي، إن مهمتي تقتصر على أن أُدخل في عملية تعليمها عنصر الانضباط الحقيقي. وإذا كان هناك شيء لا تفهمه، فإنني أجبرها على حفظه عن ظهر قلب. ولكن هذا سينتهي مع الزمن، هذا أمر لابد منه، تذكّرْ يا ليخونين كم كان صعباً علينا الانتقال من الحساب إلى الجبر، عندما كانوا يجبروننا على استبدال الأرقام البسيطة بالحروف دون أن نعرف لماذا يجب أن نفعل ذلك، كما لم نكن نعرف لماذا كانوا يعلموننا النحو والصرف، بدلاً من أن يوصونا، ببساطة، بكتابة القصص والأشعار بأنفسنا.

وفي اليوم التالي قال لها وهو ينحني بشدة تحت غطاء المصباح المعلق، مقترباً من جسمها، ومتشمماً صدرها وتحت إبطيها:

- ارسمي مثلثاً... نعم... هكذا وهكذا، وسأكتب أنا في الأعلى: «الحب»، اكتبي أنت فقط حرف «ح» ثم اكتبي تحته حرفي «ر»، «م»، وهكذا ستكون لدينا جملة:حب الرجل والمرأة، وبِسَمْت صارم وثابت كسمت قدماء الكهنة راح يهذر بأحاديث جنسية مختلفة، وأنهى كلامه بشكل مفاجئ تقريباً:

- وهكذا يجب أن تعلمي يا لوبا أن الرغبة في الحب هي كالرغبة في الطعام والشراب والتنفس.

وضغط بشدة على فخذها فوق الركبة بكثير، فارتبكت ثانية، وحاولت بطريقة لا تكاد تُلحظ إبعاد قدمها بالتدريج كيلا تغضبه.

- قولي لي: هل ستزعل أختك مثلاً أو أمك أو زوجك إذا أنت لم تتغذي بالمصادفة في المنزل، بل عرجت على المطعم أو كافتيريا لتكسري حدة جوعك.

والحب أيضاً هكذا، لا أكثر ولا أقل، لذة فيزيولوجية، ربما كانت أقوى وأكثر حدة من سواها، ولك لا شيء أكثر من هذا، فلنقل على سبيل المثال إنني الآن أريدك كامرأة، وأنت...

- دعك من هذا أيها السيد – قاطعته لوبكا بانزعاج – مالك لا تتحدث طوال الوقت إلاَّ عن هذا الموضوع، تعيد وتكرر أغنية الشيطان. قلنا لك: لا، والف لا، أتظنني لا أرى إلى أين تريد أن تصل؟ ولكنني لن أوافق على الخيانة مهما حصل، لأن فاسيلي فاسيليفتش هو ولي نعمتي، وأنا أقدسه، بروحي كلها... أما أنا فإنك تنفرني منك بسخافاتك هذه..

ومرة سبّب للوبكا – انطلاقاً من مبادئه النظرية كذلك - إزعاجاً شديداً وفاضحاً. فقد كان الحديث قد شاع في الجامعة منذ مدة طويلة عن أن ليخونين قد أنقذ فتاة من أحد المحال العمومية، وهو الآن عاكف على إحيائها أخلاقياً من جديد. وكان من الطبيعي أن يصل هذا الحديث إلى أماع الطالبات اللواتي يتشاركن في الحلقات الطلابية.وذات مرة عمد سيمانوفسكي ذاته، ولا أحد غيره، إلى اصطحاب طالبتي طب، وطالبة تاريخ، وشاعرة مبتدئة كانت، بالمناسبة، تكتب مقالات نقدية أيضاً، وعرّفهن عليها بأكبر قدر من الجدية والغباء. قال وهو يشير بيده إلى الضيوف ثم إلى لوبكا: - هيا، تعارفن، أيتها الرفيقات. إنك يا لوبا ستجدين فيهن صديقات حقيقيات، سيساعدنك في طريقك النيّرة، وأنتن، أيتها الرفيقات ليزا وناديا وساشا وراحيل ستكونن كالأخوات الكبيرات لإنسانة تخلصت لتوها من ذاك الظلام الرهيب الذي يلقي النظامُ الاجتماعي المرأة المعاصرة في غياهبه.

ربما لم يكن هذا ما قاله بالضبط، ولكنه شبيه به على أية حال، تضرجت لوبكا بالحمرة، ومدت يدها المضمومة الأصابع معاً بطريقة خرقاء نحو الفتيات المرتديات بلوزات ملونة، والمتمنطقات بأحزمة جلدية، وضيفتهن بالشاي مع المربى، وقدمت لهن السكائر ، ولكنها، رغم الدعوات الحارة، رفضت رفضاً قاطعاًأن تجلس في حضرتهن. وكانت تتكلم بتأدب واحترام شديدين. وعندما أسقطت إحداهن منديلها على الأرض، اندفعت لوبكا بسرعة لالتقاطه.
إحدى الفتيات، وهي حمراء سمينة ذات صوت غليظ، وليس لها في وجهها سوى وجنتين حمراوين يطل من بينهما على نحو مضحك ما يشبه الأنف الأخنس، وتومض من العمق عينان سوداوان صغيرتان كزبيبتين، كانت لا تنفك تتفرس لوبكا من رأسها إلى قدميها، وكأنها تتأملها عبر عدسة مكبرة بنظرة لا تعبر عن شيء، ولكنها تضمر الاحتقار، قالت لوبكا في سرها بلهجة المذنبة: «ولكنني لم أنتزع منها أحداً». بيد أن فتاة أخرى بلغت بها قلة اللباقة حداً جعلها – ربما للمرة الأولى بالنسبة لها وللمرة المئة بالنسبة للوبكا – تبدأ الحديث عن الظروف التي دفعت لوبكا إلى طريق الدعارة. كانت الفتاة كثيرة الحركة، شاحبة اللون، جميلة جداً ورشيقة، وذات شعر أشقر جعد كثيف، مما يجعلها تبدو كقطة مدللة، بل إنها لها بالفعل شريطة وردية قططية حول عنقها... قالت:
- والآن أخبرينا: من هو ذاك النذل الذي كان أول من... ايه، أنت تفهمينني؟
لمعت في ذهن لوبكا بسرعة صورتا صديقتيها السابقتين: جينكا وتمارا، العزيزتي النفس والجريئتين والسريعتي البديهة – أوه، إنهما أذكى بكثير من هؤلاء الفتيات – وفجأة، ودون أن تتوقع حتى هي نفسها ذلك، قالت بنبرة حادة:

- كانوا كثراً، وقد نسيت الآن أسماءهم، كولكا، وميتكا، وفولدكا، وسيريوجكا، وجورجيك، وتروشكا، وبيتكا، وأيضاً كوزكا وغوسكا مع مجموعتهما، وما الذي يهمك في هذا؟..
- نعم... لا... يعني أنا، كإنسان يتعاطف معك تماماً...
- وأنت هل لديك عشيق؟
- عفواً، أنا لا أفهم ما تقولين. أيها السادة، حان وقت الذهاب.
- ماذا يعني أنك لا تفهمين؟ هل نمت مع رجل في وقت من الأوقات؟
- أيها الرفيق سيمانوفسكي ، لم أكن أتوقع منك أن تأتي بنا إلى مثل هذه المرأة، شكراً لك، هذا لطف خارق من جانبك!..
كان الصعب على لوبكا هو الخطوة الأولى فقط، فقد كانت من ذوي الطبائع الذين يصبرون طويلاً، ثم يثورون دفعة واحدة، وعندئذٍ كان يتعذر أن تتعرف فيها على تلك الفتاة الشديدة التهيب في العادة. صاحت وهي تتميز غيظاً:
أنا لا أعرف! أعرف أنكن مثلي! ولكن عندكن آباء وأمهات، وحياة ميسورة، وبمقدوركن، إذا دعت الحاجة، أن تقضين على الطفل الذي تحملنه؛ كثيرات يفعلن هذا. ولو كنتن في مكاني – عندما لم أكن أجد ما آكله، وعندما كنت بنتاً صغيرة لا أفهم شيئاً لأنني كنت أمية، والرجال يحيطون بي من كل جانب ويتحرشون بي كالكلاب الشبقة – لكنتن أنتن أيضاً في المحل العمومي! عيب عليكن أن تجعلن من فتاة مسكينة موضعاً لسخريتكن، هل تسمعن!..
سيمانوفسكي الذي وجد نفسه في ورطة نطق ببضع كلمات مواساة عامة بوت باس رصين، كذاك الذي كان يتكلم به الآباء الأفاضل في الكوميديات القديمة، وغادر مصطحباً فتياته.

ولكن كان مقدراً له أن يلعب دوراً آخر جد مخجل ومؤلم، وكان هو الدور الأخير له في الحياة التي عاشتها لوبكا في رحاب الحرية.
كانت الفتاة قد اشتكت إلى ليخونين منذ مدة طويلة من أن وجود سيمانوفسكي يسبب لها الضيق. بيد أن ذاك لم يلق بالاً إلى هذه التفاهات النسوية: فقد كان التأثير المغنطيسي المتوهم الذي يمارسه عليه هذا الإنسان الآمر بتفيهقه الفارغ جد قوي. وثمة تأثيرات يكون التحرر منها صعباً، ويكاد يكون متعذراً. ومن ناحية أخرى كان ليخونين قد ضاق ذرعاً منذ مدة طويلة بمعاشرة لوبكا، وغالباً ما كان يقول في نفسه: «إنها تفترس حياتي، إنني أتحول إلى شخص مبتذل وغبي، وقد ذبت في الفضيلة الحمقاء؛ وسينتهي الأمر بي إلى الزوج منها، والعمل في مديرية الضرائب أو دائرة الوصاية، أو في التعليم، وسأقبض رشاوى، وأغتاب الناس، وأتحول إلى شخص ريفي قميء مقرف، فأين أحلامي عن سلطان العقل، وجمال الحياة، والحب الإنساني العام، واجتراح المآثر؟»، وكان أحيانًا يقول هذا بصوت عال و هو يشد شعر رأسه، ولذا فبدلاً من أن ينظر في شكاوى لوبكا بإمعان، كان يثور ويصرخ ويخبط الأرض بقدميه، وكانت لوبكا الصبورة الوديعة تصمت وتنسحب إلى المطبخ لتفرج كربها بالبكاء، والآن أصبح غالباً ما يقول لها في أوقات الصلح التي تعقب المشاحنات العائلية:
- عزيزتي لوبكا، نحن لا نناسب بعضنا بعضاً، افهمي هذا. انظري: هاك مئة روبل، وعودي إلى بيتك، أهلك سيستقبلونك كابنة لهم، عيشي، وتعرفي على ما حولك، وأنا سآتي في طلبك بعد ستة أشهر، ستستريحين ، وطبعاً كل القذارة والبشاعة اللتين زَرَعَتْهما فيك المدينة ستزولان، ستموتان. وستبدئين حياة جديدة مستقلة، دون أية مساعدة، وحيدة وعزيزة!..

ولكن ماذا يُمكن أن تفعل مع امرأة أحبت لأول مرة، وطبعاً لآخر مرة كما يبدو لها؟.. أيمكن أن تقنعها بضرورة الفراق؟ وهل ثمة منطق يمكن أن تصغي إليه؟..
مع أن ليخونين كان يجلّ دائماً الحزم والثبات اللذين تتسم بهما كلمات سيمانوفسكي وقراراته، إلاَّ أنه خمّن وأدرك بحسه حقيقة موقفه من لوبكا. وفي غمرة اندفاعه وراء رغبته في التحرر وإلقاء هذا العبء العرضي المرهق عن كاهله وجد نفسه يحوم حول فكرة دنيئة: «إنها تعجب سيمانوفسكي، وأي فرق بالنسبة إليها: أكان هو أم كنت أنا أم أي شخص ثالث؟ فلأتفاهم معه بصراحة، وأتنازل له عن لوبكا رفاقياً. ولكنها لن تذهب معه، هذه الغبية، وستبدأ بالزعيق». وتابع التفكير: «..... أو أفاجئهما وهما في وضع ما حاسم... فأثير ضجة، وأسبب فضيحة... ثم أصطنع خطوة نبيلة... وبعض النقود... والابتعاد»..
وغالباً ما أصبح الآن يتغيب عن البيت عدة أيام، وعندما يعود يعيش ساعات من العذاب وسط الاستجوابات النسوية، والمشاهدالرامية، والدموع، وحتى النوبات الهستيرية. وأحياناً كانت لوبكا تلاحقه خفية عندما يخرج من البيت، وتتوقف قبالة مدخل البناء الذي يلجه، وتنتظر عودته ساعات كاملة لتعاتبه وهي تبكي في الشارع، ومع أنها لم تكن تجيد القراءة إلاَّ أنها كانت تتسلم رسائله دون علمه، وتحتفظ بها في خزانتها مع السكر والشاي والليمون وسوى ذلك من الاشياء التافهة، دون أن تتجرأ على طلب المساعدة من الأمير أو سولوفيوف لمعرفة محتواها، وقد بلغ بها الأمر إلى تهديده في لحظات الغضب بحمض الكبريت.

وكان ليخونين يفكر بينه وبين نفسه في لحظات رسم «الخطط الغادرة»: «فليأخذها الشيطان؛ أياً كان الأمر، وحتى إذا لم يكن بينهما شيء، مع ذلك سأفتعل مشهداً رهيباً له ولها»، وكان يقول في سره بلهجة خطابية: «آ، هكذا إذاً؟.. لقد آويتك واحتضنتك بحنان، والآن، ماذا أرى؟ تجازينني بجحود أسود... وأنت، أفضل رفيق لدي،اعتديت على سعادتي الوحيدة!... أوه، لا، لا، ابقيا معاً، أنا سأبتعد وعيناي مليئتان بالدموع، أرى أنه لا لزوم لي بينكما! لا أريد أن أقف عقبة في طريق حبكما، وهلمجرا، وهلمجرا...».
هذه الأحلام، وهذه الخطط المضمرة، الخاطفة والعرضية والخسيسة في جوهرها – التي لا يعترف بها أ صحابها فيما بعد حتى لأنفسهم – تحققت فجأة هي بالذات، دون غيرها، كان سولوفيوف يعطي درسه، وقدغمرته سعادة كبرى عندما استطاعت لوبكا في نهاية المطاف أن تقرأ دون تلعثم تقريباً: «المحراث جيد عند ميخي، وجيد أيضاً عند سيسوي... سنونو... أرجوحة... الأطفال يحبون الرب...»، وكمكافأة على ذلك قرأ لها بصوت عال حكاية «التاجر كالاشنيكوف والحارس كيريبيفتش»، وراحت لوبكا تقفز في مقعدها وتصفق بيديها من شدة الطرب. فقد أسرها جمال هذا العمل البطولي الفخم ولكن لم يتح لها أن تعبر عن انطباعاتها كاملة. فقد كان سولوفيوف يتعجل للذهاب إلى لقاء عمل. وفي اللحظة نفسها التي غادر نفسها التي غادر فيها وصل سيمانوفسكي وتبادلا التحية عند الباب. استطال وجه لوبكا وتبرطمت شفتاها من الغم؛ ففي الفترة الأخيرة أصبح هذا المعلم المتحذلق والذَكَر الفظ يثير اشمئزازها إلى أبعد حد.

وقد شرع هذه المرة يلقي عليها محاضرة يزعم فيها أنه لا يوجد بالنسبة للإنسان قوانين، ولا حقوق، ولا واجبات، ولا مروءة، ولا نذالة، وإن الإنسان قيمة مكتفية بذاتها، لا تتعلق بأحد أو بشيء أياً كان.

- يمكن أن يكون الإنسان إلهاً، ويمكن أن يكون دودة معوية؛ الأمران سيان.

وهَمَّ بأن ينتقل غلى نظرية أحاسيس الحب، ولكنه، مع الأسف، تسرع قليلاً، من فراغ صبره، فعانق لوبكا، وجذبها نحوه وراح يضمها إليه بخشونة. وكان، وهو الذي يحسب الأمور، يفكر في أثناء ذلك: «إنها ستنتشي من المداعبة، وتستسلم»، كان يحاول أن يمس فمها بشفتيه ليقبلها، وكانت هي تصرخ، وتنخر في وجهه، وترشه برذاذ من لعابها،وقد تخلت عن كل لباقة متكلفة:

- انقلع أيها الشيطان الأجرب، أحمق، خنزير ، سافل، سأحطم لك سحنتك!..

وعاد إليها كل قاموس الماخور، بيد أن سيمانوفسكي ، الذي سقطت نظارته «البينسنيه» عن أنفه، كان ينظر إليها بعينين عكرتين وقد اعوج وجهه، ويهذي بما يخطر له دون تمييز:

- عزيزتي، أياً كان الأمر، إنها لحظة لذة!.. سنتحد معاً بغبطة وحبور! لن يعرف أحد! كوني لي!..

في هذه اللحظة بالذات دخل ليخونين الغرفة، طبعاً، لم يعترف في داخله أمام نفسه بأنه في هذه اللحظة سيقوم بفعل خسيس، بل كان فقط يفكر من جانب ، من بعيدٍ على نحو ما، في أن وجهه شاحب، وأن كلماته الآن ستكون تراجيدية، وتنطوي على معنى خطير، قال بصوت أصم كممثل في الفصل الرابع من المسرحية، وقد أسبل يديه بعجز وراح يهز ذقنه المرخي على صدره:

- ايه! كنت أتوقع كل شيء إلاَّ هذا.. إنني أعذرك يا لوبا، فأنتِ إنسانُ كهوف، ولكن أنت ياسيمانوفسكي.. لقد كنت أعتبرك.. وعلى كل مازلت حتى الآن أعتبرك إنساناً محترماً، ولكنني أعترف أن الهوى يكون أحياناً أقوى من حجج العقل، هنا يوجد خمسون روبلاً، أَتركُها من أجل لوبا، ولا أشك في أنها ستعيدها لي طبعاً فيما بعد، دبّر لها أمورها... فأنت ذكي وطيب وشريف أما أنا («نذل!» رنَّ في رأسه للحظة صوت ماواضح) فسأغادر، لأنني لا أحتمل هذا العذاب أكثر من ذلك، أتمنى لكما السعادة.

أخرج محفظته من جيبه، وألقى بها بحركة مؤثرة على الطاولة، ثم أمسك شعره واندفع يعدو إلى الخارج...

كان هذا بالنسبة إليه هو المخرج الأفضل، وقد جاء المشهد كما كان يحلم به بالضبط.

الجزء الثالث

كل هذا روته لوبكا بحديث طويل مشوش وهي تنتحب على كتف جينيا. وقد جاءت هذه القصة التراجيدية – الكوميدية، في ضوء تفسيرها الشخصي لها، مختلفة تماماً عن الشكل الذي حدثت به في الواقع. فليخونين ، حسب أقوالها، لم يأخذها إلاَّ ليستدرجها ويغريها ويستغل غباءها بقدر ما يستطيع، ثم ينبذها بعد ذلك. وهي بحماقاتها وقعت فعلاً في حبه، وبما أنها كانت تغار عليه جداً من جميع أولئك المشعثات المتزنّرات بأحزمة جلدية فإنه قام بفعل خسيس: أرسل عمداً زميله المتواطئ معه، وبدأ هذا يعانقها، ودخل فاسكا[1] وشاهد مايجري وأثار ضجة كبيرة وطرد لوبكا إلى الشارع.

وكانت روايتها لما حدث تنقسم، بالطبع، إلى نصفين متساويين تقريباً، نصف صادق، ونصف كاذب، ولكن هكذا على الأقل كانت تتصور كل ما حدث.

وقد روت أيضاً بكثير من التفصيل كيف وجدت نفسها فجأة دون رجل يسندها، أو، على العموم، دون أي دعم قوي من جهة ما، فاستأجرت غرفة في فندق سيئ يقع في شارع ناءٍ، وكيف حاول المستخدم هناك، وهو شخص محنك يعرف من أين تؤكل الكتف، أن يتاجر بها منذ اليوم الأول حتى دون أن يستأذنها، وكيف انتقلت من هذا الفندق إلى شقة خاصة، وهناك أياً وقعت عليها قوادة عجوز خبيرة من أولئك اللواتي تعج بهن البيوت التي يسكنها الفقراء.

أي حتى في ظل الحياة الهادئة كان على وجه لوبكا، وفي حديثها، وفي مجمل تصرفاتها شيء ما خاص، مميز، ربما كان غير ملاحظ البتة للعين غير الخبيرة، بينما هو لذوي الحس العملي واضح لا يمكن إنكاره كالشمس في رائعة النهار.

---

[1] تصغير «فاسيلي».

يد أن الحب العرضي القصير الصادق منحها قوة لم تكن هي نفسها تتوقعها من نفسها، قوة تقاوم بها حتمية سقوطها ثانية، وقد بلغت بها الشجاعة البطولية حد أنها نشرت في الصحف عدداً من الإعلانات تقول فيها إنها تبحث عن عمل كخادمة غرف تقوم بكل شيء، ولكن لم يكن لديها تزكية من أحد. زد على ذلك أنها كانت في حالة استخدامها ستتعامل حصراً مع النساء، وكان هؤلاء أيضاً يميّزن فيها بغريزة داخلية لا تخطئ عدوهن القديم: مغوية أزواجهن وإخواتهن وآبائهن وأبنائهن.

أما ذهابها إلى البيت فلم يكن له معنى، ولم يكن يدخل في حسابها أصلاً، فناحية فاسيلكوفسكي التي نشأت فيها لا تبعد عن مركز المحافظة أكثر من خمسة عشر فرسخاً، والشائعات عن دخولها ذاك «المحل» قد وصلت منذ مدة طويلة إلى قريتها بوساطة أبناء منطقتها، فجيرانها السابقون في القرية، الذين يعملون الآن في المدينة بوابين، وخُدّام غرفٍ في الفنادق، ومستخدمين في المطاعم الصغيرة، وسائقي عربات، ومتعهدين صغاراً، والذين صادفوها هنا في الشارع أو شاهدوها عند آنا ماركوفنا بالذات كتبوا عن هذا في رسائلهم وتناقلوا الخبر شفهياً. وكانت تعرف ما الذي ستتمخض عنه هذه السمعة إذا هي عادت إلى موطنها الأصلي، خير لها أن تشنق نفسها من أن تتحمل هذه العواقب.

وهي لم تكن حريصة ولا مدبرةً في تصريف شؤونها النقدية، شأنها في هذا شأن طفل في الخامسة، وسرعان ما وجدت نفسها دون أي كوبيك، وكانت عودتها إلى المحل العمومي مرعبة وشائنة، بيد أن مغريات بغاء الشوارع كانت تصادفها دون قصد منها، وتعرض نفسها عليها عند كل خطوة. ففي الأمسيات كانت المومسات المتمرسات القديمات اللواتي يتسكعن في الشارع الرئيسي يميزن مهنتها القديمة على الفور، دون أي خطأ. وبين الفينة والفينة كانت تحاذيها إحداهن وتبدأ تحدثها بلهجة معسولة متملقة:

- لماذا تمشين وحدك أيتها الصبيّة؟ تعالي نتصادق، تعالي نمش معاً. هذا أنسب دائماً، فالرجال الذين يريدون قضاء وقت ممتع مع الفتيات يحبون دائماً أن تكون المجموعة مؤلفة من أربعة.

ولا تلبث اللمّامة الخبيرة المحنكة أن تدنو منها وتشرع تمتدح، بحديث عابر في البداية ثم بحماسة نابعة من أعماق القلب، كل محاسن المعيشة عند صاحبة الشقة التي تسكنها: الطعام اللذيذ، والحرية التامة في الخروج، والإمكانية الدائمة في أن تخفي عن صاحبة الشقة ما يفيض عن المبلغ المخصص لها؛ وفي الوقت نفسه تقول، بالمناسبة، أشياء كثيرة سيئة ومهينة بحق نساء البيوت المغلقة اللواتي يدعونهن «الدواب الرسميات»، و«الرسميات»، و«الفتيات النبيلات». وكانت لوبكا تقدر هذه السخرية حق قدرها، لأن نزيلات المحال العمومية كن بدورهن يحتقرن أشد الاحتقار مومسات الشوارع ويدعونهن «المتشردات»، و«الزُهرِيّات».

وغني عن القول إنه حدث في نهاية المطاف ماكان ينبغي أن يحدث، فلوبكا التي كانت ترى في الأفق عدداً لا حصر له من أيام الجوع، وتلمح في العمق الهول الأسود للمستقبل المجهول لبت دعوة جد مهذبة من شيخ أشيب، ضئيل الجسم، وقور المظهر، مهيب الطلعة، لبق، حسن الهندام، وقد تقاضت لقاء هذا العار روبلاً واحداً، ولكنها لم تتجرأ على الاحتجاج: فحياتها السابقة في المحل استأصلت من نفسها المبادرة الشخصية، والنشاط، والحيوية، وبعد ذلك لم يدفع لها الرجل شيئاً على الإطلاق عدة مرات متتالية.

كما أن شاباً جريئاً وسيماً، يعتمر سدارة ذات حافة مفلطحة، وقد أمالها بفتوة إلى جانب، ويرتدي قميصاً حريريا، ويتمنطق بحزام ذي شراريب، اصطحبها إلى غرفة في نُزل، وطلب نبيذاً ونَقْلاً، وظل طويلاً يكذب على لوبكا بأنه ابن غير شرعي لكونت، وأنه لاعب البليياردو الأول في المدينة، وأن كل النساء تحبه، وأنه سيجعل من لوبكا أيضاً امرأة متميزة، وبعد ذلك خرج من الغرفة لدقيقة كي يقضي شأناً ما، واختفى إلى الأبد. وقد ظل البواب الصارم الأحول مدة طويلة يضربها، ساداً فمها بكفه وهو ينخر بصمت، وقد ارتسم على وجهه تعبير عملي. ولكنه عندما اقتنع أخيراً أن الذنب النزيل، انتزع منها جزدانها الذي لم يكن فيه سوى روبل وبعض القطع النقدية الصغيرة، واحتفظ بقبعتها الرخيصة وبلوزتها الخارجية كرهينة.

وثمة رجل آخر في الخامسة والأربعين يرتدي ملابس لائقة جداً عذبها طوال ساعتين، ودفع أجر الغرفة، وأعطاها ثمانين كوبيكاً؛ وعندما أخذت تشكو ارتسم على وجهها تعبير وحشي، وأدنى من أنفها قبضته الضخمة الحمراء الشعر، وقال لها بلهجة قاطعة:

- استمري في النق لأجعلك تنقين حقاً... سأستدعي الشرطة وأقول لهم إنك سرقتني وأنا نائم، أتريدين هذا؟!.. من مدة طويلة لم تزوري القسم؟ وذهب. وجرت حوادث كثيرة مشابهة.

إلى أن أتى ذاك اليوم الذي رفض فيه مالكا الشقة – النوتي وزوجته أن يبقياها في الغرفة التي تسكنها، وعمدا ببساطة إلى إلقاء متاعها في الفناء، فاضطرت إلى قضاء الليل بطوله دون نوم تهيم في الشوارع تحت المطر، متوارية عن أنظار الحرّاس، في ذاك اليوم فقط أقدمت باشمئزاز وخجل على التوجه إلى ليخونين طلباً للعون. بيد أن ليخونين لم يكن في المدينة: فقد سافر بجبن في اليوم نفسه الذي هربت فيه لوبكا من الشقة، بعد أن أهينت ظلماً ووصمت بالعار، وفي الصباح خطرت لها تلك الفكرة الأخيرة اليائسة: العودة إلى المحل العمومي والتماس الغفران هناك.

وهنا راحت تتوسل إلى جينيكا وهي تقبل كتفيها مبللة إياهما بالدموع.
- جينيتشكا، أنت ذكية وجريئة وطيبة، توسطي لي لدى ايما ادواردوفنا، فالمدبرة تستمع لك.
- إنها لا تستمع لأحد – أجابتها جينكا بتجهم – وما الذي دعاك إلى أن تتبعي هذا الأحمق والنذل!..
اعترضت لوبكا بتهيب: - ولكن يا جينيتشكا أنت نفسك نصحتني آنذاك بالذهاب معه.
- نصحتك !.. أنا لم أنصحك بشيء، كيف تكذبين على لساني هكذا وكأنني قدمتّ... وعلى كل لا بأس... هيا بنا..
كانت ايما ادواردوفنا قد عرفت منذ وقت طويل أن لوبكا قد عادت، بل إنها شاهدتها عندما كانت تجتاز فناء المبنى وهي تتلفت حواليها. ولم تكن في قرارة نفسها تعارض قبول لوبكا ثانية، وينبغي القول إنها لم تسمح لها بالذهاب إلاّ طمعاً في النقود التي استولت على نصفها، ثم إنها كانت تعوّل على أن تدفق مومسات جديدات في الموسم الحالي سيجعل حرية الاختيار لديها واسعة، ولكنها أخطأت في هذا، لأن الموسم تجمد على نحو مباغت، إلاَّ أنها كانت على كل حال قد قررت نهائياً قبول لوبكا. ولكن ليس قبل إخافتها كما يجب من أجل الحفاظ على الهيبة وتقويتها.
ولذا فإنها ما كادت تسمع ما تلعثمت به الفتاة بارتباك حتى صرخت في وجهها:
- مااااذا؟.. تريدين أن نقبلك ثانية؟... الشيطان وحده يعرف مع من كنت تتمرغين هناك في الشوارع، وتحت الأسيجة، والآن تعودين، أيتها الحقيرة، لتتسلي إلى محل راقٍ ومحترم!.. بفوه، خنزيرة روسية! هيا من هنا!..

كانت لوبكا تحاول أن تمسك بيدي المدبرة لتقبلهما، ولكن هذه كانت تنتزهما منها بخشونة. ثم إنها شحبت فجأة، واعوج وجهها، وعضت على شفتها السفلى المائلة المرتعشة ورفعت يدها على مداها وهوت بها بحركة محسوبة ومحكمة على خد لوبكا، فركعت هذه على ركبتيها من قوة الضربة، ولكنها نهضت على الفور وهي تلهث وتتلعثم في كلامها من النشيج:

- عزيزي، لا تضربيني... أيتها الغالية... أتوسل إليك... لا تضربيني... ووقعت ثانية على الأرض ولكن على طولها هذه المرة.

واستمر هذا الضرب المنتظم الحاقد المنفذ بدم بارد نحو دقيقتين، وكانت جينكا تنظر إلى ما يجري وهي صامتة، وقد ارتسمت على وجهها إمارات الغضب والاحتقار المعهودة، وفجأة لم تعد تحتمل، فزعقت بوحشية، وانقضت على المدبرة وأنشبت أصابعها في جمتها المستعارة وانتزعتها عن رأسها، وصرخت في فورةِ نوبةٍ هستيرية حقيقية:

- حمقاء!.. قاتلة!... قوادة سافلة!... لصة!..

وراحت النسوة الثلاث يصرخن معاً، وما لبث أن تردد زعيق مسعور في جميع ممرات المحل وحجراته. كان ذلك نوبة عامة من نوبات الهستيريا الكبرى التي تستحوذ على نزلاء السجون، أو هجمة مفاجئة من هجمات الجنون التي تجتاح مشفى الأمراض العقلية بأكمله فتشحب منها حتى وجوه أكثر الأطباء النفسيين خبرة.

ولم يستتب النظام ثانية إلاَّ بعد ساعة من الجهود التي بذلها سيميون واثنان من زملائه في المهنة خفّا لمساعدته. وقد عوقبت الفتيات الثلاث عشرة جميعاً عقاباً صارماً، ولاسيما جينكا التي استولى عليها سعار حقيقي، وظلت لوبكا المعتدى عليها تتذلل للمدبرة إلى أن وافقت هذه على إعادتها إلى المحل ثانية، وكانت الفتاة تعلم أنها، عاجلاً أو آجلاً، ستدفع غالياً ثمن الفضيحة التي أثارتها جينكا، أما جينكا فقد جلست متربعة على سريرها حتى المساء، ورفضت أن تتغدى، وطردت جميع صديقاتها اللواتي جئن لزيارتها. كانت عينها مرضوضة، وقد وضعت عليها بإصرار قطعة نقد نحاسية من ذات الخمسة كوبيكات، وكان يبدو على عنقها من تحت قميصها الممزق خدش عرضاني طويل أحمر يشبه أثر حبل، وهو موضع سَلَخَ سيميون الجلدَ عنه في أثناء العراك، كانت جينكا تجلس هكذا وحيدة وعيناها تلتمعان في الظلمة كعيني وحش بري، وقد انتفخت فتحتا أنفها وراحت وجنتاها ترتعشان بتشنج. وكانت تهمس بحقد:

- انتظروا... تمهلوا أيها الأوغاد، سأريكم، سترون فيما بعد... أووه، يا أكلة لحوم البشر.

ولكن عندما أشعلوا الأضواء ودقت المدبرة الصغيرة زوسيا بابها قائلة: «أيتها الصبية، البسي! وإلى الصالة!» غسلت وجهها بسرعة، وارتدت ملابسها، وغطت أثر الكدمة بالبودرة، ودهنت الخدش بدهن أبيض وذرت فوقه بودرة وردية، وخرجت إلى الصالة، بائسةً ولكن أبية، مضروبةً ولكن بعينين يضطرم فيهما حقد فرغ صبره، وجمال غير بشري.

كثير من الناس الذين اتفق لهم أن رأوا منتحرين قبل بضع ساعات من موتهم الفظيع يقولون إنهم لاحظوا في مظهرهم خلال ساعات، ما قبل الموت المشؤومة هذه فتنة ما غامضة، مبهمة، عصية على الإدراك، وكل من وقع بصره على جينكا في هذه الليلة وخلال الساعات الأولى من النهار الذي تلاها كان يرنو إليها طويلاً بتمعن وتعجب..

وأغرب مافي الأمر (وكانت هذه إحدى ألاعيب القدر السوداء) إن المذنب غير المباشر في موتها، والقشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير، لم يكن سوى طالب المدرسة العسكرية اللطيف البالغ الطيبة كوليا غلاديشيف....

كان كوليا غلاديشيف فتى رائعاً، مرحاً، خجولاً، ذا رأس كبير، وخدين متوردين، وله على شفته العليا خط منحن أبيض مضحك كأنه حليبي، يتجلى من تحت شاربين أزغبين طرّا لتوهما، عيناه زرقاوان متباعدتان ساذجتان، وشعره أشقر قصير كهُلب خنوص يوكيشيري أصيل، وقد بالغ فيقصّه حتى أصبح يشف عن جلدة رأسه الوردية، ومعه بالذات كانت جينكا تلعب في الشتاء الماضي لعبة العلاقات الأمومية تارة، ولعبة الدمى تارة أخرى، وتدس له تفاحة أو سكرتين ليستلى بها في الطريق عندما يخرج من المحل العمومي منقبضاً على نفسه من الخجل.

عندما أتى في هذه المرة، بعد أن قضى مدة طويلة في المعسكرات، كان يبدو عليه من النظرة الأولى ذاك التغير السريع في السن الذي يحوّل الصبي إلى فتى بسرعة، وعلى نحو غير ملحوظ. كان قد أنهى المدرسة العسكرية وأصبح يعتبر نفسه بفخر صف ضابط، مع أنه كان لايزال يرتدي باشمئزاز زي الطلاّب، لقد نما جسمه، وأصبح أكثر اتساقاً ورشاقة

أي أن حياة المعسكرات عادت عليه بالفائدة. كان يتكلم بصوت باس غليظ، وقد قست خلال هذه الأشهر حلمتا ثندوتيه، مما كان يشعره بزهو شديد، لأنه كان يعرف أن هذه هي السمة الرئيسة والمطلقة لبلوغه حد النضج كرجل. كانت هذه الفترة بالنسبة إليه، وحتى قدوم وقت الإجراءات الصارمة في الكلية الحربية، فترةَ شبهِ حريةٍ مغرية، ففي البيت سمحوا له رسمياً بالتدخين في حضرة الكبار، بل إن أباهَ نفسه أهدى إليه علبة سكائر جلدية نقشت عليها طغراء توقيعه، كما خصص له، في غمرة فرح الأسرة، خمسة عشر روبلاً كراتب شهري.

وهنا بالذات – في محل آنا ماركوفنا – عرف الفتى المرأة أول مرة، وكان ذلك مع جينكا.

إن سقوط النفوس البريئة في بيوت الدعارة أو لدى إحدى مومسات الشوارع يجري أكثر بكثير ممايظنون عادة، وعندما يسألون عن هذه القضية الحساسة لا الفتيان الأغرار فقط بل حتى الرجال المحترمين الذين بلغوا الخمسين وكادوا يصبحون أجداداً، فإنهم يجيبون على الأرجح بتلك الكذبة القديمة المبتذلة التي يزعمون بها أن الخادمة أو المربية هي التي أغوتهم، بيد أن هذا ليس سوى إحدى تلك الكذبات الغريبة التي تضرب بأصولها في أعماق الماضي، والتي عاشت طويلاً دون أن يلحظها أحد تقريباً من الراصدين المحترفين، أو على الأقل دون أن يصفها أحد.

وإذا جرّب كل واحد منا أن يعاهد نفسه على قول الحقيقة، كمايقولون بالأسلوب المفخم، ويحاسب نفسه بجرأة عن الماضي، سيجد أنه إذا كان قد روى ذات مرة في طفولته حادثةً ما متخيلة للتباهي أو للتأثير في عواطف الآخرين، ووجد أنها لاقت نجاحاً

مما جعله يكررها مرتين، وخمس وعشر مرات، لا يعود بمقدوره التخلص منها طوال حياته بعد ذلك، ويروح يكرر بثقة هذه الحادث التي لم تحدث قط، إلى أن تبلغ به الثقة في نهاية المطاف حداً يجعله هو نفسه يصدق أنها حدثت فعلاً، وقد أخذ كوليا، مع الزمن، يحدث رفاقه عن أن التي أغوته أول مرة هي ابنة خالة أمه، وهي سيدة شابة من المجتمع الراقي. وينبغي القول إن التقارب الحميم مع هذه السيدة الجنوبية الجسيمة، ذات العينين السوداوين، والوجه الأبيض، والرائحة اللذيذة كان موجوداً فعلاً، ولكن في مخيلة كوليا فقط، وكان يجري في تلك اللحظات التراجيدية الكئيبة المتهيبة للّذة الجنسية الانفرادية التي يعيشها ما لا يقل عن تسعة وتسعين بالمئة من الرجال، إن لم نقل مئة بالمئة.

لم يكن لدى كوليا الذي جرت التهيج الجنسي الميكانيكي باكراً جداً، في سن التاسعة أو التاسعة والنصف،لم يكن لديه أي مفهوم عما تمثله نهاية العشق والتودد التي تبدو مفزعة جداً إذا نظر المرء إليها واقعياً، من جانب، أو إذا شرحت عملياً. ولسوء الحظ لم يكن بقربه آنذاك أية واحدة من هؤلاء السيدات المتعلمات التقدميات الحاليات اللائي لوين عنق اللقلق الكلاسيكي[١]، واجتثثن جذور الملفوف الذي يعثرن تحته على الأطفال، ورحن يوصين بأن يتم شرح سر الحب والولادة العظيم للأطفال في محاضرات، وعن طريق التشبيه والتمثيل، دون أية مداراة، بل حتى بطريقة تكاد تصل إلى حد الرسم التوضيحي.

---

[١] إشارة إلى إجابة الكبار عن سؤال الصغار: من أين يأتي الأطفال؟ بأن اللقلق هو الــذي يجلبهم.

وينبغي القول إن المؤسسات المغلقة – كليات الذكور الداخلية، والمعاهد، والمدارس العسكرية – كانت في تلك الأوقات البعيدة تشبه بمعنى ما المشاتل المُدفّأة. فقد كانوا يحاولون قدر المستطاع أن يعهدوا برعاية عقول الفتيان وأخلاقهم إلى مربّين ذكور، وإلى موظفين مولعين بالشكليات، وعلاوة على ذلك إلى مشرفات نزقات، متقلبات في عواطفهن، وميالات إلى الشجار، ويصبن بالهستيريا كالنساء العوانس، أما الآن فالأوضاع قد تغيرت، وكان الصبيان في ذاك الوقت يُتركون ليواجهوا أنفسهم بأنفسهم. وهم، بحكم أنهم كانوا، بتعبير مجازي، كمن فُطموا لتوهم عن حليب أمهاتهم، وأُبعدوا عن عناية مربياتهم المخلصات، وعن الملاطفات الصباحية والمسائية الهادئة اللذيذة، ومع أنهم كانوا يخجلون من إظهار أية أمارة من إمارات الرقة باعتبارهامن «مظاهر الأنوثة»، كانوا يميلون باندفاع جارف ورغبة إلى تبادل القبل واللمس والوشوشة.
ومن البدهي أن العناية والرعاية والاستحمام والتمرين في الهواء الطلق – ليس الجمباز، بل التمارين الحرة بالذات التي يقوم بها كل من هواه – كان يمكن دائماً أن تبعد أو أن قدوم تلك المرحلة الخطرة، أو تخفف من حدتها وتخضعها لسلطان العقل.
وأكرر أن هذا لم يكن يتحقق آنذاك.
وكان الشوق إلى الحنان العائلي، حنان الأم والأخت والمربية الذي قُطع بغتة وبفظاظة بالغة، يتحول إلى أشكال مشوهة للتودد(بالضبط كذاك الحب الذي يدعونه في معاهد الإناث «العبادة»)، تودد يتوجه نحو الصبيان المتسمين بالجمال، نحو «قطع الحلوى»؛ كانوا يحبون التهامس في الزوايا، والسير في الممرات المظلمة ذراعاً بذراع أو متعانقين ليهمس أحدهما للآخر بقصص متخيلة عن مغامراته مع النساء.

وكان بعض هذا إشباعاً لحاجة إلى الحكايات، وبعضه الآخر تجلياً للشهوانية المستيقظة. ولم يكن يندر أن ترى صبياً في الخامسة عشرة من عمره لا يليق به سوى أن يلعب بالكرة أو يلتهم طبق عصيدة من الحنطة السوداء والحليب يروي، مما كان قد قرأه طبعاً في الكتب، قصصاً غرامية يدعي فيها أنه الآن، عندما يذهب في إجازة كل سبت، يزور مليونيرة أرملة جميلة تهيم به عشقاً، وإن بجانب مضجعهما تنتصب دائماً مائدة فواكه ونبيذ غالي الثمن؛ ويصف كيف تحبه حباً شهوانياً عنيفاً.

وهنا، بالمناسبة، تحل تلك المرحلة الحتمية من الشره إلى المطالعة المستمرة والانكباب عليها، وهي مرحلة بها طبعاً كل صبي وبنت، ومهما كانت مراقبة المشرفات صارمة في هذا الصدد فإن الصبيان كانوا ومازالوا وسيظلون يقرؤون بالذات ما لا يُسمح لهم بقراءته، ففي هذا شعور من نوع خاص بالإثارة، والزهو، والتمتع بفتنة الممنوع. ومنذ الصف الثالث تتداول أيدي الطلاب نسخاً مخطوطة عن كتابات باركوف[1]، وبوشكين المزيف، وخطايا ليرمونتوف الفتى وسواهم: «الليلة الأولى»، «شجرة الكرز»، «لوقا»، «عيد بيتيرغوف» «أولانشا»، «مصيبة العقل»، «القسيس» الخ....

ولكن مهما بدا هذا غريباً، أو مختلقاً، أو متناقضاً، فإن هذه المؤلفات، والرسومات، والصور الفوتوغرافية البذيئة لم تكن تثير لديهم فضولاً شهوانياً، بل كانوا ينظرون إليها على أنها شيطنة، وعبث، ومصدر للشعور بلذة خطر التهريب. وكانت مكتبة المدرسة العسكرية تحتوي على مقتطفات«عفيفة» من أعمال بوشيكن وليرمونتوف

---

[1] باركوف: ايفان سيميونوفتش (١٧٣١ أو ١٧٣٢ – ١٧٦٨) شاعر ومترجم كتب العديد من أشعار الغزل الماجن..

وعلى جميع مؤلفات أوستروفسكي الذي كان يبعث على الضحك فحسب، وتقريباً على جميع مؤلفات تورغينف الذي لعب في حياة كوليا دوراً رئيسياً وقاسياً، فالحب لدى تورغينف، كما هو معروف، يحاط دائماً بستارة مثيرة، بسحابة رقيقة مراوغة، محرمة، ولكنها مغرية: الفتيات عنده يشعرن مسبقاً بالحب، ويضطربن عند اقترابه، ويخجلن أكثر من المعتاد، ويرتعشن، ويتضرجن بالحمرة. أما النساء المتزوجات أو الأرامل فيجتزن هذا الطريق المؤلم على نحو مختلف بعض الشيء. فهن يقضين وقتاً طويلاً في صراع مع الواجب، أو الاستقامة، ورأي المجتمع، وفي النهاية: - آخ!... يسقطن وهن يذرفن الدموع، أو – آخ! يبدأن بالمكابرة، أو ، وهذا يحدث أكثر، يضع القدر الذي لا يرحم حداً لحياتها أو حياته في – آخ! اللحظة نفسها التي لم تعد الثمرة الناضجة بحاجة فيها إلاَّ إلى هبّة ريح خفيفة لكي تسقط. ومع ذلك فإن جميع شخصياته تصبو إلى هذا الحب المعيب، وتبكي في أحضانه بصفاء، وتضحك بسرور، وهو يحجب عنها العالم كله. ولكن بما أن الصبيان يفكرون بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي نفكر بها نحن الكبار، وبما أن كل ممنوع، وكل مالم يُفصح عنه حتى النهاية أو أُفصح عنه بالسر، له في نظرهم أهمية عظيمة ليست مضاعفةً فحسب، بل مثلثة، فإن من الطبيعي أن يستنتجوا مما يقرؤونه فكرة مبهمة عن أن الكبار يخفون عنهم شيئاً ما.

ولابد لنا من التساؤل هنا: ألم ير كوليا يا ترى ذات مرة، شأنه شأن أكثرية أترابه، كيف أن الخادمة فروسيا، المرحة دائماً، ذات الخدين الحمراوين، والساقين الصلبتين كالفولاذ (كان في بعض الأحيان عندما تأخذه حماسة اللعب يصفقها بيده على ظهرها)، انسلت بسرعة خاطفة من غرفة مكتب أبيه، مغطية وجهها بمئزرها، عندما دخلها هو مصادفة بسرعة، وأن وجه أبيه كان في تلك اللحظة أحمر، وأنفه الذي بدا أنه استطال كان رمادياً، وقد فكر كوليا عندئذٍ: «أبي يشبه الديك الرومي».

أو لم يتفق لكوليا أن وجد نفسه ذات مرة مندفعاً، بحكم ما يميز كل الأطفال من شيطنة ومشاكسة، وبدافع الملل أيضاً، إلى أن يفتح مصادفة درج مكتب أبيه غير المقفل، فيجد فيه مجموعة ضخمة من الصور التي تمثل مناظر من ذاك النوع بالضبط، الذي يسميه الباعة في المخازن تتوج الحب، ويسميه متبطلو المجتمع الراقي الحمقى الهوى اللادنيوي؟!...

أو لم ير كيف يعلو صدر أمه ويهبط، وكيف تحمر وجنتاها تحت طبقة البودرة قبل كل زيارة يقوم بها الشاب الطائش المعطر والمُنشّى بافل ادواردوفتش الذي يعمل في إحدى السفارات، والذي كان يصطحب أمه في نزهات إلى الدنيبر لتشاهد مغيب الشمس على الضفة الأخرى من النهر ف يمقاطعة تشيرنيغوف، تقليدياً للنزهات البطرسبورغية الدارجة إلى ستريلكا؛ أو لم يكن ينتبه في هذه اللحظات إلى كثير من الأمور الجديدة والغريبة؛ أو لم يكن يسمع صوتها وقد أصبح صوتاً آخر تماماً، كأنه صوت ممثلة، فهو متقطع بعصبية، وغاضب لا يرحم عندما تخاطب أفراد الأسرة والخدم، وفجأة يغدو ناعماً كالمخمل، كمرج أخضر تحت أشعة الشمس عندما يأتي بافل ادواردوفتش؟!. آه، ليتنا، نحن الذين حنكتنا التجارب، نعرف كم من الأشياء الكثيرة، بل المفرطة في الكثرة، يعرف الصبيان والبنات المحيطون بنا، والذين نقول عنهم عادة:

- ايه، لا داعي للخجل من فولوديا (أوبيتيا أو كاتيا...) إنهم صغار. لا يفهمون شيئاً!..

كما أن قصة أخيه الأكبر الذي كان قد تخرج لتوه من الكلية الحربية، والتحق بأحد الأفواج المرموقة التي تسمى أفواج رماة القنابل، لم تمر دون أثر بالنسبة إليه. كان أخوه هذا الذي مُنح إجازة حتى الوقت الذي سيغدو قادراً فيه على نشر جناحيه يعيش في كنف أسرته في غرفتين مستقلتين، وكانت تخدم عندهم آنذاك فتاة تدعى نيوشا، كانوا ينادونها أحياناً على سبيل المزاح السنيورة أنيتا، وهي شابة حلوة سوداء الشعر، يمكن إذا ما ألبسوها الملابس المناسبة أن تبدو بمظهر ممثلة درامية، أو أميرة بالنسب، أو زعيمة سياسية، وكانت أم كولياتبسط حمايتها جهاراً على تعلق أخيه بهذه الفتاة تعلقاً يراوح بين الجد والمزاح. ولم يكن يدفعها إلى ذلك بطبيعة الحال، سوى حِسبة أمومية مقدسة: فإذا كان مقدراً حتما لبورينكا[١] أن يسقط، فليمنح طهره، وعذريته، وهواه الجسدي الأول لا لمومس، ولا لماجنة، ولا لباحثة عن مغامرات غرامية، بل لفتاة طاهرة، وكان مرشدها إلى ذلك، بالطبع، هو شعورها الأمومي حقاً، المنزه عن الغرض، وغير الخاضع لسلطان العقل. وكان كوليا في ذاك الوقت يعيش عصر الليانوس والبمباس، والأباش وقصّاصي الأثر، وزعيم السمه «الفهد الأسود» كما كان، بطبيعة الحال يتتبع بانتباه قصة غرام أخيه، ويستخلص منها استنتاجات خاصة تكون أحياناً جد صحيحة، وأحياناً مجرد تخيلات، وبعد ستة أشهر شهد، أو، على الأصح، سمع من وراء الباب مشهداً مثيراً للسخط، فقد كانت زوجة الجنرال الرزينة والمتحفظة دائماً، تصيح بغرفتها في وجه السنيورة أنيتا، وتخبط الأرض بقدميها، وتشتم بعبارات سوقية:

---

[١] تصغير تدليل لاسم «بوريس» .

فقد كانت السنيورة حاملاً في شهرها الخامس، ولو أنها لم تكن تبكي لكانوا، على الأرجح، أعطوها تعويضاً، وصرفوها بسلام، ولكنها كانت واقعة في حب سيدها الشاب، ولم تكن تطالب بشيء، بل تكتفي بالصراخ، ولذا فقد أبعدوها بمساعدة الشرطة.
كثيرون من زملاء كوليا كانوا قد ذاقوا في الصف الخامس أو السادس ثمرة الشجرة المحرمة، شجرة معرفة الشر. وكان من مظاهر التباهي الرجولي في ذاك الوقت عندهم في المدرسة العسكرية تسمية جميع الأشياء الحميمة المكتومة بأسمائها الصريحة. وقد أصيب أركاشا شكارين بأحد الأمراض غير الخطيرة، ولكنه كان مرضاً زُهرياً على أية حال، ولذا فقد ظل طوال ثلاثة أشهر موضع تقدير وإعجاب من جميع مَنْ هُمْ أكبر منه سناً (لم تكن السرايا قد أنشئت بعد)، كثيرون كانوا يرتادون المحلات العمومية، وكان ما يروونه عن حفلات السكر الصاخبة التي يقيمونها هناك أجمل وأوسع بكثير مما كان يرويه المحاربون الفرسان في زمن دينيس دافيدوف[1]. كانت أعمال العربدة هذه تعتبر في نظرهم قمة الفتوة والنضج الرجولي.
وذات مرة ، لا... ليسوا هم من أقنع غالديشيف بالذهاب إلى محل آنا ماركوفنا، بل الأصح أنه هو الذي عرض نفسه ليطلبوا إليه الذهاب إلى هناك: فقد كانت مقاومته للإغراء جد ضعيفة، وقد ظل دائماً يتذكر تلك الأمسية بمشاعر الهول والتقزز، وعلى نحو غائم، كأنها حلم مخمور، كان يتذكر بصعوبة كيف شرب في العربة، لاستحضار الجرأة، روماً مقرفاً تفوح منه رائحة بق حقيقي، وكيف أصيب بالغثيان من هذا المشروب، وكيف دخل إلى الصالة الكبيرة

[1] دينيس دافيدوف (١٧٨٤-١٨٣٩) من أبطال الحرب الوطنية عام ١٨١٢، قائد فوج الفرسان، كاتب وشاعر، مؤسس مايسمى «الغنائية الفرسانية»..

حيث أضواء الثريات وشمعدانات الجدران كانت تدور كالعجلات من نور، وحيث النساء كن يتحركن كبقع خيالية زرق ووردية وبنفسجية، وحيث بياض الأعناق والصدور والأذرع كان يتلألأ ببريق باهر حاد ومثير وظافر، أحد الرفاق همس شيئاً مافي أذن واحدة من هذه الشخوص الخيالية، فركضت إلى وليا وقالت له:
-اسمع يا صغيري الجميل، زملاؤك يقولون إنك مازلت بكراً... تعال... سأعلم كل شيء...
وبعد هذه العبارة التي قيلت برقّة، والتي كانت جدران محل آنا ماركوفنا قد سمعتها من قبل آلاف المرات، حدث ماكان تذكّرهُ يشق على كوليا ويؤلمه إلى درجة أنه كان عندما يصل إلى منتصف الذكريات يشعر بالإرهاق، ويجهد إرادته ليتحول بخياله إلى موضع آخر، لم يكن يذكر سوى تلك الحلقات الغائمة التي كانت تنبعث من ضوء المصباح، فتدور قليلاً ثم تسيح وتتلاشى، وتلك القبل اللجوجة، واللمسات المربكة، ومن ثم ذاك الألم الحاد المفاجئ الذي جعله يريد الموت لذةً والصراخ استهوالاً، وبعد ذلك استغرب هونفسه رؤية يديه الشاحبتين المرتجفتين اللتين لم تستطيعا بحال من الأحوال تزرير ملابسه.
كل الرجال، بالطبع، عانوا «كآبة مابعد الجماع»[١] الأولية هذه،بيد أن هذا الألم الأخلاقي العظيم، البالغ الجدية من حيث أهميته وعمقه، سرعان ما يتلاشى، إلاّ أنه يخلف لدى الأكثرية أثراً يبقى مدة طويلة، وأحياناً طوال الحياة، على شكل شعور بالسأم والحرج بعد اللحظات المعهودة، وسرعان ما اعتاد كوليا هذا الشعور، وازدادت جرأته، ألف معاشرة المرأة، وأصبح يُسر كثيراً عندما كانت الفتيات كافة، وفيركا قبل الجميع يصرخن عند قدومه إلى المحل:

---

[١] باللاتينية في الأصل tristia post coitus.

- جينيتشكا ، جاء عشيقك!
وكان يلذ له وهو يتحدث عن هذا إلى رفاقه أن يلمس شاربيه المتخيلين.
كان الوقت لا يزال باكراً، فالساعة لم تكن قد تجاوزت التاسعة بعد من مساء ذاك اليوم الممطر من شهر آب، والصالة المضاءة في محل آنا ماركوفنا لا تزال فارغة تقريباً، ولم يكن ثمة سوى شاب في مقتبل العمر، موظف في مصلحة البرق، قد جلس قرب الباب، ووارى قدميه تحت الكرسي باستحياء واضطراب، وراح يبذل جهده ليتبادل مع كاتكا السمينة حديثاً من النوع الذي يُفترض أن يدور عفوياً في المجتمعات الراقية خلال الفواصل بين خطوات رقصة الكدريل، كما أن الشيخ الطويل الطويل الساقين فانكا – فستانكا كان يتجول في الصالة ويجلس تارة إلى هذه الفتاة وتارة إلى تلك مسلياً إياهن بثرثرته السلسة.
عندما دخل كوليا غلاديشيف إلى الردهة كان أول من عرفه الفتاة ذات العينين المدورتين فيركا التي كانت ترتدي زي الجوكي المعهود. شرعت تدور حول نفسها، وتقفز وتصفق وتصيح:
- جينكا، جينكا، تعالي بسرعة، جاء عشيقك لزيارتك، طالب المدرسة العسكرية... ياه ما أحلاه!..
لكن جينكا لم تكن حينئذٍ في الصالة: كان قد أخذها كبير المراقبين السمين.
كان هذا الكهل الرزين المهيب، الذي يبيع الشموع الرسمية بالسر، زبوناً مريحاً، لأنه لم يمكث قط في المحل أكثر من أربعين دقيقة خشية أن يفوته القطار الذي يعمل فيه، وكان لا ينفكطوال الوقت ينظر في ساعته، ويشرب خلال ذلك بانتظام أربع زجاجات بيرة، ولابد له قبل الذهاب من إعطاء الفتاة نصف روبل للسكاكر، وإعطاء سيميون عشرين وكوبيكاً للشاي.

لم يأت كوليا غلاديشيف وحده، بل كان بصحبته زميلهفي الصف بيتروف، الذي كان يتخطى عتبة المحل العمومي أول مرة في حياته، مستسلماً لإغراءات صديقه. ولابد أنه كان في هذه اللحظات يعاني تلك الحالةالغريبة المشوشة المحمومة التي عاناها منذ سنة ونصف كوليا نفسه، عندما ارتجفت قدماه، وجف حلقه، وتراقصت أضواء المصابيح أمام ناظريه كعجلات لا تتوقف عن الدوران.
تسلم سيميون معطفيهما العسكريين وخبأهما في مكا منفرد، وبطريقة تخفي الشارات والأزرار عن الأنظار.
وينبغي القول إن هذا الشخص القاسي الذي لم يكن يحبذ زيارات الطلاب بسبب ميلهم إلى المزاح المتبسط والتحدث بأسلوب غير مفهوم، لم يكن يحب أيضاً أن يرى في المحل أمثال هؤلاء الصبية بزيهم الرسمي.
كان يقول أحياناً بتجهم، مخاطباً زملاءه في المهنة:
- وما الجيد في هذا؟.. يأتيك مثل هذا الطويلب ويصطدم وجهاً لوجه برئيسه هنا! تراخْ... وإذا بهم يغلقون المحل! كما حدث للوبيينديخا منذ ثلاث سنوات.
ولو أنهم اكتفوا بإغلاق المحل لهان الأمر بالطبع، فهي قد حولته على الفور إلى اسم شخص آخر، ولكنهم حكموا عليها بالسجن لمدة شهر ونصف، وهذا كلّفها مبالغ طائلة، كيربيش وحده دفعت له أربعمئة...ويحدث أحياناً أن يصاب أحد هؤلا ء الخنانيص بمرض ما، ويبدأ بالنق والشكوى: «آخ، بابا! آخ، ماما! إنني أموت!..»..ز
- «قل أيها الوغد، أين أصبت به؟»
- «في المحل الفلاني...»

ومرة أخرى يحمّلونك المسؤولية: وتعال احكم علي، أيها القاضي الظالم!
- ادخلا.. ادخلا...
قال لهما بصرامة. دخل الطالبان وهما يزرّان أعينهما من النور المبهر، وكان بيتروف الذي شرب بعض الخمرة لاستجماع الشجاعة يترنح قليلاً وقد امتقع لونه.
جلس الاثنان تحت لوحة «مأدبة الأعيان» وانضمت إليهما في الال من كلا الجانبين كل من فيركا وتمارا، قالت الأولى لبيتروف:
- قدّم لي سيكارة، أيها الفتى الجميل الأسود الشعر.
وألصقت فخذها المكتنز الحار المشدود ببنطال ضيق من التريكو الأبيض بساقه، بحركة تبدو غير مقصودة في الظاهر، وأردفت تقول:
- سما أشد جاذبيتك!..
سأل غلاديشيف تمارا:
- أين جينيا؟ هل هي مشغولة مع أحد؟
حدقت تمارا إلى عينيه بإمعان،وكانت نظرتها نفاذة إلى حد جعل الصبي يرتبك ويشيح بوجهه.
- لا، وهل لابد أن تكون مشغولة؟ إنها اليوم طوال النهار تعاني من الصداع: فبينما كانت تسير في الممر فتحت المدبرة الباب بسرعة، فأصابتها عن غير قصد في جبينها، ووجعها رأسها، المسكينة طوال النهار مستلقية في الفراش تتداوى بالكمادات. هل هناك أمر ما؟ أم أنك لا تستطيع الصبر؟ انتظرها...
ستخرج بعد خمس دقائق. ستُسرّ منها كثيراً.
وراحت فيركا تلح على بيتروف:

- عزيزي، حبوبي، كم أنت ناعم ولطيف! أنا أعبد ذوي الشعر الأسود الشاحبين أمثالك: إنهم غيورون وحارّون جداً في الحب، وشرعت فجأة تغني بصوت خفيض:

إنه فتاي الأسود الشعر،

إنه نور حياتي،

لا يخدعني ولا يخذلني،

ويتحمل العذاب.

معطفه وبنطاله

وكل شيء يقدمه من أجل المرأة.

- ما اسمك يا عزيزي؟

- غيورغي..

أجابها بيتروف بصوت باس أبح يميز طلاب المدارس العسكرية.

- جورجيك ، جوروتشكا! آه، ما ألذ هذا الاسم!

دنت فجأة من أذنه وهمست والمكر يطل من وجهها:

- جوروتشكا، هيا بنا إلى غرفتي.

نكس بيتروف رأسه وغمغم بصوت باس كئيب:

- أنالا أعرف... كما يقول زميلي...

قهقهت فيركا بصوتٍ عالٍ:

- يالها من طرافة! انظروا أي طفل هو! أمثالك يا جوروتشكا يزوجونهم في القرية منذ مدة طويلة، وأنت: « كما يقول زميلي!»، لم يبق إلاَّ أن تسأل مربيتك أو مرضعتك! تمارا، يا ملاكي، تصوري: أنا أدعوه للنوم، وهو يرد: «كما يقول زميلي!»، ماذا أيها السيد الزميل، هل أنتَ مربّيه؟

- كفّي عني، ياللشيطان!
- برطم بيتروف بارتباك، كما يفعل طلاب المدرسة العسكرية قبل الشجار.
اقترب فانكا – فستانكا بقامته الطويلة المتأرجحة من الطالبين وقد أمال رأسه الطويل الضيق الذي ازداد شيباً إلى جانب، وارتسمت على وجهه أمارات التملق، وقال بصوت شاكٍ كالعويل:
- أيها السيدان الطالبان، أيها الشابان المثقفان، يازهرة الانتليجينسيا، يا جنرالَيْ المستقبل. ألا تتكرمان على الشيخ النابت منذ القدم في أماكن اللهو والمجون هذه بسيكارة قديمة طيبة؟ أنا شحاذ، كل ماليديّ أحمله معي، وأعبد التبغ عبادة.
وما إن أخذ سيكارة حتى اتخذ فجأة وضعية منطلقة متبسطة، وتقدير برجه اليمنى محنيةً، ووضع يده على خاصرته وشرع يغني بصوت حاد هرم:

فيما مضى كنت أقيم المآدب
وتسيل الشمبانيا أنهاراً
أما الآن فلا أملك كسرة خبز
وليس معي يا أخي ثمن بطحة
فيما مضى كنت أعرّج على ساراتوف
فيركض الحاجب كالسهم لاستقبالي
أما الآن فالجميع يدفعون بيمن قفاي
أعطني يا أخي ثمن بطحة

وفجأة قطع الغناء وصاحب نبرة خطابية وهو يضرب صدره بقبضة يده:
- أيها السيدان ! إنني أنظر إليكما وأعرف انكما ستصبحان في المستقبل الجنرالين سكوبيليف وغوركو[1]، ولكن أنا أيضاً من بعض النواحي يجري في عروقي دم عسكري، ففي زماني، عندما كنت أتدرب لأصبح مساعد مأمور جراح، كانت دائرة الحراج عندنا كلها عسكرية، ولذلك فإنني أدق على أبواق قلبيكما الذهبيين المرصعة بالألماس، وأرجوكما التبرع لتسليح المساعد الثاني في تثمين الجراح بقليل من Spiritus vini[2]، الذي لا يتورع عن تناوله حتى الرهبان.
- فانكا ! صاحب من الجانب الآخر ، كاتكا السمينة – أرِ الضابطين الشابين الصاعقة، وإلاَّ فإنَّ النقود التي تأخذها حرام أيها الطفيلي الخبيث!
- حاضر ! – أجاب فانكا - فستانكا بمرح - أيها المبجلات الفاضلان، أرجو الانتباه إلى هذه اللوحات الحية. العاصفة في نهار حزيراني صيفي. من تأليف كاتب مسرحي غير معترف به يتخفى وراء اسم مستعار هو فانكا - فستانكا . اللوحة الأولى: «نهار حزيراني رائع. أشعة شمس الظهيرة الحارقة تنير المروج والأرياف المزهرة..».

---

[1] من أشهر الجنرالات في الجيش الروسي آنذاك.

[2] النبيذ.

ساحات أسارير سحنة فانكا ـ فستانكا الدون كيخوتية الدميمة فـي ابتسامة معسولة متغضنة، وضاقت عيناه فـي نصفي دائرة.

«.... ولكن هاهي أولى الغيوم تظهر عند الأفق البعيد، ثم تكبر وتتراكب كالصخور، مغطيةً رويداً رويداً صفحة السماء الزرقاء...».

وهنا راحت الابتسامة تزايل وجه فانكا ـ فستانكا بالتدريج وتحل محلها جدية وصرامة متزايدتان.

«.... وأخيراً حجبت الغيوم قرص الشمس... وعمت ظلمة تنذر بالشر...».

اكتست سحنة فانكا ـ فستانكا بشراسة متناهية:

«.... وتساقطت أولى قطرات المطر....»

أخذ فانكا ـ فستانكا ينقر ظهر الكرسي بأصابعه.

«..... فـي البعيد ومضت أولى البروق...»

شرعت عين فانكا ـ فستانكا اليمنى تطرف بسرعة، وزاوية فمه اليسرى تختلج.

«.... ،بعد ذلك انهمر المطر كالمياه من أفواه القرب، والتمع فجأة برق يخطف الأبصار...».

وبمهارة وسرعة خارقتين راح فانكا ـ فستانكا يرسم بحركات متواترة من حاجبيه وعينيه وأنفه وشفتيه العليا والسفلى تعرجات خاطفة تمثل البرق.

«... ودوى رعد قاصف مذهل – ترررروووو. وسقطت سنديانة معمرة على الأرض كأنها عود قصب هش....».

وبخفة وجرأة غير متوقعتين من شيخ فـي مثل سنه أحنى رأسه قليلاً، ووقع على الأرض دفعة واحدة دون أن يثني ركبتيه أو ظهره، كالتمثال تماماً، ثم مالبث أن هبَّ ببراعة على الفور واقفاً على قدميه.

«... ولكن هاهي العاصفة تهدأ بالتدريج، ووميض البرق يزداد ندرة. ودوي الرعد يضعف حتى لكأنه زئير وحش متخم: أووو – أووو. والغيوم تتبد، وتطل أولى أشعة الشمس...».
وترتسم على وجه فانكا ـ فستانكا ابتسامة كابية كئيبة.
«..... هاهو كوكب النهار أخيراً يشع من جديد فوق الأرض المغسولة...».
ومن جديد تنسفح على وجه فانكا ـ فستانكا المترهل ابتسامة غبطة شديدة الغباء.
أعطاه كل من الطالبين عشرة كوبيكات، فوضعهما على إحدى راحتيه ولوّح بيده الثانية في الهواء، وقال: «إين، تْسفي، دْري»، وفرقع بإصبعيه فاختفت قطعتا النقود. فقال بنبرة تأنيب: - تمارتشكا، هذا غش، كيف لا تخجلين من سلب ضابط متقاعد فقير من المرتبة الأولى تقريباً آخر مايملكه من نقود؟ لماذا خبأتها هنا؟
وفرقع بإصبعيه ثانية وأخرج قطعتي النقود من إذن تمارا. وقال مطمئناً الشابين: - سأعود حالاً، لا ت دعا الملل يتسلل إليكما في غيابي، وإذا لم تنتظراني، فإنني لن أعتب عليكما كثيراً. اسمحا لي بالذهاب!
- فانكا ـ فستانكا – صاحت مانكا البيضاء في إثره – ا شتر لي سكاكر بخمسة عشر كوبيكاً... كارميلا بخمسة عشر... هاك، أمسك!..
تلقف فانكا ـ فستانكا ببراعة الكوبيكات الخمسة عشر التي ألقتها إليه الفتاة، وانحنى بحركة كوميدية ، وأمال سدارته الرسمية ذات الأشرطة الخضراء فوق جبينه، وتوارى عن الأنظار.
اقتربت هنرييتا الكهلة الطويلة من الطالبين وطلبت منهما هي الأخرى سيكارة، وقالت وهي تتثاءب:

- ارقصا على الأقل أيها الشابين، فالفتيات يجلسن ويجلسن، ويكدن يختنقن من الملل.
قال كوليا موافقاً:
- من فضلكم، من فضلكم، اعزفوا لنا لحن فالس، وشيئاً فشيئاً ما أياً كان.
بدأ الموسيقيون يعزفون، وشرعت الفتيات يدرن ا لواحدة مع الأخرى بطريقة متكلفة حسب العادة، وقد شددت ظهورهن باستقامة، وأرخين أبصارهن بخجل.
كوليا غلاديشيف الذي كان يحب الرقص جداً لم يطق الصبر ودعا تمارا: فقد كان يعرف منذ الشتاء الماضي أنها تفوق الأخريات خفة ومهارة. وفيما كان يدور فـي رقصة الفالس انسل كبير المراقبين السمين عبر الصالة، ماراً من بين الراقصين دون أن يلحظه أحد، ولم يُتَح لكوليا أن يراه فـي أثناء ذلك.
وعلى الرغم من كل مابذلته فيركا من جهد فإنها لم تستطع بحال من الأحوال أن تزحزح بيتروف من مكانه، كان الخُمار الخفيف الذي لعب برأسه منذ وقت قصير قد زايله الآن تماماً، وأصبحت الغاية التي أتى من أجلها إلى هنا تبدو له مخيفة، بشعة، مستحيلة التحقيق. كان بإمكانه أن يذهب، أن يقول إنه لم يجد هنا أي فتاة تعجبه، أن يتذرع بالصداع على سبيل المثال، ولكنه كان يعرف أن غلاديشيف لن يدعه يهب، والأهم من هذا أن نهوضه من مكانه، وسيره وحده بضع خطوات، كانا يبدوان له أمراً شاقاً لا يطيق احتماله. أضف إلى ذلك أنه كان يشعر بعدم قدرته على التحدث إلى كوليا بهذا.
انتهوا من الرقص، وجلست تمارا وغلاديشيف جنباً إلى جنب من جديد. سأل كوليا بفراغ صبر: - ماهو الأمر حقاً؟ لماذا لم تأت جينكا حتى الآن؟

نظرت تمارا بسرعة إلى فيركا نظرة متساءلة لا يفهم مغزاها إلاَّ المطلعون، فأرخت فيركا أهدابها بسرعة، وكان هذا يعني: نعم لقد ذهب...

قالت تمارا: سأذهب لأناديها.

وقالت هنرييتا: - ما الذي حبّب إليكَ فتاتك جينيا إلى هذا الحد! خذني أنا.

- طيّب، في المرة القادمة – أجاب كوليا وأشعل سيكارة وراح يدخن بعصبية.

لم تكن جينيا قد بدأت ترتدي ملابسها بعد. كانت تجلس أمام المرآة وتضع البودرة على وجهها . سألت: - مابك يا تمارتشكا۔

- جاء فتاك الطالب العسكري لزيارتك، إنه ينتظر.

- آه، طفل العام الماضي... فليذهب عني.

- هو بعينه؛ ولكنه الآن ترعرع كفتى، وأصبح أجمل وأطول... بهجة للنظر!.. إذا كنت لا تريدين، سأذهب أنا.

رأت تمارا في المرآة كيف قطبت جينكا مابين حاجبيها.

-لا، انتظري يا تمارا، لا تفعلي. سأرى بنفسي. أرسليه إلى هنا، قولي له إنني مصابة بالصداع.

- أنا، أصلاً، قلت له إن زوسيا فتحت الباب برعونة وأصابتك في رأسك، وإنك الآن مستلقية وتضعين كمادات. ولكن هل يستحق الأمر كل هذا يا جينيتشكا؟

- يستحق أو لا يستحق هذا ليس من شأنك.

أجابتها جينكا بخشونة. فسألت تمارا بحذر:

ـ أحقاً أنك لا تشعرين نحوه بأية ذرة من الشفقة على الإطلاق؟
ـ وأنت ألا تشفقين علي؟
ومرّت بإصبعها فوق الخط الأحمر الذي يمر عبر نحرها: ـ ألا تشفقين على نفسك؟.. ألا تشفقين على تلك التعسة المسكينة لوبكا؟ وباشكا، ألا تستحق الشفقة؟ أنت لست إنساناً بل خرقة بالية!
ابتسمت تمارا بمكر وكبرياء:
ـ لا، عندما يجدّ الجد أنا لست خرقة. وأعتقد أنك سترين هذا قريباً يا جينيتشكا. على كل من الأحسن أن لا نتخاصم، فحياتنا، أصلاً، ليست بهذه الحلاوة، حسن، سأذهب الآن وأرسل به إليك.
ـ لا، عندما يجدّ الجد أنا لست خرقة. وأعتقد أنك سترين هذا قريباً يا جينيتشكا. على كل من الأحسن أن لا نتخاصم، فحياتنا، أصلاً، ليست بهذه الحلاوة. حسن، سأذهب الآن وأرسل به إليك.
عندما ابتعدت، أضعفت جينكا النور فـي المصباح الأزرق المعلق، وارتدت غلالة النوم واستلقت. وبعد دقيقة دخل غلاديشيف، ودخلت فـي إثره تماراوهي تجر بيتروف من يده، وكان هذا يعاند ولا يرفع بصره عن الأرض، ومن خلفهم كانت تطل المدبرة الحولاء زوسيا بوجهها الثعلبي الوردي الحاد، قالت هذه باحتفاء صاخب: ـ ياللروعة! مجرد النظر إليكم يبهج النفس: سيدان شابان وسيمان وسيدتان شابتان مناسبتان تماماً. باقة زهور بالضبط، ماذا أقدم لكم أيها الشباب؟ أتأمرون ببيرة أم بنبيذ؟
كان غلاديشيف يحمل فـي جيبه نقوداً كثيرة لم يسبق له خلال حياته القصيرة أن حمل هذا القدر منها: خمسة وعشرين روبلاً كاملة، وكانت نفسه تهفو إلى اللهو. ولم يكن يشرب البيرة إلاَّ للتظاهر بالفتة، فـي حين إنه لم يكن يطيق طعمها المر، وكان يعجب من إقبال الآخرين على شربها، ولذا فقد مطّ شفته السفلى باشمئزاز وكأنه من قدماء فرسان اللهو والشراب،

وقال بارتياب:
- من المؤكد أن الشراب الذي لديكم رديء؟
- ما هذا القول، ما هذا القول، أيها الشاب الوسيم! الشراب الذي عندنا تمتدحه علية القوم.. من الأنبذة الحلوة: الكاغور، والكنائسي، والتينيريف، ومن الفرنسية: اللافيت، ... وكذلك البورتُفْيين لا بأس به. الفتيات يعبدن اللافيت مع الليمونادة.
- وما سعره؟..
- حسب قيمته. كما هو سائد في جميع المحلات الراقية: قنينة اللافيت بخمسة روبلات. والليمونادة القنينة الواحدة بنصف روبل. أي الأربع قناني بروبلين، وهكذا يصبح المجموع سبعة روبلات فقط.
- كفاك يا زوسيا – قاطعتها جينكا بلا مبالاة – عيب أن نزعل الصبيين، خمسة روبلات تكفي. شخصان محترمان، ليسا كيفما كان...
بيد أن غلاديشيف تضرج بالحمرة، وألقى على الطاولة باستهانة ورقة من فئة العشرة روبلات.
- لم يبق مجال للكلام. هيا، احضري المطلوب.
- سآخذ أيضاً أجر الزيارة إذاً، ماذا تنويان أيها الشابان: زيارة قصيرة أم ستبيتان هنا؟ أنتما تعرفان التسعيرة: الزيارة القصيرة وتكلف روبلين، والمبيت خمسة روبلات من كل شخص... قاطعتها جينكا بنزق: - حسن، حسن، زيارة قصيرة، صدقي هذا على الأقل. أحضروا النبيذ، وأصرت تمارا على إحضار معجنات أيضاً وطلبت جينكا السماح بدعوة مانكا البيضاء. وامتنعت هي نفسها عن الشرب، ولم تنهض من السرير

وظلت طوال الوقت تلتف بشال أورينبورغي رمادي على الرغم من شدة الحرارة فـي الغرفة، كانت تحدق بإمعان إلى وجه غلاديشيف الجميل الملفوح بالشمس، ا لذي ينضح بالرجولة، دون أن تحول بصرها عنه. سألها وهو يجلس بجانبها ويمسح على يدها:

- مالك يا حبوبتي؟

- لا شيء مهماً... رأسي يؤلمني قليلاً، صدمة.

- لا تلقي بالاً إلى هذا.

- منذ أن رأيتك خف الألم. ما سبب هذه الغيبة الطويلة؟

- لم يكن بمقدوري الإفلات من المعسكرات، تعرفين الظروف... كان علينا أن نقطع عشرين فرسخاً فـي اليوم... وطوال النهار تدريبات لا تنتهي: تدريبات ميدان، وصفّ، وحامية، وبالعتاد الكامل. أحياناً يظل الواحد منّا يبذل جهوداً مضنية من الصباح إلى الليل... حتى إنه قبيل المساء لا يعود يشعر بقدميه من الإعياء... واشتركنا كذلك فـي المناورات... إنها ليست سكّراً...

- يالكم من مساكين ــ قالت مانكا البيضاء وهي تصفق بيديها ــ ولماذا يعاملونكم هكذا وأنتم كالملائكة؟.. لماذا يعذبونكم؟ لو كان لي أخ مثلكم أو ابن لكان قلبي نزف دماً. فـي صحتك أيها الطالب الشاب.

دقّا كأسيهما: وظلت جينكا تتفرس فـي وجه غلاديشيف بإمعان. سألها وهو يقرب كأسه منها: وأنت يا جينيتشكا؟

فأجابت بكسل: - لا رغبة لدي... والآن أيتها الصبيتان، لقد شربتما نبيذاً وثرثرتما، وأظن أنه حان وقت الذهاب.

وعندما غادر الآخرون سألت غلاديشيف:

- أليس بإمكانك البقاء معي الليلة؟ ولا تخف يا عزيزي إذا كانت نقودك لا تكفي، أنا أدفع عنك ما ينقص – ثم أردفت وهي تضحك - : أترى كم أنت جميل! حتى البنت لا تضن من أجلك بالنقود.

التفت غلاديشيف نحوها: فحتى أذنه الضعيفة الملاحظة دُهشت من لهجة جينكا الغريبة التي لا يدري سامعها هل هي حزينة، أم حنونة، أم ساخرة.

- لا ياروحي، كان يسرني جداً أن أبقى معك، وأنا نفسي أتمنى هذا، ولكن لا أستطيع بحال من الأحوال: فقد وعدتهم أن أكون في البيت قبيل العاشرة.

- لا بأس يا عزيزي، يمكنهم الانتظار. فأنت الآن رجل مكتمل الرجولة. أمِنَ المعقول أنك يجب أن تطيع شخصاً ما؟ وعلى كل، كما تريد. أنطفئ النور بالمرة، أم هكذا مناسب؟

- بالنسبة لي لا فرق.

أجاب بصوت مرتعش وهو يطوق بذراعه جسد جينكا الحار الجاف. قرب شفتيه من وجهها فأبعدته عنها برفق:

- انتظر، اصبر يا عزيزي، لدينا الوقت الكافي لنشبع تقبيلاً، تمدد قليلاً... نعم هكذا.. ابق هادئاً، ساكناً... لا تتحرك.

كان لهذه الكلمات الحارة والآمرة تأثير التنويم المغناطسي في غلاديشيف ، امتثل لإرادتها واستلقى على ظهره، ووضع يديه تحت رأسه، نهضت هي بعض الشيء، واستندت بمرفقيها إلى الفراش، وأسندت رأسها إلى ذراعها المحنية، وراحت تتأمل بصمت من خلال النور الضعيف جسمه الأبيض القوي المفتول العضلات، ذا الصدر العريض العالي، والأضلاع المتناسقة، والحوض الضيق، والفخذين الضخمتين البارزتين. كانت السمرة القاتمة التي خلفتها الشمس على الوجه، وعلى النصف الأعلى من العنق تتميز من بياض الكتفين والصدر بخط واضح.

ضيّق غلاديشيف عينيه للحظة. خيّل إليه أنه يحس على وجهه، وعلى جسده كله، بهذه النظرة المتوترة النفاذة التي كانت كأنها تلامس بشرته وتدغدغه فتحدث شعوراً يشبه الشعور بملامسة مشط دُلك بقطعة جوخ، أو ملامسة نسيج عنكبوت؛ شعوراً بمادة حية رقيقة عديمة الوزن.
فتح عينيه ورأى بالقرب منه تماماً عينين واسعتين غامقتين رهيبتين لامرأة بدت له الآن غريبة تماماً، سأل بصوت خفيض:
- مالك تنظرين إليَّ هكذا يا جينيا؟ فيم تفكرين؟
- آه، يا فتاي الحبيب!.. أصحيح أن اسمك كوليا؟
- نعم.
- لا تغضب مني ، نفّذ لي، أرجوك، نزوتي هذه: أغمض عينيك ثانية... لا، اغمضهما تماماً، بقوة، بقوة... أريد أن أقوّي النور وأتأملك جيداً. نعم.. هكذا.. لو كنت تعرف كم أنت جميل الآن.. الآن بالذات.. في هذه اللحظة، ففيما بعد ستصبح خشناً، وستفوح منك رائحة كرائحة التيس، أما الآن فتفوح منك رائحة العسل والحليب.. ،بعض من رائحة زهرة ما برية، أغمض عينيك، أغمضهما!
قوّت النور، وعادت إلى مكانها وجلست جلستها الأثيرة: متربعةً. ولاذ كلاهما بالصمت. كانت تُسمع أصواتُ عزف متقطع آتية من بعيد عبر عدة غرف يصدرها بيانو مكسور، ويتناهى صوت ضحك متواتر، وتُسمع من الناحية الأخرى أغوية وحديث مرح سريع لا يمكن تمييز كلماته. وكان ثمة عربة تقعقع في مكان ما في شارع ناء.

«الآن سأنقل إليه العدوى. مثله مثل الآخرين جميعاً فكرت جينكا وهي تتأمل بنظرة عميقة ساقيه المتناسقتين، وجذعه الجميل الذي ينبئ بتكوّن جسم رياضي، ويديه المثنيتين إلى الخلف، وقد برزت منهما فوق ثنية المرفق عضلات مفتولة صلبة – ولكن لماذا أشعر بالشفقة عليه؟ ألأنه جميل يا ترى؟ لا.،... أنا منذ زمن بعيد لم أعد أعرف هذه المشاعر. أم لأنه صبي؟ فمنذ عام واحد فقط أو أكثر قليلاً كنت أدس له في جيوبه، تفاجأ عندما كان يغادرني ليلاً. لماذا لم أقل له آنذاك ما أقدر وأجرؤ على قوله الآن؟ أم أنه لم يكن ليصدقني لو قلت له؟ هل كان سيغضب؟ هل كان سيذهب إلى أخرى؟ كل رجل لابد من أن يأتيه هذا الدور عاجلاً أو آجلاً...وماذا عن شرائه إياي بالنقود... هل هذا سلوك يُغتفَر؟ أم أنه تَصرّفَ كما يتصرفون جميعاً، عن عمىً؟...».

قالت بصوت خفيض: كوليا!.. افتح عينيك.

امتثل وفتح عينيه، ثم استدار نحوها وطوّق عنقها بذراعه، وجذبها نحوه قليلاً وهمّ بتقبيلها في صدرها، عند تقويرة الغلالة، فأبعدته ثانية برقة، ولكن بإصرار.

- لا، انتظر، انتظر.. استمع إلي... دقيقة أخرى. قل لي، أيها الفتى، لماذا تأتي إلينا هنا... إلى النساء؟

ضحك كوليا ضحكة خفيضة مبحوحة:

- يالك من غبية! ولماذا يأتي الجميع إلى هنا؟ ألست أنا أيضاً رجلاً؟ أظن أنني بلغت السن التي تبرز فيها لدى كل رجل... أعني... حاجة معينة... إلى المرأة... ولا أعتقد أن من اللائق بي أن أمارس تلك الأنواع الممجوجة من القذارات!..

- حاجة؟ فقط حاجة؟ أي كالحاجة إلى ذاك الوعاء الموجود لدي تحت السرير؟..
- ، لِمَ تقولين هذا؟ - اعترض كوليا وهو يضحك بتودد – أنتِ أعجبتني جداً.. من المرة الأولى، وإذا أردت أكثر يمكنن اي حتى القول إنني مغرم بك بعض الشيء... على الأقل أنا لست مستعداً لأن أبقى مع أية واحدة أخرى.
- طيب، لا بأس! وآنذاك، فـي المرة الأولى، هل كانت مجرد حاجة؟
- لا، على الأرجح لم تكن حاجة، بل كنت آنذاك أشعر برغبة ما غائمة فـي المرأة... وزملائي زيّنوا لي الأمر... وكثيرون منهم كانوا جاؤوا إلى هنا قبلي... وقد جئت أنا أيضاً..
- وماذا ، ألم تشعر بالخجل فـي المرة الأولى؟
ارتبك كوليا: فقد كان هذا الاستجواب بمجمله يسبب له إزعاجاً وضيقاً. كان يشعر أن هذا الحديث ليس حديث سرير فارغاً لا معنى له كالأحاديث التي يعرفها الجميع جيداً من تجربته غير الطويلة، بل ثمة شيء ما آخر أكثر انتظر أهمية.
- لنفترض... لم يكن شعوراً بالخجل، ولكن مع ذلك كان هناك شعور بالحرج. وقد شربت آنذاك لأشعر بالجرأة.
اضطجعت جينيا ثانية على جنبها مستندة بمرفقها إلى الفراش، وعادت تنظر إليه من فوق عن كثب وبإمعان.
- قل لي يا روحي – سألته بصوت لا يكاد يسمع، حتى الطالب لم يكن يميز ما تقول إلاَّ بصعوبة – قل لي شيئاً آخر أيضاً: عندما كنت تدفع النقود، الروبلين الدنسين إياهما، هل تفهم! الروبلين الدنسين إياهما، هل تفهم! الروبلين اللذين كنت تدفعهما لقاء الحب، من أجل أن ألاطفك وأقبلك وأمنحك جسدي؛ ألم تكن تخجل من دفع النقود لقاء هذا؟ ألم يحدث هذا قط؟

- أوه، يا إلهي! ما هذه الأسئلة الغريبة التي تسألينها اليوم!.. تعرفين أن الجميع يدفعون نقوداً، إن لم أدفع أنا غيري سيدفع، أليست الأمور كلها سواء بالنسبة إليك؟...
- وأنت هل أحببت أحداً يا كوليا؟ اعترف! حتى لو لم يكن حباً حقيقياً، بل هكذا... بينك وبين نفسك... هل كنت تتودد إلى أحد؟ هل كنت تهدي الزهور... وتتمشى في ضوء القمر متأبطاً ذراع أحد ما؟ أعتقد أن هذا حدث؟
- نعم، حدث، - أجاب كوليا بصوت باس رزين – أقليلة هي الحماقات التي تصادف المرء في شبابه! هذا أمر مفهوم...
- وهل كانت هذه ابنة عمك أو ابنة عمتك؟ آنسة مهذبة؟ طالبة معهد؟ تلميذة مدرسة؟ ... أعتقد أن هذا ماكان؟..
- نعم، طبعاً، كل واحد حدث له هذا؟
- وأنت ماكنت لتلمسها؟ كنت رئفت بها؟ أعني لو قالت لك: خذني، ولكن أعطني روبلين، ماذا كنت ستقول لها؟
أجابها غلاديشيف وقد تملكه غضب مفاجئ:
- أنا لا أفهمك يا جينكا! ما هذا الدلال الذي تتكلفينه! لم تتصنعين هكذا! أقسم إني سأرتدي ثيابي وأذهب.
- انتظر، انتظر يا كوليا! لا يزال هناك سؤال واحد فقط، واحد فقط، السؤال الأخير، آخر سؤال:
- ألم تستطع قط أن تتصور... طيب تصور الآن ولو للحظة... أن أسرتك افتقرت فجأة، أفلست... واضطررت أنت إلى كسب عيشك بممارسة مهنة النسخ، أو لنفرض مهنة النجارة أو الحدادة، وأن أختك اختبلت، مثلنا جميعاً... نعم، نعم، أختك أنت، أختك الشقيقة... أغواها أحمق ما، وراحت تلهو مع الرجال متنقلة من حضن أحدهم إلى حضن آخر.. ما الذي كنت ستقوله عندئذٍ؟

- هراء! هذا لا يمكن أن يحدث! – قاطعها كوليا بحدة – ولكن، على كل، هذا يكفي، أنا ذاهب!
- اذهب من فضلك! لدي هناك، عند المرآة، فـي علبة الشوكولاتة، عشرة روبلات، خذها، فأنا، على كل حال، لم أعد بحاجة إليها. اشتر بها لأمك علبة بودرة من عظم السلحفاة فـي إطار مذهب، وإذا كان لك أخت صغيرة، اشتر لها دمية فاخرة، قل لها: هذه للذكرى من فتاة ميتة. هيا، أيها الصبي!..
انتفض كوليا العابس الغاضب بجسمه المجدول قافزاً من السرير بخفة دون أن يلمسه تقريباً. وهاهو الآن يقف على السجادة قرب السرير عارياً، ممشوقاً، رائعاً، بكامل بهاء جسده الفتي النضر.
- كوليا – نادته جينكا بصوت خافت حنون ملحّ – كوليتشكا! التفت نحوها مستجيباً، واستنشق الهواء بحركة قصيرة مبتورة كالشهقة: لم يكن قد رأى فـي حياته قط فـي أي مكان، حتى فـي اللوحات الفنية، مثل هذا التعبير الرائع عن الحنان، والحزن، والعتاب الأنثوي الصامت، الذي يراه الآن فـي عيني جينكا المغرورقتين بالدموع، جلس على حافة السرير، واحتضنها بقوة مطوقاً جذعها وذراعيها السمراوين العاريتين، وقال برقة: فلندع الشجار يا جينيتشكا!
الْتَفَّتَ حوله، وطوقت عنقه بذراعيها، وضغطت برأسها على صدره. وظلاّ هكذا صامتين بضع ثوان، ثم سألته فجأة بصوت مخنوق:
- كوليا، ألم تشعر قط بالخوف من العدوى؟
ارتعد كوليا ، أحس برعب بارد مقزز يتحرك فـي أعماقه ويسري فـي داخله. لم يجب على الفور.

- طبعاً ، هذا شيء مخيف... مخيف... نجّنا ياراب! ولكن أنا لا أزور أحداً سواك، لا أزور إلاّك أنت! وأنت كنت ستقولين لي حتماً؟

أجابت بشرود: - نعم، كنت سأقول لك! – وأضافت بسرعة، ووعي، وكأنها تزن معنى كلماتها: - نعم، طبعاً، كنت سأقول لك! وأنت لم تسمع قط ماهو هذا المرض الذي يسمونه الزهري؟

- سمعت طبعاً... الأنف يتآكل...

- لا، يا كوليا، ليس الأنف فقط! الشخص كله يمرض، تمرض عظامه وعروقه ، ودماغه... بعض الأطباء يزعمون عن سخافة أن بالإمكان الشفاء منه.

هذا هراء! الشفاء منه مستحيل! المصاب يتعفن طوال عشر سنوات أو عشرين أو ثلاثين. ويظل في كل لحظة مهدداً بالفالج، فيموت نصف وجهه الأيمن ويده اليمنى ورجله اليمنى، ويعيش لا كإنسان، بل كنصف إنسان. يصبح نصف حي – نصف جثة. أكثرية المرضى يفقدون عقولهم. وكل واحد يدرك... كل إنسان... كل من أصابته العدوى يدرك أنه إذا كان يأكل ويشرب ويقبّل، وحتّى إذا كان يتنفس فقط، لا يستطيع أن يكون واثقاً من أنه لن يعدي الآن شخصاً ما من أقرب الناس المحيطين به – أخته، أو زوجته، أو ابنه... جميع المصابين بالزهري ينجبون أطفالاً م شوَّهين، أو خُدّجاً، أو مصابين بتضخم الغدة الدرقية، أو مسلولين، أو بُلهاً. هل عرفت يا كوليا هذا المرض! والآن – اعتدلت جينكا فجأة بسرعة، وأمسكت بكتفي كوليا العاريتين بقوة، وأدارته نحوها وجهاً لوجه، فكاد بريق عينيه الحزينتين الكئيبتين غير العاديتين يخطف بصره – والآن يا كوليا سأقول لك إنني أصبت منذ أكثر من شهر بهذه القذارة. ولذلك بالذات لم أسمح لك بتقبيلي..

- أنت تمزحين! إنك تستفزينني عمداً يا جينيا.
تمتم غلاديشيف بغيظ وقد أصيب بالذعر والحيرة.
- أمزح؟... تعال إلى هنا!...
أرغمته بحدة على أن يقف على قدميه، وأشعلت عود ثقاب وقالت:
- والآن انظر بإمعان إلى ما سأريك إياه...
- فتحت فمها واسعاً، ووجهت النور بطريقة تجعله يضيء حنجرتها بالذات.
تطلع كوليا وارتد إلى الوراء.
- هل ترى هذه البقع البيضاء؟ إنها الزهري يا كوليا! هل تفهم؟ الزهري في أشد وأخطر درجاته. والآن ارتد ملابسك واحمد ربك.
ودون أن ينبس بكلمة أو ينظر إلى جينكا اندفع يرتدي ملابسه بتعجل جعله لا يهتدي إلى موضع إدخال قدميه في سراويله. كانت يداه ترتجفان، وفكه الأسفل يرتعش بشدة فتصطك أسنانه. قالت له جينكا وهي مطرقة:
- اسمع يا كوليا، أنت محظوظ، أنت محظوظ لأن قدرك أوقعك على امرأة شريفة، ولو وقعت على امرأة أخرى لم تكن لترأف بك. هل تسمع هذا؟ نحن اللواتي تسلبونهن بكارتهن ثم تطردونهن من البيت، وبعد ذلك تدفعون لهن روبلين لقاء الزيارة، نحن دائماً، هل تفهم – وهنا رفعت رأسها فجأة – نحن دائماً نكرهكم ولا نشفق عليكم إطلاقاً!
توقف كوليا نصف العاري عن ارتداء ملابسه فجأة، وجلس على السرير. بجانب جينكا، وغطى وجهه براحتيه، وانخرط في بكاء صادق، كالأطفال تماماً.... وراح يهمس:

- يا إلهي، يا إلهي، فعلاً هذه هي الحقيقة! أية نذالة هذه!.. وعندنا أيضاً، عندنا، فـي بيتنا حدث مثل هذا، كان عندنا خادمة اسمها نيوشا... خادمة غرف... كانوا ينادونها أيضاً السينوريتا أنيتا... كانت حلوة... وقد عاشرها أخي، أخي الأكبر... ضابط... وعندما سافر كانت هي حبلى، وقد طردتها أمي من البيت... نعم، نعم، طردتها، ألقت بها إلى الشارع كالممسحة البالية... أين هي الآن؟ وأبي... أبي... هو أيضاً كان مع الخا... الخادمة.
فجأة نهضت جينكا نصف عارية، جينكا الملحدة، الشتّامة، المثيرة للفضائح، نهضت عن السرير، ووقفت أمام الطالب ، ورسمت عليه شارة الصليب ببطء، وبطريقة شبه احتفالية، وقالت بحنان عميق وعرفان: فليحفظك الرب، يا صغيري! وركضت على الفور إلى الباب وفتحته وصاحت:
- أيتها المدبّرة!
فجاءتها زوسيا ملبية ، قالت لهاجينكا:
- اسمعي يا عزيزتي، اذهبي من فضلك وانظري: مَنْ منهما غير مشغولة تمارا أم مانكا البيضاء، والفارغة منهما أرسليها إلى هنا.
كان كوليا يبربر بكلمات ما خلفها، ولكنها كانت تتعمد عدم الإصغاء إليه.
- هيا، اسرعي من فضلك، أيتها المدبرة، اعملي معروفاً.
- حالاً، حالاً يا صبيّة.
سأل غلاديشيف باكتئاب:
- لماذا، لماذا تفعلين هذا يا جينيا؟ من أجل ماذا؟ ... أحقاً تريدين أن تتحدثي عن هذا؟

- انتظر، هذا ليس من شأنك... انتظر، لن أفعل أي شيء يزعجك..
بعد دقيقة جاءت مانكا البيضاء بثوبها المدرسي القصير البني الأملس المتواضع عن قصد، والمشدود حول جسدها عمداً:
- لماذا دعوتني يا جينكا؟ هل تشاجرتما أم ماذا؟
فأجابتها جينكا بهدوء:
- لا، لم نتشاجر يا مانيتشكا، بل أنا أشعر بصداع شديد، ولذلك فإن صاحبي يجدني باردةجداً! اعملي معروفاً يا مانيتشكا، ابقي معه، حلّي محلّي!...
اعترض كوليا بنبرة مفعمة بمعاناة صادقة:
- كفى يا جينيكا، دعك من هذا يا حبيبتي! لقد فهمت؛ فهمت كل شيء؛ لا داعي الآن... لا تجهزي علي!..
قالت مانكا الطائشة وهي تبسط يديها بحيرة:
- أنا لا أفهم شيئاً مما حدث؛ هلاّ ضيّقتما الفتاة المسكينة شيئاً ًما؟
- طيب، اذهبي ا ذهبي – صرفتها جينكا بلطف – أنا الآن سآتي. كنا نمزح.
ارتديا ملابسهما ووقفا طويلاً على عتبة الباب المفتوح بين الممر وغرفة النوم وكل منهما ينظر إلى الآخر بحزن دون أن ينبس بكلمة. ولم يكن كوليا يدرك بعقله بل كان يحس بمشاعره بأن في نفسه يتحقق في هذه الدقيقة أحد تلك التحولات الهائلة التي تؤثر بقوة قاهرة في الحياة بمجملها.
بعد ذلك شد على يد جينيا بقوة وقال:
- سامحيني! هل تسامحينني يا جينيا؟ هل تسامحينني؟
- نعم يا صغيري! نعم يا جميلي! نعم... نعم...

مسحت برقة وحنان أمومي على رأسه الحليق ذي الشعر القصير القاسي، ودفعته برفق إلى الممر، ثم أرسلت فـي إثره سؤالاً عبر الباب الموارب.
- إلى أين أنت ذاهب الآن؟
- سآخذ زميلي وأذهب إلى البيت.
- كما تشاء! أتمنى لك الصحة يا عزيزي!
- سامحيني! سامحيني!
كرر كوليا ثانية وهو يمد يديه نحوها.
- لقد قلت لك يا صغيري الرائع... وأنت سامحني... فنحن لن نتقابل ثانية.
وأغلقت جيينا الباب وبقيت وحدها.
توقف غلاديشيف فـي الممر حائراً، فهو لم يكن يعرف كيف يجد الغرفة التي دخل إليها بيتروف وتمارا... وأنجدته المدبرة زوسيا التي مرت من جانبه راكضة بسرعة كبيرة وقد بدا عليها القلق والاضطراب بشكل واضح. قالت بضجر وامتعاض رداً على سؤاله: - أف، ليس لدي وقت لك الآن! الباب الثالث إلى اليسار.
اقترب كوليا من الباب ودقه، وارتفعت فـي الغرفة أصوات لغط وهمس، دق الباب ثانية وهو يقول: - كيركوفيوس، افتح! هذا أنا: سوليتيوروف.

كان ثمة عرف يقضي بأن يدعو طلاب المدرسة العسكرية بعضهم بعضاً بأسماء مستعارة عندما يتوجهون إلى أماكن من هذا النوع، ولم يكن ذلك من باب الحفاظ على السرية، أو التحايل على يقظة الرؤساء، أو الخوف من الفضيحة أمام أحد معارف العائلة الذي يمكن مصادفته عرضاً، بل كان نوعاً من ممارسة لعبة التخفي، والتنكر، ا للعبة التي تعود بأصولها إلى تلك الأيام التي كان الشباب فيها مولعين بغوستاف ايمار، وماين ريد[1]، ورجل التحري ليكوك.
تناهى إليه من خلف الباب صوت تمارا وهي تقول:
- ممنوع! الدخول ممنوع. نحن مشغولان.
ولكن صوت بيتروف الغليظ قاطعها قائلاً:
- ترهات! إنها تكذب. ادخل. مسموح!
فتح كوليا الباب. كان بيتروف يجلس على الكرسي مرتدياً ملابسه وقد تضرج كله بالحمرة، وبدت عليه الصرامة، وبرطم بشفتيه كالأطفال وأرخى بصره.
قالت تمارا بسخرية وغضب:
- ما هذا الزميل الذي جلبته معك، لا أدري ما أقول! لقد ظننت إنه رجل حقاً، فإذا به بنت لا أكثر! قل لي من فضلك هل يضن بعذريته ويخشى أن يفقدها. يالهاذ الكنز الثمين! خذ، استرد روبلَيْك – صاحت فجأة في وجه بيتروف وألقت بقطعتي نقد على الطاولة – إنك، على كل حال، ستدفعهما إلى خادمة ما! أو احتفظ بهما لتشتري قفازين لك، أيها الجربوع الصغير!

---

[1] ريد – توماس ماين (١٨١٨– ١٠٨٣)، كاتب روايات مغامرات إنكليزي.

بربر بيتروف بامتعاض دون أن يرفع بصره:
- لماذا تشتمين هكذا. أنا لا أشتمك، فلماذا تبدئين أنت بالشتم؟ لي كل الحق فـي أن أتصرف كما أريد. وأنا قضيت معك وقتاً، وهاك ثمنه، أمّا غصباً فأنا لا أريد.. ومن جهتك أنت يا غلاديشيف ... أعني ياسوليتيوروف هذا ليس جيداً على الإطلاق. كنت أظن أنها فتاة مستقيمة، وإذا بها لا تكف عن التحرش بي، لتقبلني، والرب وحده يعرف ماذا تفعل.
انفجرت تمارا ضاحكة على الرغم من الغيظ الذي كان يتملكها.
- آه منك أيها الأحمق الصغير! لا بأس، لا تغضب، سآخذ نقودك. ولكنني أحذرك: اليوم مساء ستندم ، وستبكي، لا بأس، لا تغضب، لا تغضب، أيها الملاك، تعال نتصالح. مدّ لي يدك كما أمدّ لك يدي.
قال غلاديشيف:
- هيا بنا يا كيركوفيوس، إلى اللقاء، تمارا!..
دست تمارا النقود فـي جرابها كعادة جميع المومسات، وسارتتودع الصبيين.
وفيما كانوا يجتازون الممر دهش غلاديشيف من حالة الارتباك الغريب الصامت المتوتر التي تسود الصالة، ووقع الأقدام المتعجلة والأحاديث الهامسة المكبوتة السريعة.
قرب المكان الذي كانوا يجلسون فيه تحت اللوحة منذ برهة قصيرة احتشد جميع نزلاء آنا ماركوفنا، وبعض الغرباء، كانوا يقفون كتلة واحدة متراصة وينظرون إلى الأسفل. اقترب كوليا من قبيل الفضول، وزاحم الآخرين بعض الشيء، ونظر من بين الرؤوس: كان فانكا ـ فستانكا متمدداً بجنبه على الأرض

وقد تشنج بشكل غير طبيعي، وجهه كان مصطبغاً بلون أزرق قاتم يكاد يكون أسود، وجسمه الذي لم يكن يتحرك قد تكور وانثنت قدماه فبدا صغيراً إلى حد يثير الاستغراب. إحدى يديه كانت مستقرة تحت صدره، والأخرى ملقاة إلى الخلف. سأل غلاديشيف بهلع:

- ماذا به؟

فأجابت نوركا بهمس سريع متقطع:

- جاء فانكا ـ فستانكا لتوه إلى هنا... أعطى مانكا السكاكر، ثم أخذ يلقي علينا أحاجي أرمنية...«شيء لونه أزرق، معلق في صالة الاستقبال يطلق صفيراً...» لم نستطع أن نحزر بأي شكل من الأشكال، فقال لنا«سمكة الرنكة»... وضحك فجأة، وسعل، وبدأ يفقد توازنه ويميل إلى جانب، ثم وقع على الأرض، ولم يعد يتحرك... أرسلوا في طلب الشرطة... يا إلهي، ما هذه الورطة الفظيعة..! ... أنا أخاف من الأموات جداً..

قاطعها غلاديشيف قائلاً:

- انتظري! يجب أن نجس جبينه: ربما مازال حياً...

ولكن ماكان ينحني إلى الأمام حتى أمسكت به أصابع سيميون، كأنها كماشة حديدية، من ذراعه فوق المرفق وجذبته إلى الخلف:

- لا شيء هنا للاستيضاح – قال الحاجب بصرامة – هيا أيها السيدان الصغيران من هنا! لا مكان لكما هنا، الآن ستأتي الشرطة وتستدعيكما كشاهدين، وعندئذٍ: كشر... سيطردونكما من المدرسة العسكرية إلى حيث...! هيا، هيا، اذهبا الحسنى سالمين!..

رافقهما حتى ردهة المدخل، ودس بين ذراعي كل منهما معطفه، وأضاف بنبرة أشد صرامة:

- ايه، والآن... هيا ركضاً، أسرعا! وإياكما أن تظهرا هنا ثانية! وإذا أتيتما مرة ثانية فإنني لن أسمح لكما بالدخول بالمرة، يالكما من ذكيين! أعْطَيا الكلب العجوز نقوداً ليشتري لكما فودكا، وهاهو الآن قد فطس.

زمجر غلاديشيف فـي وجهه:
ـ ايه، لا تتمادَى كثيراً!
فصرخ سيميون فجأة بحنق شديد – بماذا لا أتمادى؟! – وأصبحت عيناه السوداوان المجردتان من الأجفان تحت حاجبيه الأمعطين مخيفتين إلى درجة جعلت الطالبين يرتدان إلى الخلف – سألطمك الآن على سحنتك لطمة تنسيك كيف تقول بابا – ماما !... رجلاك سأقتلعهما من مؤخرتك، هيا، بلمح البصر!... وإلاَّ طردتكما بالصفع على القفا!
وفيما كان الصبيان يهبطان الدرج، كان يصعده فـي الوقت نفسه رجلان يعتمران سدارتين مائلتين إلى جانب، ويرتديان سترتين غير مزررتين، وقميصين أحدهما أزرق والآخر أحمر مسدلين فوق بنطاليهما. كانا من الواضح أنهما زميلا سيميون فـي المهنة.
صاح أحدهما من الأسفل بمرح مخاطباً سيميون:
ـ ماذا؟ فانكا ـ فستانكا وَدَّع؟
فأجابه هذا:
ـ نعم، لابد أنها النهاية، هيا يا شباب، يجب أن نرميه فـي الشارع قبل أن تتلبس بنا الأرواح، ليذهب إلى الشيطان، خلّهم يظنوا أنه سكر سكرة ثقيلة وفطس فـي الطريق.
ـ ألست أنت... يعني... الذي فعلها؟... قضيت عليه؟
ـ ما هذه السخافات! وما الداعي إلى هذا!... كان شخصاً مسالماً. كالحَمَل تماماً. لابد أن أجله قد حان.

قال صاحب القميص الأحمر:
- لقد وجد المكان المناسب الذي يموت فيه! ألم يجد مكاناً أسوأ من هذا؟
وقال الآخر مؤكداً:
- هذا صحيح، عاش حياة مضحكة، ومات ميتة آثمة، هيا بنا يا صاحبي!
أطلق الطالبان ساقيهما للريح بكل ما لديهما من قوة، فقد كان شخص فانكا ـ فستانكا المتكور على الأرض بوجهه الأزرق يمثُل فـي خيالهما الآن فـي العتمة مرعباً جداً، كما يبدو الأموات مرعبين للفتيان الصغار، ولاسيما عندما يتذكرونهم ليلاً، فـي العتمة.
ما انفكت السماء تمطر منذ الصباح رذاذاً ناعماً كالغبار، عنيداً ومضجراً، كان بلاتونوف يعمل فـي المرفأ فـي تفريغ البطيخ، إذ لم يحالفه الحظ فـي المصنع الذي كان منذ الصيف ينوي أن يعمل فيه: فبعد أسبوع واحد نشب نزاع كاد أن يتحول إلى عراك بينه وبين كبير الصُنّاع الذي كان يعامل العمال بمنتهى الجلافة. وقد ظل سيرغي ايفانوفتش نحو شهر يتدبر شؤونه كيفما كان، ويعيش فـي ضنك شديد على أطراف شارع تيمنيكوفسكايا، حاملاً بين آونة وأخرى إلى هيئة تحرير «الأصداء» ملاحظات حول حوادث الشوارع أو مشاهد مضحكة من قاعات محاكم الصلح.
بيد أن هذا العمل الصحفي الباهت كان قد أضجره منذ وقت طويل. فقد كان يتوق على الدوام إلى حياة المغامرة، إلى ممارسة العمل الجسدي فـي الهواء الطلق، إلى الحياة المجردة تماماً من مجرد الإشارة إلى الراحة والاسترخاء، يتوق إلى التجوال الخالي من الهموم، تجوال يجعله ينبذ جميع المواضعات الخارجية، ولا يعرف هو نفسه ماذا سيحدث له غداً

ولذا فإنه عندما شاهد طلائع المواعين المشحونة بالطبع قادمة من مجرى الدنيبر الأسفل، انضم عن طيب خاطر إلى فرقة من فرق العمل، كان أفرادها قد عرفوه منذ السنة الماضية وأحبوه لطبعه المرح، وروحه الرفاقية،
ومهارته البالغة فـي الحساب والإخصاء.

كان العمل يجري باتساق وبراعة، فعلى كل ماعون كان يعمل أربع مجموعات فـي آن واحد، وكل منها تضم خمسة أشخاص. يتناول الأول البطيخة من الماعون ويناولها للثاني الواقف إلى جانب الماعون، فيلقي بها هذا إلى ثالث يقف على الرصيف، ويقذف بها هذا إلى رابع، ويناولها هذا بدوره إلى الخامس الذي يقف على عربة النقل ويقوم بتنضيد البطيخ – الأخضر الغامق، والأبيض، والمخطط – فـي صفوف مستقيمة لامعة. كان هذا عملاً نظيفاً ومرحاً ويتطلب براعة فائقة. وإذا ما أُحسن اختيار المجموعة العاملة يصبح من الممتع النظر إلى البطيخ وهو يطير من يد إلى يد، يلقي أحدهم بالبطيخة فيتلقفها الآخر بسرعة ومهارة لاعبي السيرك، وتعود لتطير من جديد، وتتبعها أخرى فأخرى وهكذا دواليك دون انقطاع إلى أن تمتلئ العربة فـي النهاية. ولا يصعب هذا العمل إلاَّ على الجدد الذين لم يكتسبوا بعد المهارة المطلوبة ولم يمتلكوا الإحساس الخاص بالتواتر المنتظم. والأصعب هنا ليس تلقف البطيخة بل إجادة الإلقاء بها.

ومازال بلاتونوف يذكر جيداً تجاربه الأولى فـي السنة الماضية، وتلك الشتائم المقذعة، المستهزئة، الفظة التي انهمرت عليه عندما سها فـي المرة الثالثة أو الرابعة وأبطأ فـي المناولة: فسقطت بطيختان لم ترميا بالإيقاع المطلوب وانكسرتا على أرض الشارع، مصدرتين قرقعة ريانة، مما جعله يرتبك ارتباكاً شديداً فيُسقِط هو أيضاً البطيخة التي كان يمسك بها. فـي المرة الأولى تساهلوا معه

وفـي اليوم الثاني أخذوا يعاقبونه على كل خطأ يرتكبه بحسم خمسة كوبيكات عن كل بطيخة عند القسمة العامة. وفـي المرة التالية، عندما تكرر الخطأ، هددوه بالطرد على الفور من المجموعة دون أي حساب. ومازال بلاتونوف يذكر حتى الآن كيف تملكه الغضب فجأة، وفكر: «إذاً هكذا؟ فلتأخذكم الشياطين!.. لم يبق علي إلاَّ أن أشفق على بطّيخكم! إذاً هاكم،خذوا، خذوا!...»، وكأن هذه الفورة ساعدته على الفور، فصار يتلقف البطيخ باستخفاف، ويلقي به باستخفاف مماثل، ولشدّ ما كانت كبيرة عندما شعر فجأة أنه الآن بالذات قد انسجم كلياً، بعضلاته وبصره وتنفسه مع نبض العمل الفعلي، وأدرك أن أهم مافي الأمر هو عدم التفكير نهائياً بأن للبطيخ قيمة مادية معينة، وعندئذ فقط يسير كل شيء على ما يرام، وعندما أتقن أخيراً هذا الفن إتقاناً تاماً، ظل مدة طويلة يعتبره لعبة رياضية ممتعة ومسلية، ثم مضت هذه المرحلة أيضاً، ووصل فـي النهاية إلى حالة بات يشعر فيها إنه مجرد عجلة مسلوبة الإرادة، تتحرك آلياً ضمن آلة عامة مؤلفة من خمسة أشخاص وسلسلة لا متناهية من البطيخ المتطاير.

لقد أصبح الآن هو الشخص الثاني. فكان يميل بإيقاع منتظم إلى الأسفل، ويتناول بكلتا يديه البطيخة الباردة اللدنة الثقيلة دون أن ينظر إليها، ويؤرجحها إلى اليمين ويلقي بها إلى تحت دون أن ينظر نحوها أيضاً، أو أنه ينظر بطرف عينه، ويعود لينحني على الفور كي يتلقف البطيخة التالية. وكانت أذنه تلتقط فـي أثناء ذلك صوت ارتطام البطيخ بالراحتين: تشومك – تشومك... تشومك – تشومك، وكان ينحني على الفور إلى الأسفل ويقذف البطيخة وهو يزفر الهواء من رئتيه:كهي – كهي...

العمل اليوم كان مُكسباً جداً: ففرقتهم المؤلفة من أربعين شخصاً تعهدت بالعمل لا حسب الوقت، بل حسب الكمية، حسب عدد العربات المشحونة، كي تنجز المهمة بالسرعة المطلوبة. وقد تمكن مقدم الفرقة زافوروتني – وهو شخص بولتا فـي ضخم قوي – من أن يخدع ببراعة خارقة رب العمل الشاب الذي لم يكن على ما يبدو قد امتلك خبرة كافية بعد. ولكن هذا فطن فيما بعد إلى حقيقة الأمر وأراد تغيير الشروط، فبادر أصحاب مزارع القرعيّات المحنكون إلى تحذيره فـي الوقت المناسب قائلين له ببساطة وحزم «إياك. سيقتلونك»، وبفضل هذه الصفقة الموفقة بالذات أصبح كل فرد من أفراد الفرقة يكسب الآن مبلغاً يصل حتى أربعة روبلات يومياً، وكان الجميع يعملون بجد غير عادي يصل حد الهياج. ولو أمكن قياس عمل كل منهما بمقياس ما لتبين بالتأكيد أن كميته تساوي من حيث الوزن والمسافة كمية العمل اليومي الذي يقوم به حصان فورونيجي ضخم.

بيدأن زافوروتني لم يكن راضياً حتى عن هذا، فكان لا يني يستعجل عماله، ويحثهم على زيادة السرعة، مدفوعاً بمشاعر الطموح المهني، كان يريد أن يصل بدخل كل فرد من أفراد فرقته إلى خمسة روبلات. وكان البطيخ الندي الأخضر والأبيض يلوح للنظر بجذل وخفة غير مألوفة من المرسى حتى العربة، وهو يدور ويلمع. ويُسمع صوت اصطفاقه الريان براحات الأيدي المدرّبة.

ولكن هاهي آلة جرف التربة فـي المرفأ تطلق صفيراً طويلاً، فترد عليها صافرة أخرى وثالثة من النهر، وتنضم عدة صافرات على الضفة، وتظل جميعها مدة طويلة تزأر معاً كجوقة ضخمة متنوعة الأصوات.

- كفى ى ى ى !
يزأر زافوروتني بصوت أجش غليظ كصفير القاطرة تماماً، وهاهي آخر تشومك – تشومك ... ويتوقف العمل فـي الحال.
قوّم بلاتونوف ظهر بتلذذ، وحناه إلى الخلف، ومد يديه اللتين دب فيهما الخدر، وشاع السرور فـي نفسه عندما فكر فـي أنه فـي هذا اليوم قد اجتاز مرحلة الألم الأولي الذي يصيب جميع العضلات ويعربد فيها بقوة فـي الأيام الأولى من العمل بسبب عدم الاعتياد. أما قبل هذا اليوم فقد كان عندما يستيقظ صباحاً فـي جحره على أطراف شارع تيمنيكوفسكايا –أيضاً بسبب الصوت الذي ت صدره صفارة المعمل هناك – يعاني فـي الدقائق الأولى آلاماً فظيعة فـي العنق والظهر واليدين والقدمين تجعله يظن أنه لن يستطيع الوقوف على قدميه والسير بضع خطوات إلاّ بمعجزة.
زعق زافوروتني ثانية:
- هيّـ ـ ـ ـ ـا! إلى الغدااااء!
نزل الحمّالون إلى الماء ، وركعوا على ركبهم، أو انبطحوا على المعابر المتنقلة أو على الطوّافات، وراحوا يتناولون الماء براحاتهم ويغسلون وجوههم وأذرعهم المبتلة الملتهبة، ثم انزووا فـي مكان لا يزال فيه بعض العشب على الضفة نفسها، واتخذوا مجالسهم استعداداً لتناول الغداء: صَفّوا على شكل دائرة عشر بطيخات من أكثرها نضجاً، وقطَعَ خبزٍ أسود، وعشرين سمكة مقددة، وأسرع غافروشكا بوليا[1] إلى الحانة حاملاً قنينة بس

[1] «بوليا» بالروسية تعني: «الرصاصـــة» ، كنايــة عــن الســرعة. (المترجم).

خذ الملعقة جر الحلّة
لا يوجد خبز ، كل هكذا
فـي هذه الأثناء اقترب من المجموعة ركضاً صبي حاف قذر، يرتدي أسمالاً رثة تظهر من جسمه أكثر مما تغطي بكثير، سأل وهو ينظر إليهم بعينين متوجستين مُنقلاً بصره بينهم بسرعة:
- من منكم بلاتونوف ؟
فأجابه سيرغي ايفانوفتش :
- أنا بلاتونوف ، وأنت... ماهو اللقب الذي يغيظونك به؟
- هناك فـي المنعطف، خلف الكنيسة، تنتظرك فتاة... هاك هذه الورقة.
صدرت عن المجموعة صيحات كالصهيل، فقال بلاتونوف بهدوء:
- مالكم فتحتم أشداقكم هكذا أيها الحمقى، هات أعطني الورقة.
كانت هذه رسالة من جينكا مكتوبة بخط طفلي مدور مائل، وبلغة غير سليمة:
«سيرغي ايفانوفتش ، سامحني إذا كنت أزعجتك، أنا محتاجة إلى الحديس معك فـي قضية هامة جداً جداً . ماكنت قلقتك لو كانت القضية تافهة. لمدة ١٠ دقائق لا أكثر..
جينكا التي تعرفها من عند آنا ماركوفنا »
نهض بلاتونوف وقال لزافوروتني:
- أنا ذاهب لبرهة قصيرة ، عندما تبدؤون سأكون فـي محلي.
- وجد شغلة يشتغل بها!.. عندك الليل لهذه الشغلة... اذهب، اذهب، مَنْ يمسك بك! ولكن إذا بدأنا العمل وأنت غير موجود لن يحسب هذا اليوم لك. سأُشغّل أي متشرد. وكل البطيخ الذي سوف يكسره سآخذ تعويضه منك أنت... لم أكن أ ظن يا بلاتونوف أنك زير نساء هكذا...

كانت جينكا تنتظره فـي حديقة صغيرة اندست بين الكنيسة والكورنيش، ليس فيها سوى نحو عشر حورات بائسة، كانت ترتدي فستاناً رمادياً من قطعة واحدة مخصصاً للخروج، وقبعة مدورة بسيطة من القش، مزينة بشريط سوداء.
فكر بلاتونوف وهو ينظر إليها من بعيد وقد زر عينيه كعادته: «رغم أنها قد ارتدت ملابس محتشمة، إلاَّ أن أي رجل سيمر قربها سينظر إليها ويلتفت نحوها حتماً ثلاث أو أربع مرات: سيحس على الفور بطابع خاص».
قال لها ببشاشة وهو يصافحها:
- أهلاً جينكا ! سعيد جداً برؤيتك. فـي الحقيقة لم أكن أتوقع هذه الزيارة!
- كانت جينكا متحفظة فـي تصرفاتها وحزينة، وتبدو مهمومة بأمر ما. وقد أدرك بلاتونوف هذا على الفور وأحس به. قال لها:
- اعذريني يا جينيتشكا، عليَّ الآن أن أتغدى، فما رأيك فـي أن تسيري معي وتحدثيني عما يشغلك، وأنا فـي الوقت نفسه لا أفوّت الغداء. هنا بالقرب توجد حانة متواضعة، وفـي هذا الوقت لا يتردد عليها أحد، وفيها ركن صغير حوله حاجز يجعله كغرفة منفردة، هناك ستكون جلستنا رائعة، هيا بنان! وربما أنت أيضاً تأكلين شيئاً ما.
أجابت جينكا بصوت مبحوح: - لا، أنا لن آكل شيئاً، ولن أشغلك طويلاً... بضع دقائق، أحتاج إلى التشاور، إلى التحادث، وليس هناك أحد...
- جيد جداً، هيا بنا إذاً، مستعد لأن أخدمك قدر ما أ ستطيع، أنا أحبك جداً يا جينكا.

نظرت إليه بأسى وعرفان:
- أعرف هذا يا سيرغي ايفانوفتش ، ولذلك أتيت إليك..
- لعلك بحاجة إلى نقود؟.. قولي بصراحة: أنا شخصياً ليس لديّ إلاّ القليل، ولكن الفرقة يمكن أن تأتمني على سلفة.
- لا، شكراً... الأمر مختلف تماماً. سأقول لك رأساً كل شيء عندما نصل..
كانت الحانة المتطامنة بعض الشيء مأوىً مألوفاً لصغار اللصوص، ولا يبدأ فيها التعامل إلاَّ في المساء، ويستمر حتى الهزيع الأخير من الليل، حجز بلاتونوف غرفة صغيرة شبه مظلمة، وقال للخادم، وهو شاب قذر الوجه، أخنس، ملطخ كله بالوسخ، كأنه قد انتُشِل لتوه من حفرة قاذورات:
- أحضر لي لحماً مسلوقاً، وخياراً، وكأساً كبيرة من الفودكا وخبزاً.
مسح الخادم شفتيه وسأل بصوت أجش:
- الخبز بكم كوبيكاً؟
- بقدر ما تأتي القطعة.
ثم أضاف ضاحكاً: - أحضر أكبر قدر ممكن ، وفيما بعد نتحاسب، وأحضر كفاساً.
- ايه، يا جينكا، تحدثي، ماهي مصيبتك... على وجهك أرى أن هناك مصيبة، أو على العموم قضية مزعجة... هات ما عندك!..
ظلت جينكا طويلاً تعبث بمنديلها وتحدق إلى طرفيك نعليها وكأنها تستجمع قواها. تملكها شعور بالتهيب، ولم تستطع أن تستحضر في ذهنها بحال من الأحوال الكلمات الضرورية الهامة، فبادر بلاتونوف إلى مساعدتها:

- لا تخجلي، يا عزيزتي جينيا، قولي ما عندك! أنت تعرفين أنني لست غريباً ولن أفشي سرك أبداً. وربما أسديتُ لك نصيحة مفيدة فعلاً، هيا، قولي كل مافي ذهنك دون تفكير – ابدئي!..

قالت جينيكا بتردد: - بالذات لا أعرف كيف أبدأ، اسمع يا سيرغي ايفانوفتش ، أنا... مريضة... هل تفهم؟ مرض سيء.. أخبث أنواع المرض... هل تعرف ماهو؟

- تابعي! – قال بلاتونوف وهو يهز رأسه.

- أصبت به منذ مدة طويلة... منذ أكثر من شهر.... ربما من شهر ونصف... نعم، منذ أكثر من شهر، لأنني لا أعرف هذا إلاَّ في عيد العنصرة...

فرك بلاتونوف جبهته بسرعة وقال:

- انتظري، لقد تذكرت... كان هذا في ذاك اليوم الذي كنتُ فيه عندكن مع الطلاب، أليس كذلك؟

- صحيح ، يا سيرغي ايفانوفتش ، هو كذلك...

- آخ، يا جينكا – قال بلاتونوف بلهجة تأنيب وأسف – هل تعلمين أن اثنين من الطلاب قد مرضا بعد ذلك، ألست أنت السبب؟

التمعت عينا جينكا بغضب واحتقار:

- ربما كنت أنا السبب، من أين لي أن أعرف؟ كانوا كثراً يومها... أذكر ذاك الذي كان لا يكف عن استفزازك للشجار.... طويل، أشقر، يضع بنسنيه...

- نعم... نعم... هذا سوباشنيكوف. لقد وصلني الخبر... إنه هو... ولكن هذا لا يهم: شاب طائش مغرور!... أما الآخر: فهو الذي شعرت بالأسف عليه، ومع أنني كنتُ أعرفه منذ مدة طويلة إلاَّ أنني لم أحاول أن أعرف كنيته بالضبط...

كل ما أذكره هو أن كنيته مشتقة من اسم مدينة ما: بوليانسكا... أو زفينيغورودسكا... رفاقه كانوا ينادونه رمسيس... عندما قال له الأطباء – لقد راجع عدة أطباء – وعندما قالوا له قولاً واحداً قاطعاً: إنه مصاب بالزهري، ذهب إلى المنزل وأطلق النار على نفسه... وقد ترك ورقة كتب عليها عبارات مدهشة، أذكر منها ما معناه بالتقريب: «كنت أعتقد أن معنى الحياة بأكمله يتجلى في انتصار العقل والخير والجمال؛ وأنا، بعد أن أصبت بهذا المرض، لم أعد إنساناً، بل مجرد نتانة ، جيفة، مشروع مصابٍ بفالج متفاقم. وهذا لا تقبل به كرامتي الإنسانية. والذنب في كل ما حدث، ومن ثم في موتي، يقع عليَّ وحدي، لأنني أطعت شهوتي الحيوانية الآنية، وامتلكت امرأة بدون حب، لقاء المال، لذلك فقد استحقيت العقاب الذي أنزله بنفسي...»، إنني آسف عليه جداً – أضاف بلاتونوف بصوت خافت، فقالت جينكا وقد انفتح منخراها: - أما أنا فلست آسفة على الإطلاق.

- هذا تجنّ ... اذهب الآن أيها الفتى. عندما أحتاج إليك سأناديك – قال بلاتونوف للخادم – هذا تجنٍّ صارخ يا جينيتكشا! لقد كان إنساناً كبيراً وقوياً إلى درجة غير عادية. بين مئات الألوف لا تجدين مثله سوى واحد فقط. أنا لا أحترم المنتحرين، فهم على الأغلب من الصبيان الذين يطلقون النار على أنفسهم أو يشنقون أنفسهم لأمور تافهة، كالطفل الذي لم يعطه ذووه سكّرة فراح يدق رأسه على الجدار نكاية بهم. ولكن أمام موته هو بالذات أحني رأسي بإجلال ومرارة. فقد كان إنساناً ذكياً وسخياً ولطيفاً، يراعي الجميع، ويقسو جداً على نفسه، كما ترين.

قالت جينكا معترضة بعناد:
- بالنسبة لي لا فرق على الإطلاق بين الذكي والغبي، والشريف والخسيس، والكهل والشاب، لقد كرهتهم جميعاً! لأنني... – انظر إلي – ماذا أكون؟ مبصقة للعالم كله، حفرة نفايات، كنيف قاذورات، فكّر يا بلاتونوف : لقد امتلكني آلاف وآلاف الرجال، أمسكوا بي، شخروا ونخروا في وجهي، وجميع أولئك الذين اضطجعوا في سريري وأولئك الذين كان يمكن أن يضطجعوا، آه كم أكرههم! لو كنت أستطيع لحكمت عليهم جميعاً بالتعذيب بالحديد والنار!...لأمرت بأن...
- أنت حقودة ومتكبرة يا جينكا..
قال لها بلاتونوف بصوت خافت.
- أنا لم أكن حقودة، ولا متكبرة... الآن فقط أصبحت كذلك، لم أكن قد بلغت العاشرة عندما باعتني أمي التي ولدتني، ومنذ ذاك الوقت والرجال يتداولونني... وليت أحدهم رأى فيَّ إنساناً! لا! كنت في نظرهم سافلة، وغدة، أسوأ من الشحاذين، أسوأ من اللصة، أسوأ من القاتلة!... وحتى منفذ أحكام الإعدام – أحياناً يتردد أشخاص من هذا النوع على المحل – كان سينظر إلي من فوق، بتقزز: فأنا لا شيء، أنا امرأة عمومية! هل تفهم، يا سيرغي ايفانوفتش ، أية كلمة فظيعة هذه؟ عمو – مية !.. أي أنها لا تنتمي لأحد: لا لنفسها، ولا لأبيها، ولا لأمها، وليست روسية، ولا ريزانية: بل مجرد عمومية! ولم يخطر لأحد ولو مرة واحدة أن يدنو مني ويفكر: ولكن هذه إنسان أيضاً، ولها قلب وعقل، وتفكر في شيء ما، وتحس بشيء ما، وهي لم تُصنع من خشب، وليست محشوة بالقش أو بالتبن أو بالليف!

وعلى كل فأنا وحدي من يشعر هذا الشعور. وربما كنت أنا الوحيدة بين الجميع التي تحس بفظاعة وضعها، وتحس بهذه الحفرة السوداء القذرة النتنة. أما الفتيات اللواتي قابلتهن أو اللواتي أعيش الآن معهن – افهمني يا بلاتونوف ، افهمني – إنهن جميعاً لا يدركن شيئاً ..! كتل من اللحم تتكلم وتمشي! وهذا أسوأ من حقدي!..

قال بلاتونوف بصوت خافت:

- أنت على حق! وهذه مسألة مهما فكر المرء فيها فإنه دائماً ينتهي إلى طريق مسدود، ولا أحد بمقدوره مد يد المساعدة...

- لا أحد... لا أحد... –صاحت جينكا بحرارة – هل تذكر الحادثة التي جرت بحضورك: عندما أخرج الطالب لوبكا من المحل...

- وكيف لا. أذكر جيداً! وماذا كانت النتيجة؟

- النتيجة أنها البارحة عادت مشعثة، مبللة، ... تبكي... لقد هجرها النذل! لعب لعبةَ الطيبةِ، وراح يربّت خدها ويقول لها: أنت أختي! وأنا سأنقذك وسأجعل منك إنساناً...

- هكذا! شخص واحد فقط عرفته، لطيف، ومتساهل، وبدون أية حسابات شهوانية – هو أنت، ولكن أنت شخص مختلف تماماً، أنت إنسان غريب، دائماً تتجول هنا وهناك، وتبحث عن شيء ما... اعذرني يا سيرغي ايفانوفتش ... أنت إنسان كأنك من «المبروكين»!.. ولذلك جئت إليك، وإليك وحدك.

- تكلمي يا جينيتشكا...

- وهكذا عندما عرفت أنني مريضة كدت أفقد عقلي من الغضب، وكاد الحقد يخنقني... وفكرت: هاهي النهاية قد دنت، ولم يعد هناك ما يؤسف عليه، أو يستأهل الحزن، ولم يعد هناك شيء أنتظره... انتهى! ولكن أيمكن أن يمضي كل ما عانيته دون جزاء؟ أحقاً لا توجد عدالة على الأرض؟.. أحقاً أنني لن أستطيع أن أتمتع ولو بالانتقام؟ أحقاً لقاء إنني لم أعرف الحب قط، ولم أ عرف شيئاً عن الأسرة إلاَّ بالسماع

وإنهم كانوا ينادونني كأي كلبة حقيرة، ويمسحون علي متوددين، ثم يضربونني بعد ذلك بالحذاء على رأسي: - هيا من هنا! وإنهم صنعوا من إنسان متساو معهم، ولا يقل ذكاء عن أي واحد من الذين قابلتهم، ممسحة للأرض، وبالوعة لمتعهم الدنيئة؟ تفوه! أحقاً أنني لقاء هذا كله يجب علي أيضاً أن أتقبل هذا المرض بامتنان؟.. أم أنني عبدة؟ جماد لا ينطق؟ فرس لحمل الأثقال؟! عندئذٍ يا بلاتونوف قررت أن أعديهم كلهم: شباباً وشيوخاً، فقراء وأغنياء، جميلين وبشعين، كلهم، كلهم، كلهم!

كان بلاتونوف قد نحّى الصحن من أمامه منذ مدة طويلة وراح ينظر إليها بذهول مشوب بشيء من الاستهوال، ورغم أنه كان قد شهد في حياته كثيراً من الأمور المؤلمة، والقذرة، وحتى الدموية، فقد دهمه الآن خوف حيواني إزاء هذا التوتر والامتلاء بكراهية عارمة مكبوتة.

قال بعد أن أفاق من ذهوله:

- أحد الكتاب الفرنسيين العظام[1] تحدث عن مثل هذه الحالة. عندما غزا البروسيون الفرنسيين راحوا يهينونهم بمختلف الأشكال: كانوا يطلقون النار على الرجال، ويغتصبون النساء، وينهبون البيوت ويحرقون الحقول... إحدى الحسناوات الفرنسيات البارعات الجمال أصيبت بالمرض فراحت تعدي، للنكاية، كل الألمان الذين يسوقهم قدرهم إلى أحضانها. نشرت المرض بين المئات بل ربما الآلاف من الرجال... وعندما كانت تحتضر في المستشفى كانت تتذكر هذا بسعادة واعتزاز.. ولكن أولئك كانوا أعداء قد استباحوا وطنها وقتلوا إخوتها... أما أنت، أنت يا جينيتشكا؟

---

[1] غ. موباسان في أقصوصة «السرير رقم ٢٩» (١٨٨٤) (الناشر).

- أما أنا فالجميع، الجميع بالضبط، قل لي يا سيرغي ايفانوفتش ... ولكن كما يملي عليك ضميرك، إذا أنت وجدت في الشارع طفلاً اعتدى أحدهم على شرفه، وشوهه... لنفترض أنه قلع عينه، وقطع أذنيه، وعرفت أن هذا الشخص الآن يسير بجانبك، له وجود، ما الذي كنت ستفعله عندئذٍ؟..

- لا أعرف – أجاب بلاتونوف بصوت أصم مرخياً بصره، وقد شحب لونه وشد على أصابعه المنقبضة بتشنج تحت الطاولة – ربما كنت قتلته...

- ليس ربما... بل من المؤكد! إنني أعرفك، إنني أحس بك، طيب، والآن فكّر: لقد كانوا يهينون كل واحدة منا بهذا الشكل عندما كنا أطفالاً! أطفالاً! – قالت جينكا وهي تئن بالتياع، وغطت عينيها براحتها للحظة – إنني مازلت أذكر هذا، وأنت تنفسك تحدثت عن هذا عندنا، ربما في تلك الأمسية بالذات، في عيد العنصرة... نعم، عندما كنا أطفالاً، غبيات، نصدق كل ما يقال لنا، عمياوات جشعات فارغات.. ولا نستطيع أن نفلت من عقالنا.. إلى أين كان يمكننا أن نذهب؟ وماذا كان يمكننا أن نفعل؟ أرجوك يا سيرغي ايفانوفتش ، لا تظن أنني أحقد بهذا الشكل على من أهانوني شخصياً فقط... لا، بل على جميع زوارنا، على أولئك الرجال جميعاً من أصغرهم إلى أكبرهم... وهكذا قررت أن أثأر لنفسي ولجميع أخواتي.. هل أفعل حسناً أم لا؟...

- صدقاً.. أقول لك يا جينيتشكا إنني لا أعرف.. لا أستطيع... لا أجرؤ على أن أقول لك شيئاً.. أنا لا أفهم هذا..

- على كل ليس هذا هو المهم.. بل المهم هو أنني كنت أنقل إليهم العدوى دون أن أشعر بشيء، لا بالشفقة ولا بالندم، ولا بأنني أرتكب ذنباً بحق الرب أو الوطن. لم أكن أشعر سوى بالفرح، كذئب جائع تمكن من الوصول إلى الدم.. ولكن البارحة حدث شيء ما أنا نفسي لا أستطيع أن أفهمه. جاءنيطالب مدرسة عسكرية لا يزاص صبياً ، غ راً، غ بياً.. كان يتردد علي فـي الشتاء الماضي.. وفجأة أ شفقت عليه.. لا لأنه كان جميلاً جداً وفـي مقتبل العمر، ولا لأنه كان دائماً يتصرف بتهذيب شديد، بل حتى برقة وحنان، لا، فقد كان يزورني أشخاص من هذا الصنف ومن ذاك، ولم أكن أرأف بهم: كنت أَسِمُهم بتلذذ كما يَسِمون الماشية بالحديد المحمّى... أما هذا فقد أشفقت عليه فجأة... وأنا نفسي لا أفهم لماذا؟.. لا أستطيع أن أفسّر ذلك. خيّل إلي أنني إذا فعلت هذا فكأنني أسرق نقوداً من صبي أبله، معتوه، أو أضرب شخصاً أعمى، أو أذبح شخصاً نائماً... لوكان شخصاً قميئاً مهزولاً أو كهلاً شبقاً دنساً لما كنت تورعت. ولكنه كان معافى قوي ا لبنية، بصدر وذراعين كأنهما لتمثال... ولم أستطع... أعدت إليه نقوده، وكشفت له عن مرضي، وباختصار تصرفت كأغبى الغبيات. وقد تركني وهو غارق بدموعه.. وأنا لم أنم منذ مساء أمس. أمشي وكأنني وسط الضباب، هل معنى ذلك – كما أفكر الآن –أن الشيء الذي أضمرته، أن حلمي بأن أعدي الجميع، وأعدي آباءهم وأمهاتهم وأخواتهم وخطيباتهم، أن أعدي العالم كله لو استطعت.. هل معنى ذلك أن هذا كله كان غباء، وخيالاً فارغاً، بما أنني توقفت؟.. مرة أخرى أنا لا أستطيع أن أفهم شيئاً... سيرغي ايفانوفتش ، أنت إنسان شديد الذكاء، وشاهدت الكثير فـي حياتك، ساعدني على أن أجد نفسي الآن!...

- لا أعرف يا جينيتشكا!.. – قال بلاتونوف بصوت خفيض – ليس معنى ذلك أنني أخاف أن أقول لك رأيي أو أن أنصحك، بل إنني لا أعرف شيئاً على الإطلاق. هذا فوق قدرتي على المحاكمة... فوق الضمير...

شبكت جينيا أصابعها وطقطقتها بعصبية:

- لا... لا تفعلي، لا تفعلي هذا يا جينيتشكا! ... جينيا

- شيء واحد: أن أشنق نفسي...

- لا، لا، يا جينيا، كل شيء إلاَّ هذا. لو كانت الظروف غير هذه، ظروفاً لا يمكن قهرها، لقلت لك بجرأة، صدقيني: وماذا في الأمر، هيا يا جينيا، لقد حان الوقت لإنهاء هذا «البازار»... ولكن ليس هذا البتة ما أنت بحاجة إليه.. إذا أردت يمكن أن أقترح عليك مخرجاً ليس أقل شراسة وقسوة، ولكن يمكن أن يكون أقدر بمئة مرة على إطفاء غضبك..

- وماهو؟.. – سألت جينيا بوهن وكأنها خبت فجأة بعد توهجها:

- سأقول لك.. أنت مازلت شابة، وأصدقك القول إنك جميلة جداً، أي أنك تستطيعين، إذا ما أردت، أن تكوني ذات حضور غير هادي، ... وهذا أكثر حتى من الجمال، ولكنك لم تعرفي قط حتى الآن أبعاد مظهرك وقوة تأثيره، والأهم أنك لا تعرفين مدى جاذبية النساء اللواتي وُهبن طبيعة كطبيعتك، وكيف يسيطرن على الرجال، ويشددنهم إليهن، ويجعلن منهن أكثر من عبيد وبهائم... أنت عزيزة النفس، وجريئة، ومستقلة برأيك وذكية... وأنا أعرف أنك قرأت كثيراً، ولنفرض حتى إن الكتب التي قرأتها كانت سيئة، ولكنك كنت تقرئين على كل حال، ولغتك تختلف تماماً عن لغة الأخريات

وإذا ما التفتت الحياةُ نحوك بوجهها الحسن، يمكن أن تشفي من مرضك، ويمكن أن تبتعدي عن «الحفرة» هذه وتنطلقي إلى الحرية. وما عليك إلاَّ أن تشيري بإصبعك لتجدي مئات الرجال راكعين عند قدميك، ومستعدين للإقدام على أية دناءة، وعلى أية لصوصية، وعلى تبذير أي مبلغ.. أَحْكِمي الإمساك بأزمّتهم، وألهبي ظهورهم بسوط لا يرحم! اسلبيهم كل ما يملكون، وأفقديهم عقولهم مادامت لديك الرغبة والهمة! انظري يا عزيزتي جينيا.. من يتصرف الآن بشؤون الحياة سوى النساء! إن خادمة الأمس، وغسّالة الأمس، والمنشدة في الكورس بالأمس يقضمن الآن ثرواتُ تُعدّ بالملايين كما تفصّص امرأة تفيرية بزور عبّاد الشمس. ورب امرأة لا تكاد تحسن كتابة اسمها تؤثر أحياناً عن طريق الرجل في مصير مملكة بأسرها. وأولياء العهد يتزوجون من كنّ بالأمس بنات هوىً ومحظيات... هيا يا جينيتشكا.. أمامك مجال رحب لتحجمي في أخذ الثأر، وأنا سأراقبك من بعيد.. إنك مصنوعة من هذه العجينة بالذات: مفترسة، ومدمرة... ربما ليس بمثل ذاك الزخم، ولكنك ستلقين بهم تحت قدميك.

- لا – قالت جينكا وهي تبتسم بضعف – لقد فكرت في هذا من قبل.. ولكن شيئاً ما رئيسياً في داخلي قد احترق. لم تعد لدي القوة، ولا الإرادة، ولا الرغبة... أنا الآن من الداخل فارغة، نخرة... في بعض الأحيان تشاهد فطراً أبيض مدوراً بهياً، وما إن تضغطه بيدك حتى ينثال منه مسحوق كالعطوس. وهكذا أنا. لقد التهمت هذه الحياة كل شيء فيَّ ما عدا الحقد. نعم، إنني ذابلة، وحقدي أيضاً ذابل... وإذا التقيت صبياً ما ثانية، سأشعر بالشفقة، ومرة ثانية سأتعذب. لا، هكذا أحسن.

صمتت الفتاة ، ولم يعرف بلاتونوف ماذا عليه أن يقول. وشعر الاثنان بالضيق والحرج، وأخيراً نهضت جينكا، ومدت نحو بلاتونوف يداً باردة ضعيفة دون أن تنظر إليه.

- وداعاً يا سيرغي ايفانوفتش ! سامحني لأنني شغلت بعضاً من وقتك... على كل أنا نفسي أرى أنك كنت ستساعدني لو كنت تستطيع... ولكن من الواضح أنه ليس باليد حيلة. وداعاً!..
- ولكن إياك أن ترتكبي حماقة يا جينيتشكا! أتوسل إليك!
- طيب! – قالت وهي تلوح بيدها بوهن.
عندما خرجا من الحديقة افترقا، وبعد بضع خطوات نادته جينكا فجأة:
- سيرغي ايفانوفتش ! يا سيرغي ايفانوفتش..
توقف واستدار وسار نحوها.
- فانكا ـ فستانكا مات البارحة عندنا فـي الصالة. قفز.. قفز، ثم فجأة أسلم الروح.. وماذا... على الأقل ميتة سهلة! لقد نسيت أن أسألك يا سيرغي ايفانوفتش .. وهذا سؤالي الأخير.. هي الإله موجود أم لا؟!..
قطّب بلاتونوف ما بين حاجبيه.:
- بم أجيبك؟ لا أعرف. أظن أنه موجود. ولكن ليس كما نتصوره، إنه أكبر وأكثر حكمة وعدلاً...
- والحياة الأخرى؟ هناك. بعد الموت؟ يقولون إنه توجد هناك جنة أو نار؟... هل هذا صحيح؟ .. أم لن يكون هناك شيء البتة؟ فراغ؟ نوم دون نوم؟ سرداب مظلم؟
صمت بلاتونوف متجنباً النظر إلى جينكا، وقد امتلأت نفسه بالضيق والفزع.. وقال أخيراً بعد جهد:
- لا أعرف، لا أريد أن أكذب عليك..
تنهدت جينكا، وارتسمت على وجهها ابتسامة بائسة مشوهة:
- ايه، شكراً يا عزيزي. شكراً على كل حال.. أتمنى لك السعادة من كل قلبي... وداعاً..

استدارت ، وراحت تصعد الجبل بخطوات بطيئة مترنحة:
- ووصل بلاتونوف إلى مكان عمله فـي الوقت المناسب تماماً. كان أفراد الفرقة يأخذون أماكنهم وهم يحكون أجسامهم بين الفينة والأخرى، ويتثاءبون ويلينون أعضاءهم التي تصاب عادة بالرض، وشاهد زافوروتني بعينيه الثاقبتين بلاتونوف قادماً من بعيد فصاح بصوت سمعه كل من فـي المرفأ:
- لَحَّقَ الشيطان الأحدب! كنت أريد أن أمسك بك من ذيلك وألقي بك خارج المجموعة... هيا... خذ مكانك!...
ثم أضاف بلطف: - يالك من ديك حقيقي يا سيريوجا! لو فـي الليل... بسيطة. ولكن.. انظر: فـي وضح النهار يفعلها...
كان يوم السبت هو اليوم الذي يجري فيه عادة الكشف الطبي، وكنّ يستعدّن له فـي جميع المحلات بعناية بالغة وتخوّف، كما تستعد سيدات المجتمع الراقي قبل زيارتهن الطبيب الاختصاصي: يعتنين جداً بهندامهن الحميم، ويرتدين حتماً ملابس داخلية نظيفة، بل حتى أنيقة قدر الإمكان، كانت النوافذ المطلة على الشارع مغلقة بالدُرف الخشبية، وقد وضعوا عند إحدى النوافذ المطلة على الفناء طاولة وضعت عليها وسادة قاسية فـي موقع تحت الظهر.
جميع الفتيات كن مضطربات... «وفجأة يظهر أنني مصابة بالمرض دون أن ألاحظ... ومن ثم الإرسال إلى المستشفى، والشعور بالعار، وملل حياة المستشفيات، والطعام السيء والعلاج الصعب...»

ثلاث منهن فقط: مانكا الكبيرة أو مانكا التمساح، وزويا وهنرييتا – وكلهن بلغت الثلاثين من العمر، أي أنهن، حسب اعتبارات أهل «الحفرة» ، مومسات عجائز، من اللواتي شاهدت كل شيء وبَلَوْن كل شيء، ولا يكترثن بمهنتهن، كخيول السيرك البيض السمان – هؤلاء وحدهن بقين هادئات غير مباليات . بل إن مانكا التمساح كانت غالباً ما تقول عن نفسها:

- مررت عبر النار والماء، وخضت البر والبحر... ولم يعد هناك شيء يمكن أن يعلق بي..

بدت جينكا منذ الصباح وادعة ومستغرقة في التفكير، أهدت إلى مانكا البيضاء سواراً، ونوطاً فيه صورتها، معلقاً بسلسلة دقيقة، وصليباً من الفضة يعلق بالعنق. ورجت تمارا أن تأخذ منها للذكرى خاتمين: أحدهما من الفضة ويتألف من ثلاث قطع: قلب في الوسط، وتحته يدان تبدوان متصافحتين عندما تُجمع أجزاء الخاتم الثلاثة؛ والآخر من سلك ذهبي رقيق مع فص من الألمندين.

- أما ملابسي الداخلية يا تمارتشكا فإنني أدعها لآنوشكا خادمة الغرف. قولي لها أن تغسلها جيداً وتلبسها بالهناء، كذكرى مني.

كانت الفتاتان تجلسان وحدهما في غرفة تمارا، وكانت جينكا قد طلبت منذ الصباح كونياكاً، وراحت الآن تشرب ببطء، وكأنها تشعر بالكسل، متجرعةً كأساً في إثر كأس ومتنقّلة بليمون وقطعة سكر، وكانت تمارا تشهد هذا لأول مرة وتتعجب، فجينكا كانت دائماً تزهد في الخمر ولا تشرب إلاَّ نادراً وعندما يكرهها إصرار الزبائن على ذلك. سألتها: - مالك اليوم تهبين كل ما لديك؟ كأنك تستعدين للموت أو تنوين الذهاب إلى الدير؟

أجابت جينكا بفتور: - نعم، أنا ذاهبة، أشعر بالضجر يا تمارتشكا!..
- ومن منا تشعر بالبهجة.
- لا!.. لا أقصد أنني ضجرة، بل أشعر كأن الأمور كلها عندي سواء... ها أنا الآن أنظر إليك، وإلى الطاولة، وإلى الزجاجة، وإلى يديّ وقدميّ وأفكر أن كل هذا سواء، وكله لا لزوم له.. ليس من شيء له معنى.. كما فـي لوحة ما قديمة قديمة، هاك.. انظري: هناك جندي يسير فـي الشارع، وهذا بالنسبة لي لا يعني أكثر من أنهم أداروا نابض دمية ما فأخذت تتحرك... كما لا يعنيني أنه قد تبلل بالمطر، وأنه سيموت ، وأنا سأموت، وأنت يا تمارا ستموتين؛ إنني لا أرى فـي هذا أيضاً أي شيء مخيف أو مستغرب.. وهكذا كل شيء فـي نظري بسيط وممل..
صمتت جينكا، وشربت كأساً أخرى، ومصت قطعة السكر وسألت فجأة وهي لا تزال تنظر إلى الشارع:
- قولي لي من فضلك يا تمارا، أنا لم أسألك عن هذا من قبل قط، من أين أتيت إلينا هنا، إلى هذا البيت؟ أنت لا تشبهين أياً منا البتة، وأنت تعرفين كل شيء... وفـي كل حالة لديك ما تقولينه، وآراؤك جيدة وذكية.. وفـي تلك المرة تحدثت بالفرنسية بشكل جيد! وليس بيننا من تعرف عنك أي شيء.. فمن أنت؟..
- عزيزتي جينيتشكا ، صدقاً ليس هناك ما يستحق الحديث... مثلما يجري عادة فـي هذه الحياة.. كنت طالبة، وعملت مربية، وغنيت فـي جوقة، وأشرفت على إدارة جناح للرمي فـي حديقة صيفية، وبعد ذلك تورطت مع شخص دجّال، وتدربت أنا نفسي على الرمي ببندقية من طراز فينتشيستر...

ورحت أطوف فـي البلاد مع فرق السيرك، وأمثل دور الأمازونية الأميركية، كنت أتقن الرمي بشكل رائع.. ثم بعد ذلك ساقتني الظروف إلى الدير... وبقيت هناك سنتين... مررت بتجارب ك ثيرة... لا يمكن أن أتذكرها كلها.. منها السرقة مثلاً:

- شاهدت كثيراً فـي حياتك.. حياة منوعة.

- وأنا لست صغيرة فـي السن... ماذا تظنين، كم عمري؟

- اثنتان وعشرون، أربع وعشرون؟

- لا يا ملاكي! منذ أسبوع بالضبط أتممت الثانية والثلاثين، أنا، على ما أظن، أ كبر واحدة بينكن هنا عند آنا ماركوفنا . ولكنني لا استغرب أي شيء، ولا أنفعل بشيء، وكما ترين: لا أشرب على الإطلاق... وأهتم جداً بالعناية بجسمي. والمهم - - أو بالأحرى الأهم –أنني لا أسمع لنفسي البتة بالتعلق بالرجال.

- طيب وفتاك سينكا؟...

- سينكا حالة خاصة. قلب المرأة غبي، أحمق.. وهل بإمكانه أن يعيش دون حب؟.. ثم إنني لا أحبه، بل هكذا... أخدع نفسي... وعلى كلٍ قريباً سأكون بحاجة ماسة إلى سينكا هذا...

انتعشت جينكا فجأة ونظرت إلى صديقتها بفضول:

- ولكن كيف استقريت هنا، فـي هذه البقعة الموحشة؟.. وأنت بمثل هذا الذكاء والجمال واللباقة...

- قصة طويلة... لا همة لي لسردها... لقد وصلت إلى هنا بسبب الحب: تورطت مع شاب، وقمت وإياه بثورة، فنحن النساء دائماً نتصرف هكذا: إلى حيث ينظر الحبيب ننظر نحن، وما يراه الحبيب نراه... فـي قرارة نفسي لم أكن أؤمن بقضيته، ومع ذلك سرت وراءه، كان شخصاً مداهناً، ذكياً ، ذلق اللسان، بالغ الوسامة... ولكن تبين فيما بعد أنه نذل وخائن. كان يلعب لعبة الثورة، ويسلّم رفاقه للدرك، كان مدسوساً، وعندما قتلوه وفضحوا أعماله سقطت غشاوة الحماقة عن عيني.

ولكنني اضطررت إلى التخفي... وغيّرت بطاقتي الشخصية وعندئذٍ نصحوني بأن أ هون وسيلة للتستر هي استخراج بطاقة صفراء...
ومن هنا بدأت القصة!.. ومع ذلك فإنني أعتبر نفسي هنا فـي محطة مؤقتة: وما إن يحين الوقت وتسنح لي الفرصة المناسبة، حتى أغادر!..

- إلى أين؟! ... – سألتها جينيا بفراغ صبر.

- الدنيا كبيرة... وأنا أحب الحياة!.. هكذا كنت أشعر وأنا فـي الدير: عشت، عشت، وأنشدت الأنتيفونات والتمجيدات، إلى أن استرحت، وتسرب الملل إلى نفسي أخيراً، وعند ذلك: هوب، قفزت فجأة إلى ملهى للغناء.. قفزة جيدة؟.. وهكذا سأذهب من هنا إلى... المسرح، أو السيرك، أو فرقة رقص مسرحي... ولكن أكثر ما يستهويني ياجينيتشكا هو السرقة.. فيها جرأة وخطر ورهبة ونشوة تشبه نشوة السّكر... إنها تستهويني! لا تنظري إلي على أنني رصينة ومتواضعة وبمقدوري أن أبدو امرأة مهذبة فأنا امرأة أخرى تماماً.

التمعت عيناها فجأة بتألق ومرح:

- فـي داخلي يعيش شيطان!..

قالت جينيا بشرود وحسرة:

-إنك فـي وضع جيد!.. فأنت على الأقل تريدين شيئاً ما، أما أنا فنفسي كالجيفة... عمري الآن عشرون سنة، بينما نفسي هرمة، متغضنة، تفوح منها رائحة التراب.... وليتني عشت كما ينبغي!.. حياة كالوحل لا أكثر.

- دعك من هذا يا جينيا ، ما هذه السخافات! إنك ذكية، وذات شخصية أصيلة، وتتمتعين بتلك القدرة الخاصة التي تجعل الرجال يتذللون لك، ويزحفون أمامك عن طيب خاطر، اتركي هذا المكان أنت أيضاً. ليس معي طبعاً، فأنا دائماً وحدي؛ بل اذهبي فـي طريقك الخاص.

هزت جينكا رأسها، وغطّت وجهها بكفّيها بهدوء، دون دموع، ثم ردت بصوت أصم بعد صمت طويل:

- لا، لا... أنا لا أصلح لمثل هذا: فالقدر قد لاكني بأضراسه! أنا لم أعد إنساناً، بل علكة ممضوغة مقززة... ايه – نفضت يدها بيأس فجأة – هيا بنا يا جينيتشكا نشرب كونياكاً – قالت مخاطبة نفسها – ونمص الليمونة!... أف... يا لهمن شراب كريه!... من أين تحصل آنوتشكا دائماً على مثل هذا الشراب.. المقرف؟ لو دهنتِ بهِ كلباً لنَسَلَ شعرهُ... ودائماً تأخذ هذه السافلة نصف روبل زيادة. لقد سألتها مرة: «لماذا تكدسين النقود؟ »، فقالت: «أكدسها لوقت الزواج... فأية فرحة هذه التي سيشعر بها زوجي إذا كان الشيء الوحيد الذي سأقدمه له هو بكارتي! يجب أن أجمع بضع مئات أخرى»، إنها سعيدة! لدي هنا يا تمارا بعض النقود القليلة في الصندوق تحت المرآة، أعطيها إياها من فضلك فيما بعد...

قالت تمارا بلهجة تأنيب حادة:

- مابك أيتها الحمقاء، هل تريدين أن تموتي أم ماذا؟

- لا، إنني أقول هذا من باب الاحتياط ليس إلاَّ... خذي النقود، خذيها!.. ربما أخذوني إلى المستشفى... وهناك من يعرف ماذا سيحدث؟.. أنا تركت لنفسي بعض القطع النقدية الصغيرة احتياطاً... وماذا إذا أنا فعلاً يا تمارتشكا أردت أن أفعل بنفسي شيئاًما، هل ستحاولين منعي من القيام بذلك؟..

حدقت إليها تمارا بنظرة ثاقبة، عميقة وهادئة، كانت عينا جينكا حزينتين وكأنهما فارغتان، لقد انطفأت فيهما النار الحية، وبدتا عكرتين، وكأن لونهما قد نصل وأصبح بياضهما كحجر الفلسبار.
- لا... – قالت تمارا أخيراً بنبرة خافتة ولكن قاطعة – لو كان السبب هو الحب سأمنعك، ولو كان من أجل النقود سأقنعك بالعدول، ولكن هناك حالات يتعذر فيها المنع، لن أساعدك بالطبع على القيام بذلك، ولكنني أيضاً لن أتشبث بك وأمنعك.
فـي هذه اللحظة مرت فـي الدهليز المدبرة زوسيامسرعة وهي تصيح:
البسن يا بنات؟! وصل الدكتور... البسن يا بنات... هيا بسرعة!...
قالت جينكا بلطف وهي تنهض:
- هيا يا تمارا.. اذهبي، اذهبي، أنا سأذهب إلى غرفتي لدقيقة، إنني لم أبدل ملابسي بعد، مع أن هذا أيضاً، فـي الحقيقة، لا أهمية له، عندما سينادونني، وإذا لم أكن قد انتهيت، ناديني أنت، وتعالي لاستدعائي.
وفيما هي تستعد للخروج من غرفة تمارا ضمتها إليها من كتفها بحركة بدت عفوية ومسحت عليها برقة.
كان الدكتور كليمنكو – وهو طبيب من المدينة –قد أعد فـي الصالة كل ماهو ضروري لإجراء الفحص: محلول السليماني، والفازيلين، والأشياء الأخرى، وقد وضعها كلها على طاولة صغيرة خاصة، وكانت لديه أيضاً بطاقات الفتيات البيضاء التي يتسلمنها بدلاً من بطاقات الهوية، وقائمة عامة كتبت فيها أسماؤهن بالترتيب الأبجدي، وكانت الفتيات اللواتي ارتدين قمصاناً وجوارب وأحذية فقط يقفن أو يجلسن بعيداً، فيما كانت صاحبة المحل آنا ماركوفنا تقف قرب الطاولة، وتقف خلفها على مسافة غير بعيدة كل من ايما ادواردوفنا وزوسيا...

كان الدكتور كهلاً سيئ الهندام وقذراً بعض الشيء ويبدو أنه لا يكترث لكل ما حوله. وضع البينسنيه على أنفه بشكل معوّج ونظر إلى القائمة وصاح:

- الكساندرا بودزينسكايا!

فخرجت نينا الضئيلة الخنساء عابسة، واعتلت الطاولة بارتباك وقد ارتسم على وجهها تعبير غاضب، وعلت أنفاسها بصوت كالغطيط من الشعور بالخجل والحرج، ومن الجهد المبذول، وشرع الدكتور بالفحص مضيقاً عينيه خلف زجاج البينسنيه الذي لا ينفك ينزلق عن أنفه:

- اذهبي! ... سليمة.

وسجل على الوجه الخلفي للبطاقة: الثامن والعشرون من آب. سليمة».وخربش توقيعه، وقبل أن ينهي الكتابة صاح:

- فوشينكوفا! ايرينا!

حان دور لوبكا، وكانت خلال الشهر والنصف الماضيين اللذين قضتهما فـي حرية نسبية قد فقدت الشعور بعاديّة هذه الفحوص الأسبوعية، وعندما لف الدكتور قميصها كاشفاً عن صدرها تضرجت فجأة بالحمرة على نحو غير معهود سوى لدى النساء الشديدات الحياء، إذ غطت الحمرة ظهرها وصدرها.

وحان بعدها دور زويا، ثم مانكا البيضاء، ثم تمارا، ونوركا التي وجد كليمنكو لديها سيلاناً وأوعز بإرسالها إلى المستشفى.

كان الدكتور يجري الفحص بسرعة مدهشة، فهو منذ نحو عشرين عاماً يقوم كل سبت بفحص بضع مئات من الفتيات على هذا النحو، مما أكسبه تلك البراعة التقنية المألوفة، وتلك السرعة والعفوية الهادئة فـي الحركات اللتين غالباً ما نشهدهما لدى فناني السيرك، والغشاشين بورق اللعب، وحمّالي الأثاث ومغلّفيه، وسواهم من الحرفيين المهرة، وكان يقوم بحركاته البارعة بالهدوء نفسه الذي يفحص به تاجر الماشية أو الطبيب البيطري عدة مئات من الرؤوس يومياً، وببرود الأعصاب الذي لم يخنه فيا لمرتين اللتين ألزم فيهما تنفيذ أحكام الإعدام.

هل فكّر يا ترى يوماً فـي أن أمامه بشراً أحياء، أو أنه الحلقة الأخيرة والرئيسة فـي تلك السلسلة التي يسمونها البغاء المشروع؟... لا! وإذا كان قد عانى هذا فلابد أنه عاناه فـي بداية ممارسته هذا العمل. أما الآن فإنه لا يرى أمامه سوى بطون عارية، وظهور عارية، وأفواه مفتوحة، ولم يكن ليتعرف على أي رأس من هذا القطيع المطموس الملامح الذي يراه كل سبت إذا ما رآه فيما بعد فـي الشارع. كان المهم لديه هو أن ينهي الفحص بأسرع ما يمكن فـي هذا المحل كي ينتقل إلى محل آخر، وثالث، وعاشر، وعشرين...

صاح الطبيب أخيراً: - سوسانا راتسينا!

فلم يقترب أحد من الطاولة.

تبادل جميع نزيلات المحل النظرات ورحن يهمسن:

- جينكا... أين جينكا؟...

بيد أن جينكا لم تكن موجودة بين الفتيات.

عندئذٍ تقدمت تمارا إلى الأمام بعض الشيء، وكان الدكتور قد أنهى فحسها للتو، وقالت:
- إنها ليست هنا. لم تنه استعدادها بعد. عفواً، أيها السيد الدكتور.
ركضت إلى الممر، ومر وقت طويل دون أن تعود، ولحقت بها في البداية ايما ادواردوفنا ، ثم تبعتهما زوسيا وبضع فتيات، وحتى آنا ماركوفنا نفسها.
- بفوه! ما هذه الوقاحة! – قالت ايما ادواردوفنا المهيبة وهي سائرة في الممر وقد بدا الاستياء على وجهها – دائماً جينكا هذه! باستمرار جينكا هذه!.. يبدو أن صبري قد فرغ...
ولكن جينكا لم تكن موجودة في أي مكان؛ لا في غرفتها، ولا في غرفة تمارا، وقد نظروا في بقية الغرف، وبحثوا عنها في جميع زوايا البيت... ولم يعثروا لها على أثر.
قالت زويا مخمنة: - يجب أن ننظر في التواليت... ربما كانت هناك!...
بيد أن الباب هناك كان مغلقاً من الداخل بالمزلاج، دقت ايما ادواردوفنا الباب بقبضتها وصاحت:
- جينيا، هيا اخرجي بسرعة! ما هذه الحماقات؟
ثم رفعت صوتها وصرخت بفراغ صبر ولهجة متوعدة:
- هل تسمعين أيتها الخنزيرة؟ اخرجي فوراً، الدكتور ينتظر...
لم يأتها أي جواب. وطفق الجميع يتبادلن النظرات والخوف يطل من أعينهن وقدتملكت أذهانهن فكرة واحدة.
هزت ايما ادواردوفنا الباب من مقبضه النحاسي، ولكنه لم يستجب، فقالت آنا ماركوفنا :

- استدعين سيميون!..
نادين الحاجب، فجاء عابساً وآثار النوم بادية عليه كالعادة، وما إن رأى الحيرة التي تطل من وجوه الفتيات والمدبرتين حتى أدرك أن ثمة التباساً ما يتطلب قسوته الحِرفية وقوته، وعندما شرحوا له الأمر امسك مقبض الباب بيديه الطويلتين، اللتين تشبهان يدي القرد، وأسند قدميه إلى الجدار وجذب، دون أن ينطق بحرف. فبقي المقبض بين يديه، بينما ارتد هو إلى الخلف، وكاد يقع على الأرض مستلقياً على ظهره. زمجر بصوت مكتوم:
- آ، ياللشيطان، أعطينني سكين مطبخ.
دس السكين عبر شق الباب، وتحسس المزلاج الداخلي، ونجر قليلاً من حافة الشق، ووسعه إلى الحد الذي مكّنه من إدخال نهاية السكين إلى العمق المطلوب، وراح يزيح المزلاج رويداً رويداً إلى الخلف.
كان الجميع يتابعن حركات يديه دون أن يتحركن وقد حبسن أنفاسهن تقريباً. ولم يكن يُسمع سوى صرير المعدن على المعدن.
وأخيراً فتح سيميون الباب.
كانت جينكا معلقة وسط الردهة بشريط منتزع من مِشدّها، مربوط بخطاف المصباح، وكان جسدها الذي هدأ بعد اختلاجات الاحتضار القصير يتأرجح ببطء في الهواء، ويرسم حول محوره العمودي انعطافات لا تكادُ تُلحظ إلى اليمين والشمال. وقد تضرج وجهها بحمرة قرمزية مشوبة بالزرقة، وبرز طرف لسانها من بين أسنانها المطبقة المكشوفة. وكان المصباح المنتزع من موضعه ملقى على الأرض.
أعولت إحداهن بهستيرية، وتزاحمت الفتيات جميعاً، وتدافعن في الممر الضيق كقطيع مذعور، واندفعن راكضات وهنّ يولولن وينتحبن بهستيرية.

جاء الدكتور ليعرف سبب الصراخ، وأقول «جاء» بالذات، لا هرول أو أسرع. وعندما رأى الحادث لم يدهش، ولم يضطرب: فخلال عمله كطبيب في المدينة رأى كثيراً من هذه الحوادث بحيث أنه تخشب وتحجر إزاء الآلام والجروح الإنسانية، وإزاء الموت. أمر سيميون برفع جثة جينكا قليلاً، واعتلى هو نفسه مقعداً، وقطع الشريط. ومراعاة للشكليات أمر بنقل جينكا إلى غرفتها السابقة، وحاول بمساعدة سيميون أن يجري لها تنفساً اصطناعياً، ولكنه مالبث بعد نحو خمس دقائق أن نفض يده بيأس، وأصلح من وضع البينسنيه المعوجّ فوق أنفه وقال:

ـ استدعوا الشرطة لتدوين ضبط.

ومرة أخرى جاء كيربيش، ومرة أخرى تهامس مع صاحبة المحل في غرفة مكتبها الصغيرة، ومرة أخرى طقطقت في جيبه ورقة جديدة من فئة مئة الروبل.

تم تدوين الضبط خلال خمس دقائق، ونقلوا جينكا وهي شبه عارية، كما كانت عندما شنقت نفسها، إلى المشرحة في عربة مستأجرة، بعد أن لفوها وغطوها بقطعتين من الخيش.

وكانت ايما ادواردوفنا أول من عثر على الورقة التي تركتها جينكا على المنضدة الصغيرة بجانب سريرها، وهي ورقة منتزعة من دفتر الدخل والصرف الذي يجب على كل مومس أن تحتفظ بمثله، وقد كتبت عليها بقلم رصاص وبخط ساذج طفلي مدوّر، ولكنه ينبئ بأن يدي المنتحرة لم تكونا ترتعشان في الدقائق الأخيرة:

«أرجو عدم اتهام أحد بموتي، أموت لأنني أصبت بالعدوى، وأيضاً لأن الناس جميعاً أنذال، ولأن العيش مقرف. تمارا تعرف كيف يجب توزيع أشيائي، حدستها عن هذا بالتفصيل»...

التفتت ايما ادواردوفنا إلى الخلف نحو تمارا التي كان تقف بين الفتيات، وسألتها بصوت كالفحيح وقد امتلأت عيناها بكراهية خضراء باردة:

- إذاً، أنت كنت تعرفين أيتها السافلة، ماذا كانت تنوي أن تفعل؟ كنت تعرفين أيتها الساقطة؟ كنت تعرفين ولَمْ ت قولي؟ ورفعت يدها لتضرب الفتاة بقسوة وقَدْرٍ محسوب كعادتها، ولكنها توقفت فجأة وقد فغرت فاها وحملقت وكأنها ترى تمارا لأول مرة، كانت هذه تحدجها بنظرة ثابتة غاضبة طافحة باحتقار لا يحتمل، وترفع بيدها رويداً رويداً من الأسفل إلى الأعلى شيئاً صغيراً يلتمع بوميض معدنٍ أبيض، وظلت ترفعه إلى أن وصلت به إلى مستوى وجه المدبرة.

فـي مساء اليوم نفسه حدثت فـي محل آنا ماركوفنا حادثة هامة جداً: فقد انتقلت المؤسسة بكاملها مع الأرض والمنزل والموجودات الحية والجامدة وكل الكائنات البشرية إلى ملكية ايما ادواردوفنا .

كان الحديث حول ذلك يدور فـي المحل منذ مدة طويلة، ولكن عندما تحولت الشائعات إلى حقيقة على هذا النحو غير المنتظر، وبعد موت جينكا مباشرة ظلت الفتيات طويلاً غير قادرات على استعادة هدوئهن والتخلص من حياة الذهول والخوف التي اعترتهن. كن يعرفن جيداً بتجربتهن الخاصة مدى تسلط هذه الألمانية، وتشددها المتحذلق القاسي الذي لا يرحم، وجشعها وتغطرسها، وأخيراً حبها الشاذ الآمر المقزز الذي ينصب تارة على هذه العشيقة وتارة على تلك. كما لم يكن يخفى على أحد أن ثلث الستين ألفاً التي ستدفعها ايما ادواردوفنا للمالكة السابقة لقاء المحل والموجودات يعود لكيربيش الذي عمد منذ مدة طويلة إلى إقامة علاقات نصف ودية نصف عملية مع المدبرة السمينة. ولم يكن للفتيات أن يتوقعن من الارتباط بين هذين الشخصين الجشعين اللذين لا يعرفان الحياء والرحمة سوى شتى صنوف المصائب.

وكان السبب الذي جعل آنا ماركوفنا تتنازل عن المحل لقاء هذا الثمن البخس لا يعود فقط إلى أن كيربيش، حتى وإن لم يكن على علم ببعض الأمور القذرة التي تدينها، قادر فـي أي وقت على أن يوقعها فـي ورطة ويلتهمها دون أن يبقي منها شيئاً، وبإمكانه أن يورد كل يوم مالا يقل عن مئة ذريعة وحجة لذلك، وبعضها كاف لا لإغلاق المحل فحسب، بل ربما لتقديم صاحبته للمحكمة أيضاً...

ولكن آنا ماركوفنا ، فيما كانت تتأوه وتتنهد وتتظاهر بالبكاء لفقرها ومرضها ووحدتها البائسة، كانت فـي قرارة نفسها سعيدة بهذه الصفقة. فقد كانت منذ مدة طويلة تشعر بدنو ووهن الشيخوخة وكل ما يصاحبه من علل، وكانت تصبو إلى أن تحيا حياة فاضلة، وتنعم بهدوء تام لا يعكر صفوه شيء، وكل ماكانت آنا ماركوفنا لا تجرؤ على أن تحلم به فـي فجر صباها، عندما كانت هي نفسها لا تزال مومساً عادية، قد أتاها الآن من تلقاء نفسه دون زيادة أو نقصان: الشيخوخة المحترمة، والمنزل المليء بالخيرات فـي أحد الشوارع الهادئة الأنيسة فـي مركز المدينة تقريباً، وأن تكون ابنتها المعبودة بيرتوتشكا، التي توشك على الاقتران بشخص محترم، وهو مهندس وعضو فـي مجلس المدينة، ويملك بناءً كاملاً، حائزة على بائنة قيّمة ومجوهرات رائعة.. وقد غدا الآن بإمكان آنا ماركوفنا أن تشبع ميلها الدائم إلى التمتع بتناول لذائذ الطعام على الغداء والعشاء بطمأنينة وتمهل وتذوّق، وأن تشرب بعد الغداء نقيع الكرز الكحولي البيتي الجيد القوي التأثير، وتلعب فـي الأمسيات بالورق على كوبيكات مع معارفها من السيدات المكتهلات المحترمات اللواتي لم يُظهرن يوماً قط أنهن يعرفن مهنتها الحقيقية، مع أنهن فـي الحقيقة يعرفنها حق المعرفة، ولم يكن يدينّنها على ما تفعل

بل حتى كن يحترمن تلك النسب المئوية الضخمة التي كانت تكسبها من رأس المال، وكانت صويحباتها اللطيفات هؤلاء، اللواتي يواسينها ويشعن البهجة فـي شيخوختها الهادئة: صاحبة صندوق توفير، وربة فندق صاخب قرب السكة الحديدية، ومالكة محل مجوهرات صغير الحجم ولكنه فائق النشاط ومعروف جيداً فـي أوساط كبار اللصوص، وأخريات من أمثالهن. وكانت آنا ماركوفنا بدورها تعرف، وبإمكانها أن تروي عنهن، نوادر مريبة لا يسرهن سماعها، ولكن لم يكن من المألوف فـي أوساطهن الحديث عن مصادر الرفاه العائلي، بل كان ما يحظى بالتقدير هو الحذق والجرأة والنجاح وأساليب التصرف اللائقة.

زد على ذلك أن آنا ماركوفنا ، المحدودة ذهنياً إلى حد ما، وغير المتطورة كثيراً، كانت تحوز حساً داخلياً مدهشاً ظل يساعدها طوال حياتها، على أن تتحاشى غريزياً، ولكن دون أي خطأ كل مايمكن أن يسبب لها الإزعاج، وعلى أن تجد سبل الخلاص المعقولة فـي الوقت المناسب. وهذا ما حدث الآن، بعد موت فانكا ـ فستانكا الفجائي، وانتحار جينكا فـي اليوم التالي، فقد خمنت المرأة بحدسها اللاواعي الشديد الحساسية أن القدر الذي كان حتى هذه اللحظة يظلل محلها بعنايته، وينعم عليه بالتوفيق، ويبعد عنه الرزايا، يوشك الآن أن يقلب له ظهر المجن. ولذا فقد بادرت هي إلى التراجع.

يقولون إنه قبل نشوب الحريق فـي المنزل بقليل، أو قبل جنوح السفينة تنتقل الجرذان الحساسة الذكية جماعاتٍ إلى مكان آخر، وقد استرشدت آنا ماركوفنا بمثل هذا الحس التنبئي الجرذي البهيمي، وكانت محقة فـي ذلك: إذ بعد موت جينكا مباشرةخيمت فوق محل آنا ماركوفنا شايبس سابقاً و ايما ادواردوفنا تيتسنر حالياً لعنة مشؤومة، فقد توالت حوادث الموت، والمصائب، والفضائح فيه دون انقطاع، وتكاثرت بسرعة كتكاثر الأحداث الدموية فـي المآسي الشكسبيرية، وكذلك كان الحال فـي سائر المحال العمومية فـي «الحفرة».

ومِن أوَليات اللواتي متن بعد أسبوع واحد من تصفية القضية آنا ماركوفنا نفسها. وهذا، فـي الحقيقة، غالباً ما يحدث للذين ينتزعونهم من مجرى حياة ألفوها لمدة تقارب الثلاثين عاماً، هكذا مثلاً يموت الأبطال العسكريون عندما يتقاعدون؛ وهم أناس يتمتعون بصحة لا يصيبها الوهن وإرادة حديدية، وهكذا يغيب عن الساحة بسرعة رجال البورصة السابقون الذين ينسحبون وهم سعداء لينعموا بالراحة، ولكنهم يُحرمون من فتنة المجازفة والمغامرة الحارقة. وهكذا يترهل ويهرم ويتهدم بسرعة الفنانون الكبار الذين يعتزلون الخشبة... كان موتها يشبه موت البررة. ففيما كانت ذات مرة تلعب بالورق أحست بتوعك، فرَجَتْ الحضور انتظارها قائلة إنها ستعود بعد دقيقة، وتمددت على سريرها فـي غرفة النوم، وتنفست بعمق، وانتقلت إلى العالم الآخر بوجه مطمئن، وابتسامة عجائزية سمحة على الشفتين. أما إساي سافيتش، رفيق عمرها الوفي، الذي كان مكبوتاً بعض الشيء، والذي كان دائماً يلعب دوراً ثانوياً تابعاً فلم يعش بعدها سوى شهر واحد.

وهكذا أصبحت بيرتوتشكا هي الوريثة الوحيدة. وقد حولت المنزل المريح إلى نقود بصفقة جد موفقة، وكذلك فعلت بقطعة أرض تقع فـي أحد أطراف المدينة، وتزوجت، كما كان مفترضاً، زواجاً سعيداً جداً، وهي حتى الآن مقتنعة بأن أباها كان يزاول أعمالاً تجارية ضخمة فـي مجال تصدير القمح إلى آسيا الصغرى عبر أوديسا ونوفوروسيسك.

فـي مساء ذلك اليوم الذي نقلوا فيه جثمان جينيا إلى المشرحة، وفـي ساعة لم يكن قد ظهر فيها أي زائر، لا دائم، ولا عارض، فـي شارع الحفرة، اجتمعت الفتيات كافة فـي الصالة بناء على أمر من ايما ادواردوفنا ، لم يجرؤ أحد على التذمر من أنهنّ فـي هذا اليوم العصيب، وقبل أن يتخلصن من الأثر الذي أحدثه فـي نفوسهن موت جينكا المريع يجبرونهن على أن يرتدين كالعادة الملابس الاحتفالية الغريبة، ويذهبن إلى الصالة الساطعة الأنوار كي يرقصن ويغنين ويغرين بأجسادهن المكشوفة الرجال الشبقين.
وأخيراً.. دخلت إلى الصالة ايما ادواردوفنا نفسها؛ وكانت فـي هذه المرة أكثر فخامة منها فـي أية مرة سابقة، كانت ترتدي ثوباً حريرياً أسود يبرز منه ثدياها الضخمان كبرجين قتاليين، ويتدلى فوقهما اثنان من غباغبها الشحيمة، وقد حشرت يديها داخل قفازين حيريين أسودين لا أصابع لهما، وطوقت عنقها بسلسلة ذهبية ضخمة تلتف ثلاث مرات وتنتهي بنوط معلق فوق البطن تماماً.
قالت بصوت مهيب: أيتها البنات! عليَّ أن.. قيام!.. – صاحت فجأة بنبرة آمرة – عندما أتكلم يجب أن تصغين لي وأنتن واقفات.
تبادلن جميعهن النظرات بحيرة: فصدور هذا الأمر كان شيئاً جديداً فـي المحل، ولكنهن نهضن واحدة إثر أخرى بتردد وهن محملقات فاغرات الأفواه . وابتدأت ايما ادواردوفنا حديثها بشموخ ورزانة:
- Sie sollen. عليكن منذ اليوم أن تبدين لي من الاحترام ما أنتن ملزمات بإبدائه لربة منزلكن. فمنذ اليوم انتقلت ملكية هذا المحل بطريقة شرعية من عزيزتنا الطيبة الموقرة آنا ماركوفنا إلى ملكيتي أنا: ايما ادواردوفنا تيتسنر.

وآمل أن لا تثور بيننا خلافات، وأن تتصرفن كفتيات عاقلات، مطيعات، مهذبات
وأنا سأكون لكنّ بمنزلة الأم الحنون، ولكن تذكّرن دائماً أنني لا أطيق الكسل، ولا السُكْر، ولا التصرفات الشاذة، ولا أعمال الشغب أياً كانت. وينبغي القول إن مدام شايبس كان ترخي لكنّ الرسن أكثر من اللزوم. لا... أنا سأكون أكثر صرامة بكثير. الانضباط uber alles[١].... وقبل كل شيء. من المؤسف جداً أن الشعب الروسي كسول، وقذر، وغبي، لا يفهم هذه القاعدة. ولكن كنّ مطمئنات، سأعلمكن إياها من أجل فائدتكن. أقول: «من أجل فائدتكن» لأن فكرتي الرئيسية هي القضاء على منافسة محل «تريبيل»، أريد أن يكون زبوني رجلاً إيجابياً، لا دجالاً أو رثاً أو طالباً أو ممثلاً صغيراً ما... وأريد أن يكون فتياتي هنّ الأجمل، والأكثر تهذيباً، وصحة، ومرحاً في المدينة كلها. لن أضن بالنقود مهما بلغت من أجل اقتناء أثاث ضخم، وستكون لديكن غرف مزودة بمفروشات حريرية وسجاد حقيقي رائع. وزوّاركن لن يطلبوا بيرة بل خموراً بوردية وبورغونية ممتازة وشمبانيا. تذكّرن أن الزبون الكهل الغني والمحترم لن يعجبه على الإطلاق حُبُّكن البسيط العادي الفظ، بل هو بحاجة إلى الفليفة الحمراء اللاذعة[٢]، إنه ليس بحاجة إلى المهارة الحِرفية، بل إلى الفن، وهذا ما ستتعلمنه سريعاً. في محل تريبيل يأخذون ثلاثة روبلات عن الزيارة، وعشرة روبلات عن الليلة... وأنا سأعمل على أن تأخذن خمسة روبلات عن الزيارة وخمسة وعشرين عن الليلة، وسيهدون إليكن الذهب والألماس.

---

[١] فوق كل شيء (بالألمانية).

[٢] في الأصل : «الفليفة الكاينية» نسبة إلى مدينة كايينا في غويانا الفرنسية، وفيها نوع من أشد أنواع الفلسفلة الحمراء حرافة. (المترجم)

وأنا سأسعى إلى أن لا تحتجن للانتقال إلى محل من صنف أخفض....... und so weiter[١] ... حتى تصلن إلى وكر قذر لا يؤمه إلاَّ المجندون.. لا! فمن كل واحدة منكن سيُقتطع اشتراك شهري يحفظ عندي، وستسجل هذه الاشتراكات بأسمائكن فـي رفع مصرف خاص حيث ستتجمع عليها فوائد، وفوائد على الفوائد. وعندما تشعر الواحدة منكن بأنها تعبانة، او عندما تريد الزواج من شخص محترم ستجد فـي حوزتها دائماً رأس مال ليس كبيراً ولكنه مضمون. هكذا يفعلون فـي أحسن المحلات فـي ريغا، وفـي كل مكان فـي الخارج.لا أريد أن يقول أحد عني إن ايما ادواردوفنا عنكبوت، وشريرة، ومصاصة دماء. ولكن عقابي بسبب عدم الطاعة، والكسل، والنزوات الشاذة، والعشق بالسر سيكون قاسياً، سأقتلع المذنبة كعشبة ضارة حقيرة وألقي بها فـي الشارع، أو فـي مكان أسوأ، لقد قلت لكنّ الآن كل ما أنا بحاجة إليه، نينا، اقتربي مني، وأنتن الباقيات جميعاً اقتربن، كل واحدة بدورها.
اقتربت نينكا من ايما ادواردوفنا حتى كادت تلتصق بها، ثم ارتدت إلى الخلف بسرعة من شدة الدهشة. فقد مدت ايما ادواردوفنا نحوها يدها اليمنى وأصابعها مرخية إلى الأسفل وراحت تقربها ببطء من شفتي الفتاة، وقالت لها بصوت مهيب وحازم وهي تضيق عينيها وتطوح برأسها إلى الخلف متخذة وضعاً جليلاً كأميرة تعتلي العرش:
- بوسيها!

---

[١] وهلم جرا(بالألمانية).

ارتبكت نينكا ارتباكاً شديداً إلى درجة أن يدها اليمنى ارتفعت تلقائياً لترسم شارة الصليب، ولكنها سرعان ما استدركت وقبّلت اليد الممدودة نحوها مصدرة صوتاً عالياً وتنحّت جانباً. واقتربت على إثرها زويا، وهنرييتا، وفاندا، والأخريات، تمارا وحدها بقيت واقفة قرب الجدار مولية ظهرها للمرآة، تلك المرآة نفسها التي شدّ ماكانت جينكا تحب أن تتأمل نفسها فيها وهي تذرع الصالة جيئة وذهاباً.

حدجتها ايما ادواردوفنا بنظرة آمرة ثابتة كنظرة الأفعى القرناء، بيد أن التنويم المغنطيسي لم يفعل فعله. فقد صمدت تمارا أمام هذه النظرة دون أن تحوّل بصرها، ودون أن تطرف، ولكن بلا أي تعبير على الوجه. عندئذٍ خفضت المالكة الجديدة يدها، ورسمت على وجهها ما يشبه الابتسامة، وقالت بصوت مبحوح:

- وأما أنت يا تمارا فأنا بحاجة إلى التحدث معك قليلاً على انفراد، وجهاً لوجه، هيا بنا!..

فأجابتها تمارا بهدوء:

- حاضر ، يا ايما ادواردوفنا !..

وتبعتها إلى الغرفة الصغيرة التي كانت آنا ماركوفنا فيما سبق تحب أن تشرب فيها القهوة مع القشدة المذوّبة. جلست ايما ادواردوفنا على الأريكة، وأشارت لتمارا أن تجلس قبالتها، ولاذت المرأتان بالصمت بعض الوقت وكل منهما تنظر إلى الأخرى نظرة فاحصة مرتابة، وأخيراً بادرت ايما ادواردوفنا إلى القول:

- لقد تصرفتِ تصرفاً صحيحاً يا تمارا. وكان ذكاء منك أنك لم تقتربي لتبوسي يدي كما فعلت تلك النعاج. ولكنني أنا نفسي لم أكن لأسمح لك بفعل ذلك حتى لو أردتِ، وكنت أود أن أصافحك أمام الجميع عندما تقتربين مني، وأعرض عليك مباشرة إشغال مكان المدبرة الأولى، هل تفهمين؟ أي أن تكوني مساعدتي الرئيسية، وبشروط مجزية جداً لك.
- أشكر لك هذا...
- لا... انتظري، لا تقاطعيني، سأقول كل ما لدي حتى النهاية، ثم تعبرين أنت عن آرائك بالاعتراض أو الموافقة، ولكن قولي لي من فضلك ماذا كنت تنوين عندما صوبت المسدس نحوي صباحاً؟ هل كنت تريدين قتلي حقاً؟
ردت تمارا معترضة باحترام:
- بالعكس يا ايما ادواردوفنا ، بالعكس: لقد خيل إلي أنك أنت كنت تريدين ضربي.
- بفوه! ما هذا الكلام يا تماراتشكا! أو لم تلاحظي أنني طوال مدة تعارفنا لم أسمح لنفسي قط لا بالإقدام على ضربك فحسب، بل حتى بتوجيه كلمة فظ واحدة إليك... هذا مستحيل، مستحيل!! أنا لا أخلط بينك وبين دواب الشغل الروسية هذه... إنني، ولله الحمد، إنسانة خبيرة وأعرف الناس جيداً. وأنا أرى بوضوح أنك فتاة مهذبة حقاً وأكثر ثقافة بكثير مني أنا نفسي، على سبيل المثال. أنت لبقة، وأنيقة، وذكية، وتعرفين لغات أجنبية. وأنا واثقة من أن لديك معرفة لا بأس بها بالموسيقى. وأخيراً فلأعترف لك بصراحة، أنا... كيف أعبّر لك عن هذا... لقد كنت دائماً مغرمة بك بعض الشيء، أمّا أنت فكنت تريدين إطلاق النار عليَّ! نعم.. عليَّ أنا... الإنسانة التي كان يمكن أن تكون صديقة حميمة لك. ايه، ما قولك فـي هذا؟

أجابت تمارا معترضة بمنتهى الوداعة وبما يشبه الصدق:
- ولكن... لا شيء من هذا على الإطلاق، يا ايما ادواردوفنا. كل شيء جرى ببساطة شديدة، كنت قبلاً قد وجدت المسدس تحت مخدة جينكا وأحضرته معي لأعطيك إياه. ولم أرد أن أزعجك وأنت تقرئين الرسالة، وعندما التفت نحوي مددت يدي نحوك بالمسدس وأردت أن أقول: انظري يا ايما ادواردوفنا ماذا وجدت؛ لأنني في الحقيقة، ذهلت جداً عندما عرفت أن المرحومة جينيا كان لديها مسدس، ومع ذلك فقد فضّلت هذه الميتة الفظيعة، أي الشنق! هذا كل شيء!..
ارتفع حاجبا ايما ادواردوفنا الكثّان المخيفان، واتسعت حدقتاها بابتهاج، وسرت في وجنتيها اللتين تشبهان خدّي فرس النهر ابتسامة حقيقية غير مصطنعة، ومدت بسرعة كلتا يديها لتمارا قائلة:
- هذا فقط؟.. أوه، mein Kind[1] وأنا كنت قد ظننت... الرب أعلم بم خيل لي!.. أعطيني يديك ياتمارا، يديك البيضاوين اللطيفتين، ودعيني أضمك auf mein herz إلى قلبي وأقبلك.
كانت القبلة من الطول بحيث أن تمارا شعرت بتقزز شديد ولم تستطع أن تتخلص من بين ذراعي ايما ادواردوفنا إلاَّ بصعوبة كبيرة.

---

[1] يا طفلتي (بالألمانية).

- ايه، والآن.. عن العمل، وإليك شروطي: أنت ستكونين مدبرة، وسأعطيك نسبة خمس عشرة بالمئة من الربح الصافي. انتبهي يا تمارا: خمس عشرة بالمئة. وعلاوة على ذلك سأعطيك راتباً ليس بالكبير: ثلاثين، أربعين، بل فليكن خمسين روبلاً في الشهر، شروط رائعة أليس كذلك؟ أنا واثقة تماماً أن لا أحد سواك بمقدوره أن يساعدني لرفع مستوى هذا البيت بشكل حقيقي وجعله أرقى محل لا في مدينتنا فحسب، بل في جنوب روسيا كله. لديك ذوق، وفهم للأشياء! وعلاوة على ذلك أنت دائماً سيكون بمقدورك أن تسلّي وتحرّكي أكثر الزوار تعنتاً وجموداً. وإذا ما حدث في مرات نادرة أن سيداً غنياً ووجيهاً – من الذين يسمونهم «كاراس»[1] ويسمونهم عندنا Frier – شغف بك، فأنت جميلة جداً يا تمارتشكا (وهنا نظرت صاحبة المحل إليها بعينين غائمتين رطبتين)، فإنني لا أمنعك البتة من أن تقضي معه وقتاً ممتعاً، شريطة أن تصري دائماً على أنك، بموجب التزاماتك ووضعك und so weiter, und so weiter..,. Aber sagen Sie Bitte[2] هل يمكنك التفاهم بسهولة بالألمانية؟..

-Die deutsche Sprache beherrsche ich in geringerem Grade, als die Französische; indes Kann ich stets in einer Salon- Plauderei mitmachen.

---

[1] كاراس : بالروسية هو صنف من السمك يسمونه بالعربية «الـدوع» وهو يعيش فـي المياه العذبة، ويكون لونه ذهبياً، وفـي المياه المالحة ويكون لونه فضياً.

[2] وهلم جرا، وهلم جرا... ولكن قولي لي من فضلك (بالألمانية).

-O,. wunderbar! … Sie Haben eine entzücKende Rigaer Aussprache, die beste aller deutschen Aussprachen. Und also, fahren wir in unserer Sprache fort. Sie Klingt viel süsser meinem Ohr, die Muttersprache, Schön?

-Schön?

-Am Ende warden Sie nachgeben , dem Anschein nach ungern, unwillkürlich, von der Laune des Augenblicks hingerissen, - und , was die Hauptsach ist , Lautlos, Heimlich vor mir. Sie verstehen? Dafür zahlen Narre nein schweres Geld. Übrigens brauche ich Sie Wohl nicht zu Lehren.

-Ja, gnädige Frau. Sie Sprechen gar Kluge Dinge. Doch das ist schon[1] keine Plauderei mehr. Sondern eine ernste Unterhaltung….

---

[1] معرفتي للغة الألمانية أسوأ بقليل من معرفتي للفرنسية، ولكني أستطيع دائماً أن أتدبر أمر الثرثرة الصالونية.

– أوه، هذا رائع! إنك تتكلمين بلهجة ريغية ساحرة، وهي أصح اللهجات في اللغة الألمانية. إذاً فسوف نتابع الحديث بلغتي، فهذا بالنسبة لي ألذ بكثير، لغتي، الأم، حسن؟

–حسن!..

– في نهاية المطاف ستتساهلين وكأنك تفعلين هذا على مضض، دون إرادة منك، وكأنك انسقت وراء هواك، وراء نزوتك المؤقتة،

ولذلك فمن الأنسب أن ننتقل إلى الحديث باللغة الروسية، أنا مستعدة للإصغاء إليك..

- لنتابع !.. تحدثتُ لتوّي عن العشيق. أنا لا أجرؤ على حرمانك من هذه المتعة، ولكن يجب أن نكون عاقلتين: عليه أن لا يأتي إلى هنا، أو أن تكون زياراته نادرة قدر الإمكان، وأنا سأمنحك أيام إجازة عندما لا تكون لديك مشاغل بالمرة. ولكن من الأحسن أن تستغني عن هذا تماماً، وهذا سيكون في مصلحتك. لأن هذا الأمر ليس سوى كابح ونير. وأنا أقول لك هذا انطلاقاً من تجربتي الخاصة. انتظري.. وبعد ثلاثة أو أربعة أعوام سنوسع أعمالنا. بحيث سيتجمع لديك مبلغ محترم، وعندئذٍ سأجعلك زميلة كاملة الحقوق فـي أعمالنا، وأنت ستظلين بعد عشر سنوات فتية وجميلة، وعندئذٍ يمكنك أن تشتري قدر ما ترغبين من الرجال. وحتى ذاك الوقت ستكون جميع التفاهات الرومنسية قد خرجت من رأسك، ولن يعودوا هم الذين يختارونك، بل أنت التي ستختارينهم بتعقل وإحساس، كما يختار الخبير الأحجار الكريمة، هل توافقينني؟

أرخت تمارا بصرها، وافتر ثغرها عن طيف ابتسامة:

- أنت تنطقين بحقائق ذهبية يا ايما ادواردوفنا ، سأهجر عشيقي، ولكن ليس رأساً، أحتاج إلى أسبوعين، وسأبذل جهدي كيلا يأتي إلى هنا. إنني أقبل عرضك.

والأهم: دون علمي، هل تفهمين؟ فهؤلاء الأغبياء يدفعون مبالغ ضخمة لقاء هذا، وعلى كل يبدو لي أنه لالزوم لتعليمك.

– نعم يا سيدتي، أنت تقولين أشياء ذكية جداً، ولكن هذا ليس ثرثـــرة؛ بل هو حديث جدي... (الترجمة من الألمانية إلى الروسية للمؤلف).

- هذا رائع!.. قالت ايما ادواردوفنا وهي تنهض – والآن لنختتم اتفاقنا بقبلة حلوة لذيذة..

ومرة أخرى احتضنت الفتاةَ وراحت تقبلها بصوت عالٍ، وبدت تمارا الآن بعينيها المرخيتين، ووجهها الرقيق الساذج مجرد بنيّةٍ صغيرةً، ولكنها بعد أن تخلصت أخيراً من بين ذراعي صاحبة المحل قالت لها بالروسية:

- ها أنت ترين يا ايما ادواردوفنا أنني أوافقك على كل ما تقولينه، ولكن لقاء ذلك أرجو أن تلبي لي طلباً واحداً، وهذا لن يكلفك شيئاً على الإطلاق، إنني آمل أن تسمحي لي ولبقية البنات بتشييع المرحومة جينيا إلى المقبرة.

أجابت ايما ادواردوفنا وقد تغضن وجهها:

- أوه، إذا كنت ترغبين فـي هذا، يا عزيزتي تمارا، أنا لا مانع لديّ البتة ضد هذه النزوة، ولكن من أجل ماذا؟ إن هذا لا يساعد الميت ولا يعيده حياً، بل سيبدو مجرد مبالغة عاطفية... ولكن لا بأس! إلاَّ أنك تعرفين أن المنتحرين حسب شريعتكم لا يدفنونهم، أنا لست متأكدة تماماً، ويخيل إلي أنهم يلقون بهم فـي حفرة قذرة خلف المقبرة...

- لا ، اسمحي لي هذه المرة أن أفعل ما أريده أنا، ولتكن هذه نزوة من جانبي، ولكن أرجوك يا ايما ادواردوفنا ، أيتها العزيزة الغالية اللطيفة أن تتساهلي معي فـي هذا! وأعدك مقابل ذلك أن تكون هذه آخر نزواتي. وبعد ذلك سأكون كالجندي الذكي المطيع الموضوع تحت تصرف جنرال موهوب.

- !Is' gut! [1] - - قالت ايما ادواردوفنا وهي تتنهد باستسلام – أنا لا أستطيع أن أرفض لك طلباً يا طفلتي، مدي يدك لأشد عليها، سنكدح ونعمل معاً للمصلحة العامة.
ثم فتحت الباب ونادت بصوت تجاوز الصالة إلى ردهة المدخل:
- «سيميون»، وعندما ظهر سيميون في الغرفة أمرته بصوت مهيب ورزين:
- أحضر لنا إلى هنا نصف زجاجة شمبانيا ، ولكن أصلية Rederer Demi secوباردة.
وعندما نظر إليها الحاجب محملقاً صاحت به بنبرة آمرة:
- هيا بسرعة! ثم التفتت إلى تمارا قائلة:
- سنشرب معاً يا تمارا نخب عملنا الجديد، ونخب مستقبلنا الرائع المشرق.
يقولون إن الأموات يجلبون الحظ، وإذا كان لهذا الاعتقاد المتفائل من أساس فإنه قد تجلّى في هذا السبت كأوضح ما يكون التجلي: فقد كان تدفق الزوار ليس عادياً حتى بالنسبة لأيام السبت. صحيح أن الفتيات وهن يعبرن الممر كنّ، عندما يصلن إلى غرفة جينكا السابقة، يحثثن الخطا، ويلحظنها بأطراف عيونهن بوجل، وبل إن بعضهن كن يرسمن شارة الصليب، ولكن عندما أوغلن في الليل سكن الخوف من الموت على نحو ما، وأصبح مألوفاً، انشغلت الغرف جميعاً، وظلت الصالة تضج بألحان عازف الكمان الجديد، وهو شاب حليق الوجه، يتصرف بانطلاق وجرأة، وكان عازف البيانو الذي تغطي عينه غشاوة بيضاء قد عثر عليه في مكان ما وأحضره إلى هنا.

---

[1] ايه، حسن!.. (بالألمانية).

وكان تعيين تمارا مدبرةً قد استُقبل، بحيرة باردة وجفاف صامت، وقد انتهزت تمارا فرصةً سانحةً لتهمس فـي أذن مانكا البيضاء:
- اسمعي يا مانيا! قولي لهن جميعاً أن لا يلقين بالاً إلى اختياري مدبرة... فهذا ما يجب أن يكون، وليفعلن هن ما يردن، على أنْ لا يخذلنني، وأنا سأبقى كالسابق صديقة ونصيرة لهن... وسنرى ما سيأتي به المستقبل.
فـي اليوم التالي ، يوم الأحد، كان لدى تمارا مشاغل كثيرة، فقد تملكتها فكرة ثابتة لا تقاوم هي أن تدفن صديقتها الراحلة، على الرغم من جميع الظروف، كما يدفن الناس أقرب المقربين إليهم: حسب الطقوس المسيحية ومراسم الحداد الاحتفالي التي ترافق دفن الأشخاص العلمانيين.
كانت من أولئك الناس ذوي الطبائع الغريبة الذين يخفون وراء هدوئهم الكسول الظاهري وصمتهم اللا مبالي وانطوائهم الأناني طاقة غير عادية تراها دائماً غافية نصف إغفاءة، وصائنة نفسها من الاستهلاك اللا مجدي، ولكنها مستعدة للاستيقاظ فـي أية لحظة والاندفاع إلى الأمام غير عابئة بالعقبات.
فـي الساعة الثانية عشرة استأجرت عربة ونزلت إلى المدينة القديمة، ودخلت فـي شارع ضيق يفضـي إلى ساحة السوق، وتوقفت قرب مقهى تبدو عليه القذارة، وأمرت الحوذي بالانتظار، سألت فـي المقهى صبياً ذا شعر أحمق محلوق على شكل حلقة ومفروق بخط لامع: - هل أتى إلى هنا سينكا – فوكزال؟ فأجابها الصبي الخادم الذي بدا من استعداده المرهف الشديد اللباقة أنه يعرف تمارا منذ وقت طويل إن «السيد سيمون ياكوفليفيتش ايغناتيتش لم يأت بعد،

ومن المؤكد أنه لن يجيء قريباً لأنه البارحة كان يلهو في مقصف «تراسفال»، وظل يلعب البلياردو حتى الساعة السادسة صباحاً، وإنه الآن على الأرجح موجود في البيت، في نُزُل «بيريبوتييه»، وإذا أمرت السيدة فإنه سيسارع لاستدعائه».
طلبت تمارا ورقة وقلماً وكتبت بضع كلمات وناولت الخادم الرسالة مع نصف روبل إكرامية وانصرفت.
الزيارة الثانية كانت إلى مكان إقامة الفنانة روفينسكايا، وكانت تمارا تعرف أنها تقيم في فندق «أوربا»، أكثر فنادق المدينة ارستقراطية، وتشغل هناك عدة غرف متجاورة.
لم يكن لقاء المغنية بالأمر الشديد السهولة: فالبواب تحت قال إن يلينا فيكتوروفنا فيكتوروفنا، على ما يبدو، ليست في غرفتها، والخادمة الخاصة التي خرجت استجابة لقرع تمارا الباب قالت إن السيدة مصابة بصداع ولا تستقبل أحداً، واضطرت تمارا ثانية إلى كتابة رسالة على قطعة من الورق: «حضرت إليك من طرف تلك التي بكت مرة وهي راكعة أمامك على ركبتيها في ذاك المنزل الذي لا يذكر اسمه بصوت عال، بعد أن غنيت هناك رومانس دارغو ميجسكي. لقد لاطفتها آنذاك بحنو رائع؛ أتذكرين؟ لا تخافي! إنها الآن ليست بحاجة إلى مساعدة أحد: فقد ماتت البارحة. ولكنك تستطيعين أن تقومي، تكريماً لذكراها، بعمل في غاية الجدية دون أن يحمّلك أية مشقة تقريباً، أما أنا: فتلك التي سمحت لنفسها بقول بضع حقائق مُرّة للبارونة ت. التي كانت ترافقك آنذاك، ومازلت حتى الآن نادمة على ذلك، وأعتذر عنه».
- اعطيها هذه.

قالت الخادمة: ومالبثت هذه أن عادت بعد دقيقتين وقالت:
- السيدة تدعوك، وتعتذر جداً لأنها متوعكة، وستستقبلك دون أن ترتدي كامل ملابسها.
أوصلت تمارا إلى الباب وفتحته لها، ثم أغلقته خلفها بهدوء.
كانت الفنانة العظيمة تستلقي على أريكة ضخمة مغطاة بسجادة تركمانية رائعة، وعليها كثير من الوسائد الحريرية والمساند السجادية الأسطوانية الوثيرة. وكانت قدماها مغطاتين بفراء فضّي ناعم، وأصابع يديها مزينة كالعادة بكثرة من الخواتم المرصعة بفصوص من الزمرد تجتذب النظر إليها بخضرتها العميقة اللطيفة.
كان هذا اليوم أحد الأيام السود البائسة فـي حياتها، فأمس صباحاً برزت بعض الخلافات بينها وبين الإدارة، وفـي المساء لم يستقبلها الجمهور بالحماسة التي كانت ترغب فيها، أو هذا على الأقل ما خيل إليها، واليوم نشرت الصحف لناقد أحمق لا يفهم فـي الفم إلاَّ بقدر ما تفهم بقرة فـي علم الفلك تعليقاً مطولاً يكيل فيه المديح لمنافستها تيتانوفا. وهكذا أقنعت يلينا فيكتوروفنا فيكتوروفنا نفسها بأنها مصابة بصداع، وأن صدغيها ينبضان بعصبية تشنجية، وأن قلبها يوشك على السقوط فجأة إلى مكان ما.
- أهلاً بك يا عزيزتي – قالت بصوت واهن متقطع تشوبه خنة كما يتكلم على خشبة المسرح البطلات اللواتي يحتضرن من الحب والسل – اجلسي هنا. أنا مسرورة برؤيتك... وآمل أن لا تغضبي فأنا أكاد أموت من وجع الشقيقة ومن قلبي التعس. اعذريني لأنني أتكلم بصعوبة، يبدو أنني غاليت فـي الغناء وأرهقت صوتي...
تذكرت روفينسكايا، طبعاً، ذاك التصرف الطائش الجنوني الذي أقدمت عليه تلك الليلة، وتذكرت وجه تمارا المتميز الذي لا ينسى؛

ولكن الآن، وهي بهذا المزاج السيء، وفـي نور هذا النهار الخريفي الباهت الممل، بدت لها تلك المغامرة مكابرة لا لزوم لها، وشيئاً ما مصطنعاً متكلفاً إلى حد الإيلام، إلاَّ أنها كانت صادقة مع نفسها فـي كلتا الحالتين: فـي تلك الأمسية الغريبة الفظيعة، عندما أُرغمت بسلطان موهبتها جينكا المتكبرة على أن تنكبّ على قدميها، والآن وهي تتذكر هذه الحادثة بوهن وكسل واستخفاف تمثيلي، كانت، كالعديد من الفنانين الممتازين، دائماً تلعب دوراً... دائماً ليست على سجيتها... دائماً تنظر إلى كلماتها وحركاتها وتصرفاتها وكأنها تنظر إلى نفسها من بعيد، بعيون ومشاعر المشاهدين.

رفعت كفها النحيل الضيق الرائع عن الوسادة بتراخٍ وألصقته بجبينها فتحركت الزمردات الغامضات العميقات كما لو كانت فيها حياة، وتلألأت ببريق دافئ عميق.

- قرأت الآن فـي رسالتك أن تلك المسكينة... اعذريني، الاسم غاب عن بالي...

- جينيا...

- نعم، نعم، أشكرك! لقد تذكرت الآن. هل ماتت؟ ممّ؟

- شنقت نفسها... البارحة صباحاً، فـي أثناء الفحص الطبي....

عينا الفنانة الذابلتان اللتان كانتا تبدوان باهتتين اتسعتا فجأة، ودبت فيهما الحياة بما يشبه الأعجوبة، وغدتا برّاقتين وخضراوين كزمرداتها، وأطل منهما الفضول والخوف والاشمئزاز.

- آه، يا إلهي! كم كانت ظريفة، ومتميزة، وجميلة، وشديدة الحيوية!... آه، التعيسة، التعيسة!... وماهو السبب؟

- أنت تعرفين.. أذكر، أذكر... ولكن... أن تشنق نفسها! ياللفظاعة! لقد نصحتُها آنذاك أن تتعالج. الطب الآن يفعل المعجزات. أنا نفسي أعرف عدة أشخاص.... من الذين... أعني برئوا تماماً، بالعلاج، وهذا يعرفه الجميع فـي المجتمع ويستقبلونهم... آه، المسكينة، المسكينة!...

- وها أنا أتيت إليك، يلينا فيكتوروفنا. أنا لم أكن لأجرؤ على إزعاجك، ولكني أشعر كأنني فـي غابة، وليس من أحد أتوجه إليه، وأنت عندئذٍ كنت شديدة الطيبة والحنان والاهتمام بنا... وأنا بحاجة إلى نصيحتك فقط، وربما إلى بعض نفوذك، وحمايتك.

- أوه، تفضلي يا عزيزتي!.. كل ما أقدر عليه سأفعله... آه، يا رأسي المسكين! ثم هذا الخبر الفظيع... قولي لي، بم أستطيع أن أساعدك؟..

- فـي الحقيقة، أنا نفسي لا أعرف بعد، لقد نقلوها إلى المشرحة، ولكن ريثما نظموا الضبط، وريثما وصلوا إلى هناك، ثم الوقت الذي يحتاجه قبول الجثمان هناك... على العموم أعتقد أنهم لم يبدؤوا حتى الآن بالتشريح... وكل ما أريده هو أن لا يقربوها إذا كان هذا ممكناً. اليوم هو الأحد، وربما سيؤجلون الأمر إلى الغد، وخلال هذا الوقت يمكن أن نفعل شيئاً ما من أجلها.

- ليس بإمكاني أن أقول لك شيئاً، يا عزيزتي... ولكن مهلاً!.. أليس لدي يا ترى أحد أعرفه من بروفيسورات الوسط الطبي، انتظري!.. سأنظر فيما بعد فـي دفاتر ملاحظاتي. وربما سأتمكن من فعل شيء ما...

وأردفت تمارا:

- بالإضافة إلى هذا أريد أن أدفنها... على حسابي... فقد كانت تربطني بها فـي حياتها علاقة قلبية حميمة.

- سأساعدك بكل سرور مادياً لتحقيق ذلك..

- لا.. لا! ألف شكر لك! أنا سأقوم بكل شيء بنفسي، وأنا لم أكن لأخجل من اللجوء إلى قلبك الطيب... ولكن أنت تفهمينني.. هذا فـي الحقيقة كالنذر الذي يقطعه الإنسان على نفسه تكريماً لذكرى صديق، الصعوبة الرئيسية

هنا هي أن نتدبر أمر دفنها حسب الشعائر المسيحية. الظاهر أنها كانت غير مؤمنة، أو أن إيمانها كان ضعيفاً جداً، وأنا أيضاً لا أرسم شارة الصليب على جبيني إلاَّ عرضاً وفـي مرات نادرة. ولكنني لا أريد أن يدسوها فـي التراب ككلبة ميتة فـي مكان ما خلف سور المقبرة، بصمت، دون تلاوة ودون إنشاد... لا أدري هل سيسمحون بدفنها كما يجب: بحضور منشدين وقساوسة؟ ولهذا جئت أرجوكِ أن تساعديني بمشورتك، أو ربما توجهيني إلى مكان ما؟..

- بدأت الفنانة الآن تهتم بالأمر أكثر فأكثر وتنسى تعبها، والشقيقة، والبطلة المسلولة التي تحتضر فـي الفصل الرابع، وارتسم فـي خيالها دور الشفيعة المدافعة، وشخصيةُ عبقريةٍ رائعةٍ ترأف بامرأة خاطئة، وكان هذا يتسم بالأصالة والغرابة، وفـي الوقت نفسه بشدة التأثير المسرحي! ولم تكن روفينسكايا، شأنها شأن العديد من زملائها الفنانين، لتفوّت يوماً واحداً، أو حتى ساعة واحدة لو أمكنها، دون أن تبرز وتتميز عن الجمهور، ودون أن تجعل الناس تتحدث عنها. فاليوم هي تشارك فـي مظاهرة وطنية زائفة، وغداً تلقي على خشبة المسرح فـي مصلحة الثوريين المنفيين أشعاراً مفعمة بالحماسة المتقدة والدعوة إلى الأخذ بالثأر. كانت تحب أن تبيع الأزهار فـي المنتزهات العامة، وفـي ساحات الفروسية، وأن تتاجر بالشمبانيا فـي الحفلات الراقصة الكبرى. وكانت تُعِدُّ سلفاً الكلمات اللاذعة التي ستتلقفها المدينة كلها فـي اليوم التالي، كانت تريد أن لا ينظر الجمهور فـي كل زمان ومكان إلاَّ إليها، وأن لا يردد إلاَّ اسمها، وأن لا يحب سوى عينيها الخضراوين المصريتين، وفمها الشهواني الضاري، وزمرداتها التي تتألق فـي كفيها العصبيين النحيلين.

قالت بعد صمت قصير: - لن أستطيع الآن أن أتدبر كل الأمور كما ينبغي، ولكن إذا كان الإنسان يريد شيئاً بقوة فإنه يبلغه، وأنا أريد من كل قلبي أن أحقق رغبتك. انتظري، انتظري! يبدو أن فكرة رائعة تخطر لي الآن. أذكر أنه في تلك الأمسية، إذا لم أكن مخطئة، كان معنا أنا والبارونة...

- أنا لا أعرفهما... أحدهما خرج من الغرفة بعدكم جميعاً، قبّل يدي وقال لي إنه سيكون بالخدمة دائماً إذا احتجت إليه في وقت من الأوقات، وأعطاني بطاقته، ولكنه رجاني أن لا أريها لأحد غريب... وبعد ذلك أصبح الأمر كله في عداد الماضي وطواه النسيان. وأنا لم أكن أجحد وقت الفراغ الكافي لأستعلم وأعرف من هو هذا الشخص، والبارحة بحثت عن البطاقة ولم أجدها...

انتعشت الفنانة فجأة، وصاحت وهي تنهض بسرعة عن الأريكة:

- مهلاً، مهلاً! .. لقد تذكرت!.. إنه ريزانوف... نعم، نعم، نعم، نعم، المحامي ايراست اندرييفتش ريزانوف. الآن سندبر كل شيء. فكرة رائعة!..

استدارت نحو طاولة صغيرة يستقر فوقها جهاز هاتف واتصلت:

- يا آنسة، من فضلك ، ثلاثة عشر وخمسة وثمانون... شكراً... آلو!.. استدع لي ايراست اندرييفتش... الفنانة روفينسكايا. شكراً لك... آلو! هذا أنت، ايراست اندرييفتش؟ حسن، حسن، دعنا الآن من اليدين. هل لديك وقت فراغ؟ دعك من الحماقات!.. الأمر جدي، ألا يمكنك المجيء إلي لمدة ربع ساعة؟ لا، لا.. نعم، ولكن كشخص طيب وذكي، أنت تفتري على نفسك... إذاً عظيم! أنا لست بملابسي اللائقة، ولكن لدي عذري، صداع فظيع... لا، سيدة، فتاة.... سترى بنفسك، تعال بسرعة. شكراً!.. إلى اللقاء!..

قالت وهي تضع السماعة: - الآن سيأتي، إنه شخص ظريف وذكي جداً، كل شيء ممكن بالنسبة إليه، حتى المستحيل تقريباً بالنسبة إلى غيره... وريثما يصل... عفواً، ما اسمك؟

ارتبكت تمارا في البداية، ثم مالبثت أن ابتسمت ساخرة من نفسها:

- لا داعي لأن تزعجي نفسك، يا يلينا فيكتوروفنا .... Mon nom de geurre تمارا، والحقيقي أناستاسيا نيكولايفنا. ولكن لا فرق، ناديني تمارا فقط... فقد اعتدت هذا أكثر....

- تمارا!.. جميل جداً اسمعي mademoiselle[1] تمارا، ربما لن يكون لديك مانع من تناول طعام الفطور معي؟ وربما مع ريزانوف أيضاً...

- لا وقت لدي اعذريني..

- هذا مؤسف جداً!... آمل... في مرة أخرى... ربما تدخنين؟

قالت هذا وقدمت لها علبة سكائر مذهبة ومرصعة بحرف ي مرسوم بفصوص الزمرد نفسه الذي تعشقه.

سرعان ما وصل ريزانوف.

لم تكن تمارا قد تأملته كما ينبغي في تلك الأمسية، وعندما رأته بهرها مظهره. قامة طويلة، وبُنية متناسقة كأنها بنية رياضي، وجبين عريض كجبين بيتهوفن، تتشابك فوقه بإهمال فني خصلات شعر أسود وخطه بعض الشيب، وفم كبير لحيم لخطيب مفوه، وعينان صافيتان ذكيتان معبرتان ساخرتان. كان مظهره يلفت إليه الأنظار، وسط الآلاف، مظهر شخص يأسر القلوب ويخلب الألباب، شخص شديد الطموح، لم يشبع بعد من الحياة، يتوهج في الحب، ولا يتراجع البتة أمام الرعونة الجميلة..

---

[1] اسمي المستعار (بالفرنسية).

. «لو لم يكن القدر قد حطمني بهذه القسوة – فكرت تمارا بسرور وهي تتابع حركاته – لكان هذا هو الرجل الذي يمكن أن ألقي إليه بحياتي وأنا أمزح: بتلذذ وابتسامة، كما يلقون للحبيب بوردة اقتطفوها من أجله...».

قبل ريزانوف يد روفينسكايا، ثم حيّا تمارا ببساطة غير متكلفة وقال:

- إننا متعارفان منذ تلك الأمسية الطائشة التي أدهشتنا فيها جميعاً بمعرفتك اللغة الفرنسية، والتي قلتِ فيها... إن ما قلتهِ كان – الكلام بيننا – يتسم بالمفارقة، ولكن بالمقابل، الطريقة التي قيل بها كانت مدهشة!... مازلت أذكر حتى الآن نبرة صوتك، وكم كانت حارة ومعبرة... والآن... يا يلينا فيكتوروفنا – قال مخاطباً روفينسكايا ثانية وهو يجلس على كنبة منخفضة لا مسند لها – بم يمكنني أن أفيدك! تصرفي بي.

وضعت روفينسكايا ثانية رؤوس أناملها على صدغيها وقد بدا عليها الوهن، وقالت وهي تطفئ عمداً بريق عينيها الرائعتين:

- آه، إنني فعلاً منزعجة جداً يا عزيزي ريزانوف. ثم رأسي البائس هذا... كلف نفسك وناولني البيراميدون[1] من على الطاولة. ولتخبرك mademoiselle تمارا بكل شيء. أنا لا أستطيع ، لا أقدر... هذا فظيع جداً!...

روت لي تمارا بإيجاز ووضوح قصة موت جينيا المحزنة بكاملها، وأتت على ذكر البطاقة التي تركها، وكيف أنها احتفظت بها بإجلال، وأشارت عرضاً إلى وعده بتقديم المساعدة عند الحاجة.

- طبعاً، طبعاً

---

[1] مستحضر طبي لتخفيف الألم وخفض الحرارة.

هتف ريزانوف عندما انتهت، وراح على الفور يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً بخطاً واسعة، مشعثاً بحكم العادة شعره الجميل وملقياً به إلى الخلف – إنك تقومين بخطوة رفاقية ودية رائعة!.. هذا جيد!.. هذا جيد جداً! أنا كلي لكِ... إنك تقولين: إِذْن بالدفن.. هـ م!.. أرجو الرب أن أتذكر!..

فرك جبينه بيده ثم قال:

- هـ... م... هـ....م... إذا لم أكن مخطئاً: مجموعة القوانين الكنسية القاعدة مئة وسبعون... مئة وسبعون... مئة وسبعون، مئة وثمان وسبعون... مهلاً، أنا، كما أعتقد، أحفظها عن ظهر قلب! مهلاً! نعم، هكذا!«إذا قتل شخص نفسه لا ينشدون له، ولا يصلون عليه، إلاَّ إذا كان مخبولاً، أو لم يكن يمتلك قواه العقلية» هـ....م... انظر القديس ثيموثي الاسكندري... وهكذا يا آنستي العزيزة... أول ما ينبغي فعله... أنت تقولين إن الذي أنزلها من الأنشوطة هو طبيبكم، أي إنه طبيب رسمي فـي المدينة... ماهو كنيته؟..

- كليمكنو..

- يبدو لي أنني التقيته فـي مكان ما... حسن!.. ومن هو مفوض القسم فـي حيكم؟..

- كيربيش.

- ها... أعرفه... شخص متين البنية، رجولي السمات، له لحية حمراء مروحية الشكل... أليس كذلك؟

- نعم، إنه هو.

- أعرفه جيداً!.. هذا من يشتاق إليه سجن الأشغال الشاقة منذ مدة طويلة. نحو عشر مرات وقع بين يدي، ودائماً كان هذا الوغد يراوغ ويتملص بطريقة ما. زلق كالسمكة... سنضطر إلى إعطائه «ثمن فنجان قهوة». طيب. ثم هناك المشرحة... متى تريدين دفنها؟

- فـي الحقيقة لا أعرف... ولكنني أرغب في القيام بهذا بأسرع ما يمكن... اليوم إذا كان هذا ممكناً..

- هـ... م... اليوم.. لا أضمن ... لا أعتقدأننا نلحق... ولكن هاك مفكرتي. لنفتح على هذه الصفحة حيث أسماء معارفي التي تبدأ بحرف ت، اكتبي عليها: تمارا،، وعنوانك، بعد ساعتين سأعطيك الجواب. هل يناسبك هذا؟ ولكني أكرر ثانية أنك، على الأرجح، ستضطرين إلى تأجيل الدفن حتى الغد... ثم – عفواً عن رفع التكلفة – ربما كنت بحاجة إلى نقود؟

قالت تمارا متمنعة:

- لا ، أشكرك، النقود موجودة، شكراً على التعاطف! حان وقت ذهابي. أشكركِ من أعماق القلب يا يلينا فيكتوروفنا .

كرر ريزوانوف وهو يشيعها إلى الباب:

- إذاً انتظري الجواب بعد ساعتين.

لم تذهب تمارا إلى المنزل مباشرة، بل عرجت فـي طريقها على مقهى صغير فـي شارع كاتوليتشيسكايا، حيث كان ينتظرها سينكا – فوكزال، وهو شاب مرح يتسم بملامح غجري وسيم، شعره ليس أسود، بل كحلي اللون، وعيناه سوداوان، وبياض عينيه تشوبه صفرة، وهو حاسم وجريء فـي عمله، ومفخرة للصوص المحليين، ويتمتع بشهرة واسعة فـي عالمهم كمبتكر وملهم وزعيم.

مد لها يده دون أن ينهض. ولكن الحرص وبعض العنف اللذين أبداهما وهو يجلسها كانا ينمان على مودة وطيبة نفسٍ بالغتين.

- أهلاً تماركا! لم أرك منذ مدة طويلة، اشتقت إليك... أتريدين قهوة؟..

- لا! مشغولة... غداً ندفن جينكا... شنقت نفسها.
فقال سينكا من بين أسنانه دون اكتراث:
- نعم، قرأت الخبر فـي الجريدة ، كلا الأمور سواء!
- دبّر لي الآن خمسين روبلاً.
- تمارتشكا ، عزيزتي، ولا كوبيك!...
قالت له بلهجة آمرة ولكن دون غضب:
- أقول لك: دبّر لي!..
- آه، يا إلهي! نقودك لم أقربها كما وعدتك، ولكن اليوم أحد... وصناديق التوفير مغلقة.
- وإن يكن! ارهن دفتر التوفير! على العموم افعل ما تشاء!
- وما حاجتك إ ليها يا حياتي أنت؟
- أليست كل الأمور سواء أيها الأحمق؟ من أجل الدفن؟
قال سينكا متنهداً:
- آه! ايه، طيب! الأفضل أن أ حضرها لك مساءً إذاً... أليس كذلك، تمارتشكا؟ لا أصبر على العيش بدونك!.. آه كم أنا مشتاق إلى أن أغمرك بالقبل يا حبيبتي؛ لن أدعك تغمضين عينيك! هل آتي؟
- لا، لا!.. افعل ما أطلبه منك يا سينيتشكا! ... سايرني. لم يعد يجوز لك أن تأتي. فأنا الآن المدبرة.
فقال سينكا المذهول بصوت ممطوط:
- يالها من مفاجأة!
وأطلق صفرة.
- نعم، وأنت لا تأتِ إلي الآن... مؤقتاً... ولكن فيما بعد، فيما بعد، يا عزيزي، كما تريد... قريباً ينتهي كل شيء!..
- آه، ولكن لا تعذبيني طويلاً ! فكّيني بأسرع وقت!
- سأفكّك ؟ انتظر يا حبيبي أسبوعاً آخر!.. هل أحضرت المسحوق؟

أجاب سينكا باستياء:
- المسحوق أمره سهل. لكني لم أحضر مسحوقاً، بل حبوباً.
- وهل صحيح أنها تنحل في الماء على الفور، كما تقول.
- صحيح، رأيت هذا بنفسي.
- ولكنه لن يموت؟ اسمع يا سينيا، لن يموت؟ هذا أكيد؟
- لن يحدث له شيء... سيتخدر فقط... آه يا تماركا؟.. – هتف بهمس حار، بل حتى تمطى فجأة بقوة من المشاعر التي لا تُحتمل بحيث طقطقت مفاصله – انيه هذا الأمر سريعاً بحق الرب! فلنقم بهذا العمل ولننته! وإلى حيث تريدين ، يا عزيزتي! كلّي رهن إرادتك: تريدين إلى أوديسا، سنذهب، تريدين إلى الخارج، سنسافر، انتهي بسرعة!..
- قريباً.. قريباً...
- اغمزي لي فقط وسأكون مستعداً... مع المساحيق، مع العدة، مع جوازي السفر، وبعد ذلك: أوهو...هوهو! ستدور الآلة ياتمارتشكا! يا ملاكي!.. أيتها الذهبية، أيتها الماسية!..
وهَمَّ ، وهو المتحفظ دائماً، أن يعانق تمارا ويضمها إلى صدره ناسياً أن عيون الآخرين يمكن أن تراه.
- لا ، لا – قالت تمارا وهي تقفز بسرعة وبراعة عن الكرسي كالهرة – فيما بعد... فيما بعد، يا سينيتشكا، فيما بعد يا حبيبي! كلّي سأكون لك، دون رفض، ودون منع، أنا نفسي سأجعلك تمل مني... وداعاً يا أحمقي!
وبحركة سريعة من يدها شعثت خصل شعره الجعد وخرجت من المقهى على عجل.

فـي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، الاثنين، توجه سكان بيت مدام شايبس سابقاً، و ايما ادواردوفنا تيتسنر حالياً، فـي عربات إلى مركز المدينة، باتجاه المشرحة، ولم يتخلف منهم سوى هنرييتا البعيدة النظر، والواسعة الخبرة ، ونينكا الجبانة المجردة من العواطف، وباشكا المتخلفة عقلياً، التي لم تنهض من السرير، ولم تنطق بكلمة منذ يومين، وكانت إذا ما وجّه إليها أحدهم سؤالاً تجيبه بابتسامة ساذجة حمقاء، وجَمجَمة حيوانية غير مفهومة، وإذا لم يُقدّم لها الطعام لا تطلبه، أما إذا قدموه لها فإنها كانت تلتهمه بنهم بيديها مباشرة. وقد غدت فوضوية ونسّاءة إلى حدٍّ أنهم كانوا يضطرون إلى تذكيرها بقضاء بعض الحاجات الطبيعية تجنباً لوقوع حوادث مزعجة، ولم تعد ايما ادواردوفنا ترسلها إلى زوارها الدائمين الذين كانوا يطلبونها يومياً. وكانت باشكا فيما سبق تصاب بنوبات من اختلال الوعي، بيد أن هذا لم يكن يدوم طويلاً، مما جعل ايما ادواردوفنا تقرر الانتظار بعض الوقت: لعل وعسى... فباشكا كانت كنزاً حقيقياً للمحل، وكانت فـي الوقت نفسه ضحيته الفظيعة.

لاح بناء المشرحة الطويل ذو الطابق الواحد بلونه الرمادي القاتم، والإطارات البيضاء حول نوافذه وأبوابه، وكان فـي مظهره بحد ذاته شيء ما وطيء ومضغوط وذاهب فـي الأرض، يكاد يشعرك بالضيق. توقفت الفتيات واحدة إثر أخرى عند البوابة، ومررن بتهيب عبر الفناء إلى المصلى القابع فـي طرفه الآخر، فـي الزاوية، والمطلي باللون الرمادي القاتم نفسه والإطارات البيضاء.

كان الباب مقفلاً، ولابد من استدعاء الحارس. وقد لاقت تمارا مشقة فـي العثور على الشيخ الهرم الأقرع، ذي اللحية الرمادية المتلبدة التي تبدو كطحالب المستنقعات، والعينين الصغيرتين الدامعتين، والأنف الضخم المتدرن الذي يشبه قرصاً أحمر ضارباً إلى الزرقة. فتح القفل المعلق الضخم، وأزاح اللولب ، وفتح الباب الصدئ الصارّ، فهبت على الفتيات نسمة رطبة باردة مشبعة برائحة رطوبة الحجر والبخور والجثث. تراجعن إلى الخلف كقطيع وجل يزاحم بعضه بعضاً، ما عدا تمارا التي سارت دون تردد خلف الحارس.
كان المصلّى شبه مظلم لا ينيره سوى ضوء خريفي شحيح ينفذ عبر كوّة ضيقة ككوّة السجن، مسيّجة بقضبان معدنية. وقد عُلِّقت على الجدران أيقونتان أو ثلاث دون حواشٍ، قاتمة اللون، فاقدة الملامح، وصُفّت على الأرض مباشرة فوق عوارض خشبية متنقلة بضعةُ توابيت مصنوعة من ألواح خشبية بسيطة. وفـي وسطها تابوت فارغ كُشف عنه غطاؤه ووضع بجانبه.
- أيُّها زميلتك؟ - سأل الحارس بصوت مبحوح صافر، ثم تنشَّق عطوساً وتابع: هل تعرفينها بالوجه أم لا؟
- أعرفها.
- إذاً انظري، ! سأريك إياهم جميعاً، ربما هذه؟..
وكشف الغطاء عن أحد التوابيت التي لم تثبت أغطيتها بالمسامير بعد. كانت هناك عجوز متغضنة ذات وجه أزرق محتقن، أُلبست كيفما اتفق أسمالاً رثة. وكانت عينها اليسرى مغمضة بينما اليمنى مفتوحة على سعتها، وتحدق بجمود مرعب، وقد فقدت بريقها وغدت شبيهة بقطعة ميكا أفسدها طول المكوث.
- تقولين ليست هذه؟ طيب، انظري... هاك هذه أيضاً!..

قال الحارس وراح يكشف الأغطية عن الأموات واحداً إثر آخر، وكانوا جميعهم، كما يبدو، من الدهماء: مُلتَقَطين من الشارع، سكارى، مدهوسين، مشوهين، ذوي عاهات، وقد بدأ التفسخ يدب فيهم، وظهرت لدى بعضهم على الوجه واليدين بقع زرق ضاربة إلى الخضرة تشبه العفن، دلالة على التحلل. وكان ثمة رجل دون أنف، وشفته العليا مشقوقة من الوسط كشفة الأرنب، ووجهه الذي أكلته القروح يعج بدودٍ يبدو كنقاط بيضاء صغيرة، وثمة امرأة ماتت من الاستسقاء قد ارتفعت كالجبل من مضجعها الخشبي دافعة غطاء التابوت إلى الأعلى.

كلهم كانوا بعد التشريح قد خيطوا ورُفئوا وغُسّلوا على عجل بأيدي الحارس المطلب ورفاقه. وما الذي يهم هؤلاء فيما إذا انتقل الدماغ إلى المعدة، وحشيت الجمجمة بالكبد، ووُصلت كيفما اتفق بالرأس بواسطة شريط لاصق؟! لقد صار كل شيء عادياً ومألوفاً لدى هؤلاء الحراس خلال حياتهم المخمورة الشاذة الفظيعة، ثم إن زبائنهم الصامتين لم يصدف قط تقريباً أن ظهر لهم أقارب أو معارف يسألون عنهم...

كان المصلّى مكتظاً برائحة الجيف، رائحة كثيفة، سميكة، لزجة إلى حدِّ أن تمارا كان يبدو لها أنها كالغراء تغطي جميع المسام الحية فـي جسمها.

قالت مستفسرة: - اسمع أيها الحارس، ما هذا الذي يطقطق تحت قدمي؟..

- يطقطق؟ - أعاد الحارس السؤال وحكّ قفاه ثم قال بلا مبالاة – هذا، من المؤكد، قمل، دائماً توجد كميات هائلة من هذه الحيوانات على الأموات!... ولكن أنت عمن تبحثين عن رجل أم عن امرأة!...

- عن امرأة.
- وكل هؤلاء يعني، ليسوا جماعتك؟
- لا كلهم أغراب.
- هكذا إذاً! يعني يجب أن نذهب إلى قاعة الأموات، متى جلبوها؟
- السبت، أيها الجد – قالت تمارا وأخرجت جزدانها – السبت نهاراً، خذ، أيها المحترم، ثمن تبغ!..
- هذا تماما! تقولين السبت نهاراً؟ وبأية ملابس؟
- تقريباً لا شيء: بلوزة نوم، وتنورة منزلية... وكذا وكذا من اللوازم الداخلية.
- أيـ... وه!.. يجب أن تكون الرقم المئتين والسابع عشر... ما اسمها؟
- سوسانا رايتسينا.
- سأذهب وأرى، ربما هي هناك. هيه، أنتن يا ممزيلات – قال مخاطباً الفتيات اللواتي كن يتزاحمن ببلادة في المدخل ويحجزن النور – من منكن الأكثر جرأة؟ بما أن هذا هو ثالث يوم من وقت إحضار صاحبتكن إلى هنا، فإنها الآن كما خلقها ربها... أي أنها بدون أي شيء... فمن منكن الأكثر شجاعة؟ أية اثنتين تذهبان معي؟ لأنه يجب إلباسها...
- اذهبي أنت يا مانكا – قالت تمارا آمرة صديقتها التي كان تحملق إلى الأموات بعينينها الفاتحتين، وقد شحب لونها ، وسرى البرد في أوصالها من الرهبة والتقزز – لا تخافي أيتها الحمقاء، أنا سأذهب معك! ومَنْ غيرك يمكن أن تذهب؟!..
- أنا اذهب؟.. أنا اذهب؟... – غمغمت مانكا البيضاء محركة شفتها بصعوبة. لنذهب. لا فرق لدي.

كانت قاعة الموتى تقع في المكان نفسه، خلف المصلى، فـي قبو منخفض مظلم تماماً، يفضي إليه سلم بستّ درجات.
ذهب الحارس ركضاً إلى مكان ما وعاد يحمل بقية شمعة وسجلاً مهترئاً. وعندما أشعل الشمعة شاهدت الفتاتان نحو عشرين جثة ممددة على الأرضية الحجرية مباشرة فـي صفوف منتظمة، كانت الجثة مشدودة، صفراء، وقد اعوجت وجوهها من تشنجات ما قبل الموت، وفتحت جماجمها ، وتخثر الدم على وجوهها، وانكشفت أسنانها.
قال الحارس وهو يمر بأصبعه على الأسطر:
- الآن... الآن... اليوم الثالث، يعني السبت... السبت، ماذا قلت لي كنيتها؟..
أجابته تمارا: - رايتسينا، سوسانا.
- رايـ..تسينا، سوسانا – ردد الحارس بما يشبه الغناء- رايتسينا سوسانا. هي بالضبط مئتان وسبعة عشر.
انحنى فوق الموتى ليميز أرقامهم على ضوء الشمعة التي ساحت وأخذت تتساقط منها القطرات، وراح يتنقل من واحد إلى آخر. ثم توقف أخيراً قرب جثة كتب على قدميها بأرقام سوداء كبيرة: ٢١٧.
- هاهي ذاتها! سأخرجها إلى الممر وأذهب لإحضار أمتعتها... انتظرا!..
أمسك بجينكا من قدميها ورفعها وهو يزحر، ولكنه فعل ذلك بسهولة مدهشة بالقياس إلى سنه، وألقى بالجثة على ظهره موجهاً رأسها إلى الأسفل، وكأنه يحمل حيواناً مذبوحاً، أو كيس بطاطا.
كانت الرؤية فـي الممر أوضح بقليل من الداخل، وعندما وضع الحارس حمله الفظيع على الأرض غطت تمارا وجهها بكفيها لهنيهة، وأدارت مانكا وجهها وشرعت فـي البكاء.

قال الحارس مُرشِداً: - إذا كنتن بحاجة إلى شيء أخبرنني، إذا كنتن ترغبن بتجهيز المرحومة كما يجب فإننا نستطيع إحضار كل مايلزم: ديباج، وإكليل دفن، وإيقونة، وكفن، وشاش، كله موجود عندنا... ويمكن شراء ملابس... وحذاء أيضاً...

أعطته تمارا نقوداً وخرجت إلى الخلاء بعد أن أفسحت الطريق أمامها لمانكا.

وبعد وقت قصير أحضروا إكليلي زهر: واحداً من تمارا يضم نوعين من الأزهار: النجمة والأضاليا، وقد ثبتت عليه شريطة بيضاء كتب عليها بحروف سود: «إلى جينيا – من صديقة»، والآخر من ريزانوف، وقد شُكِّل كله من أزهار حمر، وكتب على شريطته الحمراء بحروف ذهبية: «الألم يطهرنا». كما أرسل هذا بطاقة يعبر فيها بإيجاز عن تعازيه ويعتذر لأنه لن يتمكن من الحضور بسبب انشغاله بلقاء عمل لا يمكن تأجيله. وبعد ذلك وصل المرتلون الخمسة عشر الذين دعتهم تمارا من أفضل جوقة فـي المدينة.

وكان قائد الجوقة، يرتدي معطفاً رمادياً وقبعة رمادية وكل مافيه رمادي وكأنه عُفِّر بالغبار، وله شاربان طويلان مستقيمان كما لدى العسكريين، وقد عرف فيركا فاتسعت عيناه من الدهشة، وارتسمت على وجهه ابتسامة ضعيفة وغمزها بعينه. كان هذا الشخص يزور حي «الحفرة» مرتين أو ثلاثاً فـي الشهر وأحياناً أكثر بصحبة معارفه من الأكاديمية الدينية، أو من قادة جوقات المرتّلين أمثاله، أو مع بعض المرتّلين، واعتاد أن يتفقد جميع المحال التي هناك ثم ينهي جولته دائماً فـي محل آنا ماركوفنا، ولا يختار إلاَّ فيركا.

وكان هذا شخصاً مرحاً خفيف الحركة، يرقص بحيوية وحماسة، ويقوم بحركات بارعة فـي أثناء الرقص تجعل جميع الحاضرين يغربون فـي الضحك.

ووصلت على إثر المرتلين عربة دفن يجرها جوادان كانت تمارا قد اكترتها، وهي سوداء اللون، مزينة بحزم من الريش الأبيض، ومعها خمسة من حملة المشاعل، وقد أحضروا معهم تابوتاً أبيض مجللاً بديباج مطرز، وله قاعدة مغطاة بقماش أسود مصمغ. سجى هؤلاء المتوفاة في التابوت دون تعجل، ببراعة مكتسبة بالمران، وغطوا وجهها بالشاش، وجللوا الجثمان بالديباج، وأشعلوا الشموع: واحدة عند الرأس واثنتين عند القدمين.
وقد أصبح وجه جينكا الآن في ضوء الشموع الأصفر المتماوج يُرى بصورة أوضح، لقد زايلته الزرقة تقريباً ما عدا بعض الأماكن عند الصدغين، وعلى الأنف، وبين العينين، حيث مازالت تبدو هناك على شكل بقع أفعوانية مبرقشة غير منتظمة، وكان بياض أسنانها يلمع بضعف من خلال شفتيها القاتمتين المنفرجتين، ولا يزال طرف لسانها المعضوض بادياً للعيان، ومن فرجة ياقتها المفتوحة كان يظهر على عنقها الذي اتخذ لون الرَّق القديم خطان: أحدهما قاتم، وهو الأثر الذي خلّفه الحبل، والآخر أحمر، وهو أثر الخدش الذي أصيبت به في أثناء الاشتباك مع سيميون، وكانا يشبهان قلادتين مرعبتين، دنت تمارا منها وشبكت بدبوس إنكليزي دانتيلا الياقة عند الذقن تماماً.
جاء رجال الكهنوت: كاهن ضئيل أشيب يضع نظّارات مذهبة، ويعتمر قلنسوة مخملية. وشماس طويل القامة، قليل شعر الرأس، وجهه أصفر قاتم على نحو غريب، ويبدو عليه السقم، كأنه مصنوع من طين مشوي؛ وقندلفت مرتل كثير الحركة، يرتدي جبة طويلة الحاشية. وقد تبادل هذا بحيوية في أثناء سيره إشارات سرية مرحة مع معارفه من المرتلين.

اقتربت تمارا من الكاهن وسألته:
- أبتِ، كيف ستؤدون القداس: للجميع معاً أم لكل واحد على حدة؟
فأجابها وهو يقبل البطرشيل ويخرج لحيته وشعره من فرجته:
- نؤديه للجميع معاً. هذه هي العادة. ولكن بناء على الرغبة الخاصة، وعلى دعوة خاصة يمكن تأديته لشخص بمفرده كذلك، كيف توفيت المرحومة؟
- لقد انتحرت يا أبتِ؟..
- هـ...م انتحرت؟.. هل تعرفين أيتها الصبية أن القوانين الكنسية تمنع الصلاة على المنتحرين... لا تسمح بها؟ طبعاً، تحدث استثناءات، بناءً على التماس خاص.
- معي هنا، يا أبتِ شهادة من الشرطة ومن الطبيب... أنها لم تكن تملك قواها العقلية... كانت في نوبة جنون...
مدت تمارا يدها للكاهن بورقتين كان ريزانوف قد أرسلهما لها قبل التشييع، وفوقهما ثلاث ورقات بنكنوت من فئة العشرة روبلات، وأردفت:
- أرجوك يا أبتِ ، كل شيء كما ينبغي، حسب الشعائر المسيحية، لقد كانت إنسانة رائعة، وعانت كثيراً جداً. كما أرجوك أن تصنع معروفاً وتشيعها إلى المقبرة. وتجنّزها هناك أيضاً.
- التشييع حتى المقبرة ممكن، ولكن في المقبرة نفسها لا يحق لي أداء الجنّاز... فالمقبرة لها كهنتها الخصوصيون... ثم اسمعي أيتها الصبية: بما أنني سأضطر إلى العودة ثانية من أجل الباقين، لذا عليك... أعني... أن تضيفي عشرة أخرى.
وبعد أن تناول النقود من يد تمارا بارك المبخرة التي قدمها له القندلفت، وأخذ يطوف بها حول الجثمان، ثم توقف عند رأس الميتة، ورنّم بصوت وادع متشح بحزن مألوف:

- تبارك الرب إلهنا كل حين، الآن وكل أوان إلى دهر الداهرين!».
وهذرم القندلفت المرتل: «قدوس الله»، و«الثالوث الأقدس»، و«أبانا الذي....»، وكأنه يثيل حمّصاً من فم كيس..
وطفق المرتلون يرنمون بإيقاع سريع عذب وصوت خفيض، وكأنهم يأتمنون أحداً على سر عميق حزين مكنون:
- «أرح نفس أَمَتك مع أرواح الصديقين الراقدين، خلصها، وارحمها، واحفظها للحياة السعيدة التي لديك يا محب البشر»...
وزّع القندلفت الشموع، وراحوا يشعلونها واحدة إثر واحدة، فينبعث منها لهب دافئ، طرين حي، ينساب في الهواء العكر الثقيل، وينير برقة وشفافية وجوه الفتيات.
وانسكب اللحن الشجي بانسجام، وانطلقت الكلمات العظمى كأنها تنهدات ملائكة محزونين:
«أرح يا الله أَمَتك ورَتِّبْها في الفردوس حيث مصاف القديسين مع الصديقين مثل الكواكب يتلألؤون. فهناك أرح يارب أَمَتك الراقدة مُعرِضاً عن جميع زلاتها».
أصغت تمارا إلى الكلمات المعروفة لديها منذ وقت بعيد، والتي مرت مدة طويلة على سماعها لها، وابتسمت بمرارة، راودت ذاكرتها كلمات جينكا المتأججة المجنونة المفعمة باليأس المطبق وعدم الإيمان... هل سيغفر لها الرب الواسع الرحمة والجزيل الرأفة، أم لن يغفر لها حياتها القذرة المتهورة الحقودة الدنسة؟.. يامن تحيط علماً بكل شيء، أيمكن حقاً أن ترفض هذه المتمردة البائسة، والفاسقة المكرَهة، هذه الطفلة المتلفظة بكلمات سوء تمس اسمك المنزه المقدس؟.. إنك الطيبة كلها، وأنت عزاؤنا!...

ارتفع فـي المصلّى صوت بكاء أصم مكتوم، ثم مالبث أن تحول فجأة إلى صراخ: «آه يا جينيتشكا!» كان هذا صوت مانكا البيضاء التي جثت على ركبتيها وأغلقت فمها بمنديل وانفجرت فـي البكاء، وحذت الأخريات حذوها: ركعن على ركبهن وملأن المصلّى بالأنين والنحيب المكبوت والنشيج.
«أنت وحدك الباقي الذي لا يموت، يامن برأت الإنسان وجبلته، فنحن البشر قد خُلقنا من الأرض وإلى الأرض سنذهب كما أمرتَ يا جابلي، وقلت لي: إنك تراب أنت وإلى التراب تعود...».
وقفت تمارا ساكنة بوجه صارم كالمتحجر. كان نور الشمعة يتلألأ فـي شعرها الكستنائي – البرونزي كحلزونات ذهبية رقيقة، ولم تكن تحول عينيها عن جبين جينيا الأصفر الرطب وطرف أنفها اللذين كانت تراهما من مكانها.
«من الأرض خلقنا وإلى الأرض سنذهب...»، - كررت فـي ذهنها كلمات الترنيمة – أيمكن حقاً أنه لن يكون هناك سوى التراب ولا شيء أكثر؟ وماهو الأفضل: اللا شيء أو أي شيء مهما كان، حتى لوكان أسوأ الأشياء، المهم أن يكون ثمة وجود؟».
وكانت الجوقة تقول بيأس وكأنها تؤكد فكرتها وتحرمها من آخر عزاء: «حيث نذهب نحن البشر جميعاً...».
رتّلوا «تذكارك مؤبد» وأطفؤوا الشموع، وامتدت خيوط كحلية فـي الهواء المزرق من البخور، وتلا الكاهن صلاة الحل، وبعد ذلك صمت الجميع وعبأ الكاهن رفشاً صغيراً بالرمل الذي قدمه له القندلفت، وأهاله بشكل صليب على الجثمان فوق الشاش. وقال فـي أثناء ذلك تلك الكلمات العظمى المفعمة بالحتمية الصارمة الحزينة التي يتسم بها القانون الكوني الغامض: «للرب الأرض بكمالها، الدنيا، وكل الساكنين فيها»..

شيّعت الفتيات صديقتهن المتوفاة حتى المقبرة. كان الطريق إلى هناك يتقاطع مع المدخل إلى شارع «الحفرة» ، وكان يمكن الانعطاف إلى اليسار والسير فـي الشارع نفسه، وبهذا يختصر السائر المسافة إلى النصف تقريباً، ولكن الجنازات لم تكن تسير عادة فـي هذا الشارع.

ومع ذلك فقد اندفعت النزيلات من جميع الأبواب إلى منطقة التقاطع بالملابس التي كن فيها: بقمصان النوم، وبالنعال دون جوارب، وقد وضعن مناديل على رؤوسهن، ورحن يرسمن شارة الصليب ويتأوهن ويمسحن دموعهن بمناديلهن وأطراف قمصانهن.

تحسن الطقس... سطعت الشمس الباردة بقوة من السماء الباردة الملتمعة كالمينا الزرقاء، فازدهت الأعشاب الأخيرة بلونها الأخضر، واصطبغت الأوراق الذابلة على الأشجار باللون الوردي والقرمزي.. وسرت فـي الهواء البارد النقي كالبلور بهيبة وجلال وأسى الأصوات المنسجمة التي تردد: «قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، ارحمنا».

وبأيِّ ظمأ حار إلى الحياة لا ينطفئ، وبأي شوق إلى بهجة الوجود وجماله العرضيين الزائلين كالحلم، وبأي شعور بالهول أمام صمت الموت الأبدي ترددت ترنيمة يوحنا الدمشقي القديمة!..

وتلا ذلك صلاة قصيرة لراحة نفس الميتة، وصوت أصم صادر عن ارتطام التراب بغطاء التابوت، وبروز قبر صغير جديد...

- هذه هي النهاية –قالت تمارا لصديقاتها عندما بقين وحدهن – والكل لها يا بنات، إن عاجلاً أو آجلاً!.. أشعر بالأسف لفراق جينكا!.. آه كم أشعر بالأسف! إننا لن نجد مثلها أبداً، ولكن مع ذلك يا بُنياتي هي فـي حفرتها فـي حال أفضل بكثير من حالنا فـي حفرتنا... ايه، التصليب الأخير ونعود إلى البيت.

وفيما كن فـي طريقهن إلى المنزل نطقت تمارا فجأة وهي مستغرقة فـي التفكير بكلمات غريبة تنذر بالشر:
- على كل لن نبقى معاً مدة طويلة بدونها: قريباً ستذرونا الرياح جميعاً إلى حيث لا ندري. الحياة حلوة!.. انظرن: الشمس، والسماء الزرقاء، وهذا الهواء النقي... آه كم هو نقي... وخيوط العنكبوت الطائرة: صيف النسوان[١]. ما أجمل العيش فـي هذا العالم! نحن وحدنا فقط – بنات الهوى – قمامة على أطراف الطرقات.
توجهت الفتيات صوب البيت. وفجأة ظهر من مكان ما جانبي طالب ضخم الجثة، قوي البنية، كان يقف خلف الشواهد. لحق بلوبكا ولمس كمها برفق، فالتفتت وإذا بها تشاهد أمامها سولوفيوف. شحب وجهها فـي الحال، واتسعت حدقتاها، وارتعشت شفتاها، وقالت بصوت خافت ينم على كراهية لا حدود لها:
- ابتعد!...
تمتم سولوفيوف: - لوبا... لوبوتشكا.. لقد كنت أبحث عنك.. كنت أبحث عنك.. أنا، أقسم بالرب، أنا لست مثل ذاك... لست مثل ليخونين.. أنا نيتي صادقة.. فليكن الآن، فليكن اليوم.
ردت عليه لوبكا بصوت أشد خفوتاً:
- ابتعد!..
- أنا بجدّ.. بجدّ... لم آت بحماقات... بل لأتزوجك...

---

[١] أسبوعان أو ثلاثة من الطقس الجاف المشمس الـدافئ بـين أيلـول وتشرين الأول فـي أوربا وأميركا الشمالية (حيث يسـمى الصـيف الهندي). (المترجم).

صاحت لوبكا فجأة:

- آه، أيها الوغد! – ووجهت إليه بسرعة وقوة كقوة الرجال لطمة على خده براحة يدها.

وقف سولوفيوف قليلاً مترنحاً بعض الشيء، كانت عيناه تعبران عن العذاب... وقد بدت على جانبي فمه نصف المفتوح تغضنات تنم على الأسى.

اندفعت لوبكا تصرخ بسعار:

- ابتعد! ابتعد!.. لا أستطيع أن أراكم كلكم! جلادون! خنازير!..

غطّى سولوفيوف فجأة وجهه بكفيه، واستدار بعنف، وانطلق عائداً بخطاً مترنحة كأنه سكران دون أن يحدد وجهته.

أثبتت الوقائع أن تمارا قد صدقت فيما تنبأت به: إذ لميكن قد مضى على دفن جينيا أكثر من أسبوعين حتى تعرض منزل ايما ادواردوفنا لأحداث لم يكن يتعرض لمثلها خلال خمس سنوات كاملة أحياناً.

ففي اليوم التالي مباشرة كان لابد من إرسال باشكا المسكينة التي أصيبت ببلاهة مستحكمة إلى مبرة خاصة – أي إلى مستشفى المجانين. فقد نفى الأطباء أي أمل فـي شفائها من مرضها. وبالفعل فإنها لم تغادر الفراش المحشو بالقش والممدود على الأرض الذي وضعوها عليه فـي المستشفى إلى أن فارقت الحياة، وكانت فـي أثناء ذلك تغوص أكثر فأكثر فـي هوة الجنون الهادئ السوداء التي لا قرار لها. بيد أنها لم تمت إلاَّ بعد مرور نصف عام، وكان ذلك بسبب إصابتها بتقرحات الفراش والإنتان الدموي.

وبعد خروجها من المنزل جاء دور تمارا.

قامت الفتاة بواجباتها كمدبرة نحو نصف شهر، وكانت طوال الوقت تبدي نشاطاً وحيوية غير عاديين، ولكنها كانت متوترة على غير عادتها بسبب شيء ما خاص داخلي كان يمور فـي أعماقها بقوة. وفـي إحدى الأمسيات اختفت ولم تعد إلى المحل أبداً...

وكان السبب فـي ذلك هو أنها كانت قد ارتبطت فـي المدينة بعلاقة غرامية طويلة مع موثق عقود كهل على درجة لا بأس بها من الغنى، ولكنه شديد البخل، وقد جرى التعارف بينهما منذ عام عندما التقيا بالمصادفة على متن باخرة نهرية كانت تقوم برحلة إلى دير فـي الضواحي. وقد سَحَرت تمارا الذكية الجميلة موثق العقود بابتسامتها الفاسقة الغامضة، وحديثها الجذاب، وطريقة تصرفها المتواضعة. وكانت هي كذلك قد وجهت انتباهها إلى هذا الكهل ذي الشعر الأشيب الجميل، والتصرفات المتسمة بأسلوب السادة، هذا المختص بعلم الحقوق سابقاً والمتحدر من أسرة عريقة. لم تصارحه بمهنتها، إذ كان يطيب لها أكثر أن تضلله. وقد اكتفت بالتلميح له بكلمات قليلة إلى أنها سيدة متزوجة من الطبقة الوسطى، وأنها تعسة فـي حياتها العائلية لأن زوجها مقامر ومستبد، وأن القدر نفسه قد قسا عليها وحرمها حتى من التعزي بإنجاب أطفال. وعند الوداع رفضت أن تقضي السهرة معه، ولم توافق على لقياه ثانية، ولكنها بالمقابل سمحت له بأن يراسلها إلى مكتب البريد، على أن تُسلَّم الرسالةُ حين الطلب، وأعطته اسماً مختلقاً، وصارا يتبادلان الرسائل: كان هو يزهو بجمال الأسلوب وحرارة العواطف اللائقة بأبطال بول بورجيه، بينما ظلت هي محتفظة بأسلوبها المتكتم الغامض.

وفيما بعد تأثرت برجاءات موثق العقود هذا وحددت له موعداً للّقاء فـي حديقة كنياجيسكي، وكانت رقيقة وظريفة وعاطفية، ولكنها رفضت أن تذهب معه إلى أي مكان.

وهكذا راحت تعذب عاشقها وتؤجج ببراعة لواعج هواه الأخير، الهوى الذي يكون فـي بعض الأحيان أقوى وأخطر من الحب الأول.

وأخيراً، عندما سافرت أسرته إلى خارج البلاد هذا الصيف، قررت تمارا زيارته فـي شقته، وهناك استسلمت له أول مرة وهي تذرف الدموع، وتعاني من تأنيب الضمير، وفـي الوقت نفسه أظهرت من حرارة الشهوة، ورقة العاطفة ما جعل موثق العقود المسكين يفقد عقله تماماً: فقد انغمس حتى قمة رأسه فـي ذلك الحب الكهولي الذي لا يعرف عقلاً، ولا تفكير في العواقب، ويجبر الإنسان على أن ينسى آخر ما يحرص عليه: وهو الخوف من أن يبدو مضحكاً.
كانت تمارا بخيلة جداً باللقاءات، مما كان يزيد من تحرق صديقها الفارغ الصبر. وكانت توافق على أن تتلقى منه طاقة زهر، وأن تلبي دعوته إلى غداء متواضع فـي مطعم فـي الضواحي، ولكنها كانت ترفض باستنكار أية هدايا ثمينة، وتتصرف ببراعة ودقة تجعلان موثق العقود لا يجرؤ البتة على أن يعرض عليها نقوداً. وعندما حاول مرة أن يلمح إلى تأمين شقة منفردة وغير ذلك من وسائل الراحة نظرت فـي عينيه نظرة ثاقبة مفعمة بالصلف والصرامة جعلته يتضرج بالحمرة كالطفل، وسط شيبه الجميل، ويسارع إلى تقبيل يديها وهو يغمغم بعبارات اعتذار متقطعة.
واستمرت تمارا فـي اللعب معه على هذا المنوال موغلة أكثر فأكثر فـي استقصاء إمكانية ماتنوي الإقدام عليه، لقد أصبحت تعرف الآن فـي أية أيام يحفظ الموثق مبالغ ضخمة من النقود فـي خزانته الحديدية المقاومة للحريق. ولكنها لم تكن تتعجل خشية إفساد الأمر بسبب عدم الإتقان أو التنفيذ قبل الأوان.

وهاهو الموعد المنتظر منذ مدة طويلة قد حان الآن بالذات: فقد انتهت للتو السوق الموسمية التعاقدية الكبيرة، وراحت جميع مكاتب توثيق العقود تبرم يومياً صفقات بمبالغ ضخمة، كانت تمارا تعرف أن الموثق ينقل عادة النقود التي تُدفع كعرابين وسواها إلى المصرف في أيام السبت كي يكون يوم الأحد متحرراً تماماً من أية شواغل. ولهذا وصلته نهار الجمعة رسالة من تمارا تقول له فيها: «حبيبي وملكي المعبود سلمون! حبيبتك سولاميف، فتاتك من كرم العنب، تحييك بقبلات حارة.. حبيبي، اليوم أنا حرة مثلك. فهو قد سافر إلى غوميل لمدة يوم كامل في شغل، وأنا أرغب اليوم في أن أقضي عندك المساء كله والليل كله، آه يا حبيبي! إنني على استعداد لقضاء حياتي كلها راكعة على ركبتي أمامك. لا أريد أن أذهب إلى أي مكان، لقد سئمت منذ وقت طويل حانات وملاهي الضواحي. أريدك أنت، وفقط أنت... أنت... أنت... وحدك! انتظرني مساء يا فرحتي، حوالي الساعة العاشرة – الحادية عشرة! حضّر كثيراً من النبيذ الأبيض البارد، وبطيخة صفراء، وكستناء محلاة بالسكر، إنني أحترق... إنني أموت شوقاً! يخيل إلي أنني سأرهقك! لن أستطيع الانتظار!.. رأسي يدور، ووجهي يلتهب، ويداي باردتان كالجليد. أعانقك. حبيبتك فالنتينا».

في تلك الأمسية ذاتها، نحو الساعة الحادية عشرة وجّهت الحديث بحذق بحيث جعلت موثق العقود يريها خزانته المقاومة للحريق، مستغلة اعتزازه الفريد من نوعه باحتيازه المال، وبعد أن شملت بنظرة سريعة رفوف الخزانة وأدراجها أشاحت بوجهها عنها،

وقالت وهي تتكلف التثاؤب ببراعه:
- تفوه.. ، شيء ممل!
وأحاطت عنق موثق العقود بذراعيها وهمست وهي تقرّب شفتيها من شفتيه حارقة إياه بأنفاسها الحارة:
- اقفل، يا كنزي، هذه القذارة!.. هيا بنا.. هيا بنا!
وخرجت قبله إلى غرفة الطعام، وصاحت من هناك:
- تعال إلى هنا، فولوديا! هيا أسرع! أريد أن أشرب نبيذاً، وبعد ذلك الحب، الحب، الحب دون نهاية!.. لا ! اشربها كلها حتى آخر قطرة! كما سنشرب حبنا اليوم حتى آخر قطرة!..
دق موثق العقود كأسه بكأسها وأفرغ الكأس فـي جوفه دفعة واحدة، ثم تلمظ وقال:
- غريب... النبيذ اليوم كأن فيه بعض المرارة!..
قالت تمارا موافقة وهي تنظر إلى عشيقها بإمعان:
- نعم!.. هذا النوع من النبيذ دائماً يكون فيه بعض المرارة. هذه خصيصة الأنبذة الرينية...
- لكن اليوم مرارته شديدة، لا، شكراً يا حبيبتي... لا أريد المزيد!
بعد خمس دقائق غفا وهو جالس على الكنبة ملقياً برأسه على مسندها الخلفي، ومرخياً فكه السفلي، انتظرت تمارا بعض الوقت، ثم أخذت توقظه، فلم يتحرك البتة، عندئذٍ تناولت شمعة مشتعلة ووضعتها على حافة النافذة المطلة الشارع، وخرجت إلى ردهة المدخل، وأصاخت إلى أن سمعت وقع خُطاً خفيفة تصعد الدرج، فتحت الباب دون صوت تقريباً وأدخلت سينكا الذي كان يرتدي ملابس سيد حقيقي ويحمل بيده حقيبة سفر جلدية جديدة.

سأل اللص همساً: كل شيء جاهز؟
فأجابته بصوت منخفض أيضاً: - إنه نائم، احذر، هاك المفاتيح.
دخلا غرفة المكتب معاً واتجها إلى الخزانة. فحص سينكا القفل مستعيناً بمصباح جيب، وأطلق شتيمة بصوت خافت:
- فليأخذه الشيطان، هذا الحيوان العجوز؟!... القفل له آلية سرية كما توقعت. فتحه يتطلب معرفة الحروف.. سنضطر إلى صهره بالكهرباء، والشيطان يعرف كم يستغرق هذا الوقت. اعترضت تمارا قائلة بسرعة:
- لا لزوم لهذا، أنا أعرف الكلمة... لحظتها خلسة، جمّع كلمة زينيت بدون إشارة القساوة[1].
بعد عشر دقائق هبطا الدرج وسارا عمداً بخطوط متكسرة عبر عدة شوارع، وعندما وصلا إلى المدينة القديمة اكتريا عربة إلى محطة القطار، وغادرا المدينة ببطاقات شخصية لا غبار عليها تشهد أنهما مَلاّك أراضٍ وزوجته من آل ستافينتسكي النبلاء. ومرت مدة طويلة لم يُسمع عنهما خلالها أي شيء، إلى أن اعتقل سينكا بعد نحو عام في موسكو متهماً بسرقة كبيرة، ووشى بتمارا في أثناء الاستجواب، حاكموهما كليهما وحكموا عليهما بالسجن.
وبعد تمارا جاء دور فيركا الساذجة التي تصدق كل مايقال لها وتقع في الحب بسرعة، كانت قد أُغرمت منذ مدة طويلة بشخص شبه عسكري يقول عن نفسه إنه موظف مدني في مؤسسة عسكرية، ويعرف بكنية ديليكتورسكي. وكانت فيركا في العلاقة الثنائية بينهما هي الطرف المُولّه العابد، أما هو فكان كالوثن المهيب الذي يتقبل بتفضل منه شعائر التقديس والهبات المنذورة.

---

[1] إشارة في الأبجدية الروسية ليس لها صوت ولكنها تؤثر في أصوات الحروف التي تسبقها.

كانت فيركا قد لاحظت منذ نهاية الصيف أن حبيبها ما ينفك يزداد بروداً نحوها وأن اهتمامه بها يضعف أكثر فأكثر، وأنه عندما يكلمها يكون شارداً بأفكاره فـي مكان ما بعيد بعيد... وكانت تتعذب وتغار، وتستفسر، ولكنها كانت تتلقى دائماً أجوبة غير محددة، وتلميحات مشؤومة تنذر بوقوع مصيبة قريبة، وبموت قبل الأوان...

وفـي بداية أيلول اعترف أخيراً بأنه بدد مبلغاً كبيراً من أموال الدولة يقارب ثلاثة آلاف روبل، وأنه سيتعرض للتفتيش بعد نحو خمسة أيام، وأنه، هو ديليكتورسكي ، مهدد بوصمه بالعار، وتقديمه للمحاكمة، وينتظره فـي النهاية سجن الاشغال الشاقة... وهنا انفجر الموظف المدني فـي المؤسسة العسكرية منتحباً، وأمسك رأسه بيديه وصرخ: - آه! يا أمي المسكينة!... ما الذي سيحدث لها؟ إنها لن تحتمل هذا الإذلال.. لا! الموت أفضل مئة ألف مرة من الآلام الجهنمية التي سيعانيها إنسان لم يقترب أي ذنب.

ومع أنه كان يتكلم، كشأنه دائماً، بأسلوب الروايات الرخيصة (وكان هذا هو السبب الرئيس الذي يجعل فيركا الساذجة شديدة الإعجاب به) إلاَّ أن الفكرة المسرحية عن الانتحار التي خطرت له ذات مرة عرضاً لم تعد تفارقه.

وذات نهار قضى وقتاً طويلاً يتنزه مع فيركا فـي حديقة كنيا جيسكي، وكان هذا المنتزه العريق الرائع الذي يقفز فـي الخريف يتلألأ ويموج بمختلف تدرجات الألوان الزاهية التي تصطبغ بها أوراق الشجر: من القرمزي والأرجواني إلى البرتقالي والليمونـي، إلى الكرزي الغامق الذي يشبه لون النبيذ المعتق الرائق، وكان يبدو أن الهواء البارد يتفاوح بأريج ذكي كطيب الخمرة النفيسة. ومع ذلك فإن بصمة الموت الدقيقة كانت تلوح فـي الجو، ورائحته الرقيقة كانت تفوح من الشجيرات والأعشاب والأشجار.

ترقق ديليكتورسكي، وأبدى التأثر والإشفاق على نفسه وشرع في البكاء، وبكت فيركا معه، ثم قال أخيراً بعد لأي:
- اليوم سأقتل نفسي!
عزيزي .. لا تقل هذا! ذهبي الغالي، لا تقل هذا!..
ردد ديليكتورسكي بتجهم: - لا يمكن ، النقود اللعينة! ماهو الثمن: الشرف أم الحياة؟!..
- أيها الغالي...
- لا تتكلمي، لا تتكلمي يا أنيتا(كان ، لسبب ما، يفضل اسم أنيتا الأرستقراطي الذي سماها هو به على اسم فيركا البسيط)، لا تتكلمي، هذا قرار نهائي!..
هتفت فيركا بحسرة: -آه، ليتني كنت أستطيع مساعدتك!.. كنت فديتك بحياتي!... بكل قطرة من دمي!..
قال ديليكتورسكي باكتئاب تمثيلي وهو يهز رأسه:
- وما قيمة الحياة؟! وداعاً يا أنيتا!.. وداعاً!...
فقالت الفتاة وهي تهز رأسها بيأس:
- لا أريد!.. لا أريد!.. لا أريد!.. خذني أنا أيضاً! .. خذني معك!...
في ساعة متأخرة من مساء ذاك اليوم حجز ديليكتورسكي غرفة في فندق غالٍ. كان يعرف أنه بعد بضع ساعات، وربما دقائق، سيكون هو وفيركا جثتين هامدتين، ولذلك فقد اندفع يتصرف عن سعة، كشخص اعتاد بالأصالة إقامة المآدب الصاخبة، مع أنه لم يكن يملك في جيبه سوى أحد عشر كوبيكاً فقط لا غير: طلب حساء من سمك الحفش الفاخر، وشناقب وفاكهة، وبالإضافة إلى ذلك قهوة وليكيوراً وزجاجتين من الشمبانيا المثلجة

وكان مقتنعاً فعلاً بأنه سيطلق النار على نفسه، ولكنه كان يفكر فـي هذا بنوع من التكلف التمثيلي وكأنه كان يتمتع بالنظر من جانب إلى دوره التراجيدي، ويتلذذ سلفاً باليأس الذي سيتملك أقاربه، وبالدهشة التي ستستولي على زملائه فـي الوظيفة. أما فيركا، فمنذ اللحظة التي قالت فيها على حين غرة إنها ستقدم على الانتحار مع حبيبها، تشبثت على الفور بهذه الفكرة، ولم تكن تجد أي شيء مخيف فـي الموت الآتي: «ولِمَ لا، أليس هذا أفضل من أن أفطس تحت السياج؟! إنني هنا أموت مع الحبيب! إنه على الأقل موت لذيذ!...»، وقد راحت تقبل عشيقها الموظف بعنف وتضحك، وكانت تبدو بشعرها الجعد المشعث، وعينيها المتألقتين أجمل منها فـي أي وقت مضى.

وحلّت فـي النهاية اللحظة المهيبة الأخيرة. قال ديليكتورسكي:

- لقد استمتعنا معاً يا أنيتا... وشربنا الكأس حتى الثمالة. والآن، كما يقول بوشكين، علينا أن نحطم قدحنا! ألست نادمة يا غاليتي؟

- لا.. لا!..

- هل أنت مستعدة؟

- نعم!

همست الفتاة وابتسمت.

- إذاً، استديري نحو الجدار وأغمضي عينيك!..

- لا، لا يا حبيبي، لا أريد هكذا، لا أريد! تعال إلي! نعم هكذا! اقترب أكثر، أكثر! ... اعطني ع ينيك: أريد أن أنظر إليهما. أعطني شفتيك: أريد أن أقبلك، وأنت... أنا لا أخاف!.. ... تجرأ!.. قبلني بقوة أكبر!..

قتلها.. ،عندما نظر إلى فعلته الفظيعة شعر فجأة بخوف شنيع، مقزز، خسيس، كان جسد فيركا شبه العاري لا يزال يختلج على السرير، تقصف قدما ديليكتورسكي من الرعب، بيد أن ذهنه، ذهن المتظاهر والجبان والوغد ظل يقظا

وقد وجد فـي نفسه ما يكفي من الشجاعة ليشد الجلد فـي جنبه فوق الأضلاع ويطلق عليه النار فيخترقه. وفيما كان يسقط على الأرض صارخاً بعنف من الألم والخوف ودويّ الطلقة، سرت فـي جسد فيركا الاختلاجة الأخيرة.
وبعد أسبوعين من موت فيركا ماتت الفتاة الساذجة الضحوك الوديعة، مثيرة الفضائح، مانكا البيضاء، ففي أثناء أحد الاشتباكات العامة الصاخبة المألوفة في «الحفرة» ، وخلال عراك كبير ضربها أحدهم على رأسها بزجاجة فارغة ثقيلة فقتلها، وظل القاتل مجهولاً.
بهذه السرعة توالت الأحداث في «الحفرة» في منزل ايما ادواردوفنا ، ولم تنج أي من نزيلاته تقريباً من المصير الدموي، أو من فضيحة قذرة أو مخزية.
وكانت المصيبة الأخيرة، وهي الأضخم والأكثر دموية فـي الوقت نفسه، أعمال التدمير التي ارتكبها الجنود فـي حي «الحفرة».
فقد غشّوا فـي محل الروبل جنديين من سلاح الفرسان فـي الحساب، وضربوهما وألقوا بهما فـي الشارع ليلاً. وعاد هذان محطمين مضرجين بالدماء إلى ثكنتهما حيث كان زملاؤهما يكملون احتفالهم بعيد فوجهم الذي كانوا قد بدؤوا به منذ الصباح، وماهو إلاَّ نصف ساعة حتى كان مئة جندي يقتحمون حي «الحفرة» ويدمرونه بيتاً بيتاً، وانضم إليهم جمهور غفير من المتشردين والرعاع والحفاة والنصابين والمتطفلين على المومسات الذين تراكضوا من هنا وهناك. كسروا الزجاج، وحطموا أجهزة البيانو فـي جميع المنازل، ومزقوا الفرش وألقوا بالزغب المحشوة به فـي الشارع، وظل هذا الزغب مدة طويلة فيما بعد – نحو يمين – يطير ويحوم فوق حي «الحفرة» كندف الثلج. وطردوا الفتيات حاسرات الرؤوس وعاريات تماماً إلى الشارع.

وضربوا ثلاثة حجّاب حتى الموت. وبعثروا ووسخوا ومزقوا إلى نتف كل أثاث تريبيل المنجّد بالحرير والمخمل المزأبر. وحطموا، بالمناسبة، كل الحانات ومشارب البيرة المجاورة.

واستمرت هذه المعركة الدموية المخمورة البشعة نحو ثلاث ساعات، إلى أن تمكنت ، أخيراً، قطعات الجيش المكلّفة وفوج الإطفاء من التضييق على الجمهور الهائج ورده وتفريقه. وقد أُضرمت النار فـي محلين من محال نصف الروبل، بيد أن الحريق أطفئ بسرعة، ثم عادت الاضطرابات فاندلعت فـي اليوم التالي، ولكنها فـي هذه المرة شملت المدينة كلها وامتدت إلى الضواحي، واتخذتِ على غير توقع البتة طابع الهجوم الدموي على اليهود. وقد استمرت هذه المجزرة ، بكل ما تنطوي عليه من فظائع وكوارث، نحو ثلاثة أيام.

وبعد أسبوع صدر أمر عن المحافظ يقضي بإغلاق «بيوت التسامح» فوراً، سواء فـي حي «الحفرة» أو فـي شوارع المدينة الأخرى؛ وأعطيت صاحبات المحلات مهلة أسبوع واحد فقط لتسوية شؤون ملكيتهن.

وقد عمدت صاحبات المحال الهرمات الذابلات المحطمات المكبوتات المنهوبات اللواتي فقدن كل جاذبية عظمتهن السابقة، وغدون مضحكات وبائسات، والمدبرات ذوات الوجوه الشحيمة والأصوات المبحوحة الصافرة، إلى حزم أمتعتهن على عجل، وبعد شهر لم يعد من شيء يذكر بشارع «الحفرة» المرح، وبحي «الحفرة» الصاخب المليء بالفضائح والفظائع سوى الاسم فقط.

وحتى اسم الشارع سرعان ما استبدل به اسم آخر أكثر احتشاماً لمحو ذكرى الأزمنة الماجنة الماضية من الأذهان.

أما كل أولئك الهنربيتات – الأفراس، والكاتكات السمان، والليلكات – الظِربانات، وسواهن من النساء الساذجات الغبيات دائماً، والمثيرات لِلعطف المسليات غالباً، والطفلات المخدوعات المغرر بهن فـي معظم الحالات، فقد تشتتن فـي المدينة الكبيرة، وذبن فيها؛ وتشكلت منهن شريحة اجتماعية جديدة – شريحة الموسات المنفردات المتجولات فـي الشوارع.

وعن حياتهن البائسة والفارغة من المعنى كتلك، ولكن المتسمة باهتمام وعادات أخرى سيتحدث يوماً ما كابت هذه القصة التي يهديها، رغم كل شيء، إلى الناشئة والأمهات.

- انتهت الرواية -